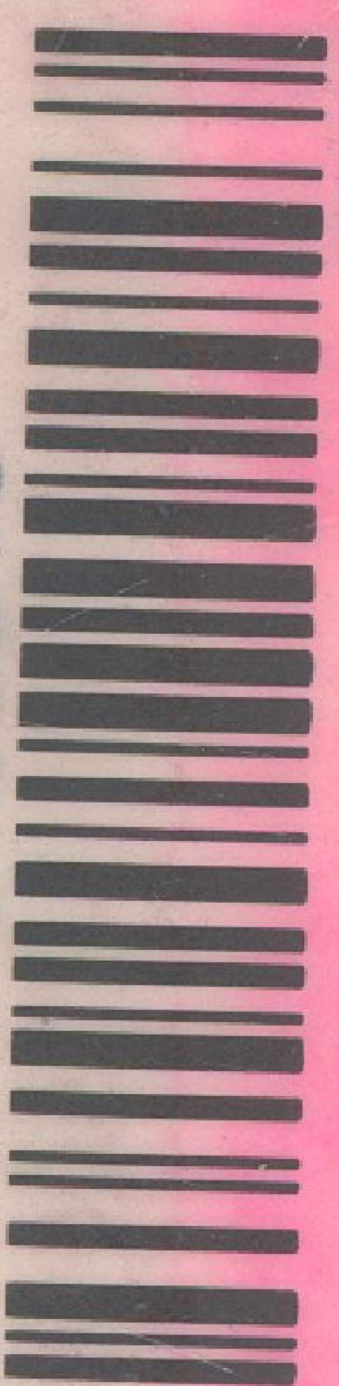



اقرأ

أمين الريحاني

سجل التوبة

دار المعارف بمصر

سِجِلّ التَّوبَة

أمين الريحاني

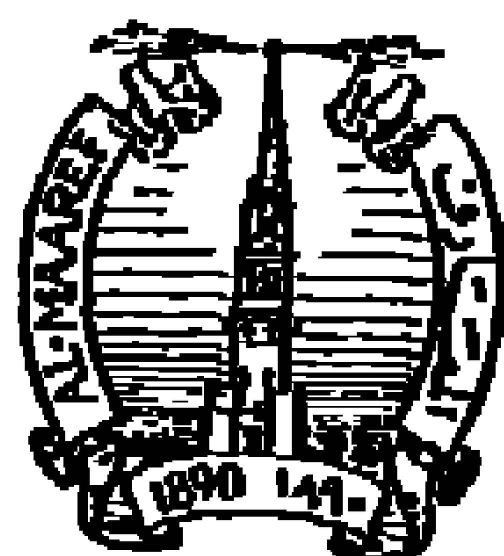
سجل التوبة

١٠٦

اقرأ

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٠٦ — نوفمبر سنة ١٩٥١



٥

شريف أفندى

شاهدته على الرصيف وهو يقصد إلى إحدى شركات البواخر ليبتاع تذكرة للسفر إلى مصر . وكدت أنكره مع أنى اجتمعت به مراراً بباريس . إلا أنه كان يلبس الطربوش هناك ، وقد اعتاض الآن عنه ببرنيطة من الجوخ اللين شدها فوق حاجبيه ، وأخفى ناظريه بنظارات زرقاء كبيرة حتى كاد يبدو مقنعاً ، ولكن عذوبة الصوت التى يمتاز بها أشراف الترك نمت عليه .

كان اجتماعنا الأخير منذ عام بباريس . وقد جلسنا حول مائدة فى قهوة « يدش » نتحدث عن الانقلاب العثمانى فشيدنا دولا من الخيال ، وبنينا قصوراً فى الهواء . وكان هو يشرح نظرياته منفعلا ! وقد أناط كبير آماله بالثورة ، فاتخذ منها الأساس لأمة تركية جديدة ، شديدة البأس ، حديثة الأسباب فى المدنية والعمران لها من سالف مجدها ونشاط أبنائها اليوم ، ما يمكنها من استرجاع منزلتها الرفيعة بين الأمم العظيمة الراقية .

وقد أطلعنى يومئذ على برقية جاءته من بعض أصحابه فى الآستانة يطلبون منه العودة إليها . فغادر عاصمة الفرنسيس ميمماً عاصمة بلاده ، وقاعدة مجد أجداده . وقلد بُعيد وصوله وظيفة عالية فى الدولة فبرهن فيها على صدق الوطنية والاعتدال . إلا أن أعماله ذهبت سدى لأن جنود دول البلقان كانت يومئذ على أبواب الآستانة ، وكان الخلل مستعصياً فى العاصمة بل كانت الفوضى ضاربة فيها أطنابها فاستقال وعاد إلى بلاد الغربة وهو لا يزال يرجو الخير من نهضة الاتحاديين .

وها هوذا فى الآستانة ثانية . وكأنى به قد أعاد الكرة فى سبيل أحلامه الوطنية فأخفق ثانيةً سعيُه ، بل قضى على آماله كلها ، فبات واليأس يبارى فى نفسه الاضطراب .

أجل ، قد رد سلامى والاضطراب أظهر ما بدا فى ملامحه . ولو لم يكن فى خطر معجل عليه لما جاء بنفسه إلى « غلطا » ، وقد تنكر بالبرنيطة والنظارات ، وهو مصمم على السفر إلى بلاد بعيدة باسم منتحل .

ولما كان بيننا صلة ولاء عقدناها منذ عام بباريس دعوته لفنجان من القهوة فى إحدى المقاهى الكثيرة على الرصيف ، فأجاب قائلا : « لست بمأمن هنا ، ولأعدائى آذان فى كل مكان ، على أنى أقبل الدعوة ، وأنا مشتاق إليك وإلى حديثك ،

إذا أنت تبعتنى » .

قال هذا ومشى أمامى فى دهليز ضيق مدلهم إلى حانوت فى منعطفاته فوقف هناك مبتسما وقال : « فى هذه المكتبة صديقى الوفى الوحيد فى الآستانة . وسأعرفك إليه » .

دخلنا فإذا نحن فى مكتبة صغيرة لرجل طاعن فى السن ، أبيض اللحية ، أزرق العينين ، ناصع الجبين بادر إلينا مبتهلا حين شاهد مولاه الأمير عز الدين وقد حاول أن يقبل يده فسحبها الأمير معتذراً .

هو شريف أفندى الكتبي المعروف فى « غلطا » والشاعر المعروف فى الآستانة ، يبيع الكتب للارتزاق وينظم الشعر للتفريج . دخل بنا إلى غرفة وراء المكتبة ، فيها ديوان نظيف ، ولها نافذة تشرف على صف من المطاعم الحقيرة التى يكثر فيها الشواء والتى يؤمها طائفة من العمال فى حى غلطا كل ظهر وكل مساء.

ومن تلك المطاعم مطعم قريب من الغرفة التى نحن فيها ، فتخال نفسك فيه من روائح شواء تتنشقها ، ومن أحاديث حول الموائد تسمعها . وقد لفت نظرى ، بين جماعة هناك ، رجل أنيق البزة ، بهى الطلعة ، يستغرب وجوده فى ذاك المكان . وقد كان جالساً إلى مائدة قريبة من الشباك المطل على الغرفة التى نحن فيها .

وما كان شريف أفندى بمبطئ فى « التشريفات » ، فما كدنا نخرج من مقدمات الحديث ، بعد جلوسنا على الديوان حتى أظلمت النافذة ، وإذا هناك خارجها رجل أسود عمليق يحمل النرجيلة بإحدى يديه والقهوة باليد الأخرى ، فتناولهما شريف أفندى من النافذة ، وقدم النارجيلة للأمير ثم القهوة له ولى . أما القهوة فأحسن ما شربت فى الشرق . وأما النارجيلة فكأنها من أحد قصور آل عثمان ، لا من مقهاية من مقاهى غلطا المشرشرة . وهاكم الأمر العجيب فى ما يتعلق « بكيف الأتراك » فنارجيلة العامل ونارجيلة الأمير واحدة . وقلما يتغير فى القهوة غير الفنجان إن كان فى غلطا أو فى بيرا .

قال الأمير بعد افتتاح الحديث : هى مشيئة الله . أنا اليوم راحل ، وسيرحل غداً البادشاه . نعم ، كلنا راحلون عاجلا أو آجلا . . . تركيا الجديدة ؟ تركيا الفتاة ؟ هو حلم لا يقظة بعده . ولماذا ؟ لأنه حلم حلمه السيف لا العقل والحكمة .

فتطرق إلى أولى الأمر فى الآستانة خصوصاً ، زعماء الاتحاديين ، وشرع يفند أغلاطهم ، وينتقد أعمالهم إلى أن قال : وليس فى من فوقهم الكفاية ولا أمل إلا فى من دونهم — فى الشعب . نعم يا صاح . إن نوابغ الرجال فى تاريخ الأمم نشأوا من الطبقة الثالثة — من الحضيض . نبغوا فى من حملوا

أعباء الظلم قروناً من الزمن . وسيقوم فى بلادنا أناس من هذه الطبقة التى كانت مستعبدة — سينقذ الأمة نوابغ من أبنائها العامة ، لا من الخاصة — لا من الأعيان — ولا من الطبقة الوسطى . أما نحن أعيان الترك فإثمنا على رؤوسنا . وليس فى رؤوسنا القوة والحكمة لإنقاذ الأمة .

وبينما كان الأمير يتكلم كان شريف أفندى مصغياً كل الإصغاء وهو يمشط بأنامله لحيته البيضاء . ويهز برأسه مؤمناً مستحسناً . إلا أنه ، وقد حانت منه التفاتة ، رأى فى النافذة ما أدهشه — رأى أن الرجل الأنيق البزة ، البهى الطلعة ، الذى كان يتناول الطعام إلى المائدة القريبة من غرفتنا ، قد مال بأذنه إلى الحديث يلتقط ما وصل منه إليه . فنهض شريف أفندى فى الحال وهمس كلمة فى أذن الأمير عز الدين ، فتوقف عن الكلام وقام يودعنى معتذراً .

خرج من المكتبة مسرعاً وخرج شريف أفندى معه بعد أن سألنى أن أبقى فى المكتبة وقال إنه سيعود فى الحال .

أعجب لهؤلاء الشرقيين الذين لا ينسون الواجبات ، ولا يتنازلون عن المجاملات ، حتى فى أشد الأوقات عسراً ، وفى أقرب الساعات خطراً .

خرج شريف أفندى يشيع سيده الأمير ، وعاد بعد قليل

يصحبه رجل آخر . جلس مكان الأمير وتناول النارجيلة فشرع يدخن ، دون مقدمة ودون سلام ، وهو هادئ البال مطمئن . ثم نظر إلىّ نظر الجليس الأليف وقال يستأنف الحديث :

هذا ما يقوله أعداؤنا يا أفندى . هذه هى التهم التى يتهمون بها زعماءنا كبار الاتحاديين . وطفق يدافع عن الحكومة الاتحادية وعن الجمعية . فقطع شريف أفندى الحديث عليه قائلا بصوت عال ليسمع الجاسوس فى الخارج ، فى ذلك المطعم :

— هى الحقيقة بعينها . وقد أصاب جواد بك . إى والله ، أصاب كبد الحقيقة .

أدهشنى وحيرنى هذا الانقلاب فى جلستنا وما اهتديت إلى كلمة أقولها لشدة استغرابى بما رأيت وبما سمعت .

استطرد الرجل الكلام مدافعاً عن الاتحاديين مطرياً سياستهم ، وشريف أفندى يؤمن له بـ « إى والله ، وتمام تمام » حتى ظهر فى الباب ثلاثة رجال : شرطيان ورجل فى ثوب مدنى . دخل الرجل وبقى الشرطيان عند الباب وكان جواد بك مستمراً فى حديثه كأنه لم ير أحداً .

وعندما بادر شريف أفندى إلى استقبال الرجل وقف جواد بك ووقفت ، فلم يكترث الداخل علينا بل أجال فى الغرفة

الصغيرة نظره وسأل شريف أفندى قائلا :

ــ أين الأمير عز الدين ؟

فقال شريف أفندى : أعرف الأمير عز الدين بالاسم ، ولكنى لم أره قط فى حياتى .

البوليس السرى : بل كان هنا منذ دقائق قليلة .

ــ والنبى ، ما كان هنا . وهؤلاء الأفاضل يشهدون على ما أقول .

ــ عار على مثلك ، وهو قريب من يوم الحساب ، أن يقسم بالنبى كاذباً .

ــ بل عار على مثلك أن يهين مثلى . اسمع يا أفندى وثق بما أقول . لم يدخل الأمير عز الدين هذه المكتبة قط . وماذا عساه يريد هنا . ما الذى يجىء به إلى مثل هذا المكان الحقير بغلطا ؟ لم أر الأمير . أقسم بالنبى ثانية وعساك أن تحترم يمينى .

وفى تلك الآونة دخل الرجل الأنيق البزة البهى الطلعة الذى رآه شريف أفندى فى المطعم المجاور لمكتبته وقال :

ــ أولا تعرفنى أنا يا شريف أفندى ؟

ــ ومن لا يعرف سموك يا مولاى ؟ رأيتك مرة تجتاز بعربتك الجسر فسألت الله أن يعزك ويحميك وقلت فى نفسى : هوذا زين الأمراء . أما الآن فماذا عسانى أقول وقد رأيتك فى هذا

المطعم تتناول الطعام مع الرعاع ؟ فقد طار قلبي جزعاً . . .
وقد تكون سمعت جواد بك يقص على الأفندى قصة أعداء الاتحاديين ويدحض حججهم . مدافعاً عن الحزب وعن الحكومة . ولا ريب أنك ، وقد سمعت ذلك . تشهد أمام هذا الرجل . . .

فقطع الأمير الحديث عليه قائلا : ظننت أنى سمعت صوت أخى لا صوت سواه .

وخرج كما دخل دون أن يسلم على أحد . فتبعه البوليس السرى والشرطيان .

فتنفست الصعداء وحمدت الله . وخرج جراد بك كما دخل هادئ البال مطمئناً ، دون أن يقول كلمة واحدة فى الدور الذى مثله ذلك التمثيل المحكم . أما شريف أفندى فجلس على الديوان يمشط لحيته بأنامله. ويبتسم ابتسامة السخرية والازدراء، ثم قال كأنه يخاطب نفسه :

— الأخ على أخيه ، والابن على أبيه . هذى هى ثمارك أيتها الحكومة الاتحادية ، وهذا هو خيرك أيها الدستور !

ثم نظر إلىّ فقال بلهجة العطف والاعتذار :

وكيف أخلص مولاى الأمير ؟ ألا يجوز الكذب يا أفندى فى مثل هذه الحال ؟ إنى أفدى مولاى وأعز الناس إلىّ

١٣

بدمى ، فكيف لا أخلصه بلسانى ، وبحيلة لا تضر أحداً ؟ أما الآن فعلىّ بخلاص نفسى . سيعود هؤلاء الذئاب ، سيعودون ولا شك ليفترسونى . سيفتشون مكتبى ، سيحجزون أوراقى .

قال هذا وبادر إلى خزانة فيها أوراق عزيزة جداً لديه . كيف لا وفى تلك الصفحات نبضات قلبه ولآلىء دموعه وأنين حبه ، وصيحات إخلاصه لوطنه وزماجر نقمته . هى قصائده. تناولها بيديه ومسح بها عينيه ثم قبلها قبلة الوداع ، وأشعلها بعود من الكبريت قائلا :

كما تلتهمك النار الآن لتلتهم نار الجحيم أعداء أمتى أجمعين .

نبوخذنصر

حكى أن نبوخذنصر ملك بابل كان ذات يوم يتمشى في جنينة القصر وعدوّه الأكبر ، ذلك الذى يدعى فى لغات الناس الغضب . فالغضب ونبوخذنصر وحدهما وطِئَا تلك الليلة ثرى البستان . مثّلْ لنفسك الملك العابس فى بستانه الضاحك وقل لى فيما إذا كان مشهد الأضداد لا يثير الشجون . هاك نبوخذنصر بين السنط والنخيل ساكناً متبسلا بل قلقاً مضطرباً يحسب نفحات الورد ناراً ، ونسمات الليل إعصاراً . إن كل شىء فى السماء ساكن ، باهر ، جميل ، وإن كل شىء على الأرض — فى قلب الملك — مظلم ، مضطرب .

والسبب فى ذلك قصة سأقصها عليك حدثت فى بابل قبل الميلاد بنحو سبعمئة سنة .

خرج نبوخذنصر ذات يوم إلى الصيد ، فركب كعادته قارباً فخماً على شاطئ نهر الفرات تصحبه حاشيته وكلابه . وبعد قليل ، بينما كان القارب يمخر مياه ذلك النهر المجيد قديماً الحقير اليوم ، رأى الملك أسداً مضطجعاً على الشاطئ

بين القصب ، فأمر الصيادين بأن يرسلوا عليه الكلاب ، فأفلتت من سلاسلها فسبحت إلى البر . إلى عرين الأسد . وكانت وقعة بين هذه الكلاب وملك الغاب ، ثم رأى الملك الفريسة تجر فى النهر إلى القارب الملكى . جرتها الكلاب المنتصرة ، وقد تركت وراءها أثراً من الدم. وإذا أجيزت لنا المبالغة نقول استحالت المياه دماً من جروح الأسد المأسور . وإذا أذن الشعراء نقول قد تكوّن من دم الأسد بين الأمواج الزرقاء بحيرات من الياقوت المذاب .

كل هذا جميل . وكل هذا يسر الملك فى غير هذا اليوم . أما اليوم فلا شىء فى العالم يبدد غيمة الغضب التى تعلو جبينه . لا شىء فى العالم يعيد إلى صدره الراحة والسكينة .

إن شيئاً صغيراً أغضب نبوخذنصر ، وقلما تغضب الكبائر الملوك . أما إذا غضب نبوخذنصر فليغضب لغضبه الوزراء ، وتضطرب الأمة . . . اللهم عونك ، اللهم سترك . أزل اللهم هواجس مليكنا وهمومه ، واصرف عنا وعنه شر عواقبها . تشاور الوزراء وابتهلت الأمة .

أما نبوخذنصر فلما عاد ذاك اليوم من الصيد دخل غرفته الخصوصية هو وعدوه الغضوب ، ورمى بنفسه على مضطجع فخم مفروش بالطنافس الهندية ، والجلود المرقطة ، وحشايا

الريش والحرير .

وبعد هنيهة جاء الخدم بالطعام فحاولوا فتح شهوته بلذيذ الألوان وأنواعها . وقد وضعت فى أطباق من الفضة على مائدة كبيرة من الرخام .

وها قد جاؤوا بالتين والعنب والليمون ، وبضروب من الحلوى ، يعقبهم الساقى بمسك الختام ، بخمر أرمنى معتق لا ند له فى غير قصر الملك .

جلس نبوخذنصر إلى المائدة والنفس منه فى هواجس تضيع عندها الشهوة للطعام . نظر إلى المائدة نظرة الاشمئزاز . ثم رمق الخمر بنظرة العطف والولاء . فأكل قليلا ، وشرب كثيراً ، ثم انطرح على ديوان النشوة تحت ستار الرقاد .

فهل يا ترى ينقذه النوم من براثن الهواجس والغضب ؟ هلا تشمله وهو نائم تلك السكينة التى تشمل أحقر النيام من العباد؟

خذ الجواب من الخدم والعبيد . اسمعهم وهم يتكلمون . لا راحة له فى اليقظة ولا فى المنام . هوذا فى عالم الأحلام يجهش ويئن . إنها لأحلام مخيفة . تراه يئن منها ويصيح . تراه يرغى ويزبد كأنه على العرش .

نعم ، إن نبوخذنصر لفى عالم الأحلام . وما حلمه ظاهراً بأمر خطير . هو يحلم بشاب فلاح ذبح الفتاة التى أحبها ،

ذبحها لينقذها من ثالث غير كريم .هو يحلم ببالادان الذى ذبح معشوقته زبيبة لينقذها من الملك نبوخذنصر الذى أمر بأن تكون من نساء القصر ، وبعث بخصيانه ليجيئوا بها إليه.

ولما أفاق نبوخذنصر من رقاده كانت الشمس قد مالت إلى المغيب ، وأذيالها تفيض على الأفق نوراً ذهبياً يوشى الضباب اللازوردى ، ويحيط بالاثنين هنا وهناك خطوط حمراء من النار . فنهض من مضجعه وصعد على أجنحة هواجسه إلى شرفة عالية يطل منها على المدينة — على بابل العظيمة — وما فيها من القصور الشاهقة ، والمعابد الفخمة ، والجنائن المعلقة ، ومن التماثيل والجسور والأبراج.

أطل نبوخذنصر على بابل — على بابله — وهتف قائلا : ومن يتجاسر أن يغيظ سيدك الأكبر ؟

ثم طوق الشرفة بنظرة من نظراته الملتهبة فشاهد هناك الورد والياسمين والفل والمنثور نامية زاهرة فى أفخر الآنية وأجملها . فتنشق من روائحها المنعشة ، ولكنه لم ينتعش . ثم نظر إلى السماء فتجلى له البدر من وراء غيمة فضية الحواشى ، فأنار الأرض وما فيها ، وما أنار وجه الملك .

وكان بالقرب من هذه الشرفة قاعة كبيرة معدة للرقص والطرب ، تجىء الغيد بإشارة من الملك فيرقصن فيها رافلات

بأثواب مهلهلة ، ويضربن على الأعواد والطنابير ، فيحولن القصر إلى جنة لم يحلم بها غير نبى واحد من الأنبياء .

ولكن قلب الملك ذى الليلة فى عالم لايعرف النور والسرور . ولا محل فيه لبابل ، ولقيان بابل . ولجنائن وعرصات بابل . لا محل فيه للقمر ولا مكان فيه لزهرة من الياسمين .

ها كه فى شرفته يحترق من غيظه ، كأنه يقول متسائلا : « متى ينتهى العالم الذى وجدت فيه مكدراً » ؟

وقف يتأمل قباب الهياكل القائمة على أكتاف الثيران . ثم يتأمل الخنادق والخلجان التى يبدو ماؤها كالفضة فى ضوء القمر . وما الفائدة وما الخير فى عمل لا ينسيه ماهو فيه ؟ خيال يمر أمام عينيه فيود لو كانت حقيقته بين يديه . وما رآها غير مرة ، فجاشت ، وما زالت تجيش فى صدره الشهوات .

جدف نبوخذنصر وأقسم بأرباب أشور كلها .

— أتموت هذه الفتاة هرباً من شرف يغشيها ؟ أيقتلها حبيبها لأنى اشتهيتها ؟ ونمرود العظيم !

طرق إذ ذاك أذنه وقع أقدام قريبة . ومن يتجاسر أن يقرب من الملك فى هذه الساعة غير رئيس الوزراء .

هو الوزير الأكبر جاء يكلم مولاه فى أمر عرفت أهميته من

اهتمام الملك له . ولكن بعد أن تكلم الوزير — ازداد نبوخذنصر غضباً فقطب حاجبيه ، ولمع البرق فى ناظريه ، وصرخ قائلا : أيحتقرنى هذا العبد الخسيس ؟ أيتجاسر أن يغار على الفتاة التى أحبها قلبى . ألا تعلم أيها الوزير بأن هذا الشقى أراد أن يفهمنى بأن استحسانى جمال زبيبة هو عار عليها ؟ فكيف إذن تطلب منى أن آمر بقتله ؟ أف عليك يا تفلاط . فى الأمس ارتجفت يد أحد الخصيان وهو يضع على رأسى التاج . فلو أمرت بقتله لكان فى ذلك شىء من العدل . أما هذا الانتقام الذى ينتهى سريعاً بالموت فأى عدل فيه . أتريد أن أريح العبد من حياته المؤلمة ؟ إنك يا تفلاط لشفوق رحيم !

كان تفلاط عالماً بأن بالادان فى السجن ينتظر الموت . وكان عالماً بما لغضب نبوخذنصر من مثل هذه العواقب . فعجب أن الشاب الفلاح لا يزال حياً . ولكنه بعد أن سمع كلام الملك أدرك السبب فزال العجب !

— أنت يا تفلاط داهية فى السياسة . ولكنك راسخ أيضاً فى علمى العقاقير والسموم . فهات إذن طريقة جديدة ننتقم بها من هذا الشقى .

— طريقة جديدة ؟

— نعم يا تفلاط . أنت تعرف أنواع سموم الهند والحبشة

ومادى وغيرها من البلدان. وأنا أريدها لغرض الآن، فإن موت هذا الشاب موتاً بسيطاً لا يعجبنى . لا يعجبنى قطعاً . هو لا يخشى الموت . فقد كان شجاعاً جسوراً فى قتل معشوقته . وهو يظهر الآن شجاعة تذكر فى احتماله لوعة الفراق الأبدى . فماذا يهمه بعد ذلك الموت ؟ لا أسألك أن تعذبه عذاباً جسدياً ، فهو ولا شك يحتمل أشد العذابات . ناهيك بأن العذاب الجسدى لا يقضى به إلا على المجرم الأثيم . وبالادان هذا هو أكبر من الأثيم المجرم فقد جدف على آلهة أشور فى تمرده على مولاه ومليكه . إذن يجب أن يكون بين الذنب والقصاص نسبة فى الهول والفظاعة .

فخضع الوزير قائلا : أمرك يا مولاى. سأباشر العمل إن شاءت الآلهة .

وفى اليوم التالى حل بالادان من قيوده وجىء به إلى مجلس الملك . فدهش الشاب لوجوده فى حضرة نبوخذنصر ملك بابل وأشور ، لوجوده حراً . كيف لا وقد جاء ليسمع الحكم بالموت ، فسمع بدله الأمر بالحياة . سمع نبوخذنصر يخاطبه قائلا :

— أنت حر يا بالادان

فبأى دهشة تلقى بالادان هاتين الكلمتين ؟ ! إنه ليصعب

علينا الحكم فيما إذا كان حزنه على معشوقته أعظم من دهشته هذه ، وفيما إذا كان الذنب الذى اقترفه أعظم من حزنه !

وبعد أن قال الملك لبالادان : أنت حر ، وهبه قصراً يسكن فيه ، وأعطاه من الملابس أفخرها ومنحه لقباً عالياً ، ثم جعله من المقربين .

— إنى يا بالادان أكبر الشجاعة وأجل الإخلاص . وقد أظهرت فى حبك لزبيبة منتهى الفضيلتين ، فاخدم مولاك بما أحببت معشوقتك .

ثم قال : ستتناول الطعام معى هذا المساء ، وستجلس إلى يمينى ، وسيقدم لك وزيرى تفلاط الخمر بيده . وذلك منى جزاء وفائك ومروءتك .

ومع أن هذا التعطف الملكى الكبير آثار فى قلوب الوزراء البغض لبالادان والحسد منه ، فقد تكهنوا فى غرض الملك الخفى ، وقالوا بين بعضهم : « سيسمه ولا شك . وقد تفاوض وتفلاط فى هذا الأمر . . . نعم . نعم سيكون لغضب مليكنا نهاية مخيفة مرعبة . لننظر ولنصبر » .

وكان الوزراء من الصابرين ، ولكنهم سُقِط فى أيديهم ، فلا تمت النبؤة ولا تحققت الآمال .

جلس بالادان تلك الليلة إلى المائدة الملكية فأكل وشرب

وقام سالماً . بل هناك ما هو أعجب من ذلك . فقد قررت الإنعامات عليه ، فأصبح ، فى اليسير من الأيام ، نديم نبوخذنصر ورفيقه المحبوب. قلت إن هذا الشاب كان فلاحاً حقيراً . وقد كان كذلك يتيما فقيراً ، فتبناه أحد علماء أشور ، ولقنه مبادئ العلوم ، وهذبه فى الفضائل المدنية ، فصار فى مقدمة أولئك الذين يتذوقون الآداب ويتأنقون فى أسباب العيش .

وكان الملك ، بعد أن يعود من الصيد ، يجلس كعادته على المضجع المفروش بالطنافس الهندية وجلود الأنمار ، ويطلب إلى بالادان أن يقرأ على مسمعه أشعار الأولين . فقرأ عليه ذات يوم قصيدة لشاعر أشورى يمدح فيها الملك أزوبار ، الصياد العظيم ، الذى فقد فى آخر أيامه صديقه الحميم هيانى . وفيها يصف الشاعر شدة تأثر الملك ، ويقول إنه كان يصلى إلى الآلهة ، ويبتهل ويضرع على الدوام من أجل صديقه فاستجابت الآلهة طلبته ، وأجارت نفس الحكيم من النار .

وبينما هو يقرأ ذات يوم على عادته ، ونبوخذنصر يسمع مصغياً ، ضعف صوته ثم انقطع دفعة واحدة فنظر إلى الملك نظرة العظيم الحائر وقد اصفر وجهه ، وذهب النور من ناظريه .

فسأله الملك قائلا : « لماذا لا تكمل القراءة ؟ » فأجاب بالادان مرتجفاً لا متكلماً . وقد حاول التكلم ثانية فكان صوته يصل إلى حنجرته ويموت هناك .

دعا الملك إذ ذاك وزيره تفلاط فحضر فى الحال ، وتبادل الاثنان نظرة فيها علم وفيها ارتياح . ثم قال الملك لبالادان إنه محزون جداً لما أصيب به ، وإنه سيبحث عما فيه الشفاء .

وكان الخدم يروحون لبالادان ، وهو مضطجع على الحشايا الدمقسية وبينها ، فسأل أحدهم أن يجيئه بأدوات الكتابة ، فأخذ القلم وكتب على الورق :

« لا تحزن أيها الملك العظيم على الحقيرين مثلى . أنا لا أخشى الموت ولا أخشى الحياة . قد قتلت خطيبتى خوفاً من ظلمك ، وقد كنت أيها الملك العظيم جميلا فى حلمك فغفرت ذنبي . فلا تحزن إذن علىّ بل عجل بالموت إذا كنت حقاً ممن يرحمون » .

وبعد هنيهة عادت إلى بالادان قواه فنهض عن المضجع مستبشراً ، وطفق يتمشى فى القاعة . أما الملك ، بعد أن قرأ مبتسماً ما كتبه بالادان ، خاطب الوزير قائلا : لقد أحسنت . فإن الشاب لا يخشى الموت ولا يخشى الحياة ، فاقتل فيه الحواس . هذا الذى يسرنى . لنروعه إذا كان لا يروعه الموت .

وماذا يجيء بعد الخرس ؟ العمى ؟ . . .

— العمى يا مولاى ، إن شاءت الآلهة .

— الآلهة يا تفلاط ؟ وما دخل الآلهة فى تركيباتك الكيماوية الخفية ؟

— إن للآلهة يا مولاى العلم والقوة كل القوة .

هز الملك رأسه مرتاباً فى ما قاله الوزير ولكنه بعد أن أطرق قال : « إنك مصيب يا تفلاط . ومتى يجيء العمى ؟ »

— غداً أو بعد غد بإذن الآلهة .

— سأترقب قدومه . ومتى أمسى الشاب أبكم أعمى أعلمه بقصاصى وأعيده إلى السجن ليقضى هناك بقية أيامه . ليعش هذا الخسيس فى ظلمات السجن وظلمات الحياة . ليعش هنالك طويلا . فيتأذل ويتألم ، كذلك يكون قصاص من يهينون بمثل إهانته سيد بابل وأشور .

خضع الوزير بين يدى الملك فلم ير ما غشى وجهه من أمارات الخوف والارتياب . وفى صباح اليوم التالى قبل أن ورد الفجر الآفاق كان نبوخذنصر يتمشى فى رواق القصر فجاءه أحد العبيد يقول : « أيها الملك العظيم ، قد أصيب بالادان بالعمى » . .

— وأى متى كان ذلك ؟

ــ قبل انبثاق الفجر يا مولاى غشاه العمى بغتة كما تغشى زوبعة الرمل عابر الصحراء !

ــ عوفيت يا تفلاط عوفيت !

قال ذلك ومشى توًّا إلى منزل بالادان فرآه جالساً على كرسى محنى الرأس ، مشحوب اللون ، والعبيد واقفون حوله وبين يديه . فأمرهم الملك أن ينقلوه إلى المضجع وينصرفوا فامتثلوا الأمر . فتقدم إذ ذاك إلى الشاب الضرير الأبكم وكلمه قائلا :

ــ اعلم يا بالادان أنى لم أعف عنك قط . قلت لى إنك لا تخشى الموت . وأما الآن ، وقد سلبت النور والكلام ، أفلا تخشى الحياة ؟ هذا هو قصاصى وعدلى . بل هذا هو حلمى . وستبقى حيًّا فى ظلمات السجن إلى ما شاءت الآلهة . إن نبوخذنصر لا يعارض بما سيكون بعد اليوم من أمرك .

بعد أن فاه بهذه الكلمات ، وبدت على وجهه أمارات الفوز ، وقف هنيهة ليرى ما يكون من تأثيرها فى الشاب . وقف ينظر إلى الوجه الذى وجه إليه كلامه فإذا هو هادئ ساكن جامد ! لا يغشاه شيء من الغم ، ولا يحركه شيء من الجزع . فخطر للملك إذ ذاك أن يناديه باسمه فراح نداؤه سدًى ، ناداه ثانياً وثالثاً ، فكأنه ينادى شخصاً من الرخام ، فدنا الملك منه وجثا عند رأسه وصرخ فى أذنه كمن يصرخ فى

وادٍ منادياً رفيقاً تاه فيه . فما حرك بالاداں شفتيه بكلمة أو بإشارة .

نبوخذنصر سيد بابل وأشور يخرّ راكعاً أمام هذا العبد المجرم ليسمعه كلمات فيها وحدها القصاص الأكبر . نبوخذنصر ينادى بالاداں ، وقد جثا أمامه ، ليسمعه الصوت الذى همسه فى أذن الآلهة . وليريه القلب الذى حجبته أفانين الانتقام . أو ترتاب بقوة الآلهة أيها الملك العظيم ؟ إن الآلهة على ما يظهر أعظم منك وأطغى ، وإن لهم على ما يظهر يداً عاملة قاهرة فى سموم تفلاط الغريبة .

أجل ، أيها الملك العظيم ، إن بالاداں الآن أرفع منك لأنه تجرد عن الحواس التى تقيد النفس وتعذبها . إنه بعيد عن صدى صوتك ، بعيد عن هول غضبك ، بعيد عن ظلمات سجنك ، بعيد حتى عن اليد التى ترتجف حول معصمه . الطمه بدل أن تجس النبض منه . كلمه بيدك أو بسيفك . وهو مع ذلك لا يجاوب — لا يتنازل أن يجاوب سيد بابل وأشور . هو سعيد لأنه لا يراك ، ولا يسمع صوتك ، ولا يستطيع أن يخاطبك !

بعد أن جس الملك نبض بالاداں ، وتأكد أنه حى تعاظمت حيرته وتفاقم وجده ، فبعث يطلب وزيره الأكبر . فجاء

تفلاط متأبطاً ظنونه ومخاوفه . وكأنه أدرك ما قد يكون لسمومه من أوابد التأثير ، وما قد يجيء فى تركيباته الخفية من النكبات غير المقصودة .

وقف تفلاط أمام نبوخذنصر مشتت الفكر ، مضطرب البال ، وعندما دنا من بالادان كلمه متجاهلا حقيقة الأمر الذى كان يتوقعه ويخشاه ، ثم خاطب الملك قائلا :

– أيها الملك العظيم قد عصتنى سمومى ، وقد يكون للآلهة يد فى ذلك العصيان . فتغيرت نتائج تركيباتى الخفية أو أنها تجاوزت الحد الذى كنت أرمى إليه . أى مولاى ، إن السموم التى أعطيتها هذا الشاب لتقتل فيه حاسة النظر سرت فى العروق المجاورة وقتلت فيه كذلك حاسة السمع . سرت بالرغم عن علمى الواسع فى ماهية ما أعطيت ، وبالرغم عن الاحتياطات التى اتخذتها ، وبالرغم عن العقاقير المضادة . وأخشى أن تكون سرت فى عروقه كلها فتميته موتاً متدرجاً هادئاً دون أن يشعر بشىء يذكر من العذاب .

صعق الملك . وبعد هنيهة خاطب الوزير قائلا : هل سمعتك تقول إن بالادان سيموت موتاً هادئاً خالياً من العذاب ؟ أهذا الذى طلبته منك ؟ أهذه مقدرتك فى مزج السموم وتركيبها ؟ أهذا هو علمك فى أنواعها وخاصياتها ؟ يموت

هذا العبد الصعلوك دون أن يشعر بشيء من الألم ، ويموت معه فى نفس الساعة عدلى وانتقامى ؟ من ذا الذى يعارض مشيئة نبوخذنصر ؟ من ذا الذى حرك يدك حينما كنت تمزج سمومك الغريبة ؟ من ذا الذى مزج معها خمرة الموت الهادئ ؟ من ذا الذى يتجاسر . . . من هو ؟ من هو ؟ . . . تموت زبيبة لتنجو من غرامى ، ويموت بالادان فينجو من انتقامى وأنا نبوخذنصر الملك أتحرق فى غضبى وأشتعل فى هيامى؟! لا والآلهة . فإما أنك خائن ، وإما أنك جاهل . وفى كلتا الحالتين إنك لأثيم .

ــ بحلمك أيها الملك العظيم . لك أن تقول ما شئت عن ضعف وزيرك وجهله . أما الخيانة ــ آه يا مولاى ! أتظن أن عبدك يدنس بالخيانة حياته ؟ أيشوب بالخيانة شيبه ؟ أيبيع ماضيه الباهر الطاهر لفلاح حقير مجرم ؟ إنى أعترف أمامك وأمام الآلهة بجهلى . نعم ، إن جهلى أكثر جداً من علمى ، وإن فى الطبيعة أسراراً لا يدركها غير الآلهة . كان يخامرنى فى الماضى شيء من الريب بجهلى ، وأما الآن فلا أرتاب إلا بعلمى . نعم ، إن للآلهة وحدها كل القوة ، وكل المجد ، وكل العلم . ويظهر يا مولاى أن نواميس الكون لا تخدم مشيئة الملوك . فها إنى أحاول خدمة هواك فترتجف

فوق السموم يدى . فهل أنا الملام ؟ إذا أغمضت الآلهة جفن الفيلسوف وأغلقت دونه أسرار نواميسها أفيعد الفيلسوف مجرماً وهل يقاص على ما يظن ويفترض توصلا إلى غرضه الذى هو غرض مليكه ؟ خفف عنك يا مولاى ، ووطد بالآلهة إيمانك ، فلعل خلاصى وخلاصك فى موت هذا المسكين على هذه الحال .

— كفى . كفى . إليك عنى أيها الخبيث ! إليك عنى ! واعلم أنى آذن لك بخمسة أيام لتخرج من بابل . فإذا لم تخرج قبل انبثاق الفجر فى اليوم السادس تظل أسيراً فيها بقية حياتك .

— لا بأس بذلك يا مولاى . فالآلهة تدخل حتى قلوب الملوك فى بعض الأحايين فتسكن الغضب فيها وتنير ظلمات الانتقام بأنوار الندامة . بيد أنه إذا طلبتنى بعد أن تشعل الأنوار ، أيها الملك العظيم ، فلا تجدنى .

قال هذا وخرج مسرعاً . أما نبوخذنصر فظل يمشى فى القاعة مطرقاً . ثم وقف فجأة متنبهاً كأنه أوحى إليه بشىء يسر . وقد رأى بالادان يحرك رأسه ، ويشير بيده فخطر له أن يكلمه بالإشارة ، ونسى أنه ضرير ، ثم دنا من المضجع ليحدق النظر بفريسته فإذا بالضياء قد استحال ظلاماً

رفع الملك يده إلى عينيه لظنه أن الغشاء عليهما لا على ما حوله . وإن هناك غشاء ولكنه تحت الجفون فلا تصل إليه يد بشرية . ادلهم المكان فهم الملك بالخروج فأحس أن فى رجليه أصفاداً من الحديد . ولا أصفاد هناك غير الخوف والذعر . فهل تسربت إليه سموم تفلاط . هل سرت فى عروقه السموم التى قتلت فى بالادان الحواس ؟ إن الآلهة لأعلم بذلك . ونحن لا نعلم إلا أن نبوخذ نصر هو الآن من أشد الناس غما وبلاء ، وأن بالادان من السعداء المحبورين ..

والدهر فى الناس قلب . أجل ، وقد دارت على الباغى الدوائر . كان فى نفس نبوخذنصر من الغم والغضب أضعاف ما كان فيها ليلة كان يتمشى فى البستان ساعة علم بما اقترفه بالادان .

وفى فجر اليوم التالى ، بينما الطيور تسبح فى الأفنان بحمد ربة النور والحياة ، وبينما ربة النور والحياة ترسل على الأرض فيضاً من بركاتها السماوية ، كان نبوخذ نصر واقفاً فى شرفة القصر يتأمل الأحداث المفجعة التى حدثت فى الأسبوع الغابر ، وكان تفلاط خارجاً من بابل وهو آسف عليها وعلى مليكها ، وكان بالادان قد أسلم الروح وعلى شفتيه الذابلتين الرضى والحبور .

ومما يجب علينا تسجيله من حقائق هذه القصة أن وجه بالادان كان يزداد بهاء وجلاء بعد أن ماتت فيه الحواس الثلاث . كأن القوة فى تلك الحواس تتحول ولا تموت ، فتجرى فى البواطن مجراها ، فتزيد بقوة ذاك الحس الخفى السرى الذى لا يذكره علماء الفيزيولوجيا فى كتبهم ، والذى بواسطته نرى ما لا تراه العين المجردة ، ونسمع ما لا تسمعه الأذن .

وكأن بالادان ، بعد أن تجرد بعض التجرد من المادة صار يرى معشوقته زبيبة رؤية البصر ، ويسمع وهى فى عالم الأرواح صوت حبها ووفائها ، أو ليس الحبور الذى يغير وجهه نتيجة ظاهرة لتلك الكلمات الذهبية التى كانت تقع من شفتى نفس بعيدة على أذن هذه النفس الواقفة فى باب قفصها المادى وهى على وشك الخروج منه ؟ ليس من ريب إذن أن بالادان مات سعيداً . وليس من زيب أنه فى الأقل نجا من انتقام نبوخذنصر . إن أطباء القصر وعبيده يشهدون على ذلك . وهم يشهدون أيضاً أنه مات وعلى شفتيه بسمة الرضى والحبور . أما القصد من التأكيد فى تسجيل هذه الحقيقة فسيظهر فى ما بعد .

نعم ، قد مات بالادان ، وقد خرج من هذا العالم مثلما خرج تفلاط من بابل ، كلاهما آسف عليها وعلى مليكها

العظيم . وقد جيء بالخبر ، خبر خروج الاثنين ، إلى الملك وهو فى شرفة القصر ، فاقتبله ساكتاً هادئ البال . وظل كل ذاك اليوم ، وقد خلا بنفسه ، مثلما كان فى الصباح . فلم يأمر حتى بدفن بالادان ، ولم يقابل رئيس الكهنة الذى جاء يخاطبه بشأن تفلاط ، ولم يأذن لأحد من وزرائه بالمثول بين يديه . ولنا أن نقول ، إذا كان بالادان قد نجا من انتقام نبوخذنصر ، وتفلاط من غضبه ، وزبيبة من شهواته ، فالنفس فى نبوخذنصر لم تنج من الغم والهواجس والأوهام .

إنك تعلم أيها القارئ بأن نبوخذنصر لا يزال أسير الغم والغضب ، ولكنك لا تعلم بأنه أمسى كذلك فريسة للأوهام والأباطيل . فلا تظنه محزوناً مضطرباً لأنه لم ينتقم من بالادان ذاك الانتقام المرعب الفظيع ، أو لأنه نادم على طرد وزيره الأكبر من بابل ، أو لأن ذاك الشاب الفلاح مات موتاً سعيداً . لا . لا . فقد أمست جميع هذه الأمور عنده فى خبر كان .

إنما الذى يقلق نبوخذنصر الآن ويشغل أفكاره ويعذبها هو شيء صغير يتعلق به وبالآلهة . أو ليس هو القائل أن لا قوة فوق قوته؟ فلا ملوك الأرض ولا آلهة السماء تقوى على نبوخذنصر !

أما إذا قال هذا القول الآن فالسموم تكذبه ، ويكذبه

كذلك الموت ، فكيف تتدخل الآلهة فى شؤونه وتعترض مشيئته الملكية ؟ كيف يغمضون جفن وزيره ويرجعون فوق البوتقة يديه ؟ وما هى قوة الآلهة ؟ وبأية طريقة يتدخلون فى شؤون الدنيا ؟ ... هى الأفكار التى شغلت قلبه وذهنه كل ذاك اليوم ، فسلبته شهوة الأكل ولذة الرقاد .

وظل كذلك إلى أن أشعل الليل مصابيحه فى السماء فدخل إذ ذاك مخدعه ، ورمى بنفسه على السرير ، ثم أمر الخدم بإطفاء الأنوار والانصراف وما كانت الظلمة لتعين نبوخذنصر على الأرق فظل يتقلب على فراش الهواجس حتى الهجعة الرابعة من الليل .

وفى تلك الساعة تراءى له طيف إلى جانب الحائط ، فنهض من سريره منذهلا مذعوراً ونادى العبيد فجاؤوا مسرعين ، فأمرهم بإشعال الأنوار ، فأشعلوها ، ثم أمرهم بإطفائها فأطفئت.

وانصرف العبيد ، وعاد الملك إلى سريره يغالب السهاد . إلا أنه سمع ، وهو على وشك النوم وقع أقدام فى مخدعه . ففتح عينيه وإذا بالطيف الذى تراءى له قرب الحائط قد صار فى وسط القاعة . فنهض ثانية ونادى العبيد . فجاء هؤلاء مسرعين وبأيديهم المصابيح المشعلة . أما الطيف فكان قد اختفى قبل دخولهم . ثم عاد بعد أن خرجوا من القاعة ،

فوقف إلى جانب السرير الملكى . فغر الملك المسكين فاه صارخاً . ثم جلس مرتعباً وقد قبض بيديه على الوسادة والغطاء وجمع ما تبقى فيه من الرشد والشجاعة ليحدق فى الطيف نظرة .

هل فى زمانك أيها القارئ نظرت إلى وجه ميت وقد كفن بضوء القمر ؟ إذن ما رأيت قط شيئاً مرعباً . وخير لك ألا ترى وجه نبوخذنصر حينما وقع نظره على نظر الطيف الواقف أمامه . وإننا من أجلك نضرب صفحاً عن مثل هذه التفاصيل ولا نقول سوى أن الملك حرك شفتيه فنطق الرعب فيه يخاطب الطيف أمامه .

ــ ألست بالادان ؟

ــ أنا هو .

ــ ولكنك حى .

ــ حى بالروح أيها الملك .

ــ أو لم تمت صباح البارحة .

ــ مات الجسد الذى حاولت أن تسومه صنوف العذاب . أما الروح التى تخاطبك فما مسها شىء من سمومك .

ــ والقصد من مجيئك الآن .

ــ جئتك يا نبوخذنصر من عالم الأموات بل عالم الأرواح أحمل إليك نبأ من أسلافك ملوك بابل وأشور . فاعلم

أصلحت وعوفيت ، أنى ، بعد خروجى صباح أمس من هذا العالم ، مررت بواد عميق مخيف مظلم يجرى فيه نهر أسود من الزفت الذائب ، وعلى شواطئه عمد كبيرة من الحديد الذى ذهبته النيران وجادات من الجمر المتأجج وقد تصاعد منه اللهيب والدخان . وفى تلك الجادات رأيت أناساً كثيرين يمشون ذهاباً وإياباً . عراة يمشون . مطأطئين الرؤوسَ محنين الظهورَ ، وعلى أكتافهم أحمال غريبة الأشكال ، وفى أيديهم سلاسل من حديد تقطر من اللحم الذى يذوب عليها . ومن هؤلاء أناس يمشون فى عزلة عن سائر الناس . كأنهم كانوا فى العالم من الأعيان والكهان والملوك . وقد رسا فى وجوههم من آثار المجد والعز ما يذهل الغريب ويروعه . ناهيك بأن الأصفاد فى أيديهم وأرجلهم أثقل من سواها ، والأحمال على ظهورهم من الفولاذ الملتهب ، فيذوب اللحم تحتها ولا تنفد أدهانه . خنقنى الغم إذ وقفت أمامهم . وقد خاطبنى أحدهم سائلا : من أين أتيت ؟ وإلى أين أنت سائر ؟ فأجبته : أنى عابر طريق وأنى من بابل . فصرخ إذ ذاك صرخة هائلة وطفق يبكى كالطفل الفطيم . ثم خاطبنى بصوت كصوت الصغير فقال : أنت من بابل ؟ بابل مدينتى ، بابل مملكتى . بابل سبب هلاكى وبلائى ! قال ذلك وهو يجهش . ثم

طفق يبكي فأبكاني . وكدت مما ملكني من الحزن ومن الاحترام لما هو فيه كدت أقول : عليك السلام . ولكن الأرواح تخجل مما تكون قد ألفته في العالم ، تخجل من كل شيء سوى الحب . ثم خاطبني آخر فقال : اعلم أنك أمام ملوك بابل ونينوى ، ومعنا كثيرون من الصيارفة والكهان ، وبما أن الذين يتعذبون في هذا الوادى لا يؤذن لهم بالعود إلى العالم فأسألك أنت أيها الغريب أن تعود إلى بابل وتخبر نبوخذنصر بما رأيت وما سمعت . هي ذى حياتنا في وادى النار واللهيب . انظر كيف يذوب اللحم تحت الحديد المشتعل ولا يفنى ، وكيف يملأ الدخان العيون فتحرقها الدموع الغالية . واعلم أنه محتوم على كل منا أن يقضى ليله جالساً على عمود من هذه العمد الحامية . وفي الصباح يقذف بنا زبانية النار إلى نهر الزفت . ثم نخرج من النهر ونمشى في هذه الجادة الملتهبة نجر أوزارنا — وبعد ذلك يصعد كل منا إلى عموده. أما ساعات الليل أيها الغريب فهي أمر ساعات الجحيم . نقضيها في السهاد والعذاب فتتساقط من عيوننا الدموع الغالية ، ومن شفاهنا اللعنات والأنين . آه ثم أواه ! وقد قيل لنا إننا بعد مضى ألف سنة في وادى النار نخرج مكبلين بالسلاسل مثقلين بالأحمال لنسوح في العالم ليلا ونعود في النهار إلى وادى النار . فعد أيها

الغريب إلى بابل وقل لنبوخذنصر إن رئيس الكهنة قد رثى لحالك وأحب أن ينقذك من العذاب الذى هو فيه . فاغتنم الفرصة قبل فواتها — اغتنمها قبل أن تأتيك حشرجة الموت. هذا الذى رأيت وسمعت . هذا هوالخبر الذى أحمله ، فاذكره يا نبوخذنصر واذكرنى . الوداع ثم الوداع .

عند ما انتهى الطيف من كلامه غاب عن نظر الملك ، فصاح يناديه : قف قف يا بالادان. وعبثاً كان ينادى . فقد لباه بدل بالادان العبيد ، فطردهم من الغرفة ، وقد وثب من سريره كالمجنون وطفق يتمشى ذهاباً وإياباً ، وهو يناجى نفسه .

— أملوك بابل وأشور فى نار الجحيم . ورئيس الكهان ، أخى ، أخى فى النار ؟ ! كذب المخبر . كذب بالادان . إنه لوهم وخرافة . الميت لا يعود إلى العالم . والملوك لا تهلك . لا . لا . كله كذب واختلاق . . . الملوك لا تهلك . . .

فجاء صوت من الخارج يقطع عليه كلامه ويقول : اذكر ما قلته لك واذكرنى .

— هو صوته . هو لا يزال قريباً منى . هو يذكرنى وينذرنى ينذر نبوخذنصر . ماذا تقول يا رجل ؟ أين أنت الآن ؟ وهل أنت الملك : ملك بابل وأشور ؟ أهذه يدك ؟ — أفى هذا الصدر قلبك ؟ — أفى هذا الرأس عقلك ؟ — أهذا هو الجبين

الذى تنيره كواكب السماء ؟ أو أنت الآن فى قصرك ؟ وأين صولجانك . وأين تاجك . وأين حسامك ؟ إذن لم لا تتحرك ؟ من يتجاسر أن يدخل عليك فى الليل ؟ أنت نائم أم أنت فى حلم ؟ استيقظ يا نبوخذنصر استيقظ . . . حسامك ، استرجع بحسامك شتات مجدك .

تناول السيف وهم بالخروج فخانته خطاه ، فاصطدم بالحائط .

— آه ثم أواه . أيضمحل مجدى أمام خيال زائل ؟ أتنهد قواى من كلمة سمعتها ؟ أيسكتنى بالادان وهو ميت بعد أن احتقرنى وهو حى ؟ ثم ينذرنى بالهلاك . الهلاك لنبوخذنصر والموت السعيد والسعادة الخالدة للصعاليك ؟ لا والآلهة ! الملوك لا تهلك . أين بالادان ؟ أين أنت أيها الخيال اللعين ؟

وكأنه رأى الخيال عائداً ، فهجم وقد استل سيفه عليه . ولكنه وقف جامداً كالخشبة عند ما سمع الصوت ثانية يقول : اذكر كلامى واذكرنى .

— لا حاجة إلى القول إن نبوخذ نصر لم ينم تلك الليلة . وفى صباح اليوم التالى خرج من القصر مبكراً وظل يمشى حتى وصل إلى شاطئ الفرات خارج المدينة . فجلس فى ظلال مقصبته هنالك يستريح فرثى النوم لحاله وحل فى جفنه ضيفاً كريماً .

قد شاهدته أيها القارئ وهو فى سكرة الغضب . فانظر إليه الآن . إن نبوخذنصر فى البستان هو الغضب المجسم . هو الشر المستطير . هو الظلم فى أفظع مظاهره . ونبوخذنصر النائم الآن على شاطئ النهر هو الحب فى طفولته . هو الخير فى فجره . هو الرحمة فى مظهر جديد . هو الصلاح فى أطمار الفقراء . هو الندامة فى مسوح المتنسكين .

وهو الآن على شاطئ الفرات يحلم حلماً جميلا ، فهل يمحو بعمل واحد آثامه ومظالمه كلها .

ولكنه لا يزال فى بحر من الهواجس مضطرب الأمواج ، فتراه واللون فى وجهه يتحول أصفر أحمر فينم على ما هو فيه من الاضطرابات . هو مركب تتقاذفه الرياح . بل هو ذبابة فى عنكبوت رتيلاء الحيرة . أتقتله الرتيلاء أم يخرج من عنكبوتها فائزاً الفوز المبين .

زمجر الأسد فى عرينه فاستفاق نبوخذ نصر . وكانت الشمس قد تكبدت السماء ، وتحولت أشعتها العمودية على وجه النهر حجارة كريمة تشع كالألماس . واشتد فى اشتداد الحر صرير الجنادب .

ما عدا ذلك فالسكون كان عميقاً ، وقد استقر فى كل شيء كأنه الفصل الأول من فصول الحياة أو كأنه يعد للطبيعة

المقبل . ففرش لها أغصان الدلب الذهبية ، وأغصان الحور الفضية ، وحشايا القصب اللازوردية ، وسكن لها حتى النسيم الذى كان يلاعب الأسل على الشاطئ والكلأ فى الحقول .

وكان الملك لا يزال تعباً ، فجلس يتأمل ما كان عليه فى الصيف الماضى من الكدر والغم . ولكن غمه فى الصيف الماضى كان قصير الأجل ، ولم يكن سيئ العاقبة ، فأولئك الذين أثاروا غضبه أخرجوا سريعاً من مسرح الوجود . وما كان ليسكن غضب نبوخذنصر إلا مثل هذا الانتقام العاجل. وأما الآن فبالادان على ما يظهر من المحبورين ، وتفلاط من المغبوطين لأنه بعيد عنه ، والآلهة على العروش خالدون، وملوك بابل مع رؤساء الكهنة فى النار ، ونبوخذنصر — آه ثم أواه !

استفاق وهو يتأوه . ونهض وهو يلطم جبينه بيده . ثم سار مسرعاً مستبشراً وعاد إلى القصر فجمع أمامه الوزراء والموظفين والعبيد ورؤساء الكهان كلهم وخاطبهم قائلا :

اعلموا أن للآلهة القوة كل القوة ، والعظمة كل العظمة ، والعلم كل العلم . وما ملوك بابل وكهانها غير خدم للآلهة . وإنى آمر الآن بأن تطلقوا سراح المسجونين فى مملكتى كلها ، وتطلقوا كذلك سراح الحريم فى القصر . وترسلوا إلى وزيرى الأكبر تفلاط أن يرجع بأمر مليكه إلى منصبه ، وتدفنوا

بالادان بكل احترام فى المعبد الملكى . وليكن زمام الملك بيدك أيها الوزير إلى أن يعود تفلاط . هذه هى أوامرى هذه هى مشيئتى .

ثم أم المعبد فدخل إلى مخدع رئيس الكهنة فيه ، وأقام هناك حتى المساء ، فعاد إذ ذاك إلى القصر، وكان قد أمر أحد العبيد بأن يجيئه بقميص من الخيش فخلع أثوابه الدمقسية والأرجوانية واستشعر القميص الخشن . لبس نبوخذنصر المسح وصار من النساك الزاهدين المتعبدين .

وظل على هذه الحال يأكل قليلا ويصلى كثيراً ، فنحل جسمه ، وخارت قواه ، واحتل منه مقر الفكر والنهى . وبينا كان عائداً ذات يوم من المعبد أغمى عليه أمام القصر تحت الشرفة التى كان يطل منها على بابل . فنقله العبيد إلى داخل القصر ، وبادر إليه الأطباء ولكن الطبيب الأكبر سبقهم جميعاً ، فشفى نبوخذنصر من أمراض الحياة كلها . . . ودفنوه عملا بمشيئته الملكية ، فى المعبد الملكى ، إلى جانب بالادان .

عبد الحميد فى سجن الآستانة

المشهد الأول

يرفع الستار عن جماعة من السجناء وبينهم خورشيد وسليمان وفهيم . بعضهم يلعب بالورق والآخرون يتحدثون ويضحكون . وهنا أحدهم مستلق على ظهره ، وهناك آخر جالس وحده يتأمل يديه . وفى مؤخر المسرح حيدر باشا يتمشى والهموم تثقل جبينه . ثم يجلس فى الزاوية معتزلا .

(يدخل محمود)

محمود : أعلمتم أيها الإخوان أن الاتحاديين خلعوا السلطان ؟

خورشيد : عبد الحميد خان ؟

محمود : نعم خان !

سليمان : ولماذا خلعوه ؟

محمود : يا غليظ ، أما سمعتنى أقول إنه خان . خان الأمة . خان الدين . خان الوطن .

خورشيد : حسناً يفعلون . ولكننا نحن المجرمين لا نخلعه فهو سلطاننا إلى الأبد .

محمود : أى نعم ، سلطان المجرمين .

الكل : إى والله هو سلطان المجرمين .

خورشيد : وأين هو الآن ؟

محمود : قيل إنه نقل إلى قصر فى سالونيك .

خورشيد : ولم لم ينقلوه إلى قصرنا هنا ؟

محمود : وهل يقيم السلطان ورعيته فى بيت واحد ؟

خورشيد : ولكن فى قصرنا هذا الفخم غرفاً كثيرة .

سليمان : وما ضره لو أقام معنا ، وعاش مثلنا ، وأكل من أكلنا ؟ أللسلطان معدتان يا ترى ؟

محمود : يالك من أرعن جاهل ! ألا تعلم أن من يقتل البشر بالمئات تعد له الأمة القصور الفخمة ، تهابه وتكرمه . ومن يقتل الناس بالألوف تمجده ، وتُنصَب له التماثيل . فمن أنت بالنسبة إلى هؤلاء السفاكين الكبار ، والفاتحين العظام ، ليخطر فى بالك الإقامة معهم ؟ كم مخلوقاً قتلت فى حياتك ؟

سليمان : واحداً فقط .

محمود : اسكت إذاً . فإنك لا تستحق أكثر من ست أقدام مربعة فى هذا السجن وكسرة من الخبز فى قليل من الماء الفاتر المالح كل يوم .

سليمان : آه ! أين الإنصاف أيها الناس ! وإننى أحلف أمامكم وأمام الله إننى أكلت أصابعى ندامة على الإثم الذى اقترفته .

محمود : وماذا ينفعك أكل أصابعك ؟ كل سلاسلك يا سليمان لعلك تتخلص منها ومن السجن .

خورشيد : وهل عبد الحميد الآن فى السجن بسالونيك ؟

محمود : هو فى قصر هناك كقصر يلدز تسميه الأمة سجناً ؟

فهيم : لعنة الله على هذه الأمة . ما النفع إذاً من خلع السلطان ؟

محمود : لا تصرف غيظك سدًى يا فهيم . إن فى خلع عبد الحميد منافع جمة لنا وللأمة . فغداً يعفو السلطان الجديد عن المجرمين .

فهيم : ليحبسوا عبد الحميد معنا ، وليحبسوا عنا عفوهم . هذا عندى عين العدل والإنصاف .

محمود : أما إذا عُفى عنا فنحن اليوم أفهم مما كنا بالأمس . قد تعلمنا أمثولة جديدة (يحدث فى السجن جلبة وغوغاء) اسمعوا إذا كنتم تحبون أن تنتفعوا من خلع عبد الحميد . عندى نصيحة

أقدمها لكم مجاناً . فإن اتبعتموها . .

سليمان : ما هى ؟

الكل : ما هى ؟ قل ما هى ؟

محمود : غداً يصدر السلطان الجديد عفوه الشامل ، فنصير نحن أحراراً كبقية الأحرار فى الدولة ، ونسير توّاً إلى سالونيك . . . (قهقهة وضجيج) ألا تريدون أن تسمعوا ؟

سليمان : أنا لا أذهب إلى سالونيك .

محمود : لك أن تذهب حيث تشاء بعد أن تصير حرًّا . لعنة الله على كل جبان . اسمعوا أيها الإخوان : إذا عدتم بعد أن تصيروا أحراراً إلى حرفتكم الشريفة فأحسنوا القتل . القتل ! وإلا فلا ! افتكوا ، ولا تصغوا إلى ما يسميه الأتقياء صوت الضمير . اقتلوا ، ولا تعيروا أذنكم إلى ما يدعوه الشعراء المغرورون صوت أطفال القلوب . كونوا من الفاتكين ، من الشجعان ، ولا تندموا فى الصباح على ما تهرق خناجركم من الدم فى الليل . لكم — متى صرتم أحراراً — أحد أمرين : فإما أن

تهتدوا وتصلحوا حالكم فتصيروا مؤذنين وقارئين ومعلمى أولاد . وإما أن تضربوا فى الأرض ، وتفتكوا فى الناس ، فتصيروا من كبار السفاكين المشهورين المحترمين . إذ ذاك تهابكم الأمة ، وتكرمكم الحكومة . وإذا سقط نجمكم فى نهاية أمركم ، وانتصرت الإنسانية عليكم ، أو العبودية ، فتسجنكم الأمة فى القصور الفخمة ، لا فى الأكواخ المنتنة المظلمة ، وتصرف عليكم من الأموال فى الشهر ما يكفى الواحد منا طول حياته .

سليمان : وهل يصرفون هذه الأموال على عبد الحميد الآن ؟

محمود : وهل يكتفون بها ؟ ألا تحسب أجرة القصر ، وأجرة الحرس ، وأجرة الخدم والخصيان ؟

خورشيد : ولِمَ الخصيان ؟

محمود : لأن الحكومة المحترمة الرقيقة القلب ما أحبت أن تحرمه حريمه ، فأذنت له باثنتى عشرة امرأة يقمن معه فى القصر .

خورشيد : ما أعدل هذه الحكومة ، وما أرحمها ، مسكين

خورشيد ! ومسكينة امرأته !

محمود : وقد أذنت هذه الحكومة بأن يصحبه كذلك نجله الصغير فلا ينقصه شيء من دواعي التعزية والسلوان .

(عند هذا يقف حيدر باشا وقد لاح على وجهه الاضطراب)

حيدر : هو وحريمه وابنه يقيمون اليوم فى قصر ألاتيني ، محفوفين بالخدم والخصيان ، متوسدين الريش والحرير ، آكلين من مال الأمة التى امتصوا دماءها واستعبدوا أبناءها ؟! وهل هذا يا ترى ما يدعوه الناس اليوم مساواة ؟ هل هذا هو العدل يسقوننا منه بالجرة ويسقون غيرنا منه بالملعقة ! ؟ أيجوز أن يكون فى الحكومة ميزانان للعدل : ميزان للمجرمين الكبار وميزان للصغار ؟

الكل : لا والله لا !

سليمان : ولكن حكومتنا اليوم حكومة دستورية . فلماذا تعامل عبد الحميد هذه المعاملة ؟

محمود : لأن حكومتك الدستورية تخاف أن تقتله ، بل تخاف أن تحاكمه .

فهيم : وهل تخاف الحكومة من رجل واحد ؟

محمود : نعم ، متى كان هذا الرجل سلطاناً بفضل الخرافات والأوهام كعبد الحميد .

سليمان : وما الفرق بين السلطان المجرم وبيني مثلا ؟

محمود : قلت لك أيها الأرعن الغليظ إن الفرق بينك وبين مولاك هو كالفرق بين من يذكر الله ويذبح كل يوم ، ومن يقترف مرة إثماً صغيراً ويأكل أصابعه ندامة كالجبان .

سليمان : والله إذا خرجت من السجن غداً لأقتلن فى يوم واحد مئةً من الباشاوات كى لا يقال عنى إننى مجرم صغير .

فهيم : لا تكلف نفسك كل هذا . فإذا كنت حقًّا شجاعاً فدونك الباشا الذى معنا . فهوَ من الذين كانوا يذكرون الله ويذبحون .

الكل : اقتلوه . . .

(عند هذا تعلو ضجة السجناء ، فتطفأ الأنوار على المسرح ، ويرفرف فيه طائر جميل أبيض كالثلج ، له جناحان يشعان كنور الشمس حين شروقها . فيرف هذا الطائر فوق رأس حيدر باشا ، ويستقر عليه ، فينير وجهه . ويضرم النار فى حاجبيه ، فيسقط إذ ذاك عن الباشا ثوب السجين ، ويبدو العيان فى هالة من النور كشير

من مشيرى الدولة وقد لبس ثوبه العسكرى واستل حسامه)

حيدر : اتبعونى ، وإن شئتم بعد ذلك فاقتلونى ..

(يخطو خطوة نحو الباب ، فيسقط حائط السجن أمامه ، كما لو كان من نسيج العنكبوت وقد نفخت فيه الرياح . ثم يخرج ويخرج السجناء معه)

* * *

المشهد الثانى

غرفة فى قصر ألاتينى بسالونيك منيرة بالشموع
عبد الحميد جالس على الديوان ، ونجله الصغير
إلى جانبه ونعمت بين يديه

نعمت : مالى أراك مضطرباً يا مولاى ؟ خفف من روعك واصرف عنك الهواجس والأوهام .

بدر الدين : أين هو الخيال يا أبتِ؟ وفى أى شكل بدا لك ؟ هل هو كبير ، طويل ، أسود اللون ، كالمارد فى القصة التى قصتها علىَّ نجم العيون ؟

نعمت : لا تذكر الآن هذه الأشياء . ألا تراه مضطرباً

قانطاً حتى الموت . . . مولاى ، أتأمر بالانصراف . أتريد أن تكون وحدك ؟

عبد الحميد : لا ، لا ، لا .

نعمت : إذن ، تعطف على عبدتك بابتسامة ، وارفع عن عينيك غشاوة الوهم . إنك الآن أحسن من ذى قبل . فقد ارتحت فى الأقل من هموم السلطنة التى كانت تؤرقك . وتسقيك مر العذاب .

عبد الحميد : ولكننى أخاف أن يقتلونى .

نعمت : كيف يكون ذلك وقد قرروا ألا يحاكموك ؟

عبد الحميد : أخشى الغدر . أخاف أن يق . . . يا لله !

(يدخل حيدر باشا ى شكل خيال ، وقد تنكر برداء أسود . فتأخذ الأنوار ى الانطفاء رويداً ، ويعم المسرح الظلام ساعة ينتهى حيدر من كلامه)

عبد الحميد : ما بالك تتبعنى ؟ ماذا تريد ؟ ومن أنت ؟ تكلم ! تكلم !

نعمت : ماذا جرى يا مولاى ؟ من هذا الذى تكلمه ؟ إلى متى تظل أسير هذه الأوهام ؟

عبد الحميد : ألا ترين ؟ هناك ، هناك . انظر يا ابنى .

هذا هو الخيال اللعين .

بدر الدين : أين يا والدى ، أين هو ؟ أحب أن أراه . أنا لا أخشاه يا والدى .

عبد الحميد : هوذا ، هوذا يدنو منا . ماذا تريد؟ ماذا تريد منى ؟

حيدر : كلمةً ، يا عبد الحميد .

عبد الحميد : تكلم ، تكلم .

حيدر : هى لعبد الحميد لا لسواه . . .

(يشير إلى نعمت وبدر الدين)

عبد الحميد : حسن . تكلم

(حيدر يشير ثانية إلى نعمت والولد فيأمرهما عبد الحميد بالانصراف)

عبد الحميد : اذهب معها يا بنىّ .

بدر الدين : ولكننى أحب أن أرى هذا الخيال الذى يشغل بالك ، ويقلق راحتك . أحب أن أراه . أنا لا أخشى الخيال . لا ، والله ، لا أخشاه . آه ، أين سيفى الآن ؟ !

عبد الحميد : اذهب ، اذهب مع نعمت يا بنى . . . تكلم الآن ، ولا تدنُ منى .

حيدر : لا تخف ، إنما أصغ لكلامى وأجب عليه .
كان لأحد الشيوخ الكبار ، فى إحدى
القبائل الهمجية ، نهمة غريبة فى سرقة
الأطفال وذبحها . وكان له أعوان وجواسيس
يعملون بإشاراته ، ويحترمون غريب شهواته .
ولما استفحل أمره ، ولم يبقَ فى القبيلة رضيعٌ
قامت الرجال والنساء على هذه الزمرة اللعينة ،
وألقت القبض على الشيخ ، وعلى كل رجاله
وجواسيسه ، فقتلت منهم صغارهم ، ونفت
كبارهم ، وسجنت أقاربهم وأنصارهم .
أما الشيخ ، فإجلالا لمقامه ، وعملا بأمر
كهان القبيلة ، أقاموه حاكماً عليهم ، بعد أن
ندم أمام الكاهن والناس على آثامه كلها ،
ووعدهم ألا يقترف مثلها فى المستقبل . فأثارت
هذه المعاملة خواطر السجناء الأبرياء ،
وقاموا يطالبون بدمه باسم أطفال الإنسانية .
وما انفكوا حتى فازوا فأراحوا القبيلة من
شيخها السفاح الجبان ، ومن شركائه الكهان .
فما قولك ، يا عبد الحميد ، فى مثل هذا

العمل ؟ أعدل يُعدّ أم لا ؟

عبد الحميد : وما معنى قولك هذا ؟

حيدر : إذا أبت الأمة قتل شيخها السفاح . . .

عبد الحميد : وهل تريد قتلى ؟

حيدر : أنا أحد عبيدك المخلصين يا مولاى . أنا أحد وزرائك الذين خدموك ليل نهار ، ودفعوا عنك مراراً دسائس الأشرار . أنا الذى شربت من دم الأبرياء من أجلك . أنا الذى أكلت فلس الأرملة احتراماً لأهوائك . أنا الذى نهب العباد ليرضى سيد العباد . أواه ! أنا الذى أعمى الله البصر منه والبصيرة فجعلنى من أصفياء عبد الحميد . أنا أحد تلك الآلات الصماء بيد الجبار الجزار . نعم ، كنت آلة فى الأمس وسأصير عليك غداً نكالا . أنا الآن آكل خبز الذل والهوان مع المجرمين ، وأنت سيدى ، ولىّ أمرى ، مالك عنقى ، تتنعم اليوم فى ألاتينى ، كما كنت تتنعم أمس فى يلدز . ذلك لأن الجهل لا يزال سائداً فى الأمة ، والظلم لا يزال مؤيداً فى الحكومة .

ذلك لأن الشرع يقدس شخصك ويرذل من أجلك أمة بأسرها . ذلك لأن التقاليد الخبيثة الفاسدة تعزز مقامك وتذل شأن الوطن والحكومة . ذلك لأن التعصب الديني والجنسى لا يزال قابضاً على الصولجان فى ديوان العدل والإنصاف . ذلك لأن . . . (عبد الحميد يستوي واقفاً ويهم بالخروج) . . . . مكانك ، يا عبد الحميد ! أود والله لو تجسدت فيك هذه الشرائع ، وهذه التقاليد ، وهذه العادات ، وهذه الأنظمة والقوانين كلها فأشد على عنقك بيدى ، وأريح العالم منك ومنها معاً .

(عبد الحميد يحاول الخروج فيرى الباب مقفلا)

عبثاً تحاول ذلك . فإذا كانت الحكومة تخاف أن تحاكم عبد الحميد — إذا كانت الأمة تخاف أن تقتل عبد الحميد — فلست أنا الآن من هذه الأمة ولا من تلك الحكومة . أنا خارج الشرع ، يا عبد الحميد . أنا تحت القوانين والأنظمة ، بل أنا الآن فوقها ، أنا فوقها ، لأنى مجرم ، سلاحى الحق . أنا

رجل أثيم حقير يا مولاى ، جئت الآن أغمس سيفى فى دم سلطان المجرمين .

عبد الحميد : إلىّ ! إلىّ ! خنقونى ، قتلونى .

حيدر : ادخلوا ، ادخلوا ! تعالوا ، أيها المجرمون الصغار ، واغمسوا أيديكم فى دم هذا المجرم الكبير .

(يدخل السجناء كالأشباح فى قمصان سوداء ، فتعلو الضجة صراخ عبد الحميد ، وتنطفىء أنوار المسرح ، فتتوارى إذ ذاك الأشباح وتزول الضوضاء) .

عبد الحميد : أواه ، أواه ! آه ! خنقونى ، قتلونى .

* * *

المشهد الثالث

الغرفة نفسها وقد أنيرت بالشموع .

(عبدالحميد جالس على الديوان غارق من الخوف بين الحشايا ، كأنه يحاول أن يخفى نفسه مما تراءى له من الأشباح وابنه ونعمت جالسان بين يديه)

بدر الدين : أين هو الخيال يا والدى ، أين هو ؟

نعمت : مولاى ، ما هذه الأوهام ؟ ألا تريد أن تخرج إلى البستان فتستنشق النسيم فى نور القمر ؟

عبد الحميد : والأشباح ، والأشباح ؟ ألا يظهرون فى البستان ؟

نعمت : أى أشباح يا مولاى ؟

عبد الحميد : الأشباح ها هم ! ها هم ! اخسؤوا . إليكم عنى يا ملاعين ! إليكم عنى !

(يقف ليهرب) ارحمونى . لا تدنوا منى . آه خنقونى . أواه ! أواه ! قتلونى .

(يقع على الديوان مغشياً عليه ، وبعد قليل يستيقظ كأنه فى حلم)

أشباح آثامى ، لا يابنى ، أشباح مجد أبيك . ها هم . قفوا ! قفوا ! (يهم بالخروج) إليكم عنى ، أيها الملاعين ! يا لله ! وهل أنتم فى كل مكان ؟ أتسدون فى وجهى كل مهرب ، وكل ملجأ ؟ ربى ! أرى الأشباح السوداء تذوب حولى ، أراها تزبد حولى كالأمواج الهائجة — أرانى فى بحر من الزفت المشتعل بل فى بحر من اللهيب . إنما أنت واهم

يا رجل ، أنت الآن فى ألاتينى ، أنت فى السجن . ولكن ما هذه الأمواج التى تلطم خدى؟ ما هذه الأمواج التى تزبد فوق رأسى ؟ لا لا . إنما هى محض أوهام. أنا عبد الحميد ! أنا فى قصرى الآن ! أجل أنا فى يلدز ، بل أنا فى . . . يا لله ! ما هذه القصور التى أراها على ذلك الشاطئ بين تلك البساتين الغنّاء ، إنها قصورك ، يا عبد الحميد . نعم ، وهذه بساتينك تغرد فيها الطيور ، ويداعب أغصانها نسيم الربيــع . فكأنها لا تعرف الأحزان ، ولا تشعر بالهجران ، كأنها تسخر من هذه الأمواج السوداء ومن هديرها .

آه ! أين أنا يا ربى. ربى ، أين أنا ؟ أديوان فى القصر هذا ، أم قارب فى البحر ؟ هل أنا أمام شواطئ أرضى وفى ظل بساتينى ؟ هل تلك هى قصــورى؟ إذن ، أنا فى البوسفور . أنا فى قبضة الأمواج . هى ذى الأشباح ترقص حولى طرباً . أراها تسخر

منى . أراها تشير إلى إشارة الازدراء . ربى ، ارحمنى ، بل أغرقنى ربى فى لجج البوسفور أمام القصور التى لعبتُ فيها صغيراً وخرجتُ منها حقيراً . ولمَ ؟ ألأننى كنت فى يد الأقدار أعمل مأموراً كأصغر عبيدى ؟ ألأننى سجنت ثلاثين سنة فاستحال نهارى ليلا وليلى جحيما ؟ ألأننى كنت بين وزرائى كوزير بين السلاطين ؟ ألأننى ما أكلت مرة وكنت أميناً من العيش بعدها ؟ ألأننى ما نمت ليلة وتأكدت أنى سأستيقظ حيًّا ؟ لا . لا . بل لأنك أعطيت ملكاً فلم تحسن سياسته. لأنك طردت من ضميرك روح الحق والإنسانية ، وخنقت فى قلبك جنين رحمة الله . وأطفأت فى نفسك نور عدل الله .

صوت فى الظلمة : إيه عبد الحميد !

عبد الحميد : رحماك ربى . أواه ! ... اصرف عنى هذه الأشباح . لا تسمعنى اليوم هتافها وقد أسمعتنى بكاءها بالأمس ، أواه أتتزاحم حولى كلما استرحمت وكلما تأوهت ؟ أتسخر

من دموعى ؟ أو يضحكها بكائى ؟ اخسأ .
أتلطم خدى ، أيها اللعين ؟ ! أتبصقون
فى وجهى ، أيها الأخساء الأشقياء ، ولمَ
لا تقتلوننى بعد هذا ؟

صوت فى الظلمة : الانتقام ، الانتقام ! . . .

عبد الحميد : آه ما أشد هذا الانتقام ! أتنطق اليوم
فظائعى ؟ أتبعث من قبورها آثامى ؟
أتتركنى أمتى أعيش بقية أيامى فى هذه
الظلمات ، فى هذا الجحيم ، ومع هذه
الخيالات المرعبة الماثلة ؟ لا . لا . سأريكم
كيف يكون الانتقــام ، أيها الملاعين
(يحاول خنق نفسه) عبد الحميد ! أتسطو
على شخصك المقدس بيدك الأثيمة ؟
ألا تشفق حتى على نفسك ؟ عد إلى رشدك ،
اصرف عنك هذه الهواجس والأوهام . نعم ،
أنا عبد الحميد . وهذا هو قصرى ، وهؤلاء
هم وزرائى بل عبيدى . . .
إلى البوسفور بالسجناء الذين جئتنى البارحة
بأسمائهم !

وهل تعود أنت ؟ ما بالك لا تكلمنى ،
وأنت يا أبا الهدى ؟ أما سمعتمونى ؟ مابالكم
لا تجيبون ؟ يا لله ! ومن أنت ؟ أخى مراد ؟
أجئت تشاركنى سجنى ؟ أجئت تغسل الدم عن
يدى؟ أجئت تنثر على أحزانى دموع أحزانك ؟
ترانى ورثت سجنك ، وأحييتُ بلاءك فى بلائى .
فمن يا ترى يرث سجنى ويحمل أوزارى ؟ أخى
مراد ، ومن هذا الذى معك ؟ مدحت باشا ،
أخرجت من قبرك لتجعل لى مكاناً فيه ؟ أبُعثت
من القبر لتبرهن على خلود الحرية والأحرار ؟
وهؤلاء الأشباح الذين يسخرون منى ويضحكون؟
أراهم يشيرون بأيديهم كمن يريدون . . .

صوت فى الظلمة : الانتقام . . . الانتقام . . .

عبد الحميد : آه ! يالها من أصوات مرعبة هائلة . اقتربوا
إذاً منى . ابصقوا فى وجهى . أيلذ لكم هذا
الانتقام ؟ خذونى . أغرقونى اقتلونى . آه !
أحس بثقل الأمواج فوق رأسى . أفى البوسفور
يموت عبدالحميد ؟ ربى أفى البوسفور تدفننى ؟
أمع هؤلاء الأخساء تحشرنى ؟ . . . مدحت ،

أنا عبد الحميد مولاك ! مراد ، اسمع
عبد الحميد أخاك ! مدحت ، قل كلمة
لهؤلاء من أجلى . هات يدك ، وزيرى .
هات يدك ، أخى ، أترفضون اليد التى
كنتم تقبلونها صاغرين ، أتأبون مصافحتى ؟

صوت فى الظلمة: الانتقام ، الانتقام !

عبدا لحميد : أجل هو الانتقام . أواه ! أحس بسهام
من النار تشق فؤادى . أحس بشىء يأكل
من عينى ، بل بشىء ملتهب ينقر فى
خدى . أواه ! أحس بأصابع من حديد
تضغط على عنقى . أواه ! غرقت. . . لله من
البوسفور ... إنى أختنق ... إنى أموت....

(يقع مغشياً عليه)

إكليل العار

ما ودع حين ولى ، ولا أحد من رفاقه الجالسين حول منضدة مربعة بساطها أخضر رفع إليه نظراً أو فاه بكلمة دعاء أو عداء . نقفَ أحدهم المنضدة بأنامله والوجه منه أصفر من السهر والهم . فماثله الآخر ، فرمى الثالث الورق من يده . وزادَ كل منهم ما اجتمع فى وسطها من حجارة العاج أو الأزلام السوداء والحمراء والبيضاء . أدير الورق واستؤنف اللعب ، وأخذت الأزلام تنتقل من أطراف المنضدة إلى وسطها . « احترق » الثانى ولكنه ظل فى كرسيه يراقب الجولة الأخيرة بين رفيقيه .

والسكوت سائد كأن غرفة القمار معبد أو بيت مهجور دخله اللصوص . تجسس كل من اللاعبين ورقه والعين منه جامدة غائرة ، واليد ترتجف . نظر كل منهما إلى صاحبه نظرات منكرات مختلسات فيها تفرس وفيها افتراس . وشرع كل منهما يضاعف أزلام الآخر حتى كاد ينفد ما بين يديه منها . غربل كل منهما حظه من الورق الذى بيده فأسقط الأول

ورقة وأسقط الثاني ورقتين ، وبينا هو يفعل ذلك حانت منه التفاتة ، فخامره منها الريب فاستشاط على الفور غيظاً ، ونهض واقفاً يهم بالخروج .

فسأله صاحبه ما بالك ؟

فأجاب وقد رمى الورق من يده : قد تواطأتم على .

— أنت مجنون .

— أنت قليل الشرف .

— احفظ أدبك . أنا والله لا أبيع شرفي بمال العالم .

— بعته الليلة بعشرين دولاراً . عيب عليك .

— من كان مثلك لا يستحق أن يلعب مع الناس .

— من كان مثلك أنت . . .

وانحنى فوق المنضدة ليكمل الإهانة بيده فحال دونه صاحب المنزل لائماً مؤنباً .

— عيب علينا يا ناس . واجب أن نقتدى بتوفيق زيدون المقامر الشريف النفس . فإنه إذا خسر سكت ، وإذا ربح لا يتبجح . . . عيب عليكما .

وبينما هو يؤنب صديقه ، وكل منهما — وقد ثاب إلى رشده — يعد أزلامه ، كان توفيق زيدون نازلا الدرج منكس الرأس ، كاسف البال . يده في جيبه الفارغة ، ونفسه الملتهبة في يده .

وما قيمة نفسه وهو لا يملك فلساً واحداً ؟ وماذا عساه يصنع وقد لجأ إلى آخر الحيل فكان فيها مدحوراً ؟ إلى أين يذهب بهذه النفس المحترقة المتقلصة السوداء ؟ سؤالات كان يرددها وهو خارج من البيت لاعناً القمار والمقامرين .

راح تائهاً فى أسواق المدينة كمركب لا شراع له تتقاذفه الرياح . وقف على منعطف الشارع فشاهد الأرتال تمر أمامه كأنها أشباح وكأن ضجيجها أصوات العفاريت . رفع رأسه وإذا بالساعة فى الكنيسة تعلن الثانية بعد نصف الليل .

أيعود إلى غرفته ؟ أيلجأ إلى وحشة الوحدة وظلامها ؟ أيداوى نفسه ببلسم الرقاد ؟ لا . لا . رصاصة تسرع به إلى الجحيم خير من هذا .

والحقيقة أنه استحب الموت . ومر فى قلبه خاطر الانتحار مرور السحاب ، فظل برهة أسير هواجس مريعة . تتجاذبه نزعات أثيمة لا تخلو من قصد شريف . على أن قصده الشريف كان كغنمة بين ذئاب كاسرة أو كملاك بين زمرة من شياطين أفكاره .

لبط الأرض برجله واللعنة تخرج من فمه ، وشياطينه تومئ إليه أن اتبعنا . تبعها صاغراً ، فنزل الدرج إلى سكة الحديد تحت الأرض . وركب القطار السريع الذى يخترق قلب

المدينة ، بل ينساب كالحية تحت أضلاعها . وكانت نفس توفيق زيدون مثل ذاك القطار تتسارع أمواجها السوداء بين أنوار لقصد شريف صفراء ضئيلة ، تبدو وتختفى كالبرق ، مثلما ترقص أنوار النفق الزرقاء والحمراء ، والقطار بين صفوف منها يقعقع ويضج ، فتردد صداه الألوف من عمد الحديد القائمة تحت قصور المدينة .

نزل فى محطة وسط البلد ، واجتاز بضعة شوارع ، ثم وقف عند باب فى أحدها يقرع الجرس .

أطلت بعد هنيهة فتاة من الشباك تسأل من الطارق . فهمس توفيق باسمه . فراحت متأففة تكبس زراً يفتح الباب . ولم تلبس غير قميص النوم لتستقبل صديقها .

ما سلم توفيق حين دخل المنزل بل سار تواً إلى غرفة فيه مفروشة بالسجاد ، أثاثها يجمع بين البساطة والفخامة ، ورمى بنفسه على كرسى قرب البيانو ، وهو لا يدرى ما يقول .

أخذ الفتاة العجب فسألت قائلة :

ــ ما بالك تجيئنى هذه الساعة ؟

ــ لأننى . . .

ووقف يشعل سيكارة .

ــ ماذا جرى يا عزيزى ؟ هل أنت مريض ؟

– بل يائس من الحياة .

– أطلعني على شيء جديد من أحوالك .

– سقطت أسعار الأسهم اليوم فخسرت كل مالى .

فقالت لوسيل باسمة وهى لم تزل واقفة أمامه فى سربالها الشفاف :

– جئت تمزح إذاً .

– ليس وقت مزاح .

– وما علمى يا عزيزى توفيق أنك ذو ثروة !

– ثروة ؟ ثروة؟ إن مئة دولار عند مثلى ثروة كبيرة . فقد تجلب المئة دولار ألوفاً من الدولارات .

– وقد تجلب . . .

فقاطعها قائلا :

– ما لم أطلعك عليه فى ما مضى .

– قد أطلعتنى مراراً فى مثل حالك الآن على المهم من أمرك . هل لك رغبة فى كأس من الوسكى .

– لعن الله الوسكى . كيف أحوالك اليوم ؟

– كما ترى . نمت باكراً فأيقظتنى باكراً . وهذا من قواعد الصحة .

– وماذا يهمنى من ذلك ؟ كيف أحوالك المالية ؟

ـ أسوأ من حالك يا عزيزى .

ـ تكذبين . تعالى قبليني .

ـ أقبلك إذا كنت لا تهينني .

ـ أريني إذاً حافظة نقودك . أما زارك أحد هذه الليلة ؟

ـ قلت لك إنى نمت باكراً . وأقسم بالله . . .

ـ يمينك لا تقنعني . أريني حافظتك .

دخلت لوسيل غرفتها وعادت بعد هنيهة بحقيبة صغيرة رمتها فى حجره ، ففتحها توفيق وأجال فيها يده وعينيه ، ورماها إلى الأرض غاضباً ناقماً .

ـ أنت كذابة محتالة

ـ وأنت قليل الشعور قليل الإيمان ، بل أنت بربرى . وقد سألتك أن لا تزورنى فى آخر الليل ستراً لحالى . أفلا تعلم أنى أشتغل فى النهار فتاة محصنة مكرمة ولا أحد يظن بى ظناً سيئاً ؟ واجب أن أحافظ على شرفى وأصون عرضى تجاه من أشتغل عندهم فى الأقل . لست مستهترة مثلك . ولى أمل بالتخلص مما أنا فيه خارج عملى اليومى . ولو كانت أجرتى تكفيني لألبس على الأقل مثل سائر البنات لما تنازلت إلى عمل ليلا آتيه آسفة حزينة . بل لما ملت إلى غيرك من الشبان . قلت لك ذلك مراراً وأنا عالمة أنه لو كان بإمكانى أن أكتم

حبي لكان خيراً لى وأنفع . ولكنى صريحة القول ، سليمة القلب . وهذه بليتى . لست خداعة ولست كذابة ، ولست محتالة . أنت تعلم ذلك ولا يردك هواك عن إهانتى . ألم أسعفك فى ما مضى ؟ ألم أقاسمك ما كنت أملكه من المال ؟ بل طالما أفرغت حافظتى بين يديك . والآن تجيئنى فى آخر الليل فتشتمنى وتهيننى لأن حافظتى فارغة . صدقنى ياعزيزى توفيق إذا قلت إنى لا أقوى على ردك وصدك . ولو كان لدى ريال واحد الآن لأعطيتكه مسرورة .

اقتربت لوسيل من صديقها فجلست على ركبته تلاطفه وتداعبه وقد كانت تخشى أن تغيظه لأنه مطلع على حقيقة أمرها .

توفيق زيدون شاب شديد البنية ، أسمر اللون ، أسود العين والشعر ، وسيم الوجه ، طويل القامة ، طويل الأنف دقيقه . فى فمه سيماء الشهوة والخشونة . وفى ذقنه القصير المائل إلى عنقه ما يدل على ضعف الإرادة .

ولوسيل فتاة أميركية ، صافية البشرة ، ذهبية الشعر ، زرقاء العين دقيقة الأطراف ، متناسبة الأعضاء ، لا تتجاوز العشرين من العمر . فى شفتها السفلى بروز يجعل فمها كفم الطفل فيه سذاجة وجمال . وهى لطيفة المزاج سهلة المراس .

نفسها فى الحب كجدول من الماء المعين نهاراً وكالنهر الطامى ليلا .

اجتمع بها توفيق زيدون فى المخزن الذى تشتغل فيه ، فشغفت به ومحضته حبها . وأطلعته بعدئذ على خفى أمرها فشجعها على ذلك بدل أن يردعها . وكان إذا خسر فى القمار يلجأ إليها .

أما لوسيل فمثل سائر أخواتها من الشقر الحسان ، تهيم بحبيبها ساعة يكون معها ، وتكاد أن تنساه إذا غاب . وهى مخلصة فى كلا الأمرين ، عاملة بناموس طبيعى يملك قلبها ومزاجها .

فلما جلست على ركبة توفيق تداعبه ألانت من نفسه ، وأنسته بعض بلائه . فرفع إلى صدرها يداً راغبة كأن النار تتوقد فى أناملها ، وقام وفى عينيه رغبة أشد اتقاداً .

وبينا هو فى السرير أمال نظره من جمالها الذهبى إلى المرآة وراء السرير يتأمل جمالها الخيالى . فرأى هناك خزانة الثياب منعكسة فيها ، وعلى بابها الذى نسيت لوسيل أن تقفله تماماً لفافة زرقاء من الأوراق المالية ، كانت قد أخرجتها من حقيبتها لتضعها فى جيب ثوب لها ، فأخطأت المقصد ولم تدر ، فسقطت اللفافة على الأرض .

ولما نهض توفيق ليلبس ثيابه ، خرجت لوسيل من الغرفة فسارع إلى باب الخزانة ، فالتقط ما كان على الأرض من المال ،

ووضعه فى جيبه قائلا فى نفسه : كذابة ، عاهرة .

ولما عادت لوسيل إلى الغرفة قبلها قبلة باردة وودع .

ركب القطار تحت الأرض ، ولم يكن فيه تلك الساعة غير رجل واحد فأخرج المال ليعده . عده فرحاً مستبشراً وهو يردد فى نفسه : كذابة ، عاهرة .

ثم وضعه فى جيب صدرته . وأخذه النعاس من شدة الضنك والتعب فنام ، فوقعت من اهتزاز القطار قبعته على الأرض ، فالتقطها رفيقه متلطفاً ووضعها قربه .

ولما وصل توفيق إلى غرفته كان عقرب الساعة فى قبة الكنيسة مائلا إلى الرابعة . فنام مطمئن النفس هادئ البال حتى ظهر اليوم الثانى. فنهض إذ ذاك يلبس ثيابه. ثم ذهب إلى المطعم ليتناول الغداء ، فأكل هنيئاً كما نام ، ومد يده إلى جيبه ليدفع ما عليه ، ففتش عن المال ثم فتش فلم يجده .

يخسر المرء نصف ثروته فى الأشغال أو فى القمار ولا يأسف. ويبذل الكثير فى سبيل ملذاته أو فى ضيافة أصحابه مسروراً . ولكنه إذا أضاع ريالا واحداً يقوم له ويقعد ويظل أياماً حائراً لا يحسن عملا .

أما توفيق زيدون فلم يكن فى أية حال من الأحوال ليحسن عملا إلا إذا استثنينا القمار . وقد طالما خسر آخر فلس فى

اللعب وهو مالك نفسه ، صابر على تمرد حظه . ولكن خمسين ريالا التقطها من غرفة حبيبته بل سرقها ثم أضاعها بلبلت البال وشتتت منه ما بقي من آمال .

عاد إلى غرفته كالمجنون يفتش زواياها علّ المال سقط من جيبه وهو ينزع أو يلبس ثيابه . وهذا معقول . إلا أن في المعقول ظناً يخطئ أحياناً . ثم فتش في جيوب أثوابه المعلقة في الخزانة كأن يداً سرية سحرية نقلت المال إليها . ثم فتش في دروج خزانة أخرى وهو لم يزل متمسكاً بخيط من الأمل رفيع انقطع عند الدرج الأخير الذى لم يكن فيه غير مسدس صغير .

أخذ يدير المسدس بين يديه ، ووضعه أمامه على المائدة . ثم جلس على كرسى يتأمل الماضى والحاضر من حاله . عشر سنوات قضاها فى أميركا ولم ينجح فيها بعمل من الأعمال . شارك أخاه فى التجارة فصرف فوق حصته فى دوائر القمار والخلاعة وانفصل عنه . وهو يكره أخاه كرهاً شديداً . بل البغض متبادل متساوٍ بين الأخوين . وأخته سليمة التى تبيع البضاعة الشرقية فى المصايف طالما مدته بالمال . على أنها اعترضته يوماً فى أمر فتاة ولع بها فأغلظ لها الكلام وطردها من بيته . أما أصحابه ، بل رفاقه فى اللعب فهو مدين لأكثرهم ولم تعد

له الجرأة أن يسألهم حاجة ، والحق يقال إن أبواب الفرج أقفلت كلها فى وجه زيدون إلا باباً واحداً طرقه ليلة أمس . ولولا الصدفة لعاد من بيت لوسيل كما خرج من بيت القمار . على أن الصدف مثل الدهر متقلبة خائنة ، فلم تكد تريه باب الفرج حتى أقفلته فى وجهه . أعطته خمسين ريالا فى آخر الليل وسلبته المال فى الصباح !

الصدف ؟ إنما هى يد القضاء . دخل توفيق زيدون نفسه يجدد النظر فى ذكريات هناك ، مثلما يعود العاشق الولهان إلى رسائل حبيبته يقرأها ويمزقها . مزق ذكريات أخيه غير آسف عليها ، مزق ذكريات أخته . مزق ذكريات ألعابه وخلاعته . محاها كلها من لوح نفسه الأسود العتيق . ولكن ذكرى أبويه استرعته فوقف عندها واليد منه ترتجف . فقد أوصته أمه قبل سفره إلى أميركا أن لا يقترب من منضدة القمار . وقد طالما قال أبوه : المال الحرام لا يثمر . ذلك لأن داء القمار كان متفشياً فى آل زيدون فى الوطن . ولكن توفيقاً لم يكترث بوصية والديه . وما فكر فيها آسفاً حزيناً قبل هذه الساعة .

القمار ، والموبقات التى هو فيها من جراء القمار ، وتلك الفتاة المسكينة التى كانت تبيع جسدها لأصحابه وتقاسمه

كسبها . الله منها . أتوفيق زيدون يصل إلى هذا الحد من السفالة ؟ لم يكن قبل اليوم ليفكر بحقيقة فعلته . لولا خسائره فى القمار لما التجأ والحق يقال إلى لوسيل . على أنه أفاق فى هذه الساعة من سكرته . نفر من ضلالته . وود أن يبتعد عن الموبقات التى طالما خاضها طرباً حبوراً . انفتحت فيه فجأة عين الروح فهاله من ذلك أمره . رأى نفسه ابناً عاقا . رأى نفسه سافلا . يا للفضيحة ويا للعار .

جلس على الكرسى وأخذ المسدس يديره بين يديه . وبينا هو يداعب الموت — يراود رصاصة فيها الخلاص مما هو فيه — قرع بابه قرعات سريعة شديدة فوضع المسدس على المنضدة ، وراح يفتح الباب ، فإذا بلوسيل والاضطراب باد فى عينيها . أخذته من رؤيتها الدهشة . بل أحس بقشعريرة فى جسده ، كأن كأس ماء بارد سكبت على نفسه الملتهبة ، فأطفأت فيها نزعة الانتحار ، وردته إلى حاله كسيد الفتاة وولى أمرها . أما لوسيل فلم تمهله أن يسألها الغرض من مجيئها . دخلت غرفته تقول :

— أنت لص . أنت مجرم . وقبل أن أشكوك إلى البوليس جئت أعطيك فرصة لتخلص نفسك . كذبت الليلة البارحة . فقوصصت على كذبى. خبأت ما كان لدى من المال فتلصصتنى

وسرقت . لم يزرنى أحد سواك بعد ليلة البارحة . نعم أنت سارق مالى وإذا كنت لا تعيده إلىّ الآن أشكوك إلى البوليس .

— أنت مجنونة .

— لا يهمنى . أسألك أن تعيد إلىّ مالى وإلا . . .

— أجئت تهددينى فى بيتى ؟ والله لأشُجّنّ دماغك إذا كنت لا ترعوين .

واقترب إذ ذاك من المنضدة يمد يده إلى المسدس . فخافت لوسيل وغيرت لهجتها .

— يا عزيزى توفيق ، أنا فى حاجة الآن إلى المال أكثر منك . قد رهنت فى الشهر الماضى خاتماً هو أعز الأعلاق لدى . هو هدية من أمى يوم ميلادى — آخر ميلاد قضيته وإياها . وأحب أن أسترجعه. فإنى منذ رهنته والنحس يكتنفنى . فأشفق علىّ واكتفِ بما أسلفتك من الحب .

وتناولت منديلا وأخذت تمسح الدموع المتساقطة على وجنتيها الورديتين ، ثم قالت :

— مذ عرفتك حتى الآن لم أسألك دولاراً واحداً ، بل أنت مدين لى .

— يا بنت الخنا ، جئت تهيننى فى بيتى ؟! والله . . .

— لا . لا . لا أحب أن أذكرك بذلك . ولو كنت تستطيع

القيام بمعاشى لما ملت إلى أحد سواك . بل لما قبلت فى بيتى غيرك من الناس . والآن جئت أرجوك أن تعيد إلىّ ما أخذته منى الليلة البارحة . هب أنى أسألك قرضاً فى ساعة ضيقتى ، فإنى لم أدفع أجرة منزلى منذ شهرين ، أقسم بالله . وصاحب البيت يهددنى بالطرد . فإذا كنت لا ترثى لحالى ، فما معنى صداقتك ، بل ما معنى حبك ؟ أخذت منى خمسين دولاراً . أعد إلىّ نصف القيمة فى الأقل .

ــ اعلمى أنى لم آخذ منك دولاراً واحداً . وإذا عدت إلى هذه التهمة أبعثر دماغك برصاصة من هذا المسدس . وإذا كان هذا قصدك من زيارتى فتفضلى .

وأومأ بيده إلى الباب .

ــ يجب أن أدفع أجرة غرفتى

ــ صاحب البيت ينتظر .

ــ يجب أن أشترى فستاناً لأمى .

ــ لست موكلا بأمر أمك .

ــ أتطردنى إذاً من بيتك .

ــ اشكرى ربك إذا خرجت سالمة . أنت أول من اتهمنى بالسرقة وقد عفوت عنك . اخرجى ، ولا ترينى وجهك فيما بعد .

اقتربت لوسيل من المنضدة وفى نيتها أن تقبض على المسدس اتقاء للشر ، فكان توفيق أسرع منها فقبض على يدها بيمناه ، ولطمها بالأخرى على وجهها .

— يا بنت الخنا : تحاولين قتلى أيضاً .

— تسلبنى مالى ، وتهيننى ، وتضربنى وتطردنى من بيتك — ستندم ، يا توفيق زيدون . على فعلاتك هذه . ستندم يا لص . يا وحش ، يا . . .

وخرجت من غرفته مسرعة .

ناداها توفيق — فتح الباب وسألها أن تعود فلم تجبه . لبس قبعته وتبعها . ولكنه لم يرها فى الشارع . راح إلى بيتها فوجد الباب مقفلا فبات ينتظر أمام الباب علها تعود فخاب أمله . فعاد إلى غرفته يائساً ، وقد أخذه شيء من الندم على ما فعل .

حدثته نفسه ثانية بالانتحار . فكتب كلمة إلى أخته يودعها ويستغفرها . وأخذ المسدس قائلا : على الدنيا السلام ، ولكنه حين رفع آلة الموت إلى رأسه متردداً دق جرس التليفون ، فوضع المسدس ، وفى نفسه بعض الارتياح إلى صدفة وقفته مرة ثانية عن قصده ، وراح يجيب للنداء .

الصوت صوت لوسيل .

— ماذا تريدين ؟

ـ ندمت على ما بدا منى، اغفر لى ، وتعال الليلة تسمع ما يسرك .

ـ ماذا جرى ؟

ـ سأخبرك عندما تحضر .

أخذه العجب من أمرها . هل تضمر له الشر ؟ هل تدعوه لتغدر به ؟ أو هل هى صادقة فى ما تقول ؟ إن كان الأول ، فتوفيق زيدون لا يخشى تهديد فتاة أو غدرها ، وإن كان الثانى ، فقد يكون له فى شدته سبيل إلى الفرج . ثم عاد إلى نفسه يؤنبها على ما فعل . ندم ندامة حقيقية على معاملته لوسيل تلك المعاملة ، فقال يحدث نفسه :

ـ خلصتنى من الموت مرتين ، فينبغى أن أحسن فى الأقل معاملتها . ولكنه أخذ العدّة لكل ما قد يحدث ، فراح يقابلها تلك الليلة والمسدس فى جيبه .

* * *

عادت لوسيل إلى شغلها فى المكتب أصيل ذاك النهار برغم ما جرى فى منزل توفيق زيدون . عادت إلى شغلها برغم اضطراب ملك نفسها وبرغم يأس كاد يذهب برشدها . على أنها وقفت هنيهة

فى باب دائرة الشرطة ولم تدخل . وقفت خائفة وذهبت حائرة . فدخلت المكتب كليمة الفؤاد ، مشتّتة البال ، أسيرة الغم والهواجس . وإذ جلست إلى الآلة الكاتبة لتباشر عملها ، أحست بصداع شديد غشى بصرها ، فبدت صفوف الأحرف أمامها كالأزرار البيضاء وقد ذاب سواد ما نقش فيها ، فلم تكد تميز الألف من الباء ، ولا الأعداد من أحرف الهجاء .

كتبت سطراً فعضت شفتها غيظاً ، ونزعت الورقة من الآلة ومزقتها . حاولت العمل ثانية ، وأناملها ترتجف ، فمزقت الصفحة الثانية ، ثم الثالثة والرابعة . توقفت عن العمل وأخذت تصعد الزفرات ، وشرعت تفرك يديها وجبينها علها تنتعش فتملك حواسها . ثم أخرجت من حقيبتها القلم الأحمر ، وعلبة المسحوق ، والمرآة الصغيرة فدهنت شفتيها ، وطلت خديها ، وهى تحاول أن تزدرى همها وتنسى ما حل بها .

وكانت رفيقتها تنظر إليها شذراً ، وتضحك فى سرها هازئة . ثم همست فى أذن الكاتب كلمة فأجابها قائلا : ولا ريب بذلك . لم تنم الليلة البارحة .

أما الكاتب هذا فكان قد استطلع خبر لوسيل ، عملا بإشارة المدير ، وتحقق أمرها . فنهض حين رآها فى هذه الحال ودخل على المدير يقول : يظهر أن هذه الفتاة مريضة ،

أو أنها لم تنم الليلة البارحة ، وهى لا تستطيع قط عملا .

فأمر المدير بأن يأتيه بحسابها . ثم ناداها إلى غرفته.

— لماذا لم تجيئى إلى المكتب صباح هذا النهار ؟

— كنت مريضة . ولم أزل أحس بصداع شديد أليم .

— الأحسن إذاً أن تعودى إلى بيتك . وقد تكونين فى حاجة إلى المال لتستشيرى الطبيب فهذا ما تبقى من أجرتك .

أخذت لوسيل المال وهى تشكر المدير الذى استأنف كلامه قائلا : ولم نعد فى حاجة إليك

هذا ما كانت تتوقعه . فلم تسأل المدير السبب فى طردها . ولا همها أمره . على أنها تيقنت أن الكاتب قد وشى بها ، وفضح أمرها ، بعد أن تظاهر بحبها واكتسب ثقتها .

أجل ، قد تحققت لوسيل السبب فى طردها ، وشعرت لأول مرة بحقيقة حالها وسوء مصيرها ، فخرجت من المكتب وهى لا تكاد ترى ما حولها من شدة الغيظ واليأس والكمد ، وذهبت توًّا إلى منزلها ، فرمت بنفسها على السرير واسترسلت إلى البكاء . بكت كطفل فبللت الوسادة دموعها .

حياتان ، حياة خير وحياة شر ، لا تجتمعان فى شخص واحد .

جلست تؤنب نفسها وهى تردد هذه الكلمات . وشرعت تفكر

فى ما جرى فى يوم واحد من حياتها المزدوجة . سرق مالها . أهينت . ضربت . فقدت وظيفتها . وصاحب البيت فوق ذلك يهم بطردها إذا لم تدفع المتأخر من ثلاثة أشهر .

وماذا لديها من المال ؟ خمسة دولارات فقط ، خمسة دولارات لا تكفى أجرة النقل إذا أذن لها صاحب البيت أن تنقل فرشها . وإذا نقلت إلى بيت آخر فماذا عساها تفعل ؟ أتبحث عن وظيفة أخرى ؟ لم يعطها المدير شهادة بحسن السلوك . ولم تزل تذكر كم قاست من العذاب أول مرة بحثت فيها عن عمل فى المدينة .

حياتان ، حياة صلاح وحياة إثم ، لا تأتلفان فى نفس واحدة .

ستهرب إذا من الخدمة — من المكاتب — من المديرين واستبدادهم . ثم ماذا أتستمر فى مسيرها المشين المعيب — فى طريق الإثم والعار ؟ أفى السوق وفى القهوة تطلب رزقها ؟ فكرت فى ثمار ليلها وفى الحلو والمر من كأس إثمها . فكرت فى من أخلصت له الود وكيف يسرقها ، ويهينها ويضربها ، ويطردها من بيته . من وثقت به يخونها ، ومن اشتروا جسدها يهينونها ويزدرونها . أجل ، إن الشبان الذين يطاردون البنات فى الأسواق ،ويستغوونهم فى القهاوى ، لكذلك الكاتب الخائن

ولكذلك اللص توفيق زيدون . فماذا عساها تفعل ؟

حياتان ، حياة طهر وحياة عهر ، لا تجتمعان فى امرأة واحدة .

أتعود إذاً إلى بيتها . أتحتمى فى ظل أمها مستغفرة مسترحمة ؟ إنها تخشى أمها ولا تستطيع أن تقيم وإياها . فلما كانت فى البيت كان أخوها الوحيد سلواها هناك . أما وقد سافر إلى أميركا الجنوبية فقد سئمت الإقامة فيه ، وخرجت غير آسفة تؤم المدينة . ناهيك بأن الإقامة فى القرية لم تعد تروقها وقد ألفت العيش فى المدينة .

إذن لا العمل نهاراً فى المكتب ، ولا السير ليلا فى طرق الإثم والعار ، ولا الرجوع إلى البيت ؟ فكرت لوسيل ملياً فى أمرها ، ووطنت النفس أن تظل فى المدينة ، أجل . تشكو توفيق زيدون إلى الشرطة ؟ ستشكوه إلى الشرطة . ولكن الريب ملكها فى كل شؤونها . التردد أقعدها ، الخوف قيد منها العزم والنشاط . فهى إذا شكت السورى تفضح أمرها بيدها . طال النزاع فى صدرها فكاد يقتلها . وكل نزاع نفسى لا يجلو الروح والفكر يولد اليأس والقنوط . واليأس فى مثل هذه الحال أشد من الإيمان قوة ، وأعظم من الموت هولا .

أشهر اليأس سيفه فى لوسيل فنهضت ملبية . أجل ، ستقتص بيدها من السورى اللئيم . سينال من يدها جزاء فعلاته. خمسة دولارات هى كل ما تملك، وستحسن استخدامها . قد أغلقت أبواب الرزق والفرج فى وجهها فستموت فى الأقل شريفة النفس . ستموت بعد أن تذيق السورى جزاء إثمه .

لبست قبعتها وأسرعت إلى مخزن تبتاع مسدساً بالمال الذى قبضته أجرتها، وعادت إلى البيت فخاطبت زيدون بالتليفون تسأله أن يزورها تلك الليلة . ولو علمت بقصده تلك الساعة لندمت على إفسادها عمله. لو كان لها أن تراه والمسدس بيده لتركته وشأنه وشكرت ربها . ولكنها الأقدار تلعب بالناس لعب الأكر .

دخلت لوسيل مطبخها الصغير لترى ما عندها من حواضر البيت للعشاء ، فوضعت إبريق الشاى على وجاق الغاز ، وبينا هى تفتح علبة من الفاصوليا المطبوخة لتسخنها ، قرع الجرس فراحت تفتح الباب ، فإذا هناك رجل حياها تحية الأحباب هاتفاً : «هالو» لوسيل .

وقفت لوسيل مدهوشة وهى لا تكاد تصدق نظرها .

— وليم . وليم .

ورمت بنفسها عليه تعانقه . فعانقها وقبلها تكراراً .

ــ ثم دخلت وهى آخذة بيده ، فأجلسته على الديوان وجلست إلى جانبه . فقبلها وليم ثانية وهو يردد اسمها ويربت خديها .

وليم أخو لوسيل شاب لا يتجاوز الثلاثين سناً ، طويل القامة نحيف الجسم ، عصبى المزاج ، حاد النظر روحانى العين ، خطواته تدل على ثقة له بنفسه ، وحديثه يدل على إيمان له بالناس ، وهو يحب لوسيل أخته الوحيدة حبا جما ، ولا يريدها بعيدة عنه إلا إذا كانت متزوجة وسعيدة فى زواجها .

وشد ما كانت دهشة لوسيل ، وشد ما كان ابتهاجها بمشاهدة أخيها بعد تغيب طويل الأجل .

ــ وليم عزيزى . متى عدت ؟ وكيف علمت أنى هنا ؟ ومن أعطاك عنوانى .

ــ عدت فى الأسبوع الماضى . ومنذ وصولى ، وعلمى أنك تركت البيت ، وأنا أبحث عنك . الفتاة التى تهرب من بيتها يا عزيزتى لا تراسل أحداً فى قريتها . ولكن ابن القسيس جارنا هجر القرية أيضاً . والقسيس أبوه عالم بمقرك وبما أنت تصنعين .

اضطربت لوسيل هنيهة عند سماعها « وبما أنت تصنعين »

فامتقع لون وجهها . ولكنها اطمأنت حين واصل أخوها حديثه قائلا : وهل أنت راضية بوظيفتك وبأجرتك ؟ يظهر من هذا البيت ، ومفرش منزلك وأثاثه . أنك فى يسر وإقبال . إلا أنه مهما كانت أجرتك ، خمسة وعشرين ريالا أو خمسين فى الأسبوع . فأخوك وليم لا يرضى بها . ولا يريد أن تقيمى فى هذا البلد بعيدة عنه . جئت يا أختى الحبيبة لأعود وإياك إلى البيت . واعلمى أنى نجحت نجاحاً باهراً فى سفرى إلى البرازيل . لذلك وطنت النفس أن أؤسس عملا لنفسى فأحب أن تكونى معى إلى حين زواجك . أنا عالم بأشراك المدينة يا عزيزتى لوسيل وبموبقاتها . وقلما تسلم ابنة غريبة فيها .

صعدت لوسيل الزفرات واغرورقت عيناها بالدموع .

ـ ما بالك تبكين ؟ ألا تعودين إلى البيت ؟ أو لست ترغبين فى بيت تكونين سيدته ؟

ـ لا يا أخى وليم لا أعود إلى البيت .

ـ ولماذا ؟

ـ لألف سبب .

ـ سبب واحد يقنعنى . وقولى لى لماذا تبكين ؟

ـ هل تعشيت يا عزيزى ؟

ـ لا .

إذاً تشاركنى العشاء الذى كنت أحضره لنفسى عند وصولك وبعدئذ أقص عليك قصتى .

وراحت لوسيل إلى المطبخ تحضر العشاء لها ولأخيها . وبينا كان وليم ينتظر فى غرفة الاستقبال وهو يجيل الطرف فى ما فيها من الأثاث والأعلاق ، استوقف نظره صورة على ظهر البيانو ، فإذا هى صورته وهو صبى ، وإلى جانبها بل وراء إطارها الفضى ، المسدس الذى ابتاعته منذ ساعة . فتحه وليم فإذا فيه ست رصاصات . ثم أعاده إلى مكانه دون كثير اكتراث .

وبعد برهة جاءت لوسيل تدعوه إلى غرفة الطعام .

— فرش منزلى ينبئ باليسر . ولكن مائدتى يا عزيزى وليم كما ترى .

— أتجوعين نفسك لتكسى جسدك مثل سائر البنات ؟

— ربما كان الأمر كذلك .

— ولمَ لا نذهب إلى أحد المطاعم ؟ قومى تعالى معى .

— لا لا . أفضل أن أكون وإياك وحدنا .

— لتقصى قصتك . حسن هاتيها إذن .

أحنت لوسيل رأسها . ثم رفعت منديلا إلى عينيها .

— ما بالك ؟ وما الداعى إلى هذه الدموع ؟ أخبرينى

يا عزيزتي لوسيل ولا تكتمي شيئاً . فإنك تعلمين مقدار حبي لك . نعم . أنا لك في كل حين . إذا كنت في شدة فقد جئت أساعدك . وإذا كنتِ في محنة . . .

ونهض إذ ذاك يقبلها ويربت خديها .

ــ أطلعيني على أمرك . اكشفي لي سرك . ولا تخفي عني شيئاً . وكل ما أستطيع عمله من أجلك فأنا فاعله مسروراً ، تكلمي .

نهضت إذ ذاك لوسيل ، وراحت إلى ردهة الاستقبال ثم عادت والمسدس بيدها ، فوضعته على المائدة أمام وليم . .

ــ هذه هي قصتي .

ــ لوسيل !

ــ نعم ، هذه هي قصتي .

ــ وما معنى ذلك ؟ هل تنوين شرًّا بنفسك أو بأحد من الناس ؟ إذن قد جئت في الوقت المرغوب فيه ، نعم . جئت أخلصك من نفسك . حيف عليك . حيف أن يفكر مثلك بهذه الأمور ؟ فإذا كانت هذه قصتك فقومي بنا نذهب إلى المسرح .

ــ لا . لا . إني أنتظر رجلا هذا المساء .

ــ رجلا تنتظرين ؟ ومن هو ؟ من تنوين قتله يا ترى ؟

قال وليم قوله ضاحكاً . أما لوسيل فظلت ساكتة .

ـ كلميني يا عزيزتي . فقد حيرني أمرك والله . وهل لى أن أعرف من هو الرجل . وما عسى أن يكون شأنه ؟

اسمع يا عزيزى وليم أخبرك بما جرى ليلة أمس واليوم . ولكنى أستحلفك أن لا تسألنى أن أطلعك على سوابق حالى. وأرجوك أن لا تؤنبنى ولا تغير ظنك بى . فأنا أعلم مقدار حبك لى . ولكنك قد تجهل مقدار حبى لك . رسمك دائماً أمامى . وذكراك أثناء تغيبك لم تذهب يوماً من قلبى . ليس لى سواك فى هذا العالم ولا . . .

فقاطعها وليم قائلا : لا حاجة لهذه الديباجة . أخبرينى ماذا جرى ، ولا تكتمى شيئاً .

أجابت لوسيل طلبه . فأعلمته بما حدث فى عشرين ساعة مضت ، منذ مجىء توفيق زيدون الليلة البارحة حتى أصيل ذاك النهار . وكان وليم ، وهو يستمع حديثها ، جالساً فى الكرسى ، جامد العين أصفر اللون ، بل كان كتمثال من الشمع . ثم نهض من الكرسى فوراً ، وطفق يتمشى فى الغرفة منكس الرأس ، ويداه مضمومتان وراء ظهره . ظل كذلك بضع دقائق لا ينبس ببنت شفة .

تقولين إنه سرق مالك ، وضربك ، وهم بقتلك ، وطردك

من بيته ؟ لوسيل عزيزتى ، وعدتك أن لا أستطلع ماضيك فى هذا البلد . ووعدتك ألا أؤنبك . ارفعى رأسك ، لوسيل ، ولا تبكى . كل ما أقوله يا حبيبتى هوذا : ليس الرجل وحده ملوم . ولكن غلطة الفتاة تغتفر قبل غلطة الشاب . وأنت أختى . أختى الحبيبة . لا شىء يزعزع حبى لك ، ولا شىء يغير حسن ظنى بك . على أنى أسألك أمراً واحداً . ولا أقبل منك فيه رفضاً . وإلا نسيتك ، أنكرتك ، محوت من قلبى رسمك وذكرك . أسألك يا لوسيل أن تعودى معى إلى البيت حالا . قولى نعم . عدينى بذلك .

ولكن قبل أن تفوه لوسيل بالجواب قرع جرس الباب ، فذعرت وهتفت قائلة : هوذا .

— مكانك . أنا أقابله .

فصاحت : لا ، لا ، وقد أمسكته بيده .

— مكانك يا أختى ، وسكنى روعك .

— ولكن أعطنى المسدس . أعطنيه . وقابله إذا شئت .

— ليس هذا من شأنك . فقد انتهى أمرك والرجل ، وابتدأ أمرى .

— أرجوك أن تعطينى المسدس .

— أرجوك أن تجلسى وتسكتى .

تفلّت من يديها، وراح يفتح الباب ، فإذا برجل هناك ، فخاطبه بصوت هادئ قائلا : أنت توفيق زيدون؟

— نعم .

— أنا أخو لوسيل . جئت أخبرك أنها لا تستطيع أن تقابلك . وهى تهديك هذا المسدس علك تكون فى حاجة إلى المال فتبيعه وتتصرف بثمنه . خذه . خذه .

لبث زيدون جامداً كالصنم . فلم يمد يده ، ولا حرك شفتيه . أما وليم فوضع المسدس فى جيبه ولطمه على خده بقفا يده .

— نذل . لص . جبان ، إذا لم تكن فى حاجة إلى المال فأنت فى حاجة إلى المسدس. خذه . تصرف به كيف شئت.

قال ذلك وأقفل الباب . ثم عاد إلى لوسيل يقول : إذا كان لا خير ألبتة فى هذا المخلوق فالمسدس ألزم له . إذا كان لم يزل فى نفسه بذرة صلاح واحدة فالمسدس لا يضره . لننسه الآن . انسيه يا عزيزتى لوسيل . انسيه . وتعالى إلىّ . تعالى أقبلك .

رمت لوسيل بنفسها على صدر أخيها فطوقها بذراعيه يقبلها وتقبله وعاشت ما تبقى من حياتها قربه .

أما توفيق زيدون فعاد إلى منزله يقول : وهذا إكليل العار . لا يتنازل أخوها أن يقتلنى . لا يدنس يده بى . هذا إكليل العار

يا توفيق . ولكنى لا ألبسه ، لا والله . ولا أقتل نفسى قبل أن أصلحها . بلى سأضحى بها من أجل بلادى .

وكتب كتاباً إلى لوسيل يستغفرها . ثم ذهب إلى الدائرة العسكرية فى حيه ، فتطوع فى الجيش وسافر بعد بضعة أشهر فى فرقته إلى ساحة القتال – إلى خطوط النار .

* *

دخل إلياس نادر البيت متهللا . وكانت ابنته الوحيدة سلمى تعد له العشاء فهرول إليها والجريدة بيده يقول :

« قد عاد من فرنسا »

– « من يا ترى ؟ توفيق ؟ »

– « قد عاد توفيق سالماً ظافراً . راح نفراً مقامراً وجاء ضابطاً . على كتفه شريط الشرف . كما ترين ، والوسام (صليب الحرب) على صدره » .

نظرت سلمى إلى الصورة ووجهها يتلألأ سروراً .

– « وأين هو الآن ؟ »

– « كلمنى بالتليفون من المحطة وقريباً يكون هنا . هل يليق عشاؤك ببطل من الأبطال ؟ »

– « ويلى لم أطبخ غير الأرز والبامية » .

– لا بأس . ارفعى هذا « المشمع » وضعى مكانه غطاء

الكتان ، ورتبى المائدة بما عندك من الذوق سأرجع حالا » .

قال هذا وخرج مسرعاً إلى دكان صديقه بتروكنتى الطليانى ، ثم عرج على اللحام ، وعاد وفى كلتا يديه رزمة كبيرة .

— « خذى يا بنتى . توفيق يستحق مأدبة . ولكن خير الجود الموجود ، كما يقول المثل » .

ثم قال خا فضاً صوته : « هل زارك أنطونيو اليوم ؟ »

— « لا لم أره منذ أسبوع »

— « إذا زارك غداً يجب أن تكلميه بلطف يا بنتى . هؤلاء الطليان أشرار عند الغيظ » .

— أنا لا أخشاه . أنا لم أعده بشىء . نعم ، ذهبت وإياه إلى المسرح مرة واحدة ، كما تعلم ، ولكنى لم أقبل منه هدية ما . حتى ولا سلة تفاح صغيرة . ويوم جاءنا مكتوب من توفيق وعلمنا بقرب رجوعه ، قلت لأنطونيو بصراحة إنى لم أعد أستحسن ولا أستحل مقابلته » .

— « وماذا قال ؟ »

— « أخذ يهذى على عادته ولكنى أعرفه . هو رجل طيب القلب »

عند ذلك قرع الباب ، ففتحه أبوها ، فإذا بتوفيق زيدون

واقفاً هناك ينزع قفّازه فصاح إلياس به مرحباً ، وأخذه بيده فجره إلى وسط القاعة هاتفاً : سرجنت زيدون . يا لطيف يا ستار . ولطمه لطمات على كتفيه ظهر تأثيرها فى ركبتيه . كنت محدوب الظهر يا . . . قبل دخولك الجندية فصرت كالرمح . وكان صدرك مثل القوس فصار مستوياً منفوخاً . وتلك السحنة الصفراء . . . وقرصه فى خده وهو يكمل كلامه : « ما أحلى الورد » . ثم لطمه على ظهره لطمة تلو الأخرى مستمراً فى ذا التحبب : « ما شاء الله . وصار يلبس القفاز يا عينى ويمسح حذاءه ويحلق كل يوم » .

بعد ذلك كله طوقه بذراعيه ، وطفق يقبله فى وجنتيه .

فقال توفيق ضاحكاً وهو يحاول الإفلات منه : « ما أحلى ساحة الحرب ياإلياس وما ألطف رش المدافع أليس فى البيت غيرك يا ترى ؟ دعنا نسلم » .

فقالت إذ ذاك سلمى : « الحق مع توفيق يا أبى . وهل هو لعبة يا ترى . أرح يديك فى الأقل » .

— « يا قرد . أيلام المشتاق إذا بث أشواقه ؟ » فقال توفيق وهو يصافح سلمى : « وكسر أضلاع المشتاق إليه. لا بأس. لا نلومه إذا كان لا يلومنا » .

فضحكت سلمى وهى تتقدمه إلى الديوان وتقول : « اجلس

وقص عليّ قصتك كلها . من الألفَ إلى الياء » .

— « قصة طويلة يا سلمى . ولا شك أنه جائع مثلى . فبعد العشاء إن شاء الله وغداً وبعد غد، يقصها عليك بالتتابع ؛ هاتى لنا العرق الآن وشيئاً من المازا » .

امتثلت سلمى أمر أبيها وراحت تخدم الاثنين كأنها جارية وكأنهما أميران . بل كانت فى نظرهما وهى تروح وتجىء ، كطيف من أطياف الجنة ، خفيفة الحركة رشيقة القوام ، ساحرة اللحظ والابتسام . فلا لوم على إلياس نادر إذا غالى فى حبه لابنته وإعجابه بها . ولا عجب إذا قبل توفيق من أجلها كل لطمة من لطماته ، وضحك لكل نكتة من نكاته . فعند الكأس والحب والشوق واللقاء ، لا يرى المرء على الأرض غير ما فى السماء . ولو سئل سرجنت زيدون رأيه فى الكون بعد أن عاد من فرنسا ، وتعددت زياراته إلى بيت نادر ، لقال ولا شك ناسياً لوسيل والقمار وويلات الحرب : « الكون عال . من الطبقة الأولى » .

أما أنطونيو كاتالان بياع الثمار والحلوى فى الدكان الصغير أمام بيت نادر فجل ما يقال فيه إن رأيه فى الكون لا يليق بالنقل والنشر . ولا عجب . فقد حدث فى عالم أنطونيو ، يوم عاد السرجنت زيدون من فرنسا ، حادث خطير غيّر

فى نظره نظام الكائنات فأمست الحياة كثمرة بالية بين يديه أو كقشرة موز تحت قدميه .

أما فى أثناء تغيب توفيق فقد كان موفقاً فى عمله ، سعيداً فى يومه ، أرباحه كثيرة ، وآماله كبيرة وكل مصاعب الحياة لديه صغيرة حقيرة ، كيف لا وكان إذا نظر من باب دكانه إلى الشباك فى البيت الذى أمامه تجلت له آيات السحر والجمال فى لواحظ فتانة ، سرقت من سماء سوريا النور ، ومن فجر سوريا السهام ، وكم مرة ، وهو يصفف تفاحاته وموزاته ، رآها فى الشباك تنفض البساط ، وخدها كالتفاح ، وجبينها كجبين الصباح . وكم مرة وقف وسلمى فى الباب عند المساء ، وكان الكون أمامهما باباً للسعادة ، مفتوحاً على مصراعيه . بل حدثْ ولا حرج عن ساعات جلس فيها وإياها على الديوان فخيل إليه أن الأفلاك تدور تحت قدميه .

أما الآن ، فالويل لمن أقفل الأبواب ، والويل لمن أفسد عليه نظام الكائنات . والويل لك أيتها الفتاة السورية الناكرة الوعود ، العابثة بالعهود . الويل لك من غضب أنطونيو كاتالان والويل لمن تربع مكانه على الديوان وحل محله فى أعلى الجنان .

فها هو ذا مسرع إلى بيت صديقه القديم بتروكنتى البقال ، وعينه تقدح ناراً ، ورأسه يلتهب بالمقاصد السامية لإصلاح

الكون . أجل ، ليس أنطونيو من الذين يخضعون مستسلمين إلى الأقدار ، أو يسكتون عمن يلعب على حسابهم بالنار .

وصل إلى الدكان فوجد من فيه ممن هم فى نظره آفات الزمان مشتغلين كل بما يهمه . بتروكنتى يعد نقوده ، وامرأته تقشر البطاطا للعشاء ، وابنهما الصغير القذر متربع على الأرض وهو يكسر بيديه ورجليه لعبة من اللعب . فود أنطونيو لو أن الكون كهذه اللعبة بين يديه .

— مساء الخير يا كاتالان . كيف حالك ؟

— لا يهمنى حالى . عندما تنتهى من عد أموالك أكلمك .

— انتهيت . وأنا مُصغٍ اليك .

فدنا أنطونيو منه وانحنى فوق صندوق الزجاج قائلا : أمر مهم .

ففتح بترو باباً صغيراً بين رفوف الدكان وأدخله إلى غرفته الخصوصية .

أما بتروكنتى هذا فقد كان قبل الحرب العظمى عضواً عاملا فى جمعية (اليد السوداء) وكانت وظيفته أن يصنع لإخوانه ما يحتاجون اليه من أدوات التدمير والفناء . على أنه فتح أثناء الحرب مخزناً لبيع المأكولات فربح أرباحاً كثيرة ، ثم تزوج وندم على ذنوبه ، فصار بعد ذلك أباً صالحاً وتاجراً

محترماً . فلا عجب إذا عقد والكون معاهدة سلم أبدية .
ولا عجب إذا اكفهر وجهه عند ما سمع أنطونيو يقول :
« اقترعنا مساء أمس » وادعى أنه لم يفهم معناه .
ـ قد هجرت الجمعية يا كنتى ونسيتها . ولكن إخوانك لم ينسوك . وهم ، وإن كانوا ناقمين عليك ، يغفرون ذنبك إذا أجبت الآن طلبهم . . . بل قد فرض عليك . . . لا تخف ، فالقرعة لنسف المعمل أصابت غيرك » .
فقال بترو وهو يحك رأسه بسبابته : « وماذا تريدون منى ؟ »
ـ ما لا يحسن عمله سواك . قنبله صغيرة ، مدمرة توضع بعلبة من علبِ الشوكولاته ، وإليك الأجرة .
قال هذا أنطونيو وهو يخرج من جيبه لفافة من الورق فعد له عشر دولارات، فابتسم قلب بترو لمرأى المال، ونسى أنه ندم وتاب إلى الله .
ـ يجب أن تسرع فى العمل .
ـ سيتم بعد أسبوع .
ـ حسن جداً بعد أسبوع . إلى الملتقى .
فتصافح الطليانيان المدمران للكون . وخرج بياع التفاح راضياً حتى على آفة الكون زوجة كنتى التى كانت تقشر البطاطا عند الباب . فسلم عليها ، فردت السلام دون أن تنظر إليه .

ـ ما أجمل ابنك يا مسز كنتى. تعال إلىّ يا كنتى الصغير. سأعطيك لعبة جديدة إذا كنت تقبلنى .

وما كاد أنطونيو يقبله حتى وثبت الأم كاللبؤة عليه فانتشلت ابنها من بين يديه . إن السيدة كنتى تكره كاتالان كرهاً شديداً وتتشاءم فوق ذلك منه . ومن عجيب تشاؤمها أن ابنها وقع ذاك المساء فجرح فى وجهه ، فنسبت ذلك إلى قبلة أنطونيو . ولما سألت زوجها عما يريد قال : جاء يستدين بعضاً من المال . فصاحت قائلة : لا تعطه دولاراً واحداً . لا معاملة بيننا وبين كاتالان .

ولكن بترو كنتى ، وإن كان يحب امرأته ويعمل غالباً بنصيحتها ، لا يخلف وعده . وبينا كان يشتغل فى اليوم الثانى فى غرفته الخصوصية تعثر ابنه بصندوق فى الدكان فوقع وشج رأسه . فصاحت الأم مستجيرة بكل قديسى إيطاليا ، فخرج الأب كنتى يسب الشيطان وأعوانه فى الأرض جميعاً .

وهم فى تلك الحالة جاء إلياس نادر يشترى بعض الأغراض لبيته . فساعد الأب والأم فى تضميد جرح الصغير ، ثم اشترى من كنتى أشياء كثيرة وفيها خمسة صناديق من البيرا .

فقال بترو : ولماذا هذا الإسراف يا إلياس .

فقال إلياس : عرس بنتى يا بترو : لى ابنة وحيدة وهى عندى بما فى الدنيا . وسيكون عرسها لائقاً بها .

ــ وهل ترضى هى أن تقترن بأنطونيو كاتالان ؟ .

ــ لا . لا . نحن لم نعد أنطونيو بشىء . عريسها ابن بلدها السرجنت توفيق زيدون ويجب أن تحضر العرس يا بترو فى الأسبوع القادم . جئت خصوصاً أدعوك وإذا كنت لا تحضر أقتلك والله .

ــ سأحضر العرس . والله سأحضر .

وبعد أن خرج إلياس نادر من الدكان لبس بترو قبعته وراح يستطلع خبر أنطونيو ليخفف ما بدأ يخامره من الريب. فلما وصل إلى الدكان رآه واقفاً فى الباب كالمعتوه ، وهو ينظر إلى السيارة أمام بيت نادر ، السيارة التى جاء بها السرجنت زيدون ليخرج بسلمى إلى النزهة .

ــ ما بالك يا كاتالان ؟

فأجابه مبهوتا : لا شىء . لا شىء .

ــ هل علمت أن سلمى نادر ستقترن بابن بلادها السرجنت زيدون ؟

فهز أنطونيو كتفه ، ولعن نفسه باطناً لأنه لم يتمكن من إخفاء غمه واضطرابه . ثم قال وقد تأججت النار فجأة فى

عينيه : هل باشرت العمل ؟ عجل به عجل .

— سأعجل به يا أنطونيو.

وعاد بترو إلى بيته يضحك ويقول : ما أجمل المعمل الذى تريد نسفه يا كاتالان .

وفى اليوم الثالث بعد هذه المقابلة مرض ابن كنتى بالحمى ، فنذرت أمه النذور للقديسين من أجله ، وهى تلعن أنطونيو كاتالان وتود أن تنظف الأرض منه. فشاركها زوجها بالصلوات واللعنات . وتجاوزها إلى التأملات . تأمل ما حدث لابنه الصغير يوم جاءه كاتالان بطلب من « الجمعية » . وفكر فى ما أصابه فى يوم كان يعمل ليلبى طلب الجمعية،وها هوذا اليوم فريسة الحمى طريح الفراش . فسأل كنتى نفسه قائلا : أذلك لأنى قلت: يجب أن أبر بوعدى لكاتالان ؟ الله ينتقم منك يا كاتالان .

ثم خطر لكنتى خاطر فيه الكفارة عن ذنوبه كلها . فجاء فى آخر الأسبوع ، بعد أن زال الخطر عن صغيره إلى دكان أنطونيو بعلبة مختومة بالشمع الأحمر ، ودفعها إليه قائلا :

— هذا آخر ما أصنعه للجمعية . قد انتهيت من هذا العمل . أفهمت يا كاتالان ؟ انتهيت ، انتهيت تماماً . وإياك أن تفتح العلبة، إن فى فتحها قضاء الغرض .

فقال كاتالان متهللا : أشكرك يا كنتي . وأشكرك ثانياً باسم الجمعية .

وفى ذلك اليوم كانت الأهبة للعروس قائمة فى بيت نادر ، فلبث أنطونيو فى دكانه ينتظر قدوم السرجنت زيدون لأنه لم يشأ أن يخص الفتاة وحدها بغضبه . ولما جاء السرجنت العريس استأجر أنطونيو رسولا وأعطاه العلبة قائلا : خذها بعد نصف ساعة إلى سلمى نادر وسلمها إياها يداً بيد . بعد نصف ساعة ثلاثين دقيقة .

وكان أنطونيو قد باع ثماره وحلواه كلها استعداداً لهذه الساعة السعيدة ، فأقفل الدكان وذهب تواً إلى محطة سكة الحديد . . . هاهنا تنتهى وظيفتنا وتبتدئ وظيفة رجال الشرطة.

لما وصلت العلبة إلى سلمى نادت والدها لتطلعه على ما فيها ، وهى تقول : هدية من أنطونيو . كنت دائماً أقول ، ولا أزال أقول ، هو رجل طيب القلب .

على أن والدها عندما همت بفتح العلبة وقفها قائلا : هؤلاء الطليان شياطين . قد يكون فيها ديناميت . أنا أفتحها خارج البيت .

وفى تلك الآونة ، قبل أن يصل إلياس نادر وهو يحمل العلبة إلى الخارج ، دخل اثنان من رجال الشرطة السريين

يوقفان باسم الشرع حفلة العرس .

ثم قال أحدهما مخاطبـــاً رب البيت : وأين الهدايا التى جاءتكم ؟ .

فأشار إلياس إلى مائدة وقد وضعت عليها هدايا العرس .

ـ وهل جاءكم هدية من أنطونيو كاتالان ؟

ـ ها كها .

وقدم إلياس نادر العلبة وهو يتنفس الصعداء فاستلمها الشرطى متحذراً وهو يقول : اشكروا الله أنكم نجوتم من الهلاك جميعاً.

ـ ألم أقل لك يا سلمى إنه قد يكون فيها ديناميت ؟ ياخبيث ياكاتالان . ستنال جزاء ما اقترفت يداك . فالقضاء لا يرثى للمجرم ولا يحابى فى عدله .

وكان فى دائرة الشرطة مشهد آخر فى تلك الساعة له صلة بعرس سلمى نادر وبحبيبها السابق أنطونيو كاتالان .

وهاكم أنطونيو ، وهاكم صديقه كنتى أمام المدير . الأول يحترق كمداً ، ويتحفز انتقاماً ، وهو ينظر إلى ابن بلاده نظرات كأنها الخناجر. والثانى يضحك فى سره وهو هادئ النفس ، مطمئن البال .

وكيف وصل الاثنان إلى دائرة الشرطة ؟ وكيف علمت

الدائرة بما كاد يحل ببيت إلياس نادر من الدمار والهلاك ؟ هى الحلقة السرية فى هذه القصة . ولكننا لا نكتم القارئ حتى أسرار من هم حراس الأمن العام ، وأمناء الهيئة الاجتماعية . يوم جاء أنطونيو إلى دكان بتروكنتى كان من حسن الاتفاق ، أو من سوء الاتفاق لأنطونيو أن جاء بعده أحد رجال الشرطة يزور صديقه القديم فلم يجده فاستقبلته زوجة الطليانى وأكرمت وفادته . إنها تعلم أن سعادتها الزوجية تتوقف على حسن صلتها بهؤلاء الناس .

وقد وعدت السيدة كنتى الشرطى عندما زار الدكان فى اليوم التالى أن تساعده فى استكشاف الغرض الغامض من زيارة أنطونيو لزوجها . وكان أن مرض ولدها كما أسلفنا القول فتشاءمت كما تشاءم زوجها بأنطونير ، وألحت عليه بأن يطلعها على الحقيقة بشأن زيارته . فأخبرها بنصها ولم يكذب : قد اشتريت له بعض المواد لصنع قنبلة صغيرة .

ـ للجمعية ؟ لبيت نادر ؟ لمن ؟ .

ها هنا وقف الرجل قائلا لإمرأته : ما تعودت أن أبوح بأسرار الجمعية .

أما المرأة فبادرت سرًّا إلى دائرة الشرطة تطلعهم على الخبر . وقد كتمت .أن زوجها هو صانع القنبلة .

بيد أن رجال الشرطة لا يجهلون تاريخ « اليد السوداء » فى تلك المدينة فسارعوا إلى بيت نادر ليدفعوا عنه البلاء ، وألقوا القبض على أنطونيو فى محطة سكة الحديد ساعة كان يشترى تذكرة السفر . وكذلك على بترو كنتى المشهور بصنع القذائف والقنابل لجمعية « اليد السوداء » .

وها هما أمام المدير ، الواحد يضحك فى سره ، والآخر يود لو أن بيده تلك القنبلة فيقذف بها ذلك المكان متمثلا بقول ذلك الذى هدم الهيكل فى قديم الزمان : « علىّ وعلى أعدائى يا رب » .

وهاهوذا الشرطى وقدعاد من بيت نادر يحمل العلبة الجهنمية .

فعند ما رآها أنطونيو صاح كالمجنون : « هى علبتى ، هى تخصنى . أنا دفعت ثمنها . أعطونى إياها فأ علمكم كيف يكون العدل ، وكيف يكون الموت » .

قال هذا وهو يحاول الإفلات من أيدى الشرطة فألزموه مكانه .

ثم تكلم بتروكنتى فصدق مدير الشرطة الخبر . قص القصة كلها وختم كلامه قائلا : « افتحوا العلبة فتتأكدوا من صدق كلامى وإذا كنتم تخشون فتحها ، فأعطونى إياها ، واخرجوا من القاعة ، فأنا أفتحها وأتحمل عاقبة أمرها » .

فقال المدير : « لا نكلفك ذلك ياكنتى . فقد برهنت مرة على توبتك الصادقة . وأنا الآن أفتح العلبة بناء على ما قصصت .

قال ذلك وفض ختم العلبة ، فقطع الشريطة المربوطة بها ثم فتحها فإذا هي ملآنة من الأرز الذى يذرّونه فى تلك البلاد على العروسين تبركاً وتيمناً ، وعلى وجه العلبة المال الذى دفعه أنطرنيو ، العشر دولارات . ومعها ورقة كتب عليها :

« يهنئك أنطونيو كاتالان ويرجو أن تقبلى منه هذه العشر الدولارات فتشترى بها هديتين الواحدة لك والثانية لزوجك » .

وكان أنطونيو فى أثناء ذلك غائصاً فى لجة الهواجس ، فرفع رأسه بعد أن سمع هذه الكلمات وخاطب بتروكنتى قائلا : ما أشرفك يا ابن بلادى ! وما أكرمك ، وما أعظم فضلك ! وأنا اليوم أتوب توبتك وأرجو أن أكون على شيء قليل من فضائلك فى المستقبل . إنى تائب أيها المدير ، تائب توبة خالصة صادقة . وبرهاناً على ذلك أترك هذه العلبة بين يديك لتصنع بها ما تشاء . ولكنى أتمنى إرسالها إلى صاحبتها .

وكانت الكلمة الأخيرة للعروس ، إذ عادت العلبة من دائرة الشرطة فى ذلك اليوم بعد الأكليل إليها :

« ألم أقل إن أنطونيو كاتالان رجل طيب القلب ؟! » .

بقضاء و قدر

قصة سياسية رمزية

١

كان فى قديم الزمان ، فى بلاد هيروس ، مدينة تدعى « نبال » يحكم أحياءها الخمسة خمسة شيوخ مستقلون الواحد عن الآخر كل الاستقلال ، وكان الناس فى تلك الأحياء يعيشون متقاطعين ، متنابذين ، فيستهلك سكان كل حى أنفسهم — يستغل بعضهم بعضاً — ولا يعرفون من قواعد الحياة الاجتماعية غير قاعدة واحدة قديمة هى : الطاعة للكبير والعصا للصغير .

وكان الكبير فيهم ينشأ على ثلاثة أصناف من الحب : حب الذات ، وحب المال ، وحب الجاه . فصار كل صغير ، إذا ما كبر يقلد كباره الوجهاء حتى تأصلت فى جميع الناس طبائع الظلم والأثرة ، وسادت المصلحة الخاصة المصالح العامة كلها .

وبما أن كل حى من أحياء نبال كان مستقلا عن الآخر ، مقاطعاً له عملت فى أبنائه عوامل العزلة والأثرة، فحرموا فوائد المخالطة . ومنافع التضامن ، وتفشت فيهم ثلاثة أصناف من الفقر : الفقر المالى ، والفقر الأخلاقى، والفقر الأدبى .

ندب الشيوخ ما صارت إليه أحوال رعاياهم المادية والمعنوية — ندبوها سرًّا فى قلوبهم .

ولكن بعض الناس شكوا حالهم صارخين صاخبين . وبعضهم قاموا يتهمون الشيوخ بما حل بهم ويطلبون الإصلاح . فاجتمع الشيوخ سرًّا ذات ليلة ، وبعد الصلاة والتأمل ، والمذاكرة فى المصالح المشتركة ، أدركوا أن سيادتهم تزول إذا هم سلموا بمطالب المصلحين وأدركوا إنهم لا يستطيعون أن يرحدوا سلطاتهم الخمس لأن كل واحد منهم طالب بالسيادة لنفسه ، متمسكاً بها . فقرروا لذلك أن يذكروا شعوبهم بالعقيدة المثبتة فى كتب الدين ويأمروهم بالعمل بها . وتلك العقيدة هى أن الشعوب تشقى وتسعد بقضاء وقدر .

عندما سمع الناس كلام الشيوخ طأطؤوا رؤوسهم طوعاً وحزناً . وراحوا يسترحمون الله . ولكن أفراداً فيهم أعطوا من الشجاعة والعقل أكثر من سواهم قاموا ينادون بخلع الشيرخ وبتأسيس حكم واحد فى مدينة نبال . وقد تبع هؤلاء الزعماء

فى كل حى جماعات من الناس ، فأعلنوا الثورة على الشيوخ ، فاشتعلت نارها اشتعالا متقطعاً يبدو حيناً لهيباً وحيناً دخاناً ، فيسطع النور تارة وطوراً يتلاشى ، ذلك لأن أهل نبال كانوا ينشدون الإخاء والمساواة، ويرغبون فى العدل والحرية . ولكنهم لفقرهم وضعفهم المادى والمعنوى لم يستطيعوا الجهاد المستمر فى سبيلها . فقالوا بعد وميض من النجاح فى دجى الفشل والقنوط : « الحق مع شيوخنا . إن بلاءنا وذلنا بقضاء وقدر »

٢

جاء فاتح من الشرق فاستولى على مدينة نبال فى بلاد هيروس. وولى عليها حاكماً واحداً فرفع الحواجز القديمة بين الأحياء ، وحث الناس على المخالطة ، والمشاركة ، والتعاون والتضامن — « كونوا إخواناً فتُثْرون وتسعدون » .

أطاع الناس حاكمهم الجديد . ولكنهم فى اتحادهم كانوا كالماء والزيت ، لا كالخمر والماء . ذلك أن حب الذات ، وحب المال ، وحب الجاه ، ناهيك بما تأصل فيهم من نفور

بعضهم من بعض ، وكره بعضهم لبعض . وتعصب بعضهم على بعض ، قد حالت كلها دون تبادل الثقة ، وصفاء النية ، وحسن الظن . وبكلمة أخرى ، قد كان الإدغام على دغل ، فدب بين الناس روح التنابذ والتخاذل ، ومشى الكبار على هام الصغار إلى أغراضهم الخاصة . بل ضجت حول العرش المكائد والأطماع فرأى الفاتح صوناً لنفسه ولعرشه أن يسود الشيوخ كما كانوا سائدين فى الماضى ، فقسم المدينة إلى أحياء وسعى فى إقامة التوازن بين آهاليها فقوى الضعيف على القوى حيناً ، وحيناً تملق للقوى دون الضعيف ، وكان فى أكثر الأحايين يغرى بعضهم ببعض .

قال الفاتح للشيوخ المستقلين المقيدين بالعرش : « الطاعة منكم لى تضمن الطاعة منهم لكم » . فصاغوا لأنفسهم قيوداً من ذهب ، وللناس قيوداً من حديد .

ظلت مدينة نبال ، فى بلاد هيروس ، بضعة قرون على هذه الحال . يستغل الشيوخ الشعب ويستغل الفاتح الشيوخ وكلهم ، وقد خيم عليهم الفقر والجهل والذل يقولون : « بقضاء وقدر » وكلهم يسترحمون الله .

٣

جاء الفاتح من الغرب فاستولى على مدينة نبال فى هيروس، وكان قد أرسل إليها رواده السود فعلّموا أبناءها لغته ، ثم جاءت بناته البيض يعلمنهم أساليبه فى الحب ، والسلوك ، وزينة العيش .

وقد علم الفاتح من رواده وبناته أن شعب نبال قد نشأ على ثلاثة أصناف من الحب : حب الذات، وحب المال، وحب الجاه ، فقال فى نفسه : هوذا شعب مثل شعبنا ، ولا يفل الحديد إلا الحديد .

لذلك باشر حكمه باسم المال وبه . فبذل منه بلا حساب فى مدينة نبال وبلاد هيروس ، فجاءه الشيوخ طائعين شاكرين ، وبيد كل واحد قيد ومفتاح : هوذا مفتاح السيادة ، يا صاحب الدولة ، وهوذا قيدها : فرق تسد، وابذل تدم .

ولكن هذا الفاتح الجديد يحب المال كما قلت حب أبناء

نبال له . فلم تمكنه شهوته هذه ، ولا مكنته خزانته ، من البذل الدائم . ما العمل إذن ؟ إن هناك قيداً غير ذاك الذى أشار به الشيوخ ، فقد استعمل المفتاح ، مفتاحهم واستعاض عن القيد بأن أقام الحواجز القديمة بين الأحياء .

ثم جاء بجنوده البيض والسود والصفر يعزز حكمه ، فنشأت النفرة فى قلوب الناس فقام من يحسنون منهم الكلام ينتقدون الفاتح ويطعنون عليه . وقام كذلك الشيوخ لأنه بدل أن يسترضيهم بالمال فى الأقل شرع يتجهمهم ، ويشتمهم ، ويهددهم بجنوده السود . فنهض فى بعض الأحياء الناس عليه ، واشتعلت فى بلاد هيروس للمرة العاشرة أو العشرين نيران الثورة .

وكان الناس فى نبال يحبذونها فى قلوبهم ويلعنونها بألسنتهم . بيد أن ذلك لم يخف على الفاتح فكرههم ، واحتقرهم ، وعاملهم معاملة السيد للعبيد .

ولكن الشيوخ الذين يمتصون كالعلق دم الشعب ظلوا يتملقون الفاتح ويتزلفون له . أما هو فلأنه أبغضهم جميعاً — ولا يستقيم مع البغض عمل — نسى تقاليد أمته المجيدة ، وأمسى لا يحسن إدارة شؤون بلاد هيروس ومدينة نبال ، فتفشت بدوائر الحكومة كل أنواع الظلم والفساد .

استمرت هذه الحال بضع سنين حسبها الناس بضعة قرون ، وهم يئنون ، ويشكون ، ويقولون مع شيوخهم : « بقضاء وقدر » ثم يسترحمون الله .

٤

ضرب البؤس فى نبال أطنابه ، وأرسل الغل فى كل ناحية أضواريه ، فأمسى الفاتح بين الاثنين حائراً فى أمره هلعاً متضعضعاً . وقد خطر له أن يغير خطته وسلوكه الإدارى ، بل سلوكه الشخصى أيضاً ، عله بالحب والحكمة والعدل يظفر بطاعة أهل هيروس وبرضاء أهل نبال . فيوفر فى الأقل ما ينفقه على جنوده السود وينجو من الغل الذى يغلى فى صدور الناس .

ولكن الناس ، وقد سبق الغل إلى قلوبهم فتوطنها — احتلها — أمسوا لا يثقون بهذا الفاتح ولا يحسنون الظن به . ولا يصدقون ما يقول بل كانت لهم الجرأة أن يقولوا له : « إننا لا نصدقك ولا نؤمن بك » .

ومع ذلك فقد أسس الفاتح فى مدينة نبال حكومة دستورية مستقلة تعززها المجالس النيابية والوزارات وتحميها الجندرمة والسيارات ولها فوق ذلك رايتان ولحنان وطنيان . فقال الناس : « هى مكيدة . فهو يريد أن يزيد فقرنا فقراً . فندخل رؤوسنا فى ربقته صاغرين » ؟ .

وأقام فى بلاد هيروس حاكماً وطنياً واحداً ، فوحد الأحياء ، وعيّن الوزراء من الأدباء والشعراء . وأسس المعاهد العلمية والصناعية ، ثم قطع الأشجار ليوسع الطرق للدفاع عن الوطن ، وضحى بجنوده الغرباء فى هذا السبيـــل فقال الناس : غربى خبيث ، لطيف الحديث يذبح إخواننا دفاعاً عنا ، ويقدم لنا كأساً من الحنظل تطفو على وجهها حبب شبيهة بحبب الشمبانيا . غربى خبيث .

رقت سمعة هذا الغربى الفاتح كالغراب فى بلاد هيروس ، وفى مدينة نبال ، فانتشرت منها أنواع السموم . فقحلت حقول الجميل والمعروف وأظلمت مساكن حسن الظن . وعندما عم البلاء واستولى اليأس والغم حتى على قلوب الشيوخ قام أحد الحكماء منهم مواسياً معزياً فقال : « هو مثل كل الفاتحين ، ونحن مثل كل المستضعفين الذين يقيمون فى طريق الفاتحين — إن بلاءنا بقضاء وقدر » .

٥

سمع الفاتح هذه الكلمة فأنكرها لأول وهلة ، ثم ذكرها ورددها مراراً فى نفسه . وكان من أمره أنه عاد إلى بلاده يستشير كبار قومه فقال أحد الشيوخ هنالك : وهل نحن فى هيروس للتجارة والكسب أم للخسارة والذلة ؟ هذا شعب مثلنا محب للمال والجاه ومحب كثيراً لنفسه ، فلا يمكننا أن نستولى عليه ، وعلى موارد ثروته ، إلا فى تمليقنا له ، وتمجيدنا لأجداده ؟

وقال شيخ آخر : إنما نحن فى هيروس لنعزز مركزنا البحرى ونتولى باباً إلى الشرق .

وقال ثالث : ولكن أصحاب ذاك الباب أتعبوا رأسنا . دوّخونا فيجب علينا استرضاؤهم وخير الوسائل هى أن نرسل بناتنا إلى تلك البلاد فنصاهر أهلها ونتخذهم لنا أخداناً وأعواناً .

وقال الرابع : وهل يستوى السيد والعبد ؟ وهل يستوى العالم والجاهل ؟ أتريد أن نصاهر نحن أرباب التمدن من

لا يعرفون من المدنية غير عنوانها ؟ إني أرى أن نرسل إليهم الراقصات والقيان من بناتنا ونشفعهن بالشمبانيا . لاعبوا القلوب فتذهب العيوب . خدروا العقول فتستقيم الميول .

ثم انبرى للكلام أحد المعارضين هناك فقال : لا أمل لنا في هيروس ونبال ولا راحة بال إذا سلكتم هذا المسلك المشين . لا أمل لنا في تلك البلاد إلا إذا أعطينا أهلها أحسن ما عندنا من النظم ، ومن العلوم ، ومن الأخلاق . وإذا كنا لا نستطيع ذلك فعلينا أن نخرج منها في الحال .

ضج الشيوخ فصاحوا بالرجل صوتاً واحداً : عدو الوطن خائن الأمة . وأخرجوه من المجلس .

ثم أقروا بالإجماع رأى التخدير . وعاد الفاتح إلى هيروس ونبال يقيم فيهما معالم السرور ويعبد الطرق إلى اللذات . فقال بعض الشبان الذين يدعون الحكمة ويؤثرون عليها المال وظلاً من الجمال : قد صدق شيوخنا . لا بد من هذا الفاتح مهما كان أمره . إن بلاءنا حقاً « بقضاء وقدر ! ! »

٦

طوى الزمان أيامه ولياليه . وكانت نبال تزداد فقراً ، وهيروس تزداد غلا ، وقد تكاثرت فى البلاد الحسان والمسارح والحانات ، سكرت نبال فظنت نفسها أخت قارون ، وتخدرت هيروس فخيل إليها أنها ربة التاج والصوبجان .

وقد رأى الفاتح أن يستمر فى التخدير فأحيا لأهل نبال ليلة راقصة فى يخته الراسى بميناء البلد .

ليلة راقصة فى يخت الفاتح العظيم ، إنه لتعطف جميل يشمل الأوانس والشبان، ولا يزدريه الشيوخ. ولكن الرياح لا تجرى بما تشتهى السفن دائماً . ففى الليلة السابقة لليلة اليخت الراقصة شبت فى مخازن نبال النار . فاندلعت ألسنتها فى كل جانب ، والتهمت قسما وافراً من ثروة المدينة .

وعندما انبلج الفجر فأشرقت الشمس على ركام سوداء تحت سقوف هاوية وبين جدران متهدمة ، اندلعت ألسن

الظن والغل ، فقال الناس : « غربى خبيث ، يبسم لنا في النهار ويحرق مدينتنا فى الليل . غربى أثيم يسقينا الشمبانيا لينسينا البنزين » .

غضب الفاتح المسكين غضبة البرىء وقال : « أقسم بالله إنها بقضاء وقدر » .

٧

أنير اليخت بالكهربا ، وعزفت فيه الموسيقى واصطف الخدم لاستقبال الناس . فتقاطرت إليه الأوانس والشبان من مدينة نبال . وجاء كذلك كبار القوم يتقدمهن نساؤهم وبناتهم.

دارت رحى السرور التى تطحن القلوب والعقول ثم دوت كالبنادق زجاجات الشمبانيا فثمل الناس وهم على رمية نبل من الحريق الذى كان لا يزال يرسل إلى السماء من أنفاسه المتقطعة لهيباً ودخاناً .

استمر الرقص حتى انبلج الفجر على تلك الركام والطلول

فاستفاق إذ ذاك الفاتح وقد اكفهر منه الجبين ، استفاق من ثمله فأحس بما يلتهب كذلك فى قلوب النباليين إخوان الراقصين والراقصات ، وقد قال فى نفسه : لو أجلنا الليلة الراقصة ! نعم كان من الواجب أن نؤجلها .

ثم قال يهون الأمر : « ولكن كبار نبال لم يفكروا فى ذلك . فقد بادروا إلى الحفلة حتى رئيسهم الأكبر . فإذا كانوا هم لا يشعرون بالنكبة فهل ألام أنا الأجنبى ؟ »

ولكنه عند ما سمع فى اليوم التالى صوت المدينة المنكوبة تردده صحافتها ، وتجارها ، ونساؤها ، ذكر تلك الكلمة النبالية الهيروسية المشهورة فقال : وهل كان يحضر شبانكم وبناتكم وشيوخكم الحفلة الراقصة لو لم يكونوا متيقنين مثلى أن الحريق كان بقضاء وقدر ؟

* * *

بقضاء وقدر ! أجل . وأنت هناك يا أخى بقضاء وقدر ، وإن القضاء ليسعى بينك وبين أهل هيروس ونبال ، والقدر يهدم ما تبنيه ويبنونه من الآمال .

صوت هادئ بارد خافت ، له مع ذلك روعة السؤدد والعظمة ، تموّج إلى مسمع الفاتح من ناحية الغرب . فسمعه كذلك يقول :

أيها الزميل الكريم ، والفاتح العظيم مهما كان من حسن ظنك ، وصفاء نيتك وشريف مقاصدك ، فإن شهرة سوداء تقدمت ما تأخر من أعمالك ، وإن ما فيه تسويد صحيفتك وتشويه سمعتك لمثل ما فيه نكبات هيروس ونبال : بقضاء وقدر !

فهرست

المكتبة الحديثة للأطفال

للأستاذ محمد عطية الإبراشى

مجموعة قصص عذبة اللغة ، جميلة التصوير روعيت فيها ميول الأطفال وأحدث النظريات فى التربية وعلم النفس . (ثمن الكتاب ٥ قروش).

دار المعارف بمصر

المكتبة الثقافية للأطفال

للأستاذ محمد عطية الإبراشى

تجلو هـــذه المجموعة للشباب المثـــال الأعلى فى الحياة من النواحى الخلقية والاجتماعية والوطنية

دار المعارف بمصر

ظهر حديثاً

روبن هود

أسطورة وطنية تشوّق الصغار وتعجب الكبار بحوادثها العجيبة ومراميها النبيلة وتستحوذ على الألباب بما فيها من آيات البطولة والشجاعة والفروسية تحلت بها نفوس أبية حرة تلاقى الضرّ ولا تلاقى الهوان .

الثمن ١٠ قروش

« روبن هود » هو الكتاب التاسع من مجموعة

أولادنا

المجموعة التى توفر للشباب أبلغ القصص تأليفاً وترجمة واقتباساً وتقدمه إليه فى أجمل حلة

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

اقرأ

محمود كامل

تحرير وادي النيل

دار المعارف بمصر

تحرير وادى النيل

كلمة المؤلف

يقول أميل لودفيج فى كتابه « النيل » إن مصر هى القطر الوحيد على سطح الأرض الذى يعيش فيه كل مصرى دون أن يختفى منظر النهر من أمام عينيه وأن الدول المتعاقبة على حكم مصر أتت فاستخدمت النهر ثم ذهبت ولكن النهر والد تلك الأرض الطيبة خلد على مر الدهر .

ويقول ونستون تشرشل فى كتابه « حرب النهر ». إنه إذا نظر القارئ إلى خريطة النيل فإنه لا يستطيع أن يتمالك نفسه من الدهشة للشبه الشديد بين النيل وشجرة النخيل ففى الجزء الأعلى تجد الخضرة وأرض الدلتا الخصبة وهى تنتشر كفروع الشجرة ذات الأوراق النضرة وقد تلاحظ أن جزع الشجرة يتعرج تعرجاً طفيفاً لأن النيل ينساب متثنياً وسط الصحراء . وفى جنوب الخرطوم نجد الشبه تاماً بين مجرى النيل وشجرة النخيل فإن جذوع هذه الشجرة تبدو متسربة فى أعماق جنوب السودان. ولا أستطيع أن أتخيل صورة أفضل من هذه الصورة لإبراز العلاقة الدقيقة

الوثيقة بين مصر والأقاليم الجنوبية . فالماء – وهو حياة الدلتا – يأتى من السودان وينساب فى مجرى النيل كما ينساب عصير الحياة فى جزع الشجرة صاعداً إلى فروعها منتجاً خير الفاكهة . وفائدة مصر من هذه الصلة بديهية لا تحتمل مناقشة ولكن هذه الفائدة لا تعود على مصر وحدها فإن الصلة بين مصر والسودان تعم مزاياها الاثنين معاً وهما يتبادلانها وإذا كان السودان جزءاً لا ينفصل عن مصر من الوجهة الطبيعية والجغرافية فإن صلة مصر بالسودان ضرورية ضرورة حتمية لتقدم ورفاهية السودان . وماذا تكون فائدة الجذور والأرض الخصبة إذا انتزع الجزع عنوة وهو الذى بدونه لا يمكن أن يصل عصير الحياة إلى فروع الشجرة المورقة فى الهواء الأعلى ؟ .

ومن الأخطاء الشائعة أن وادى النيل قاصر على مصر والسودان . فالواقع أن هذا الوادى يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك إذ أن منابع النيل الأبيض – وسنرى أن هذا النيل يحمل أسماء مختلفة فى سيره من الجنوب إلى الشمال – موزعة فى ثلاثة أقطار مزقها الاستعمار الأوروبى وفرض حدوداً جغرافية بين كل منها . وجعل لكل منها شكلاسياسياً خاصاً من أشكال الحكم . وهذه الأقطار هى أوغندا الموضوعة تحت حماية بريطانيا

وتنجانيقا المشمولة بوصاية بريطانيا منتدبة من هيئة الأمم المتحدة . وكينيا التى لا تزال تعد مستعمرة بريطانية .

فجبال رونزورى Ruwenzori – التى يسميها النيليون من أهالى المنطقة جبال القمر – التى تنساب منها مياه الأمطار إلى بحيرة فيكتوريا تقع فى أوغندا التى تشغل بحيراتها سدس مجموع مساحتها. ومن هذه البحيرات بحيرة إدوارد وبحيرة جورج وبحيرة البرت التى تحمل معظم المياه الهابطة من جبال رونزورى إلى النيل .

وتضم أوغندا الوديان التى تتجمع فيها مياه الجزء الأول من النيل الذى يسمى باسم نيل فيكتوريا . وبحيرتى إبراهيم « كيوجا » وكيوانيا اللتين تعترضان طريق نيل فيكتوريا بين بحيرتى فيكتوريا وألبرت . كما تضم قناة كازينجا التى تصل بين بحيرتى إدوارد وجورج . والجزء الأخير من نهر سمليكى الذي يغذى بحيرة ألبرت – وسنرى فيما بعد أنه اكتشف باسم مصر فى عهد إسماعيل – ونهر كافو الذى يغذى بحيرة إبراهيم وأخيراً فإنها تضم بحيرة سالسبورى التى تغذى نيل فيكتوريا بمياه الأمطار التى تهبط على جبل الجون . ونهر أسوا الذى يغذى النيل على مقربة من الابراهيمية « نيمولى » .

ومن المجمع عليه أن أوغندا – الواقعة تحت الحماية

البريطانية – تعد من الوجهة الجغرافية بمجموع مساحتها حوض النيل الأعلى فنيل فيكتوريا – وهو الاسم الذى يطلق على الجزء الأول من النيل والذى يبلغ طوله ثلاثمائة ميل – يبدأ من نقطة فى أقصى شمال بحيرة فيكتوريا عند چينچا وتعترضه هناك شلالات ريبون فى أرض أوغندا . ثم تعترضه بعد ذلك شلالات أوين فى هذه الأرض نفسها فإذا مر ببحيرة ابراهم «كيوچا» – وسنرى فيمابعد أنها بحيرةاكتشفت باسم مصر وأطلق عليها بحيرة إبراهيم تيمناً باسم والد عاهل مصر عند اكتشافها – انساب بعد ذلك إلى بحيرة كيوانيا ثم إلى بحيرة ألبرت – وسنرى فيما بعد أن أول باخرة مخرت مياهها كانت باخرة مصرية فى عهد إسماعيل – حيث تعترضه فى أقصى شمالها شلالات ميرشيسون ومن هناك يحمل الجزء الثانى من النيل اسمه الثانى نيل ألبرت الذى يبلغ طوله مائة وخمسين ميلا إلى الإبراهيمية «نيمولى» – وسنرى فيما بعد أنها نقطة على النيل تسمى الإبراهيمية تيمناً باسم والد عاهل مصر الذى وصل المصريون فى عهده إليها وأن الاستعمار شاء بعد ذلك أن يعيد إطلاق اسمها القديم عليها – وأخيراً فإن نهر كاچيرا الذى كان يسمى « النيل » والذى يعد واحداً من نحو خمسة عشر نهيراً تغذى النيل عند بحيرة فيكتوريا بمياه الأمطار

الهابطة من جبل الجون يبلغ طوله أربعمائة وخمسين ميلا ويمر في أراضي أوغندا ويسميه النيليون المقيمون في هذه المنطقة «أم نهر چنچا» باعتبار أنه يغذى بمائه النهر العظيم الذي يخرج من بحيرة فيكتوريا عند چنچا .

وفي كينيا — وهي مستعمرة بريطانيا — يقع الحوض الذي يضم النهيرات التي تشترك في تغذية بحيرة فيكتوريا وأهم هذه النهيرات «نوزيا» و «يالا» و «مارا» .

وفي «تنجانيقا» الموضوعة تحت وصاية الأمم المتحدة التي انتدبت بريطانيا لإدارتها — تقع بحيرة تنجانيقا وهي أطول بحيرة عذبة المياه في العالم إذ يبلغ طولها ستمائة وأربعين كيلومتراً والتي تغذى بعض منابع النيل كما تقع النهيرات التي تشترك في تغذية بحيرة فيكتوريا وأهمها «موري» و «مارا» — الذي رأينا أنه يمر بأرض كينيا — و «كاجيرا» — الذي رأينا أنه ينتهي في أوغندا .

وأخيراً يقع الجزء الجنوبي من بحيرة فيكتوريا وخليج أمين الذي يحمل اسم آخر حاكم من قبل مصر على المديرية الاستوائية المصرية .

* * *

من ذلك كله يتضح أن حوض النيل الأعلى بأجمعه

ـ أى بجميع الجبال والبحيرات والأنهار والنهيرات التى تتجمع فيها مياه النيل الرئيسى ـ إنما تقع فى أراض شاء الاستعمار الأوروبى أن يفصلها عن مصر رغم ما سوف يتبين فى هذا البحث العلمى من قيام وحدة جغرافيه وتاريخية و « جنسية » ـ اتنولوجيك ـ ولغوية .

وسوف نبحث فى هذا الكتاب مدى هذه الوحدة بحثاً علمياً خالصاً ومدى ما اجترأ عليه الاستعمار الأوروبى فى وادى النيل لتمزيق هذه الوحدة ومدى الجهود التى بذلت لتحرير وادى النيل من هذا الاستعمار مؤمنين بأن واجب مصر والسودان ـ بعد إلغاء معاهدة التحالف والصداقة بين مصر وبريطانيا التى وقعت عام ١٩٣٦ واتفاقى الحكم الثنائى اللذين وقعا عام ١٨٩٩ بشأن إدارة السودان ـ أن تتجه أنظارهما إلى هذا الوادى جنوباً وأن تشتركا اشتراكاً إيجابياً مثمراً فى إتمام الخطوات التى بدأت لتحرير ما لم يتم تحريره من أراضى هذا الوادى .

ولكى نتبين أهمية هذا البحث يحسن أن نذكر أن مساحة الأقطار التى يمر فيها النيل من منبعه إلى مصبه تبلغ خمسة ملايين ونصف المليون من الكيلومترات المربعة تشغل مصر والسودان نحو ثلثيها إذ تبلغ مساحتهما ثلاثة ملايين وستمائة

ألف كيلومتراً مربعاً بينما تبلغ مساحة أوغندة وكينيا وتنجانيقا مليوناً وسبعمائة وثمانية وخمسين ألفاً . فإذا تذكرنا أن مساحة الجزر البريطانية — إنجلتره وويلز واسكتلنده وايرلنده — هي مائتان واثنان وأربعون ألفاً من الكيلومترات المربعة لعلمنا أن الأقطار الواقعة على جانبي النيل تبلغ مساحتها ثلاثة وعشرين ضعف مساحة الجزر البريطانية ؛ كما أن مساحة هذه الأقطار النيلية تبلغ أكثر من نصف مجموع مساحة أوربا التى تفرض استعمارها العاتى على أفريقيا إذ أن مساحة أوروبا لا تزيد عن عشرة ملايين من الكيلومترات المربعة .

ولكى أختم هذه المقدمة يجب أن أضيف أن هذه الأقطار النيلية تبلغ مساحتها أكثر من سدس مجموع مساحة إفريقيا كما أن هذه الأقطار تضم نحو ثلث مجموع سكان هذه القارة الأفريقية.

محمود كامل

المحامى

الشعوب النيلية

من ظواهر الجغرافية الإنسانية فى القارة الإفريقية أنه لا توجد فى قلبها حواجز طبيعية تفصل بين شعوبها وانعدام هذه الحواجز هو الذى ساعد على هجرة القبائل الإفريقية من مكان إلى آخر كما ساعد على امتزاج هذه القبائل وعلى التشابه فى ثقافاتها . كما أنه لا توجد أنواع متباينة من الأجناس المختلفة التى تكون سكان هذه القارة الذين ترتفع بينهم نسبة الأجناس الرحالة ارتفاعاً عظيماً(١).

وأجناس أفريقيا الرئيسية هى :

١ — سكان الغابات والمناطق غير المطروقة المعروفون باسم « البوشمان » Bushman .

٢ — الزنوج الذين يسميهم التعبير الأتنولوجى الأوروبى Negro .

٣ — الحاميون الذين يقطنون شرق القارة .

---

(١) The Encyclopaedia Britannica الطبعة الحادية عشر — كلمة Africa عند الكلام على الأجناس الإفريقية Ethnology

٤ ــ الليبيون .

٥ ــ الساميون .

والقسم الأول من هذه الأجناس يتميز بقصر قامته وسمرة بشرته سمرة مائلة إلى الاصفرار . وكان « البوشمان » يقطنون فى بادئ الأمر فى جنوب إفريقيا فاضطرتهم قبائل الهوتنتوت Hottentots الرعاه و « البانتو » Bantu المزارعون وهى قبائل تقطن جنوب غرب أفريقيا إلى الهجرة فوصلوا إلى بحيرة تنجانيقا أى إلى منطقة منابع النيل . ولا شك أن أوجه الشبه كبيرة بين « البوشمان » وبين « الهوتنتوت » و « البانتو » وهى تبدو فى قصر القامة والبشره السمراء المصفرة .

أما القسم الثانى من الإفريقيين ــ أى الزنوج ــ فيسكنون باقى وسط أفريقيا بما فيه وادى النيل الأعلى وهذه المنطقة من وسط أفريقيا تسكنها أيضاً القبائل الرحالة التى تكونت من امتزاج الليبيين فى شمال أفريقيا بالعرب الساميين وبالحاميين فى الشمال الشرقى من القارة .

والقسم الثالث من الأجناس الإفريقية ــ الحاميون ــ يسكنون الصومال والحبشة ولو أن الأحباش قد امتزجوا بالساميين فتكون من هذا الامتزاج جنس سامى حامى .

والقسم الرابع وهم ــ الليبيون المعروفون بالبربر ــ يسكنون شمال

أفريقيا فى الجزائر ومراكش وهم شعب أبيض تأثر فيما بعد بالطابع العربى .

والقسم الخامس — الساميون — يسكنون شمال شرق أفريقيا أى مصر وشمال السودان وما جاورهما .

ومن الثابت أن مصر — دون سائر دول العالم التى تعتبر متمدينة فى العصر الحالى — قد نشأت فيها مدنية أصيلة قبل أن تنشأ فى غيرها. ونمت تلك المدنية وازدهرت وانتشرت منها فى أرجاء العالم الآخر التى كان آدميوها يتحركون فى غاباتها إلى جانب الحيوانات وهم على الفطرة . هذا أمر أجمع عليه كافة المؤرخين الذين توافروا على دراسة تاريخ مصر القديم فلا شك أن المصريين شعب له كيانه الخاص ومقوماته « الأنتولوجية » المميزة له دون سائر الشعوب الأخرى التى مرت مثله فى عصور ما قبل التاريخ . أى العصور السابقة لاستخدام الإنسان للمعادن . وهى عصر الحجر غير المصقول . وعصر الحجر المصقول . وعصر الانتقال من استخدام الحجر إلى استخدام المعدن . والشعبان اللذان مرا مثله — ومعه — فى تلك العصور هما الشعب الكلدانى الذى كان يقطن وادى دجلة والفرات . والشعب الذى كان يقطن وادى نهر الهندوس فى الهند . وقد دلت الآثار التى وجدت فى مصر من العصر

الحجرى على فساد الزعم بأن الحضارة المصرية التى نشأت فى العصر الحجرى هى حضارة كلدانية انتقلت إلى مصر بغزو الكلدانيين لها . كما دلت تلك الآثار على أن المصريين قد انتقلوا من العصر الحجرى — أى عصر ما قبل التاريخ — إلى العصر المعدنى قبل غيرهم من شعوب العالم أجمع .

ومن الثابت أن أول مدنيتين ازدهرتا فى التاريخ هما مدنيتا المصريين والكلدانيين ولكن مصر تحتل مكان الصدارة بالنسبة لقدم المدنية المصرية وبالنسبة لعدد الآثار التى خلفتها وجمالها. ففى مصر تبدو شخصية المصرى منذ أقدم عصور التاريخ. ويمكن للمؤرخ أن يتبع تطور جسمه وروحه وآثاره الاجتماعية والسياسية والعقلية والفنية تطوراً متسقاً متسلسلا بدون انقطاع إلى يومنا . وهى ظاهرة لا مثيل لها فى تاريخ أى مدنية أخرى . ولذلك يجب أن تبدأ فى مصر دراسة أصول المدنية التاريخية فى العالم .

والراجح علميا أن الإنسان قد ظهر فى مصر وفى الأقطار المجاورة لها - من شمال أفريقيا قبل أن يظهر فى غيرها من بقاع العالم . ففى الوقت الذى كان الثلج يغمر أوربا كانت الصحراء الكبرى الحالية بقاعاً تغمرها المياه وتغطيها الحشائش وتجوب فيها الحيوانات . وقد وجدت حول الجزائر وعلى مقربة

٥٢٢

البحر الأبيض المتوسط
القاهره
ليبيا
القطر المصرى
بلاد العرب
البحر الأحمر
النيل
السودان المصرى
ارتريا
الخرطوم
الصحراء الكبرى
بلاد الحبشة
بحيرة رودلف
أوغندا
كينيا
جبل الجون
خط الاستواء
جبل روتزورى
بحيرة إدوارد
بحيرة فكتوريا نيانزا
بحيرة كيفو
الكنغو البلجيكيه
تنجانيقا
دار السلام
بحيرة تنجانيقا
المحيط الهندى

من تونس آثار عرف عمرها من عدد طبقات الأرض التى تراكمت فوقها وهذه الآثار عبارة عن أدوات وأسلحة لشعب من الصيادين الرحل . كما أن صور الحيوانات التى كانوا يصطادونها وجدت محفورة على الجدران فى بعض جهات السودان . وقد وصل هؤلاء الصيادون إلى حافة المنخفض الذى كان النيل يجاهد لكى يحفر لنفسه ممراً فيه . وفى العصر الثلجى الأول لأوروبا تمكن النيل من أن يجد منفذاً بين أحجار الجرانيت فى النوبة فوصلت مياهه إلى البحر الأبيض المتوسط . وفى العصر الثلجى الثانى لأوربا اجتذب وادى النيل بمائه ونباتاته وحيواناته صيادى المناطق المجاورة (١) ومن الثابت أيضاً أن المصريين قد انتقلوا فجأة من العصر الحجرى الأول Palœolithic إلى العصر الحجرى المهذب Neotithic الذى يحسن أن يسمى العصر النحاسى Chalcolithic لأن النحاس كان قد بدأ استعماله أثناءه فلم يعثر على آثار تدل على أن المصريين قد تدرجوا مع العصر الحجرى بدرجاته المختلفة كما تدرجت شعوب أخرى وقد اتضح من الحفائر العميقة فى دلتا النيل وجود أوانى خزفية وطوب مصنوع كما وجدت جمجمة فى دمياط على عمق عشرين أو ثلاثين متراً .

(١) A. Moret, G. Davy : rom Tribe to Empire p. 117, — 118

وبناء على التقديرات المعقولة يكون أولئك البناؤون قد عاشوا هناك منذ ستة عشر ألف عام[١] ومن المحتمل أنهم الشعب الذى عاش بين عصر الصحراء الحجرى والعصر النحاسى الذى جاء بعده وهو العصر الذى يعود تاريخه إلى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد[٢].

ومن الثابت أيضاً أنه لا توجد آثار تدل على وجود الإنسان فى سوريا أو بين نهرى دجلة والفرات تعود إلى ما قبل أربعة آلاف سنة قبل الميلاد وفى ذلك التاريخ كان المصريون قد دخلوا باب تاريخهم الخاص وثبتت أقدامهم فيه . ولذلك فمن الحكمة أن نعزو تقدم المصريين الأوائل إلى الظروف الاستثنائية التى أتاحها لهم وادى النيل ولا يوجد دليل على أن ذلك التقدم يعود الفضل فيه إلى أجانب عن أولئك المصريين كانوا أكثر منهم تقدماً أو رقياً[٣].

ولعل أحسن رد على ما زعمه بعضهم من أن أوجه الشبه التى بين آثار الكلدانيين التى من العصر الحجرى وآثار

---

(١) James Breasted : The Origins of Civilisation (reprinted from the Scientific Monthly) November 1919 p. 307.

(٢) J. De Morgan : Recherches sur les origines de l'Egypte p. 100.

(٣) موريه وديفى المرجع السابق ص ١٢٢

المصريين التى من نفس العصر تدل على أن مصر قد اقتبست من حضارة الكلدانيين هو ما ذكره أحد كبار الثقات فى التاريخ المصرى القديم من أن جميع المكتشفات والابتكارات الهامة مصرية صميمة وأنه ليس هنالك ما ينبئ أن مصر مدينة لآسيا بتلك الحضارة بل إن من الممكن تفسير ذلك الشبه بين حضارة مصر وحضارة الكلدانيين بأنه حدث فى وقت انتقال الحضارة المصرية إلى الخارج(١).

وقد انتهى العصر الحجرى فى مصر — وكان لا يزال مستمراً فى غيرها كما قلنا — حوالى عام ٣٢٠٠ قبل ميلاد المسيح وبدأ تاريخ الأسر المصرية التى توالت على حكم مصر. ويجمع العلماء فى علم الأجناس على أن الشعوب الحامية التى كانت تسكن شمال القارة الإفريقية حول وادى النيل هى التى تولت مهمة التوسع فى قلب القارة فى عصر ما قبل التاريخ وهذه الشعوب الحامية أرست أسس تقدم مصر تحت ظل الحضارة الزراعية وهى تنتمى إلى مجموعة « جنسية » تسكن شمال شرق القارة امتازت بروح تقدمية وقد انتقل هذا الشعب من شمال شرق أفريقيا إلى شرقها فى عصر ما قبل التاريخ ولم يتوقف هناك إذ أنه توغل فى منطقة خط الاستواء وتدل

(١) Gordon Childe : L'Orient Préhistorique

وسائل الزراعة التى استخدمت لدى السودانيين ثم لدى « البانتو » ـ التى سبق أن ذكرنا أنها قبائل امتازت باحترافها الزراعة فى أفريقيا الاستوائية ـ على مدى الأثر الذى تركه خاصة الشعب الحامى أو الذى تأثر بالحضارة الحامية فى أفريقيا الشرقية وافريقيا الوسطى . وعلى مدى ما تركته هذه الهجرة الحامية القادمة من الشمال عبر الصحراء فى شعوب أفريقيا الوسطى .

وقد لوحظ فى كل أفريقيا الشرقية أن الأجناس الحامية قد طبعت منذ عصر ما قبل التاريخ حضارتها كما تثبت ذلك الحفائر فى أراضى كينيا وتنجانيقا[١] .

وثابت أيضاً أن قبائل « البوشمان » ـ التى سبق أن ذكرنا أنها القبائل الرحل التى تعيش فى الغابات، والتى هاجرت من جنوب غرب أفريقيا إلى منطقة بحيرة تنجانيقا ـ وقبائل « البيجمى » Pygmees وهى قبائل الأقزام التى تعيش فى منطقة خط الاستواء قد استخدمت منذ عصر ما قبل التاريخ القوس ذا السهم المسمم فى صيد الحيوانات ولم يحدث ذلك مصادفة فإن الباحثين فى علم الأجناس يقررون أن

(١) P.Láviosa Zambotti : Les Origines et La Diffusion de la Civilisation P. 50, 120.

استخدام القوس ذى السهم المسمم كان من دأب الشعوب الراقية فى العصر الحجرى الأول وأن أفريقيا قد استخدمت هذه الوسيلة من وسائل الصيد فى العصر الحجرى المهذب « نيوليتيك » وأن الشعوب الحامية التى اتجهت من شمال القارة إلى شرقها ووسطها سعياً وراء التوسع قد نقلت معها هذه الوسيلة وأنه لا تزال هناك قبائل من صيادين حاميين تعيش فى كينيا وفى تنجانيقا تستخدم إلى اليوم القوس ذا السهم المسمم وأن من الراجح أنها فى ذلك تتابع الوسيلة التى نقلتها القبائل الحامية القادمة من الشمال إلى الجنوب (١).

ولم يقتصر أثر الحضارة الحامية التى انتقلت من شمال أفريقيا إلى وسطها أو بتعبير أدق من دلتا النيل إلى منطقة منابع هذا النيل على هذه الوسيلة البدائية من وسائل الصيد بل أنه تعداه إلى مظاهر أخرى ووسائل أخرى من وسائل الصيد التى كانت تستخدمها مصر قبل الأسرة الملكية الأولى . وأن زراعة الخوص اللازم لصناعة المقاطف والتى لا تزال سارية فى كينيا وأوغندا وتنجانيقا أدخلت إلى هذه الأقطار الواقعة حول حوض النيل الأعلى بواسطة الشعوب الحامية المهاجرة

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٣

من الشمال فى ذلك العصر الحجرى(١) .

ولم يقتصر بحث العلماء فى علم الأجناس على هذه الناحية من تقرير أثر الشعوب التى كانت تعيش فى شمال وادي النيل على الشعوب التى كانت تعيش فى جنوب. هذا الوادى بل إن المتخصصين فى علم اللغات من هؤلاء العلماء قد قطعوا بوجود نوع من الوحدة بين لغات الشعوب النيلية رغم ما يبدو من اختلاف بينها فقد ذهب العلامة الألمانى راينيش Reinisch إلى أن هناك وحدة لغوية للقارة الإفريقية وأن اللغات الحامية قد تركت طابعها على لغات وسط أفريقيا . وأن اللغة النوبية إنما هى أقرب إلى هذه اللغات الحامية بما فيها اللغة المصرية القديمة منها إلى أى لغة أخرى . وذهب العلامة الألمانى«ماينهوف» Meinhof إلى أن لغات قبائل « البانتو » إنما هى ثمرة نوع من المزج بين اللغات السودانية واللغات الحامية ولكنه عارض راينيش فى أن اللغة النوبية لغة حامية وأقره على ذلك العلامة الإيطالى آزيريللى Assirelli ولكنه بعد أن ذكر أن اللغة النوبية تفترق عن اللغة الحامية القديمة وعن لغة « البانتو » لم يستطع إلا أن يقر بأنه رغم هذا كله فإن هناك من أوجه الشبه فى الأفعال وتكوين الكلمات ما يبرر للعلماء أن يقرروا بوجود

(١) المرجع السابق ص ١٤٣

هذه الصلة بين اللغة النوبية واللغة الحامية ولغة « البانتو »(١).

وقد آمن المصريون منذ فجر التاريخ بأن وحدتهم مع الشعوب النيلية وحدة تحتمها اعتبارات الجوار والمصلحة المشتركة. ولا داعى فى هذا البحث لسوق العديد من الأدلة التاريخية. ويكفى أن مصر قد اتحدت مع بلادالنوبة فى عصر الأسرة الأولى أى عصر ملوك طيبة عام ٣١٩٧ قبل الميلاد .

وأول حوادث تاريخية تسجل الامتزاج بين المصريين والسودانيين هى علاقات التجارة التى أنشأتها مصر عام ٢٦٠٠ قبل الميلاد مع دنقلة والبعثة التى أرسلتها مصر إلى دارفور ولم يترك الشعب النيلى الذى كان يقطن السودان فى ذلك الوقت تاريخاً مكتوباً ولكن أهم ما خلفه من أثر وجد فى ناحية فاراس على مقربة من وادى حلفا .

وفى الأسرة الوسطى أى فى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد وصل المصريون إلى الشلال الرابع وأنشأوا فى « كرما » مقراً للحاكم لا تزال آثاره باقية إلى الآن . كما أنشأوا على جانبى النيل سلسلة من الحصون لحماية المواصلات مع مصر. وظلت هذه الوحدة قائمة ثلاثمائة عام والأرجح أن انقطاع هذه الصلة مؤقتاً بعد ذلك لم يكن إلا بسبب غزوة الهكسوس لمصر فى عام ١٧٠٠

(١) O. Assirelli : L'Afrique Polyglotte P. 169.

قبل الميلاد لأن المصريين لم يكدوا يتخلصون من حكم الهكسوس فى عام ١٥٨٠ قبل الميلاد حتى استعادوا امتزاجهم بالسودان فى عهد « احمس » الأول الذى بنى معبد « بوهن » على مقربة من وادى حلفا كما بنيت بعد ذلك عدة معابد بعضها وصل جنوباً إلى جبل بركال[١].

وقد ظلت مصر تحمل رسالة الوحدة بينها وبين الأقاليم الجنوبية فى عهد الدولة القديمة التى انتهت عام ١٤٢٣ قبل الميلاد[٢].

وعلى المعبد الكبير فى الكرنك توجد نقوش تدل على أن بعثات تحوتمس الأول (١٦٦٧ ق.م.) قد وصلت إلى منطقة البحيرات التى ينبع فيها النيل[٣] كما ثبت أن تحتمس الأول أحد ملوك هذه الدولة كان يلقب فى عهد أبيه أمنحتب الأول باسم أمير « كوش » وهى الكلمة المصرية القديمة التى تعبر عن الإقليم الواقع جنوب وادى حلفا .

ومن الثابت تاريخياً أن أول مملكة سودانية قامت فى السودان عام ٧٥٠ ق.م. كانت متأثرة تأثراً قوياً بثقافة مصر

---

(١) تقويم السودان لسنة ١٩٤٩ ص ٢٦

(٢) حسن كمال « مصر والسودان » وقد ذكر أن أقدم رواية تاريخية عن وحدة مصر والسودان مدونة فى حجر بالرمو

(٣) Chaillé Long: L'Egypte et ses provinces perdues P. 40.

ودينها وأنها اتخذت « نباتة » على مقربة من « مروى » مقراً لها وأن الملك كاشتا والملك بعنخى من ملوك هذه الأسرة وسلالتهم قد حققوا الوحدة مع مصر بل أسسوا الأسرة الخامسة والعشرين المصرية . فلما غزا الأشوريون مصر عام ٦٦٠ قبل الميلاد انسحب هؤلاء الحكام السودانيون إلى السودان وظلت سلالتهم نحو ألف عام تحكم المنطقة المحيطة بمروى إلى عام ٣٥٠ بعد الميلاد .

وقد عاد المصريون إلى تحقيق وحدتهم مع السودانيين بعد دخول الإسلام إلى مصر فى عام ١٣٤٠ بعد الميلاد إذ أسقطوا المملكة التى كانت قد اعتنقت المسيحية فى شمال السودان واتخذت دنقلة مقراً لها .

وفى عام١٣٨٢ ميلادية أى فى عهد دولة المماليك البحريةرد الظاهر بيبرس الوحدة بين الشعبين النيليين إلى النوبة وسواكن .

وفى القرن الخامس عشر حلت أسرة مالكة إسلامية اتخذت سنار مقراً لها محل الأسرة المالكة السودانية الجنوبية التى كانت لا تزال معتنقة المسيحية وتوطدت أركان الإسلام فى ربوع السودان .

ويجمع الإخصائيون فى علم الأجناس Ethnology على أن

العرب هم الذين أحدثوا أهم انقلاب « جنسى » فى شعوب أفريقيا وعلى الأخص فى الشعوب النيلية . ففى الشمال وفى الشرق ترك العرب أثراً واسعاً راسخاً بنشر الدين الإسلامى فى جميع أرجاء السودان . كما أن هؤلاء الإخصائيين يقررون أن الجغرافية « الفسيولوجية » لأفريقيا لا تضع عقبات فى طريق الحركات « الجنسية » أى رحلة الأجناس المختلفة من مكان إلى آخر وامتزاجها [١] ويقررون أيضاً أن العرب كانوا منذ عصر ما قبل التاريخ مختلطين بالمصريين وكان نشاطهم بادياً فى شمال أفريقيا[٢] وقد ثبتوا أقدامهم على شاطئ أفريقيا الشرقى وكانوا يقوموا بحملات مستمرة لاقتناص العبيد من الداخل حتى وصلوا إلى « الكونجو » وليس الجنس المعروف باسم « السواحلى » الذى يقطن شاطئ أفريقيا الشرقى من خط الاستواء إلى درجة ١٦ عرض جنوباً إلا مزيجاً من العرب و « البانتو » .

كما أن الامتزاج بين الليبيين والزنوج قد أثمر جنساً يدين بالإسلام ويقطن شاطئ أفريقيا الغربى من شمال النيجر إلى حوض النيل . وكما أحدث العرب أهم انقلاب

(١) The Encyclopaedia Britannica ص ٣٢٦

(٢) J. Sergi : mediteranean Race

« جنسي » فى شعوب أفريقيا باختلاطهم بأهلها . أحدثوا أيضاً أبرز أثر فى تاريخها . وقد بدأ غزو العرب للقارة الإفريقية فى القرن السابع الميلادى وهم مؤمنون بالإسلام . وتابعوا الغزو من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطى .

وفى القرون الثامن والتاسع والعاشر بعد الميلاد كان عدد العرب المسلمين فى أفريقيا قليلا ولكن هجرتهم إليها زادت فى القرن الحادى عشر وامتزجوا بالبربر الذين كانوا قد أصبحوا يتحدثون باللغة العربية كلغة أصلية ويدينون بالإسلام . وامتد النفوذ العربى إلى الجنوب عبر الصحراء واستقروا فى شرق أفريقيا . واتضح أن العرب كانوا قد وصلوا إليه من قبل واستغلوا أراضيه الغنية كممباسا وزاولوا التجارة فى الوقت الذى كانت تجهل فيه أوربا كل هذه الأقطار الإفريقية كما كان يجهلها عرب شمال أفريقيا .

وقد تجلى فى العرب الذين هاجروا إلى أفريقيا ما امتاز به جنسهم من روح المغامرة والتحمس فى بث الدعوة للإسلام وحفزتهم هذه الميزة على اكتشاف مجاهل القارة . وأعانهم استعمال الجمل فى قطع المسافات الطويلة عبر الصحراء فامتد نفوذهم إلى « سينجامبيا » وحوض النيجر الأوسط ودانت « تمبوكتو » بالإسلام عام ١٥٩١ . ولا شك أن أول وصف

علمى لشاطئ أفريقيا الشرقى هو وصف الرحالة « ابن بطوطة » الذى وصل إليه عام ١٣٣٢ وأعطى صورة دقيقة للمدن الإسلامية الزاهرة كممباسا وغيرها(١).

وفى خلال القرن الخامس عشر الميلادى ـ وكانت مصر تتزعم جميع البلاد العربية ـ طاف الرحالة البرتغالى فاسكوده جاما حول رأس الرجاء الصالح ووصل إلى ميناء مالندى Malindi فى شاطىء شرق أفريقيا عام ١٤٩٨ وكان يخيل إلى الأوربيين أنهم أسبق الناس إلى اكتشاف هذا الشاطئ ولكن فاسكوده جاما التقى هناك بالرحالة العربى أحمد بن مجيد وقد استعان الرحالة البرتغالى بما كان يحمله الرحالة العربى من خرط بحرية دقيقة ومن أدوات ملاحية لم تكن معروفة لدى الأوربيين وقد ظل اسم أحمد بن مجيد إلى أقل من قرن مضى يذكر على أنه أمهر بحار طاف بسواحل أفريقيا الشرقية بل هناك من يذهب إلى أنه هو الذى اكتشف البوصلة البحرية .

وظل للعرب ـ حتى بعد أن بدأت أطماع الدول الأوربية الاستعمارية تتطلع إلى أفريقيا ـ فضل السبق فى اكتشاف

---

(١) Richard Burton من بحث عن « البحارة العرب » العدد ١٠ السنة ٤ مجله « المستمع العربى »

مجاهل القارة . فقد أنشأوا مدينة زنزبار فى الجزيرة التى تحمل اسمها عام ١٨٣٢ ومنها بدأوا رحلاتهم إلى بحيرات شرق أفريقيا وحوض النيل الأعلى .

ولعل أدق وصف لحقيقة الأسباب التى يسرت للعرب المسلمين سبل التسلل إلى مجاهل القارة الإفريقية وعلى الأخص إلى الأقطار الواقعة على جانبى وادى النيل والتى لم يكن قد وصل إليها من قبل أحد قبلهم من غير أهلها النيليين هو ما قرره أحد المستشرقين الثقات فى تاريخ الشرق الأدنى إذ قرر «أن روح المساواة الأخوية بين كل المسلمين تسود الإسلام وهذه الروح أخذ بها الغرب ودرسها ولكنها غريبة عن طريقة الحياة فى المسيحية . والصلف الجنسى أى الاعتزاز بجنس معين ، كان لا وجود له فى الإسلام فكل من آمن بالله يقبل كأخ له نفس الحقوق التى لغيره من المؤمنين سواء كان زنجياً أم من الجنس الأصفر أو أوربياً ونجاح الإسلام العظيم فى أفريقيا إلى اليوم يعود إلى هذه الروح »(١).

وقد اتخذ الإسلام بعد انتشاره فى السودان مظهراً شكلياً خاصا كاد ينفرد به هذا الجزء من وادى النيل ـ هو إقبال

---

(١) Hans Kohn : Western Civilisation in the Near Past. 46.

النيليين المسلمين من أهل السودان على الانضمام إلى الطرق الصوفية وأقدم هذه الطرق فى السودان هى الطريقة القادرية التى كان قد أسسها السيد محى الدين عبد القادر الكيلانى فى العراق وقد أدخلها إلى السودان فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى تاج الدين البحرى وظلت هى الطريقة الوحيدة هناك إلى أن انقسمت إلى عدة فروع من أهمها الطريقة الأحمدية التى أسسها السيد أحمد البدوى فى طنطا بمصر وقد أدخلت هذه الطريقة إلى السودان عقب وصول المصريين عام ١٨٢١ فى عهد محمد على الكبير إلى شمال السودان وأهم أنصارها فى منطقة وادى حلفا .

وأكبر الطرق الصوفية انتشاراً فى السودان هى الطريقة الختمية التى أسسها السيد محمد عثمان الكبير المولود فى الحجاز عام ١٧٨٧ ومن فروعها الطريقة الإسماعيلية التى أسسها إسماعيل الولى فى الأبيض ويكثر أتباعها فى كردفان

* * *

ويبلغ مجموع عدد النيليين الأفريقيين سكان أوغندة وكينيا وتنجانيقا ثلاثة عشر مليوناً وستمائة ألف ، منهم ثلاثة ملايين وتسعمائة وسبعة وسبعين ألفا فى أوغندة وأربعة ملايين

وخمسة وخمسين ألفاً فى كينيا وخمسة ملايين وخمسمائة وثمانين ألفاً فى تنجانيقا .

ويبلغ فريق « البانتو » بين سكان أوغندة نحو مليونين أى نحو ثلثى مجموع عدد السكان وهذا الفريق يقطن الولايتين المعروفتين باسمى « بوغندا » و « بونيورو » أما الثلث الآخر من سكان أوغنده فإنه شعب نيلى بحت أى أنه سلالة القبائل التى هاجرت من السودان وهذا الفريق ينقسم إلى قسمين أحدهما يضم قبائل « أشولى » و « كاكوا » و « كوكو » و « جابودولا » و « شوبى » والآخر يضم قبائل « لوجبارا » و « مادى » وكلها قبائل تعيش تحت نفس الأسماء فى جنوب السودان .

وفى تنجانيقا يسود عنصر « البانتو » ويكون غالبية السكان وهؤلاء « البانتو » فى « تنجانيقا » هم ثمرة امتزاجين « جنسيين » متعاقبين أولها امتزاج بين الأجناس النيلية السوداء « الزنوج » والأجناس الحامية الأصيلة أى ذات اللون الداكن وهذا الامتزاج أثمر فريق « البانتو » الأصلى الذى وزع على عدة قبائل تسكن ولاية « تابورا » . وثانيهما امتزاج بين هؤلاء وبين القادمين إلى تنجانيقا من الحاميين ذوى اللون الفاتح وقد أثمر هذا الامتزاج مجموعات إنسانية معروفة باسم « البانتـــو » الجدد وهذا

الفريق يسكن المنطقة الواقعة جنوب شرق بحيرة فيكتوريا .

وقد قدمت إلى تنجانيقا هجرات بشرية من قبائل « البانتو » التى كانت مقيمة فى « موزامبيق » وكينيا ، وغيرهما وسكنت المناطق التى تقع شرق بحيرة نياسا وعلى شواطئ بحيرة فيكتوريا .

أما العنصر الحامى الشرقى فتمثله قبائل « المازى » التى تقطن على الحدود بين تنجانيقا وكينيا .

وفى كينيا يبدو فريق « البانتو » واضحاً كما بدا فى القطرين النيليين الآخرين بل أنه أكثر وضوحاً فى هذا القطر إذ يبلغ هذا الفريق ثلثى مجموع السكان وهو موزع على ثلاث قبائل رئيسية أولاها قبيلة « كامبا » ولا يعرف لها أصل أكيد وقبيلة « كافيروندو » التى تضم نحو نصف مايون من المزارعين والرعاة حول بحيرة فيكتوريا . وقبيلة « كيكويو » التى انتقلت منذ أقل من قرن إلى كينيا .ويعيش إلى جانب هذه القبائل الثلاثة قبيلة « ليو » التى يبلغ عددها نحو ستمائة وخمسين ألف نسمة وهى من أصل نيلى بحت .

أما الفريق الحامى فى كينيا فتمثله ثلاث قبائل أهمها قبيلة « المازى » وهم من الرعاة الرحل الذين أقبلوا من حوض النيل الأعلى واستقروا أول الأمر فى المنطقة المحيطة بجبل « الجون » وبحيرة رودلف وهم فى حرب مستمرة منذ أعوام طويلة وصراع

دائم مع القبائل الأخرى .

و « المازى » جنس نيلى حامى ينتمى إلى أصل حامى بحت وهم من نفس جنس الشعوب الحامية التى تسكن الحبشة وشمال أفريقيا ويظن أنهم انتقلوا إلى الجنوب تدريجياً مختلطين فى هجرتهم مع الشعوب النيلية حتى انتهوا إلى ما انتهوا إليه الآن أى حتى أصبحوا جنساً حامياً نيليا ، وكانوا فى هجرتهم البطيئة نحو الجنوب ينشدون المراعى فانتهوا إلى سهول كينيا ثم إلى سهول تنجانيقا التى كفتهم لاتساع مساحاتها والتى استطاعوا الاحتفاظ بها كمجالهم الحيوى بفضل نظامهم العسكرى وروحهم الحربية(١).

ويبدو أن الاستعمار البريطانى قد آلى على نفسه مهمة إفناء هذا الفريق من النيليين إذ أنه أرغم « المازى » على ترك السهول التى كانوا يعدونها مجالهم الحيوى فى كينيا وتنجانيقا إلى أرض شاسعه تكاد تكون صحراوية تقع فى جنوب نيروبى وتتجه إلى وديان كلمنجارو .

ويذهب المتوفرون على دراسة القبائل النيلية التي تعيش فى أوغندة وكينيا وتنجانيقا إلى أنه رغم تعدد هذه القبائل فإنها

(١) Louis Roux : L'Est Africain Britannique Kenya. Tanganyika Uganda P. 46.

ِصلها النيلى وتوالى التزاوج بين أفرادها كادت تصبح
احداً فإن قبيلة « الكافيروندو » التى سبق أن ذكرنا
ى قبائل فريق البانتو تضم فرعاً نيلياً أى من أصل
ث من الأصل الذى تنتمى إليه قبيلة « ليو » التى سبق
رنا أنها تجاور قبيلة الكافيروندو. وقبيلة « ليو » بحكم
من النيل الأعلى تتصل بصلات المصاهرة والقرابة
« أشولى » التى سبق أن ذكرنا أنها تعيش فى شمال
وجنوب السودان (١)

لغ عدد العرب المقيمين فى الأقطار النيلية الثلاث
وكينيا وتنجانيقا وفى ميناء زنزبار على شاطئ أفريقيا
نحو ستين ألفاً وهم سلالة العرب الذين قدموا من عمان
ا واستقروا فى زنزبار وتفرقوا على شاطئ أفريقيا الشرقى
ين السابع عشر والتاسع عشر .

لغ عدد الهنود الذين استقروا فى هذه الأقطار النيلية
ين القرنين السابع عشر والثامن عشر — مائة وتسعة
لفاً موزعين على الوجه الآتى واحد وتسعين ألفاً فى
ربعة وأربعين ألفاً فى تنجانيقا وأربعة وثلاثين ألفاً فى

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠

أوغندة . ويشاهد المسافر فى نيروبى وكامبالا وغيرهما من مدن الأقطار النيلية الثلاث أثر النشاط الهندى فيها فصور البانديت نهرو والمهاتما غاندى وجنه وأغا خان معلقة فى المتاجر والمحال العامة التى يكاد الهنود يحتكرونها . وفى كل قرية من قرى الأقطار النيلية الثلاث حائك ثياب هندى . وقد احتفظ الهنود بالطابع المعمارى الهندى فى المبانى التى أقاموها . وغالبية المسلمين الهنود الذين هاجروا إلى الأقطار النيلية الثلاث ينتمون إلى الطائفة الأسماعيلية التى يتزعمها أغا خان ويبلغ عددهم ثلث عدد الهنود المقيمين فى هذه الأقطار .

أما المستعمرون الأوربيون البيض — وسنشرح فى الفصل التالى قصة الاستعمار الأوربى فى وادى النيل — فيبلغ عددهم فى الأقطار النيلية الثلاث ثلاثاً وخمسين ألفاً ومائة أوربى منهم تسعة وعشرين ألفاً فى كينيا وستة عشر ألفاً ومائة فى تنجانيقا وسبعة ألاف وستمائة فى أوغندة .

ومن الثابت أن اللغات التى يتحدث بها النيليون المقيمون على شواطئ بحيرة فيكتوريا تتسم بطابع حامى وإن كان المتوفرون على دراسة لغات هذه المنطقة يقسمون هذه اللغات إلى قسمين رئيسيين أولها اللغات النيلية السودانية التى تتحدث بها قبائل أشولى وما إليها من القبائل التى سبق أن ذكرنا أنه

تعيش فى جنوب السودان وشمال أوغندة وإنها تربطها صلات مصاهرة وقرابة بقبائل ليو التى تعيش فى كينيا وثانيهما اللغات النيلية الحامية التى تتحدث بها قبائل المازى وما إليها ويقرر هؤلاء الباحثون أن هناك حقيقة مادية لغوية تثير الانتباه هى أن هناك لهجة من لهجات لغة « البانتو » تأثرت تأثراً قوياً باللغة العربية هى اللغة « السواحلية » . وهذه اللغة يتحدث بها خمسة عشر مليوناً من الإفريقيين بين شاطئ المحيط الهندى ووسط أفريقيا . وأن هذه اللغة السواحلية هى اللغة التى يتفاهم بها أهل الأقطار النيلية الثلاث . بل إنها اللغة التى يتفاهم بها الأسيويون والأوربيون الذين هاجروا إلى هذه الأقطار .

واللغة السواحلية تدرس فى عدد كبير من المعاهد اللغوية فى أوربا ويذهب نفس الباحثين فى لغات هذه الأقطار النيلية إلى أن اللغة السواحلية — وهى مزيج بين لهجات البانتو المختلفة والعربية — قد تسللت وانتشرت فى داخل أفريقيا بانتشار التجار العرب وأن لغة البانتو هذه قد تغذت بعدد كبير من الكلمات العربية التى فقدت بعض كيانها الأصلى واكتسبت طابعاً جديداً كان ثمرة التأقلم مع اللهجات النيلية وأتاح لهذه اللغة سعة الانتشار .

واللغة السواحلية تدرس رسمياً فى الأقطار النيلية الثلاث

مع أن البعثات الدينية الأوربية المسيحية كانت قد شنت عل
حرباً شعواء عند ما بدأ الاستعمار الأوروبى فى وادى النيل[1].

* * *

أما شعب السودان المصرى فيحسن أن نبدأ هنا بالحديث عن فريق هذا الشعب الذى يقطن المديريات الجنوبية الثلاث فى التقسيم الإدارى الجديد وهى المديرية الاستوائية ومديرية بحر الغزال ومديرية أعالى النيل . وهى المديريات الواقعة على وجه التقريب جنوب خط عرض ١٠ شمال خط الاستواء .

ومن المعروف أن النيل الذى كان يسمى منذ خروجه من بحيره فيكتوريا إلى بحيرة ألبرت بنيل فيكتوريا والذى سمى بعد ذلك منذ خروجه من بحيرة ألبرت إلى الإبراهيمية « نيمولى » بنيل ألبرت أصبح يسمى منذ مروره بالإبراهيمية — وهى أقصى حدود أوغندة شمالا والسودان جنوباً — ببحر الجبل ويظل محتفظاً بهذه التسمية حتى يتجاوز خط عرض ٩ شمال خط الاستواء حيث يلتقى ببحيرة « نو » وببحر الغزال وهو أحد فروع النيل الغربية فيكتسب اسمه الرابع وهو النيل الأبيض .

وتذهب التقسيمات « الجنسية » لشعب جنوب السودان إلى أن القبائل التى تقطن غرب بحر الجبل وهى قبائل « الازاندى »

(١) المرجع السابق ص ٥٨ ، ٥٩

وعددها مائتان وثلاثون ألفاً و « المورو » و « المــادى » هى قبائل سودانية والى أن القبائل التى تقيم على ضفتى بحر الجبل وهى قبيلة « الدنكا » وعددها ثمانمائة وعشرون ألفاً و « النوير » وعددها ثلاثمائة وأربعون ألفاً و « الشيلوك » وعددها مائتا ألف هى قبائل نيلية وأن القبائل التى تقطن أقصى جنوب السودان أى الجزء الذى يقع شمال الإبراهيمية « نيمولى » حول « جوبا » عاصمة المديرية الاستوائية الحالية وهى قبائل «البارى» وعددها مائة ألف و« اللاتوكا » هى قبائل نيلية حامية وقد سبق أن ذكرنا أن هذه القبائل على صلات مصاهرة وقرابة مستمرة بقبائل أوغندة وكينيا وتذهب هذه التقسيمات نفسهــا إلى أن شعب شمال الســودان الذى يقطن المديريات الست الشمالية وهى المديرية الشمالية والخرطوم وكسلا والنيل الأزرق وكردفان ودارفور والذى يبلغ عدده نحو خمسة ملايين إنما هو شعب جاء ثمرة الاختلاط بين الحاميين سكان الوادى الأصليين والعرب الذين قدموا من الشمال والذين ظلوا على مدى القرون يعبرون البحر الأحمر فى جماعات صغيرة قادمة من شبه الجزيرة العربية .

وأهم القبائل التى تقطن شمال الســودان هى قبائل « الهادندوه » و « البشارين » و « بنى عامر » التى تقطن تلال

البحر الأحمر والتى تتحدث العربية بلهجاتها الحامية والنوبيون وهى قبائل شمال السودان تتحدث العربية مطبوعة بطابع من اللغة النوبية القديمة أما وسط السودان فتقطنه قبائل عربية صميمة أهمها « الكواحله » و « الجعليين » و « البقارة » .

ومما لا شك فيه أن جميع شمال السودان يتكلم العربية ويدين بالإسلام .

* * *

أما المصريون فلسنا فى حاجة إلى أن نذكر فى هذا البحث الموجز أكثر من الحقيقة العلمية الثابتة وهى أنهم شعب من أصل حامى امترج بالعرب الساميين الذين توالت هجراتهم على مصر على مدى القرون .

الاستعمار فى وادي النيل

مما يثير الانتباه أن أول محاولة بريطانية لاغتصاب أرض فى أفريقيا كانت المحاولة التى قامت بها بريطانيا فى شمال وادى النيل سنة ١٨٠٧ فى عهد محمد على الكبير فقد حاولت بريطانيا غزو مصر فاتفقت مع محمد الألفى أحد زعماء المماليك الناقمين على نظام الحكم الذى وضعه مؤسس الأسرة المالكة المصرية ونزلت الجيوش البريطانية فى الإسكندرية بقيادة الجنرال فريزر ثم زحفت إلى رشيد وكان محافظها إذ ذاك على بك السلانكى وأسرع محمد على فأرسل إليه وإلى غيره من حكام الموانىء المصرية يعرض استعداده لإرسال المدد ولكن أهالى رشيد أكدوا أنهم قادرون وحدهم على صد الغزاة وقد تغلبوا فعلا على الجيش البريطانى الزاحف فى ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ وكان ذلك النصر المصري إيذاناً بفشل الحملة البريطانية .

وعاد البريطانيون يحاولون التغلب على مقاومة المصريين فالتقوا بهم فى الحماد يوم ٢١ إبريل سنة ١٨٠٧ وكان البريطانيون

بقيادة الجنرال ستيوارت ولكن المصريين تغلبوا فى الحماد كما تغلبوا فى رشيد واضطر البريطانيون إلى توقيع الاتفاق الذى تم بين الجنرال شيربروك وبين محمد على بدمنهور فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ وهو الذي تعهد فيه بالجلاء عن مصر.

وقد عمدت بريطانيا بعد أن فشلت محاولاتها فى وادي النيل إلى ضم مستعمرة الكاب إليها فى سنة ١٨١٦ وظلت تتربص فى أقصى جنوب أفريقيا أول فرصة لكى تحقق حلمها الاستعمارى القديم فى شمال القارة وبالذات فى وادي النيل. وكانت مصر بعد تولى محمد على الكبير الحكم قد بدأت جهوداً عصرية جبارة لإدخال الحضارة إلى السودان والوصول إلى منابع النيل وكشف هذه المنابع — التى كانت إلى ذلك العهد مجهولة — للعالم المتحضر.

ولا يتسع هذا البحث للإفاضة فى جهود مصر الحديثة لتحقيق وحدتها مع أقاليم النيل الجنوبية فمن الثابت أن المصريين وصلوا إلى بربر على بعد ألف وخمسمائة وواحد وثمانين ميلا من القاهرة وهى التى تقع على خط عرض ١٨ شمالا فى ١٠ مارس سنة ١٨٢١. وإلى سنار على بعد ١٥٩٤ ميلا من القاهرة التى تقع على خط عرض ١٣ شمالا فى ١٢ يونيو من نفس السنة. وتولى محمد بك الدفتردار صهر محمد

على باشا مهمة الوصول إلى أقاليم غرب النيل الأبيض فوصل إلى الأبيض عاصمة مديرية كردفان الحالية التى تقع على خط عرض ١٣ شمالا وتوغل فى مديرية دارفور فى شهر إبريل من نفس السنة . كما أن الأمير إسماعيل بن محمد على تولى مهمة الوصول إلى فازوغلى فى يناير سنة ١٨٢٢ . ومن الثابت أن المصريين هم الذين أنشأوا مدينة الخرطوم وأصبحت عاصمة السودان باتخاذ خورشيد باشا لها عاصمة للحكم .

وهنا يقر إميل لودفيج فى كتابه «النيل» .

« لقد تبين أمير مصرى – محمد على – ما لنقطة التقاء النيلين الأبيض والأزرق من أهمية حيوية فى تاريخ العالم فأسماها الخرطوم . . . . حيث لا يسع الفكر إلا أن يتوقف حتى إذا لم تكن هناك مدينة قائمة . حيث يتعانق النيلان كشقيقين » .

ومما يستحق الذكر هنا أن مؤرخاً أمريكياً قد اشترك مع المصريين فى محاولة مسايرتهم للنيل من منبعه إلى مصبه فى تلك الفترة من تاريخ مصر وهذا المؤرخ هو جورج بثيوم انجليش George Bethume English وقد أصدر كتاباً عن هذه الرحلة أسماه « حملة دنقلة وسنار تحت قيادة صاحب السمو إسماعيل باشا وبناء على أمر صاحب العظمة

محمد على باشا نائب الملك فى مصر بقلم أمريكى فى خدمة نائب الملك » .

A Narrative of the expedition to Dongola and Sennar under the command of his Excellency Ismail Pacha undertaken by order of his Highness Mohamed Ali Pacha Viceroy of Egypt, by an American in the service of the Viceroy.

وقد أسلم هذا المؤرخ الأمريكى قبل سفر الحملة إلى أعالى النيل وأطلق على نفسه اسم محمد افندى ويرجح المستشرق الأمريكى بيير كرابيتيس Piere Crabites القاضى السابق للمحاكم المختلطة فى كتابه «أمريكيون فى الجيش المصرى» أنه لم يكن الأمريكى الوحيد الذى صحب المصريين إلى أعالى النيل فى سنة ١٨٢٠ إذ أن اثنين من علماء الانجليز هما وادنجتون Waddington وهانبرج Hanburg قد أشارا فى كتاب لهما صدر هو الآخر عام ١٨٢٢ وأسمياه « يوميات زيارة إلى بعض جهات الحبشة » إلى محمد أفندى وإلى أمريكى آخر صحب الحملة المصرية معه .

كما أن انجليش فى كتابه المشار إليه سابقاً قد ذكر اسم أمريكى آخر كان زميلا له فى تلك الحملة المصرية وهو « خليل أغا » ذكر عنه أنه رجاه أن يحصل من الأمير إسماعيل

على إذن بمصاحبة الحملة وأنه ربما كان أول شخص قطع المسافة بين رشيد وسنار بواسطة النيل أى بواسطة البواخر المصرية التى عملت فى خدمة هذه الحملة .

ولم يستطع الاستعمار البريطانى عند ما اغتصب السودان فيما بعد أن ينكر جهود مصر فى هذا السبيل فأقام نصباً تذكارياً فى الميدان الرئيسى بمدينة « جوبا » عاصمة المديرية الاستوائية التى تقع على بعد ٤٧٨٧ كيلو متراً من القاهرة حفرت عليه التواريخ والأسماء التالية .

١٨٤٠ — ١٨٤١ — سليمان كاشف — سليم قبطان . وهذان العالمان أرسلهما المغفور له محمد على الكبير مؤسس الأسرة المالكة المصرية فى التاريخ المحفور على الحجر لمحاولة الوصول إلى منابع النيل قبل أن تفكر أية دولة أوربية فى محاولة كشف هذه المنابع . وسجلت المراجع العلمية أن ثانيهما سليم قبطان وضع أول رسالة علمية عن أواسط أفريقيا نشرتها له الجمعية الجغرافية الفرنسية فى سنة ١٨٤٢ ووصفت رحلة هذا المصرى بأنها إحدى ثمرات الحضارة التى دخلت مصر قبل ذلك بربع قرن أي بتأسيس الأسرة العلوية الكريمة .

وقرأت فى نفس التاريخ اسمى تيبو Thibault وارنو Arnand ثم اسمى Werne وسابتيه Sabatier والأولان

نسيان والثالث ألمانى والرابع فرنسى وجميعهم أرسلهم
غفور له محمد على فى ذلك التاريخ بقيادة سليم قبطان
ليمان كاشف منذ قرن واحد وبضعة أعوام لاكتشاف
رى النيل فاكتشفوا فتحة نهر السوباط على بعد ١٨٨١
لا من القاهرة واخترقوا بحيرة نو على بعد ١٩٦٧ ميلا من
اهرة ثم اكتشفوا فتحة بحر الغزال أى التقاء هذا النهر ببحر
تبل عند بحيرة نو وبلغوا يوم ٢٥ يناير سنة ١٨٤١ خط
ض ٥ عند غندوكرو الواقعة على بعد ٢٤٤٠ ميلا من
اهرة والتى سنرى فيما بعد أنها أصبحت تسمى «الاسماعيليه»
عهد الخديوى اسماعيل تيمناً باسمه عند إنشاء المديرية
ستوائية المصرية .

وكانت الأوساط الأوربية الجغرافية قد تنبهت إلى
هود مصر ومحاولاتها كشف منابع النيل فأوفدت الجمعية
غرافية بلندن الرحالتين بيرتون Burton وسبيك Speke
م ١٨٥٦ للبحث عن هذه المنابع فاكتشف بيرتون بحيرة
تانيقا وأصدر كتاباً عن رحلته أسماه مناطق البحيرات
أفريقيا الوسطى The Lake Regions of Central Africa
عام ١٨٥٨ اكتشف سبيك بحيرة أوكيرو وأسماها فيكتوريا
ها منبع النيل ولكن زميله بيرتون لم يقره على ذلك وعاد

منطقة منابع النيل مع الرحالة جرانت عام ١٨٦٠ عن
زنزبار أى شاطئ أفريقيا الشرقى لتكملة كشف
منابع النيل فجابا شواطئ بحيرة فيكتوريا وكان قد
صمويل بيكر عن طريق النيل محاولا الوصول إلى منطقة
فوصل يوم ١٥ فبراير سنة ١٨٦٢ إلى غندكرو وهى
نقطة كانت قد وصلت إليها بعثة سليم قبطان وسليمان
كما سبقت الإشارة إلى ذلك وهناك التقى بيكر بالرحالتين
وجرانت وعلم منهما بأنهما لم يتمكنا من إتمام كشف
النيل وأن جزءاً مهماً من مجراه لا يزال غامض المعالم
هالى تلك المنطقة أخبروهما أن النيل يصب بعد خروجه
بحيرة فيكتوريا فى بحيرة كبيرة يسمونها « موتا نزيجة »
النيل يدخلها ثم يخرج منها .

وفى ١٤ مارس سنة ١٨٦٤ وصل بيكر إلى شاطئ
رة التى يصب فيها النيل بعد خروجه من بحيرة فيكتوريا أى
رة التى كان قد عجز الرحالتان سبيك وجرانت عن كشفها .

ولما تولى المغفور له الخديوى إسماعيل حكم مصر تابع
كان قد بدأه المغفور له محمد على الكبير فأعاد إيفاد
ويل بيكر باسم مصر لكشف منابع النيل .

وفى أول إبريل سنة ١٨٦٩ أصدر المغفور له

إسماعيل باشا أمراً خديوياً عهد به إلى بيكر :

ا ــ إخضاع البلادالواقعة جنوب غندوكرو «الاسماعيلية».

ب ــ القضاء على النخاسة .

ج ــ إدخال نظام تجارى فى هذه المناطق .

د ــ فتح البحيرات الاستوائية الكبرى للملاحة .

هـ ــ إنشاء سلسلة من الحصون فى أواسط أفريقيا

وفى ٢٣ إبريل سنة ١٨٧٠ أنشئت «التوفيقية» على بعد ١٨٧٥ ميلا من القاهرة وعلى مقربة من التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق وذلك تيمناً باسم ابن عاهل مصر إذ ذاك .

وفى ٢٦ مايو سنة ١٨٧١ رفع العلم المصرى على غندكرو وسميت الإسماعيلية تيمناً باسم عاهل مصر إذ ذاك واتخذت عاصمة للمديرية الاستوائية .

وفى ٢ مارس سنة ١٨٧٢ أنشئت «الابراهيمية» واسمها الحالى نيمولى وهى أقصى نقطة على حدود السودان جنوباً وأقصى نقطة على حدود أوغندة الحالية شمالا وعلى بعد ٢٥٥١ ميلا من القاهرة تيمناً باسم والد عاهل مصر إذ ذاك .

وفى ١٤ مايو سنة ١٨٧٢ وصلت الحملة المصرية إلى ماسندى عاصمة ولاية أونيورو وضمت الولاية إلى مصر .

وقد أرسل بيكر إلى إسماعيل خطاباً ذكر فيه أن حدود

مصر قد أصبحت ممتدة إلى خط الاستواء ثم عاد فأرسل بأن العلم المصرى قد رفع على بعد درجة جنوب خط الاستواء. وأن ملك أوغندة قد اعتنق الدين الإسلامى وأنه بنى جامعاً فى عاصمته ولهذه المراسلات ملف فى محفوظات سراى عابدين العامرة رقمه ٧٢ — ١ .

ومما يجب ذكره هنا أن حملة صمويل بيكر كان قوامها ضباط مصريون منهم الأميرالاى رؤوف بك الذى عين فيما بعد حاكماً عاماً للسودان والبكباشى أحمد رفيق الذى استشهد أثناء الحملة وعبد القادر أفندى الذى قتل فيما بعد أثناء الثورة العرابية والطيب أفندى عبد الله السودانى الذى تولى قيادة الأورطة السودانية. وقد استخدمت الحملة فى تنقلاتها الباخرتين المصريتين الإسماعيلية ونيانزا .

وإلى ذلك الوقت أى إلى عام ١٨٧٤ وعلى وجه التحديد ٢٠ فبراير سنة ١٨٧٤ كانت مصر والسودان تبدوان فى الأسرة الدولية كوحدة سياسية مستقلة وإن كانت سيادة الباب العالى النظرية المستندة إلى معاهدة لندن التى وقعت فى ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ لا تزال آثارها باقية .

ولم تكن الدول الأوربية قد بدأت ترنو إلى الانتقاص من هذه الوحدة أو تعكير صفوها. ولو أن إنجلترا كانت

ـذ وضعت قدمها فى القارة الإفريقية باحتلالها مستعمرة الكاب
ـلا أن اهتمام إنجلترا بالتوسع الاستعمارى ضعف عام ١٨٥٤
علان الاستقلال لبوير نهر الأورانج وكاد هذا الاهتمام
ـعدم عام ١٨٦٥ عند ما وافق مجلس العموم بالإجماع على
ـرير اللجنة التى انتدبها لبحث شئون أفريقيا فقد نص
هذا التقرير على أن كل توسع فى الحصول على أرض
تولى السلطة وكل معاهدة تقضى بمنح أية حماية للقبائل
ـطنية يجب أن يقف كل إجراء بشأنه

All further extention of territory or assumption government, or new treaty offering any protection natives tribes, would beinexpedient.*

ولكن العقلية الاستعمارية لم تلبث أن استردت نفوذها
توجيه السياسة البريطانية الخارجية ولعل أصدق تعبير
هذه العقلية هو ما ذكره السياسى البريطانى سيسل
ـس — الذى سميت مستعمرة رودس باسمه — فى مذكراته
قرر « إذا كان هناك إله فإن ما يجب أن يطلبه منى
أن أصبغ أوسع مساحة ممكنة من خارطة أفريقيا بالاون
ـمر البريطانى ! » .

وقد ذكر أميل لودفيج أن رودس كان يعلق فى منزله

The Ereyclopoedia Britannica : Africa (١)

لة تنقسم إلى قسمين أعلاهما فيه الهلال المصرى وأسفلهما رمز جنوب أفريقيا أى Springbok وبين الاثنين البريطانى وهو يشير بذلك إلى وصل شمال أفريقيا بجنوبها حديدية تمر فى أراض بريطانية وكان يرى أن إنشاء السكة يحقق حلم بريطانيا فى السيادة على أفريقيا من ى إلى الجنوب (١).

وفى ١٩ فبراير سنة ١٨٧٤ أصدر الخديوى إسماعيل خديوياً بتعيين جوردون حاكماً للمديرية الاستوائية وفى التالى ألحق بحملته الضابط الأمريكى شيليه لونج Chaille والفرنسى أوجست لينان ده بلفون August Linant de Belle والإيطالى رومولوجيسى Romulo Gessi وكانت ات قد ذاعت فى الأوساط الجغرافية الأوربية فقد الرحالة الانجليزى ليفينجستون Levingstone فأوفد ى الأمريكى هنري ستانلى إلى منطقة منابع النيل ث عنه والتقى به عند شاطىء بحيرة تنجانيقا وشرح ستانلى تابه « كيف وجدت لفنجستون ؟ » آراء هذا الرحالة جليزى الذى كان قد توفر على دراسة أوبئة المناطق الحارة. وأوجس الخديوى إسماعيل خيفة من رحلة ستانلى فكلف

(١ Emile Ludwing. Gerius and Charater P. 89. 92

الضابط الأمريكى لونج الذى ألحق بحملة جوردون أن يسبق حملة لندن وأن يبرم معاهدة مع ملك أوغندة . ومما يسجل هذا الحذر ما ذكره الكولونيل شيليه لونج فى الكتاب الذى أسماه « حياتى فى أربع قارات » فقد قرر « لدى دخولى كان الخديوى إسماعيل يمشى بخطى واسعة وهو متوتر الأعصـــاب فوجه إلى السؤال الآتى : أرأيت الجنرال جوردون ؟ . فأجبت نعم يا مولاى ولقد قضيت معه أكثر الليل ــ فقال إذن أعرنى سمعك . لقد وقع الاختيار عليك لتكون رئيس أركان حرب لعدة أسباب أهمها المحافظة على المصالح المصرية وفى لندن يوشكون أن ينظموا حملة بقيادة رجل أمريكى يدعى ستانلى والغرض الظاهر من هذه الحملة نجدة الدكتور ليفنجستون أما الغرض الحقيقى فهو رفع العلم البريطانى على أوغندة فاسبق حملة لندن وأبرم معاهدة مع ملك أوغندة فتصبح مصر مدينة لك بواجب الشكر اذهب وليكلل الله مسعاك بالنجاح » .

ونفذ لونج أمر إسماعيل فصحب اثنين من الجنود السودانيين الذين كانوا قد حاربوا فى المكسيك باسم مصر ووصل فى ٦ مايو سنة ١٨٧٤ إلى فاتيكو جنوب خط عرض ٣ فى حدود أوغندة الحالية التى كان يتولى قيادتها منذ حملة بيكر

الصاغ عبد الله الدنساوى أحد الضباط السودانيين الذين سبق أن حاربوا فى المكسيك ثم وصل إلى عاصمة أوغندة فى ٢١ يونيو ١٨٧٤ وعقد مع ملك أوغندة معاهدة اعترف فيها بحماية مصر لأقليمه ورفع لونج تقريراً فى هذا الشأن إلى الحكومة المصرية .

وفى ١٦ ديسمبر ١٨٧٤ اتخذت مصر هذه المعاهدة أساساً للمذكرة الرسمية التى أبلغتها إلى الدول والتى أعلنت فيها ضم جميع الأراضى الواقعة حول بحيرتى فيكتوريا وألبرت إلى مصر وهذا هو نص المذكرة نقلا عن كتاب مصر وأقاليمها المفقودة L'Egypte et ses Provinces Perdues الذى وضعه لونج :

« اتضح من آخر الأنباء التى وصلت إلى القاهرة أن جوردون باشا قد نفذ إلى إقليم مرولى على ضفتى نهر سومرست — ويقصد الجزء من النيل الذى يصل بين بحيرتى فيكتوريا والبرت والذى يسمى عادة نيل فيكتوريا — وقد أرسل جوردون باشا القوات الضرورية لإنشاء مركز حربى فى اورونديجانى ولإنشاء مركز آخر على ضفة بحيرة فيكتوريا على مقربة من شلالات ريبون وبناء على ما ورد من الأنباء الأخيرة احتل جوردون مركز ماجونجو على شاطئ بحيرة ألبرت عند فتحة

نهر سومرت وبذلك وصل ماجونجو بمحطة دوفيليه الواقعة على النيل الأبيض فوق فتحة نهر اسوا كما تم ضم جميع الأراضي الواقعة حول بحيرتي فيكتوريا وألبرت مع كل فروع النيل التي تصب فيهما إلى مصر .

إننا سعداء إذ نعلن نتيجة أعمال هذه البعثة التي وفقت إلى تحقيق الهدف الذي حدده الخديوي إسماعيل وهو نشر الحضارة والزراعة والتجارة في هذه الأقاليم . »

وكان من ثمرات بعثة لونج باسم مصر إلى أوغندة عام ١٨٧٤ اكتشاف بحيرة كيوجا التي أطلق عليها لونج اسم إبراهيم تيمناً باسم والد عاهل مصر إذ ذاك . وقد تحقق بهذا الكشف بصفة قاطعة أن فرع النيل — نيل فيكتوريا الذي لاحظ سبيك عند اكتشافه بحيرة فيكتوريا عام ١٨٥٨ قبل ذلك بأربعة عشر عاماً أنه يخرج من هذه البحيرة — تحقق لونج أنه هو نفسه الذي يصب في بحيرة ألبرت بعد مروره ببحيرة إبراهيم التي كان يطلق عليها أهالي تلك المنطقة اسم بحيرة كيوجا كما أشارت إلى ذلك مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية فيما بعد بعدد يونيو منه ١٨٨٥ .

ووصلت البعثة الإنجليزية التي أوجس الخديوي إسماعيل منها شراً إلى البحيرات الكبرى في ١٥ إبريل عام ١٨٧٥

قادمة من شاطئ القارة الشرقى وكان يرأسها ستانلى مراسل صحيفة « نيويورك هيرالد » الذى — كما يقرر شيليه لونج — «كان من المؤكد أنه يحمل العلم البريطانى فى جيبه وهو على أهبة رفعه . ولكن جوردون كان قد أرسل إلى بلاط الملك متيسا عقب توقيع المعاهدة التى قبل فيها حماية مصر فرنسياً من موظفى الحكومة المصرية هو أرنست لينان ده سبلفون Ernest linant de Bellefonds وبذلك كان العلم المصرى محمياً حماية تامة » .

وقد قرر كيث جونسون Keith Johnson فى كتابه « أفريقيا » أن لونج قد سد فى علم الجغرافية النقص الذى كان يشوب معرفة العالم بمجرى النيل وزال كل شك فى أن هذا الفرع الذى اكتشفه لونج باسم مصر هو فرع النيل الرئيسى .

وفى خلال الشهور التسعة التى حكم جوردون أثناءها المديرية الاستوائية باسم مصر عام ١٨٧٤ أنشئت محطة عند مصب نهر السوباط على بعد ١٨٨١ ميلا من القاهرة وأنشئت محطة شامبى على بعد ٢٠١١ ميلا من القاهرة. ووصلت الباخرة المصرية « بردين » إلى الاسماعيلية على بعد ٢٤٤٠ ميلا من القاهرة ونقلت العاصمة الإستوائية من

الإسماعيلية إلى « لادو » .

وكان من ثمرات هذه البعثة المصرية رسم خريطة للنيل الأبيض من « الرجاف» على بعد ٢٤٥٤ ميلا من القاهرة إلى الخرطوم على بعد ١٣٥٦ ميلا من القاهرة .

وفى ١٠ فبراير سنة ١٨٧٥ وصل شيليه لونج مع ٧٠٠ جندى مصرى وسودانى إلى مكراكا غرب النيل الأبيض وإلى نهر « يبى » الذى يمر بأراضى الكونجو البلجيكى حالياً وجنوب غرب السودان .

وفى ١٢ إبريل سنة ١٨٧٥ وصل « أرنست لينان ده بلفون» إلى قصر ملك أوغندة موفداً من قبل مصر فوجد هنرى ستانلى لديه وقد رأينا أن « لونج » كان قد سبقه فى الوصول إلى ذلك المقر يوم ٢١ يونيه سنة ١٨٧٤ .

وفى ٢١ إبريل سنة ١٨٧٦ انتهى « جيسى» من قطع بحيرة البرت بالباخرة فكانت هذه الباخرة المصرية أول باخرة مخرت مياه البحيرة .

وفى ٢٢ يوليو سنة ١٨٧٦ وصل أمين — وهو الاسم الذى أطلق على الدكتور ادوار شنتزر Eduard Schnitzer النمسوى بعد إسلامه والتحاقه بخدمة الحكومة المصرية — إلى عاصمة أوغندة فوجد أن حملة مصرية بقيادة الضابط نور محمد

احتلت العاصمة .

ويبدو أن جوردون لم يكن ينوى ضم أوغنده إلى مصر فقد اعترف أن الملك متيسا ملك أوغنده قد أقسم يمين الولاء لمصر فى عـــام ١٨٧٦ ورغم ذلك فإن جوردون كان يرمى إلى ترك ذلك الملك مستقلا وإلى قصر إقامة القوات المصريه فى أوروندجانى ولكن الملك متيسا نفسه هو الذى دعاها إلى عاصمته دوباجا[١]

وفى ٢ أغسطس سنة ١٨٧٦ أرسلت مصر ١٦٠ جندياً إلى عاصمة أوغندة بناء على طلب ملكها .

وفى ٥ أغسطس سنة ١٨٧٦ وصل جوردون إلى شلالات مورشيزون عند مخرج النيل من بحيرة ألبرت .

وفى العدد رقم ٦٧٤ الصادر بتاريخ سبتمبر سنة ١٨٧٦ من الوقائع المصرية برقية وردت إلى الحكومة من جوردون : تنبىء بأن ملك أوغندة قد طلب جنوداً مصريين لمساعدته فى إقامة عاصمة لملكه وقد وصف جوردون فيها عدة جهات سجل أنها أصبحت مصرية .

وفى ديسمبر سنة ١٨٧٦ وصل الأميرالاى Prout الأمريكى الموظف بالحكومة المصرية إلى « فاتيكو » و «مرولى » بين بحيرتى إبراهيم وألبرت الواقعتين الآن فى حدود أوغندة

(١) « رسائل جوردون إلى أخته » ص ١٧٦

و إلى « ماجونجو » على بحيرة ألبرت التى رأينا أنها ضمت إلى مصر بمقتضى المعاهدة التى بلغت للدول فى ١٦ ديسمبر سنة ١٨٧٤ أى قبل ذلك بعامين .

وفى يونيو سنة ١٨٧٧ أتم الضابط « ميسون » الأمريكى الموظف بالحكومة المصرية رحلة بباخرة مصرية فى بحيرة ألبرت من « ماجونجو » وطاف الشاطئ الغربى للبحيرة فكانت ثانى رحلة تنظمها مصر فى هذه البحيرة بعد رحلة « جيسى » فى العام السابق .

وكان قد بدا فى السياسة البريطانية الخارجية اتجاه إلى التوسع الاستعمارى فى أفريقيا وظهر لهذا الاتجاه صدى فى تصرفات « تشارلز جوردون » الذى وإن كان يمثل الحكومة المصرية فى المديرية الاستوائية إلا أنه لم ينس قط جنسيته البريطانية فقد أمر فى أواخر عام ١٨٧٦ أى قبل تركه خدمة الحكومة المصرية لانتهاء عقد خدمته بسحب القوات المصرية من « أونيورو » و « أوغندا » وكان الخديو قد أنعم عليه بالوسام المجيدى الأول ولم يصله خبر الإنعام إلا بعد أن صدر منه أمر سحب تلك القوات فاعترف بأنه ارتبك ولم يعد يدرى ما ذا يفعل إزاء هذا الموقف .

ورغم الأمر الذى أصدره تشارلز جوردون ظلت الوحدة

بين مصر والأقاليم الجنوبية أى بين شعب وادى النيل فى الشمال والجنوب قائمة محترمة فى الأسرة الدولية .

ولم يكن إيمان الخديو إسماعيل بتحقيق هذه الوحدة مجرد متابعة لسياسة مصر التقليدية وعلى الأخص لسياسة جده مؤسس الأسرة المالكة المصرية وإنما كان قد جد عامل دولى زاد اقتناع إسماعيل بهذه الوحدة ودعم — من الوجه الدولية — جهوده لتحقيقه .

فغير خاف أن إسماعيل كان متأثراً لحد كبير بالثقافة الإيطالية وبالفنون الإيطالية وقد ظهر فى عام ١٨٥١ مذهب فى القانون الدولى العام دعا إليه الأستاذ بسكال منشينى فى المحاضرات التى ألقاها على طلبته بجامعة تورين وهذا المذهب يرمى إلى إعطاء كل أمة تجمع بين أفرادها رابطة الجنس واللغة والأفكار الحق فى أن تتحد لتصبح دولة وأن كل دولة تتكون من أفراد ليست بينهم تلك الرابطة إنما تقوم على الاستبداد والعدوان. وكانت هذه النظرية من أهم المبررات التى استند إليها جريبالدى فى توحيد إيطاليا وفصلها عن النمسا(١).

وكانت بعض شعوب أوروبا فى ذلك العهد ترزح تحت نير استبداد الدول العظمى التى تفرض جنسيتها وسيادتها

(١) Mancini : La vie des peuples dans l'humanité

على تلك الشعوب التى كانت تختلف عنها جنساً ولغة وديناً فآمن بتلك النظرية البلجيكيون وروج لها علامتهم لوران Laurent الذى قرر أن الأمم من عند الله LesNations sont de Dicu فلا يملك الإنسان أن يتحكم فى مصيرها وبشر بهذا المذهب فى المحاضرات التى ألقاها بجامعة جاند (١) وضمنها كتابه « دراسات عن تاريخ الإنسانية » وقد توفى عام ١٨٨٧ أى أنه عاصر حكم إسماعيل .

وبذلك ظلت الوحدة بين مصر وأقاليمها الجنوبية متحققة محترمة فى الأسرة الدولية تدعمها النظريات التى استجدت فى محيط القانون الدولى العام . ومما يقطع بأن العلاقة بين مصر وأقاليمها الجنوبية إنما كانت علاقة وحدة تتساوى فى نطاقها حقوق المواطنين لا علاقة دولة سيدة باقليم تابع أو بمستعمرة أن الحكومة المصرية التى كان يرأسها شريف باشا قد قدمت إلى مجلس شورى النواب بجلسة انعقدت يوم ١٨ مايو سنة ١٨٧٩ اللائحة الأساسية أى الدستور وقد نصت المادة ٣٤ من هذا الدستور على أن « أعضاء مجلس النواب لا يزيدون عن ١٢٠ نائباً بما فيهم نواب السودان » ونصت المادة الثامنة على أن كل « نائب يعتبر وكيلا عن عموم الأمة المصرية

---

(١) Laurent : Etudes sur l'histoire de l'humanité

وليس فقط عن الجهة التى انتخبته »[1] كما أن لائحة الانتخاب التى قدمت إلى مجلس شورى النواب بجلسته التى انعقدت يوم ٢ يونيو سنة ١٨٧٩ قد نصت المادة ٣٥ منها على انتخاب ستة عشر نائباً عن السودان . ولكن الدول الأوربية هالتها هذه الروح الديمقراطية التى بشرت بها مصر قبل أن تخطر لدولة من دول الغرب فأسرعت بالإجهاز على عهد إسماعيل وتولى الخديو توفيق حكم مصر فى ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ وتابعت مصر نفس السياسة فاستصدرت وزارة محمد شريف باشا من الخديو الجديد دستوراً جديداً فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ . ثم استصدرت قانون انتخاب نصت المادة ١٢ منه على انتخاب اثنى عشر نائباً عن أقاليم السودان .

وفى أغسطس سنة ١٨٨١ كان قد بدأ محمد أحمد المهدى يدعو فى جزيرة أبا على مقربة من دنقلة إلى مذهبه الدينى فانتشرت هذه الدعوة وأيده فيها عبد الله التعايشى فى الوقت الذى كان فيه رءوف باشا حاكماً عاماً على السودان من قبل مصر . فلما شعر رءوف باشا بخطر الدعوة التى كان يروجها محمد أحمد المهدى أرسل يستدعيه إلى الخرطوم فرفض وبدأت حركة العصيان المهدية تتخذ شكلا سياسياً ثورياً

---

(١) جريدة الأهرام عدد ١٢ يونيو عام ١٨٧٩

مل أجزاء عديدة من الأقاليم الجنوبية واستولى الثوار على
تزء الجنوبى من كردفان . وفى نفس الوقت قامت فى مصر ثورة
ند عرابى باشا وأقبلت البوارج الإنجليزية إلى الإسكندرية
ربتها فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ثم نزلت إلى المدينة
جة حماية الخديو من العرابيين ودخلت إلى القاهرة ثم تم
يم العرابيين فى ٢١ سبتمبر عام ١٨٨٢ بالاستيلاء على
ع المصرية من الإسكندرية إلى الجميل بين دمياط
رسعيد . وانصرفت مصر بطبيعة الحال إلى أحداث الثورة
بية فساعد هذا على انتشار الدعوة المهدية فى الأقاليم
وبية وعلى زيادة نفوذ زعيم هذه الدعوة محمد أحمد المهدى .

وتطورت السياسة الإنجليزية بالنسبة لأفريقيا تطوراً
اً وأسفرت عن سياسة تدخل صريحة. وقد عزل رءوف باشا
منصب حاكم عام السودان وولى مكانه عبد القادر
ى باشا فأرسل فى طلب خمسة عشر ألفاً من الجنود
يين ليقضى على الثورة المهدية ولكن الإنجليز الذين
ا قد بدأوا يتحكمون فى أقدار الجيش المصرى بتعيين
إيفلين وود أول سردار إنجليزى له رفضوا طلب عبدالقادر
حلمى ثم أقصوه من منصبه وعين الجنرال هيكس Hicks
للقوات المصرية فى السودان وهو ضابط متقاعد من

ات الهندية وجمعت له فلول الجيش العرابى الذى كان قاوم القوات البريطانية قبل ذلك ببضعة شهور ولم يزل من نفوس ضباطه شعور الحقد والكراهية لها. وأرغم هؤلاء باط المصريون على العمل تحت رئاسة ضابط بريطانى ف جهله المطبق منذ بدء الحملة يساعده رئيس أركان ب إنجليزى هو الكولونيل فاركوهار Farkuhar لا يقل جهلا . ولما نكبت حملة « هيكس » وفنى الجيش المصرى ى قاده وكان عدده ١٢,٩٠٠ اثنى عشر ألفاً وتسعمائة ذى فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٣ وجهت الحكومة الانجليزية صيحة » إلى الحكومة المصرية بوجوب إخلاء السودان ض شريف باشا رئيس الوزارة المصرية . وعندئذ اضطر د جرانفل الوزير الإنجليزى إلى أن يشرح معنى كلمة نصيحة » إذا صدرت من وزير إنجليزى إلى وزير مصرى.

يقرر مستر ونستون تشرشل فى كتابه « حرب النهر » بصراحة ذ أن وضع كلمة « نصيحة» بين قوسين(١) :

« أن الخديو انحنى أمام القوة التى تفوق سلطته واستقال

(١ Winston Churchill : The River War P. 37.

س الانجليزى لعبارة تشرشل هو

The Khediver bowed to superior authority.
The Ministe resigned. The Palicy of evacuation was firmly adopte

الوزير ونفذت سياسة إخلاء السودان تنفيذاً حاسماً » .

ولكن شريف باشا قد سجل فى كتاب استقالته الذى أذاعه « إن الحكومة البريطانية تحتم علينا إخلاء السودان مع أن قبول هذا الإخلاء ليس من حقنا لأن هذا البلد هو من ممتلكات الباب العالى وقد سلمنا حراسته . تقول حكومة الملكة إن من واجبات مصر الإذعان لمشورتها بدون مناقشة وهذا تعد صارخ على فرمان ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ القاضى بأن الخديو يحكم مع وزرائه وبواسطتهم وقد استقلنا لأنه حجر علينا أن ندير الأحكام بمقتضى هذا الدستور »

وكان لا بد لتنفيذ سياسة إخلاء السودان من إرسال حملة لإعادة القوات المصرية إلى مصر فأرسلت الحكومة الإنجليزية تسأل الحكومة المصرية عما إذا كانت توافق على أن يتولى الجنرال تشارلز جوردون — الذى بدأ خدمته للحكومة المصرية فى السودان أثناء عهد إسماعيل والذى رأينا أنه لم يكن أميناً فى أداء واجبه كموظف مصرى للأوامر التى أصدرها بإخلاء مديرية خط الاستواء من القوات المصرية بدون أن يتلقى تعليمات بذلك من الدولة التى كان يعمل باسمها وهى مصر — فأجابت الحكومة المصرية بواسطة سير إيفلين بيرنج Evelyn Baring بأن الحركة التى قامت فى السودان إنما

كانت لواعز ديني ولذلك فإن مصر تعارض فى تعيين مسيحى فى مركز القيادة العليا للحملة التى كان مزمعاً إرسالها . وأرسل سير إيفلين بيرنج ممثل بريطانيا فى مصر رسالة فى ٩ ديسمبر عام ١٨٨٣ إلى حكومته قرر فيها «مهما كانت أخطاء الزبير باشا فإنه رجل عرف عنه النشاط العظيم والعزم، والحكومة المصرية ترى أن خدماته قد تعود بأكبر المنفعة كما أن بيكر باشا توافق إلى أن يمكّن من الاستفادة بخدمات الزبير باشا» .

وبذلك أصبح من الواضح أن المصريين حتى بعد الاحتـــلال الإنجليزى كانوا يعارضون معارضة شديدة فى أن يتولى بريطانى حملة إخلاء السودان وكانوا يرشحون سودانياً هو الزبير باشا من المؤمنين بفكرة الوحدة لأداء هذه المهمة وكان يؤيدهم فى هذا الاتجاه نفس ممثل بريطانيا فى مصر سير ايفلين بيرنج إلا أن الحكومة البريطانية أصرت على وجوب تعيين الجنرال جوردون فى المنصب المقترح .

ولما وصل جوردون إلى مصر ذهب لزيارة شريف باشا وزير مصر الأول الذى كان قد استقال احتجاجاً على موقف الإنجليز من السودان والتقى فى هذا المنزل بالرجل الذى كان قد اعتزم أن يتلاقى لقاءه وهو الزبير فتحدثا عن السودان ولم يكد ينتهى هذا الحديث حتى أسرع نفس جوردون إلى الوكالة

البريطانية وأنبأ سير إيفلين بيرنج بأن الزبير يجب أن يصحبه توّاً إلى الخرطوم ثم عاد عقب وصوله إلى الخرطوم فأرسل برقية إلى القاهرة يرجو فيها رسمياً إرسال الزبير باشا .

هذه الحقائق التاريخية ليست وحدها الدليل الذى يقطع بأن إنجلترا ما كانت ترى حتى ذلك الوقت أن لها أملا فى تثبيت قدمها فى أقاليم مصر الجنوبية أو حقا أو شبه حق من الوجهة الدولية فى احتلال السودان . وهنا فقرة من كتاب « حرب النهر » لمستر تشرشل ذكر فيها :

« إن جوردون تقدم بالرجاء أن ترسل إليه فى السودان قوات تركية فلم ترسل إليه القوات التركية وطلب أن ترسل إليه قوات من المسلمين الهنود ولكن الحكومة البريطانية اعتذرت بأن هذه القوات عاجزة عن أداء المهمة التى طلبها منها » (١) .

ومن هذا الكلام الذى يقرره المؤرخ ونستون تشرشل يتضح جلياً تسلم إنجلترا بأن السيادة على السودان إنما كانت للدولة التركية وأنه ما كان ممكناً لقوات غير إسلامية أن تشترك فى حملة إخلاء السودان .

ولا داعى فى هذا المقام لأن نسهب فى ذكر ما تم بعد ذلك

(١) Winston Churchill : The River War P. 46.

من حصار المهديين للخرطوم حصاراً دام ثلاثمائة وسبعة عشر يوماً وانتهى بقتل جوردون فى ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥ بعد أن اعترف بصريح العبارة أنه لو كانت الحكومة الإنجليزية قد قبلت إرسال الزبير الذى رشحته الحكومة المصرية لقيادة الحملة لما سقطت بربر إطلاقاً فى يد الثوار ولأمكن فى ليلة واحدة تأليف حكومة سودانية تقاوم المهدى (١).

ومما لا شك فيه أن الحكومة المصرية كانت محقة فى رفض تعيين تشارلز جوردون قائداً لحملة إخلاء السودان وأن إصرار الحكومة الانجليزية على تعيينه قد أصاب مصر بنكبة مفجعة للأسباب الآتية :

١ ـ إن إدارته للسودان من قبل كانت إدارة سيئة غاية السوء من جهة اختياره لمساعديه ومن جهة الرجال الذين كان يعهد إليهم بمالية السودان دون أن يراقبهم أية مراقبة . إلى حد أنه عند ما ذهب إلى السودان كان يرتع فى بحبوحة الرخاء فتركه فى عام ١٨٧٩ مثقلا بالدين وعلى وشك الثورة (٢) .

٢ ـ إن الحكومة المصرية كانت واثقة من أن تعيين

(١) Gordon : Journals at Khartoum.

(٢) Chaillé Long L'Egypte et ses provinces perdue : P. 187.

مسيحى فى مركز قائد الحملة سيىء إلى عواطف أهالى الأقاليم الجنوبية . ولم تثر هذا الاعتراض بالنسبة لجوردون الإنجليزى وإنما أثارته بالنسبة لغيره . فإن المؤرخ والرحالة الأمريكى شيليه لونج عند ما علم بثورة المهدى فى عام ١٨٨٣ وكان فى باريس أسرع فغادرها وعرض أن يضع سيفه فى خدمة خديو مصر لاسترداد سلطته على السودان ولكن الخديو توفيق باشا أجابه على لسان الدكتور أباتى باشا شاكراً له عرضه معتذراً بأنه نظراً لطبيعة الحركة الدينية فإن كل عنصرأوروبى يجب أن يستبعد لكيلا نعطى للثوار أى مبرر لتفاقم هذه الحركة(١) .

٣ — إن جوردون لم يكد يصل إلى الخرطوم حتى أذاع منشوره الشهير بإعادة السماح بتجارة الرقيق ووقعه باسم «والى وسلطان السودان » وقد خيل إليه أنه بذلك يستميل بعض الذين كانوا يستفيدون من تلك التجارة من أبناء الأقاليم الجنوبية ولم يتورع — متأثراً بهذا الوهم — عن أن ينقض المعاهدة التى كانت مصر وإنجلترا قد وقعتاها فى ٤ أغسطس عام ١٨٧٧ بشأن إبطال تجارة الرقيق والتى أشير فى المادة الأولى منها إلى « سابق صدور لائحة من الحكومة الخديوية بمنع بيع الرقيق

---

(١) Chaillé Long : P. 190

السودانى والحبشى فى الجهات التابعة لها[١] » .

وقد لوثت سمعة الحكومة المصرية فى الأسرة الدولية بهذا المنشور الذى أذاعه ممثلهـــا الإنجليزى تشارلز جوردون ولو أن صحيفة « التيمس » أرادت تبرير تصرف جوردون فنشرت مقالا زعمت فيه « أن كل إخصائى فى هذا الشأن يعرف أن الرق المنزلى قد نشأ فى الشرق من عهد إبراهيم . وهو يختلف عن الرق الفظيع الذى كان موجوداً فى حقول الجنوب بالولايات المتحدة الأمريكية ! »

٤ — ان جوردون قد أحرق كل آثار الحكومة المصرية المشرفة التى كانت بالخرطوم وكل سجلات الضرائب وكل ما من شأنه أن يفرض التزاماً على المولين من أبناء الأقاليم الجنوبية لكى يوهمهم أن حكومة المستقبل لن تعتمد على أى مورد مالى من ضرائب المولين[٢]

ومما يثير الدهشة بل العجب أن المؤرخ ونستون تشرشل فى معرض الكلام عن آثار الوحدة بين مصر والسودان فى أواخر عهد الحكم المصرى أى قبيل نشوب ثورة المهدى قد ذهب إلى تلويث سمعة المصريين فى السودان وإلى تبرير هذه

---

(١) فيليب جلاد : القاموس العام للإدارة والقضاء المجلد الثانى ص ٢٣٨

(٢) Chaillé Long; P. 193

الثورة تبريراً بلغ إلى حد أنه زعم «أن انتصارات المهدى كانت فى مدة حياته أعظم بمراحل من انتصارات النبى الذى كان أول من بشر بالدين الإسلامى وهو النبى محمد(١)» . وقد دعا فى نهاية الفصل الأول من كتابه أول مؤرخ عربى سيتوفر على دراسة المراحل الأخيرة لحياة الشعب السودانى إلى أن يضع اسم محمد أحمد المهدى بين أسماء أبطال أمته . وقد سمى الفترة التى استمرت فيها حركة العصيان المهدية باسم إمبراطورية الدراويش وقد دامت هذه الفترة من عام ١٨٨٥ إلى عام ١٨٩٨ ولم يعش محمد أحمد المهدى إلا نحو خمسة شهور بعد سقوط الخرطوم فلما مات تولى عبد الله التعايشى زعامة حركة العصيان . وكانت إنجلترا قد بدأت تتبع سياسة التدخل فى شئون مصر والسودان ولذلك نجد صدى لتبرير هذه السياسة فى كتاب « حرب النهر » إذ أن مؤلفه بعد أن ارتفع بزعيم حركة العصيان المهدية إلى مرتبة أعلى من مرتبة النبى وهو فى معرض التنديد بالحكم المصرى فى السودان عاد فهوى بهذه الحركة إلى الحضيض إذ ذكر أن عبد الله التعايشى وهو من قبيلة البقارة بدأ بعد أن تولى السلطة فى أن يدعو أبناء قبيلته إلى المجىء والإقامة فى أم درمان. وأنه كان يكتب إليهم فى رسائله العديدة

Winston Churchill : The River War P. 34. (١)

فيقول «تعالوا وتملكوا الأرض التى أعطاها الله لكم» وهنا يصف تشرشل أنصار الثائر السودانى بأنهم «الرعاة المتوحشون الذين بهرتهم الأطماع المالية ورغباتهم فى الحصول على زوجات جديدات والوعود التى بذلت لهم لتمكينهم من السطوة والقوة وأن ما كان ينسى الخليفة التعايشى أو يرفض أن يعطيه لهم كانوا يحصلون عليه بالسرقة والنهب والسطو وهى جرائم كانوا يرتكبونها فى عنف وهم محتمون بالحصانة التى منحت لهم لقرابتهم للخليفة» .

وليس هذا الوصف فى حاجة إلى تعليق لأن السودانيين الذين كانوا ضحايا الحكم المصرى أصبحوا فى عرف مؤلف كتاب «حرب النهر» لصوصاً وسفاكين لأن الحكومة البريطانية كانت فى ذلك الوقت قد رأت أن تنفذ سياسة التوسع الاستعمارى على حساب وحدة مصر والسودان . . . !

* * *

«لم يحشد ستانلى كتبه بالإشارة إلى مبادىء المسيحية والحب الأخوى وهى المبادىء التى لم يشعر بها قط ؟ أن ستانلى كان ينظر دائماً إلى الرجل الأسود نظرته إلى عدو»

(أميل لودفيج — من كتاب العبقرية والشخصية)

ظلت مصر ثابتة القدم فى المديرية الاستوائية حتى بعد الاحتلال البريطانى فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وبعد الثورة المهدية وقتل «جوردون» فى ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥ واحتلال المهديين للخرطوم واستئثارهم بالسلطة عقب ذلك — وقد تابع أمين — آخر حاكم لمصر فى المديرية الاستوائية — أداء واجبه هناك بعد يوم ١٦ مارس سنة ١٨٨٣ وهو اليوم الذى وصلت فيه الباخرة تلحوين إلى لادو عاصمة المديرية الاستوائية وهى آخر باخرة مصرية وصلت من الشمال إلى الجنوب إذ انقطع بعدها ورود البواخر أو البريد أو المدد بسبب إستيلاء المهديين على السلطة وقطع الطريق بين مقر الحكومة المركزية فى القاهرة وأقاليم السودان .

وكان أمين مؤمنا بوجوب الاحتفاظ بجميع منابع النيل التى وصلت إليها مصر وكان « جوردون » — كما رأينا — قبل أن يتولى أمين إدارة المديرية الاستوائية قد أصدر أمراً بإخلاء الجزء الجنوبى الذى يقع جنوب نيل فيكوريا أو نهر سومرست كما يسمى أحياناً الذى يصل بحيرتى « فيكتوريا » و « ألبرت » وعد هذا النهر حداً جنوبياً للمديرية فرفض أمين إذ ذاك أن ينفذ الأمر واضطر جوردون إلى استدعاء « جيسى » من بحر الغزال لينفذه ولكن جوردون استقال فلم

يكد أمين يتولى إدارة المديرية حتى عاد إلى تنظيم الإدارة المصرية فى هذا الجزء الجنوبى .

وقد بقى « أمين » حاكماً للمديرية الاستوائية عشر سنوات بين سنتى ١٨٧٨ ، ١٨٨٩ وخير ما يلخص الحكم المصرى فى المديرية الاستوائية إذ ذاك هو الكتاب الذى أصدره فيتا أفندى حسان الصيدلى الذى عينته الحكومة المصرية لإدارة مستشفى المديرية الاستوائية فى « لادو » والذى أسماه « الحقيقة حول أمين باشا » فقد ذكر أن المديرية الاستوائية كانت مقسمة عند بدء الثورة المهدية عام ١٨٨١ إلى عشر مراكز وكان كل مركز مقسما إلى جملة محطات فبلغ عدد المحطات ١٨٠ ومراكز المديرية الاستوائية فى آخر العهد المصرى كانت على النظام الآتى :

بور على ضفة النيل « بحر الجبل » الشرقية .

لادووكيرى على ضفة النيل « بحر الجبل » الغربية ودوفيليه على ضفة النيل « نيل البرت » الغربية .

وفاديبك شرق النيل « نيل البرت » ولاتوكا شرق النيل « بحر الجبل »

رول ومكراكا وممبتو غرب النيل « بحر الجبل »

ولعل أول دراسة علمية لقبائل جنوب السودان هى الدراسة

التى تضمنها هذا الكتاب « الحقيقة حول أمين باشا » الذى صدر لبيان ما بذلته مصر فى أقاليمها الجنوبية من جهد فى إدخال الحضارة إليها فقد تضمن هذا الكتاب حقائق لم تتضمنها الكتب الأوربية والأمريكية التى أصدرها المبشرون عن هذه القبائل فيما بعد . إذ قرر مؤلفه أن قبيلة الدنكا تسكن منطقة بور وأن قبيلة البارى تســكن لادووكيرى أى المنطقة التى حول جوبا عاصمة المديرية الاستوائية الحالية وأن قبيلة المادى تســكن دوفيليه كما تسكنها قبيلة الكوكو . وأن قبيلة الماجنجو تسكن فويرا وقبيــلة لاتوكا تسكن لاتوكا وهى تتوسط الآن بلدة توريت من أعمال المديرية الاستوائية شرق النيل «بحر الجبل» وأن قبيلة الشولى تسكن فاديبك بين لاتوكا وفويرا وأن قبيلة ماكراكا تسكن غرب النيل « بحر الجبل » وقد قسم قبيلة الدنكا إلى قسمين ، الدنكا الجانجية وتسكن شمال المديرية الاستوائية ومديرية بحر الغزال والدنكا السجيحة وتسكن مع النوير والشيلوك منطقة فاشودة فى مديرية أعالى النيل الحالية . وقرر المؤلف أيضاً أن قبائل نيام نيام وهى التى يطلق عليها الآن فى التعبير الأثنولوجيك اسم زاندى تسكن غرب المديرية الاستوائية على حدود الكونغو البلجيكى فى المنطقة التى تتوسطها الآن

بلدة (يامبيو) وذكر أن أفراد هذه القبيلة من أكلة لحوم البشر وهى الأخرى حقيقة علمية أتنولوجية أيدتها الدراسات العلمية اللاحقة لهذا الكتاب المصرى .

كما قرر فى الكتاب نفسه أن أمين باشا أدخل إلى المديرية الاستوائية زراعة القطن والأرز وجملة أصناف من الخضر والفاكهة والمطلع على الإحصاءات الرسمية لنظام الحكم المصرى فى المدينة الاستوائية يتضح له أن مصر كان لها ٩٩٠ جندياً نظامياً و ٥٤٠ من الخطرية و ٤٠٠ من التراجمة وأن مجموع قبائل الزنوج فى هذه المديرية قبل إرغام مصر على إخلائها كان نحو نصف مليون . ويتضح جلياً عن التقرير الذى وضعه أمين باشا فى سنة ١٨٨٢ عن أحوال المديرية الاستوائيةمالهذه المنطقة من موارد ثروة ومواد خام كانت هى السبب فى المحاولات الاستعمارية التى بذلت فيما بعد لاغتصابها من مصر .

فقد ورد فى هذا التقرير بعد استعراض ما تضمه المديرية من مواد خام .

« . . . . وهكذا تتوفر لدينا مجموعة من مواد النسيج ومجموعة من مواد التلوين وعدا ذلك فأمامنا ميدان رحب فسيح للتجارة وللصناعة وعلى الأخص فى القسم الجنوبى من المديرية وأينما ذهبنا نجد الكثير من الحديد الجيد وما ذاب

وسوته يد الصانع فى البلد نفسه انقلب أداة نافعة فيكثر طلبها فى الشمال والغرب حيث أسنة الحراب والسهام ويقيم أشهر الحدادين فى « ممبتو » و « مكراكا » أى غرب النيل « بحر الجبل » والبعض منها نال فى هذه الصناعة شهرة فائقة . . . . وأظن أن المـــديرية الاستوائية تحمل فى جوف أرضها من أنواع المعادن كنوزاً لا تزال خافية عن أنظار العالم » .

وقد تطور الحكم المصرى فى المديرية الاستوائية بعد أن وصل المهديون فى منتصف يونيو سنة ١٨٨٢ بقيادة « نور عنقرة » إلى بحر الغزال وكان مديرها إذ ذاك « لبتون بك » فطرأت فكرة فى « لادو » عاصمة المديرية ترمى إلى إخلاء المديرية .

ولكن الضباط المصريين والسودانيين الذين كان عدد كبير منهم قد اشترك فى الحملة المصرية التى أرسلت لتحارب فى المكسيك فى أواخر عهد الخديو سعيد وعادت إلى مصر فى أوائل عهد الخديو إسماعيل عارضوا فى إخلاء المديرية وتزعم المعارضة الضابطان « مرجان الدناصورى » وهو من ضباط حملة المكسيك و « حواش منتصر » .

وقسمت المديرية إلى حكمداريتين تولى مرجان قيادة

الحكمدارية الشمالية وتولى حواش قيادة الحكمدارية الجنوبية التى كان يقع فى منطقة نفوذها معظم أراضى أوغنده الحالية.

وفى ٣٠ مارس سنة ١٨٨٥ انتصر المهديون بقيادة الأمير كرم الله فى أمادى بالمديرية الاستوائية غربى النيل«بحر الجبل».

وفى أوائل ابريل سنة ١٨٨٥ استبسل المصريون بقيادة الضابط سليمان سودان ببلدة ريمو التابعة لمركز ماكراكا استبسالا أرغم المهديين على التراجع بلى على إخلاء « أمادى » التى كانوا قد انتصروا فيها من قبل وعلى إخلاء مديرية بحر الغزال .

وفى ٢٤ إبريل سنة ١٨٨٥ عقد اجتماع برئاسة أمين باشا فى « لادو » عاصمة المديرية تقرر فيه من باب الاحتياط نقل العاصمة إلى « وادلاى » التى تقع الآن فى حدود أوغندة الحالية بين خطى عرض ٢ ، ٣ على النيل بعد خروجه من بحيرة ألبرت .

وفى ديسمبر سنة ١٨٨٥ أرسلت ثلة من الجنود إلى « ماجونجو » على ضفة بحيرة ألبرت عند مخرج النيل منها فى حدود أوغندة الحالية وكان الغرض الاستعداد لجعلها عاصمة المديرية الاستوائية لو تم إخلاء وادلاى .

وفى ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٦ وصل خطاب نوبار باشا

رئيس الوزراة المصرية · المؤرخ ٢٧ مايو سنة ١٨٨٥ والموجه إلى أمين باشا قائد جنود خط الاستواء فى الاسماعيلية « غندوكرو » وقد جاء فى هذا الخطاب .

« إذا رأيتم أن الأضمن لكم ولجندكم الانسحاب والرجوع إلى مصر فالسير جون كيرك ممثل بريطانيا وسلطان زنزيبار يكتبان لمختلف رؤساء قبائل الزنوج الضاربين فى الطريق ويبذلان ما فى وسعهما لكى يسهلا لكما الانسحاب » .

وفى ١٣ مارس ١٨٨٦ — بعد استلام خطاب نوبار باشا ورغم الاحتلال البريطانى لمصر واستيلاء المهديين على السلطة فى الخرطوم بقتل جوردون فى يناير سنة ١٨٨٥ ورغم انقطاع كل مدد من مصر بوصول الباخرة « تلحوين » إلى لادو فى ١٦ مارس سنة ١٨٨٣ وهى آخر باخرة مصرية وصلت من الشمال إلى المديرية الإستوائية — رغم ذلك كله قامت القوة المصرية فى المديرية الإستوائية باحتلال جزيرة « تونجورو » عند مخرج النيل من بحيرة « ألبرت » وهو تقع فى حدود أوغندة الحالية وتولت الباخرة المصرية « نيانزا » نقل الضابط محمد مسعود وجنوده إلى الجزيره .

وفى أواخر سنة ١٨٨٦ أدخل أمين باشا تعديلا على تقسيم مراكز المديرية الاستوائية ففصل أراضى مركز « ماهاجى »

غرب بحيرة ألبرت فى حدود الكنغو البلجيكية الحالية — مع نقطتى « تونجورو » و « مسوا » عن قسم المديرية الجنوبى وألف منها مركزاً قائماً بذاته وفوض لفيتا حسان الصيدلى المعين من قبل الحكومة المصرية إدارته. وهذا المركز بالنقط التابعة لها جميعها يقع فى حدود أوغنده الحالية .

وفى سنة ١٨٨٧ قام الصحفى الإمريكى هنرى ستانلى برحلة أخرى إلى منابع النيل بحجة إنقاذ أمين باشا الذى كانت سمعته العلمية قد أثارت اهتمام الدوائر الجغرافية الدولية رغم أن أمين باشا لم يطلب هذه النجدة ورغم أن الرحالة « فلكن » Felkin قد نشر فى صحيفة التيمس الصادرة فى ٩ ديسمبر سنة ١٨٨٦ رسالة وردت إليه من أمين باشا تاريخها ٧ يوليو من نفس السنة ذكر فيها « إننى سعيد إذ أستطيع أن أخبركم اننى فى أمان وان المديرية فى غاية الهدوء » ورغم أن الضابط الأمريكى « شيليه لونج » قد كتب فى ٥ يناير سنة ١٨٨٧ خطاباً من نيويورك إلى الجمعية الجغرافية الخديوية بالقاهرة ذكر فيه

« كعضو شرف فى جمعيتكم أرسل إليكم مقالا عن الأدوار التى لعبت فى أفريقيا الوسطى وبدأت لعبها كرئيس أركان حرب جردون باشا حاكم عام السودان ثم لعبها ستانلى مراسل

صحيفتى « نيورك هيرالد » و « لندن تلجراف » . إن آخر الأنباء تدل على أن أمين باشا يتمتع بصحة تامة وإنه بعيد عن كل خطر . إننى أكتب هذا لألفت نظر سمو الخديوى ونظر الجمعية الجغرافية فى القاهرة إلى أن بعثة ستانلى لا يمكن أن يكون لها إلا هدف واحد هو انتزاع إقليم خط الاستواء وحوض النيل الأعلى من مصر وهو الإقليم الذى قمت أنا نفسى بضمه لمصر ووقعت وثيقة الضم بدمى »

ولا شك أن « لونج » يقصد بهذه الوثيقة المعاهدة التى وقعها باسم مصر مع ملك أوغندة بعد أن قابله فى ٢١ يونيه سنة ١٨٧٤ والتى أبلغتها الحكومة المصرية إلى الدول فى ١٦ ديسمبر سنة ١٨٧٤ أى قبل إرسال خطابه بأربعة عشر عاماً .

وقد نشر خطاب شيليه لونج المشار إليه فى الفقرة السابقة فى صحيفة « البوسفور إيجيبسيان » فى يوم وصول ستانلى إلى القاهرة فسأله مراسل صحيفة « ديلى نيوز » الإنجليزية عما جاء به وصدرت الصحف فى اليوم التالى وفيها هذه البرقية .

« سألت ستانلى عما إذا كان قد اطلع على الخطاب الذى نشر بشأن الغرض من بعثته فأجابنى إننى لم أطلع ولا أهتم بالاطلاع عليه . . . إننى أضحك من فكرة اتهامى بأن الرحلة التى أقوم بها إنما هى لحساب إنجلترة وبغرض انتزاع

أقاليم تابعة إلى مصر . وهى أقاليم لا تستحق هذا العناء كما أننا لسنا مبعوثين من قبل إنجلترا » (١) .

ولم يكتف شيليه لونج بإرسال خطابه إلى الجمعية الجغرافية الخديوية بالقاهرة وبنشر مقاله فى صحيفة « البوسفور إيجبيسيان » بل لجأ إلى مجلة « لا نوفيل ريفو » التى كانت تصدرها بباريس السيدة جولييت آدام التى اشتهرت بدفاعها عن حقوق مصر التى كانت إنجلترا قد بدأت تنظم الاعتداء عليها عقب عام ١٨٨٢ ونشرت له هذه المجلة مقالا فى عددها الذى صدر بتاريخ ١٥ مارس عام ١٨٨٧ بدأه بأن قرر « إن ضجة كبيرة قد اثيرت منذ مدة حول بعثة جديدة يشكلها هنرى ستانلى لإنقاذ رجل أوربى هو أمين باشا آخر ضابط فى الجيش المصرى الذى لا يزال يقاوم ولا يزال يرفع بقوة علم الخديوى فى الأقاليم التى تمد النيل الأعلى بالماء . . .

إننا نرى أن من الحكمة دراسة هذا الموضوع عن كثب لنرى أية خطط سياسية تخفيها بعثة ستانلى وهى بعثة تعمل تحت إشراف الحكومة البريطانية المباشر وبذهبها المختلس من الخزانة المصرية . . . إن ستانلى له هدف خفى . لن

(١) Chaillé Long p. 218

ينكشف إلا عندما لا يتاح الوقت الكافى لإبداء أقل اعتراض »
وفى ٢٩ إبريل سنة ١٨٨٨ وصل هنرى ستانلى إلى مقر أمين باشا عند بحيرة ألبرت وفى ٣ مايو سنة ١٨٨٨ عرض ستانلى على أمين باشا العروض الآتية وهى : —

(ا) أن تستمر كما كنت الجندى المطيع فتعود إلى مصر معى على أن تتقاضى أنت وجنودك مرتباتكم المتأخرة .

(ب) عرضى الثانى من قبل جلالة الملك ليوبولد ملك البلجكيين الذى كلفنى أن أخطرك بأنه — لكى يمنع تدهور أقاليم خط الاستواء فى مهاوى البربرية — يبدى استعداده لأن يدفع لك الفاً وخمسمائة جنيه استرلينى سنوياً وأن تعين حاكماً برتبة جنرال بشرط أن يكون إيراد هذه الأقاليم بحيث يتيح لحكومة الكنغو أن تباشر استغلالها .

حـ — إذا كنت مقتنعاً بأن جنودك سيرفضون أن يتبعوك إلى مصر فإنى أعرض عليك أن تذهب مع أكبر عدد ممكن من الجنود المتعلقين بك إلى شمال شرق بحيرة فيكتوريا حيث أمكنك من الاستقرار باسم شركة شرق أفريقيا وسنساعدك على بناء قلعة ونترك لك سفننا والمعدات الأخرى الضرورية

وقد وردت هذه العروض باعتراف هنرى ستانلى فى كتابه فى غياهب القارة In dorkest continent .

وقد اضطر أمين باشا إلى إخلاء منطقة منابع النيل بعد أن قاوم مقاومة عنيدة ثم غادر القارة الإفريقية عن طريق زنزيبار عام ١٨٩٠ مع ستانلى .

وانكشفت المحاولة الاستعمارية بالأسلوب الذى اتخذ لإنقاذ أمين باشا إذ ورد صراحة فى العرض الثالث من عروض ستانلى على أمين باشا أن يعمل الأخير باسم شركة شرق أفريقيا والمقصود بذلك هى الشركة الإمبراطورية لشرق أفريقيا البريطانية . The Imperial British East Africa Company التى كانت قد تأسست فى نفس العام لتحقيق أغراض استعمارية مستورة بنشاط تجارى .

ويتبين مما سبق أن مصر دون غيرها من دول العالم قد انفردت بمهمة إدخال الحضارة فى أقاليم السودان طيلة سبعين عاماً أى فى المدة من ١٨٢٠ إلى ١٨٩٠ وفى أوغندة عشرين عاماً كما يتبين أن مصر ظلت ثابتة القدم فى جنوب السودان وبتعبير أدق فى المديرية الاستوائية حتى بعد بدء الثورة المهدية فى أغسطس سنة ١٨٨١ بهزيمة الحملة التى جردها رؤوف باشا حاكم عام السودان للقبض على محمد أحمد المهدى فى جزيرة « أبا » وحتى بعد بدء الثورة العرابية فى سبتمبر ١٨٨١ وحتى بعد الاحتلال البريطانى لمصر فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢

وأخيراً حتى بعد قتل جوردون وسقوط الخرطوم فى ٢٥ يناير ١٨٨٥ وإقامة الحكم المهدى ثم حكم التعايشة بعد ذلك .

وتبينا أن ما كان يسمى جنوب السودان إلى أن اضطرت مصر إلى إخلائه عام ١٨٩٠ كان يشمل معظم حدود أوغندة الحالية فمركز « دوفيليه » على ضفة النيل الغربية ومركز « فويرا » ومركز « فاديك » شرق النيل ومركز « ماجنجو » عند مخرج النيل من بحيرة ألبرت ، هذه المراكز الأربعة كانت من مراكز المديرية الاستوائية طبقاً للتقسيم الإدارى الذى نظمه أمين باشا آخر حاكم لمصر فى المديرية الاستوائية والمراكز الأربعة تقع الآن فى حدود أوغندة و « وادلاى » التى تقع على ضفة النيل الشرقية اتخذت عاصمة للمديرية الاستوائية بعد تهديد المهديين « للادو » عاصمة هذه المديرية وظلت « وادلاى » مقر الحكم المصرى إلى أن تم إخلاء جنوب السودان ، و « وادلاى » تقع الآن فى حدود أوغندة .

* * *

فلما عاد الجيش المصرى عام ١٨٩٨ إلى السودان صحب معه بعض الزعماء « الختميين » الذين كانوا قد فروا أمام اضطهاد « الأنصار » لهم وكان بين المصريين والإنجليز من من جانب وبين « الأنصار » دم « جوردون » وبين « الختميين »

من جانب ونفس « الأنصار » دم العدد الكبير من « الختمين » الذى اغتيل ونكل به ونهب ماله وسبيت نساؤه طيلة الأعوام الأربعة عشر التى استأثر أثناءها المهديون وأنصارهم بحكم السودان .

وكان من الطبيعى أن تستعين السلطات المصرية الإنجليزية بالختميين على إقرار النظام فى السودان عقب استعادته ولمع نجم الطريقة « الختمية » وأصبحت لرؤساء الختميين مكانة مرموقة شبه رسمية فى مقر الحكم بالسودان وظلوا إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى يتصدرون حفلات الحاكم العام فى سرايه بالخرطوم .

وعانى « الأنصار » عقب معركة أم درمان فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ التى منى الأنصار فيها بهزيمة ساحقة وعقب قتل الخليفة التعايشى فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٩٩ بعد أن اعتصم مع أنصاره نحو عام فى كردفان متحدياً سلطة الحكومة الشرعية فى الخرطوم . عانى الأنصار عقب ذلك نوعاً من الاضطهاد الذى أذاقوه من قبل طيلة أربعة عشر عاماً للختميين . وزال ما كان لهم من نفوذ واسترد « الختميون » فى حياة السودان العامة الصفوف الأولى التى كان « الأنصار » قد اغتصبوها منهم .

وبقى « الأنصار » وخاصة أسرة محمد أحمد المهدى وخليفته عبد الله التعايشى مشردين بين السجون وأتفه الأعمال

والوظائف بينما كان « الختميون » يتصدرون الصفوف وعاش « الأنصار » على ذكرى السلطان القديم الذى ظل لهم مدة أربعة عشر عاماً حتى استعادت مصر السودان .

وانقضت أربعة عشر عاماً أخرى .

وأقبل عام١٩١٢ قبيل إعلان الحرب العالمية الأولى فكلف مأمور مركز « كوستى » الواقع على مقربة من جزيرة « أبا » التى بدأ محمد أحمد المهدى حركة العصيان ضد مصر فيها بأن يستدعى ابن محمد احمد المهدى لمقابلة الحاكم العام فى الخرطوم .

وقرأ الناس بعد ذلك ببضعة شهور أى عند بدء الحرب العالمية الأولى فتوى من « زعيم الأنصار » بأن محاربة الأتراك جائزة شرعاً لأنهم تحالفوا مع الألمان على محاربة الأسرة الهاشمية والمسلمين فى بلاد العرب وقيل إن زعيم الختميين قد رفض إعطاء مثل هذه الفتوى .

وبدأ الإنجليز منذ ذلك الوقت أى منذ أوائل الحرب العالمية الأولى يحققون نوعاً من « التوازن » بين قوى ذينك الزعيمين الدينيين المسلمين .

ولما قامت مصر بنهضتها الوطنية عام ١٩١٩ مطالبة باستقلال وادى النيل وأعلن الدستور المصرى وتبين أهل

مديريات شمال السودان ما لاقاه المصريون من عنت فى سريان هذا الدستور على مصر والسودان معاً تكون وعى يؤاخى وعى مصر وبرزت إلى الوجود فى شمال السودان جمعية « اللواء الأبيض »

ولم تكد تقع حادثة مقتل السردار ويرغم الجيش المصرى على ترك السودان حتى نظم طلبة الكلية الحربية فى الخرطوم مظاهرة نادوا فيها بحياة ملك مصر والسودان واشتركت الأورطة السودانية التى كانت منتدبة من « ملاكال » فى مظاهرات الخرطوم المؤاخية لمصر فتبينت السياسة الإنجليزية أنها يجب أن تتخذ خطوتين للفت فى عضد هذا الوعى القومى السودانى الجديد .

أولاهما — تحويل اهتمام أهل شمال السودان بهذا المصير السياسى المشترك بين مصر والسودان إلى شأن آخر .

ثانيهما — فصل شمال السودان عن جنوبه احتياطاً لعدم نجاحها فى الخطوة الأولى .

وكان طبيعياً بالنسبة للخطوة الأولى أن تزيد فى عوامل الفرقة بين « الأنصار » الذين رأيناأ نهم كانوا قد طال حرمانهم من كل مزايا النفوذ والسلطان منذ عودة المصريين إلى السودان عام ١٨٩٨ وبين « الختميين » الذين كانوا قد استردوا نفوذهم

السابق على قيام محمد أحمد المهدى بحركته وتصدروا حياة السودان العامة .

وأخذ نجم « الأنصار » يلمع ، وبدأ السودانيون يتناقلون أخبار آلاف الأفدنة التى منحت حكومة السودان لهم حق الانتفاع بها دون ملكية الرقبة التى ظلت فى يد تلك الحكومة تسحبها متى شاءت وأحس « الختميون » بما يبيت لهم فزاد ذلك من تعلقهم بفكرة الوحدة مع مصر .

وفى عام ١٩٣٦ وبعد توقيع معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا توقع الجانب الإنجليزى أن تطالب مصر بحقها فى الاشتراك اشتراكاً فعلياً فى إعداد السودان لحياة ديموقراطية أفضل من حياته الراهنة . واستعد ذلك الجانب فعلا لإخلاء بعض المراكز الرئيسية فى حكومة السودان من شاغليها البريطانيين لكى يحل المصريون محلهم فلما لم يحدث ذلك — مع بالغ الأسف — أسرع الجانب الإنجليزى إلى التقدم فى خطوته الأولى بإغراء بعض السودانيين من الأنصار أو من هم على شاكلتهم بهذه الوظائف .

وفى عام ١٩٣٨ أحس الجيل الجديد من السودانيين بالمحاولة الإنجليزية فأسسوا الهيئة التى أطلقوا عليها « اسم مؤتمر الخريجين» وعقدت أول دورة لها فى أوائل ذلك العام . وفى

٢ أبريل عام ١٩٤٢ قدم « مؤتمر الخريجين » مذكرة إلى الحاكم العام طالبوا فيها بحق السودان فى تقرير مصيره وفى عام ١٩٤٣ أصدر مؤتمر الخريجين قراراً أعلن فيه رغبة السودانيين فى قيام حكومة سودانية ديموقراطية فى اتحاد مع مصر تحت التاج المصرى .

* * *

« فرق تسد كان شعار الدولة الرومانية القديمة فليكن شعارنا »

لورد إيلفنستون

وأسرعت السياسة الاستعمارية لدفع المعسكر الآخر إلى العمل إذ أنشأت حزب الأمة عام ١٩٤٥ وأصدر هذا الحزب صحيفة تحمل اسمه وبدا طابع الأنصار – أى أنصار الحركة المهدية القديمة وأعضاء أسرة المهدى وأصهارها – بارزاً فى تكوين هذا الحزب وتمويله وإن كانت لباقة المحاولة الاستعمارية قد شاءت أن يكون غرض الحزب الظاهرى المطالبة باستقلال السودان !

وأمعنت السياسة الاستعمارية فى لباقتها فنشر السكرتير الإدارى فى شهر إبريل سنة ١٩٤٥ بياناً فى الصحف حذر فيه موظفى الحكومة الذين يعملون كأعضاء فى حزب أو هيئة سياسية من الاشتراك فى أى عمل يحط من سلطان هذه الحكومة

أو يهاجم كيان الحكم الثنائي فى السودان أو الحكومة البريطانية أو الحكومة المصرية وإلا اضطر بدون أى تحـــذير آخر لمنع أولئك الموظفين من العمل فى أية لجنة أو القيام بدور هام فى تلك الأحزاب أو الهيئات . ولكن السودانيين كانوا يرون بأعينهم و يكادون يلمسون بأيديهم أن وظائف الحكومة والشركات البريطانية والأراضى الزراعية ورخص آلات رفع مياه الرى لهذه الأراضى كادت تصبح وقفاً على أعضاء حزب الأمة وأنصاره والموالين له ممن يطالبون باستقلال السودان !

وأما ثانى الخطوتين اللتين كانت قد اعتزمت السياسة الإنجليزية الإقدام عليهما عقب بدء السودانيين الشماليين فى مؤاخاة وعى مصر القومى وهى فصل جنوب السودان عن شماله فقد تطورت بالشكل الآتى .

(ا) فى عام ١٨٨٧ أرسل هنرى استانلى بحجة إنقاذ أمين باشا الذى عينته مصر حاكماً للمديرية الاستوائية وظل يشغل هذا المنصب سبع سنوات بعد الاحتلال البريطانى .

(ب) فى عام ١٨٨٨ تأسست الشركة الإمبراطورية لشرق أفريقيا البريطانية مستورة بأغراض تجاربة .

(ح) فى أول يوليو سنة ١٨٩٠ عقدت بين بريطانيا

وألمانيا الاتفاقية التى اعترفت بها الثانية للأولى بنفوذها فى منطقة منابع النيل

(ى) فى ٢٩ مايو سنة ١٨٩٤ عقدت معاهدة بين ملك أوغندة وممثل الشركة الإمبراطورية وضعت بها أوغندة تحت الحماية الإنجليزية ولم تشمل هذه الحماية ولايات « أونيورو » و « تورو » و « أنكول » وهى بقية أراضى أوغندة .

(هـ) فى يونيو سنة ١٨٩٥ تنازلت الشركة للحكومة البريطانية عن حقوقها !

(و) فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ عَقدت اتفاقية الحكم الثنائى بين مصر وبريطانيا التى نصت مادتها الأولى على أن :

«كلمة السودان فى هذه الاتفاقية تعنى كل الأراضى الواقعة جنوب خط عرض ٢٢ درجة شمال خط الاستواء وهى الأراضى التى :

١ — لم يخلها الجيش المصرى قط منذ عام ١٨٨٢

٢ — التى كانت قبل الثورة الأخيرة فى السودان تديرها حكومة سمو الخديوى ففقدتها مصر مؤقتاً ثم استعادتها حكومة جلالة ملك بريطانيا والحكومة المصرية بالاتفاق معاً .

٣ — التى قد تحتلها الحكومتان بالاتفاق معاً »

ويبدو من هذا النص أن حدود السودان الجنوبية لم

تعين بوضوح مما يقطع بأن الحكومة البريطانية حتى عام ١٨٩٩ ورغم المعاهدات الصورية التى عقدت بين الشركة الإمبراطورية لشرق أفريقيا البريطانية وملك أوغندة ثم بين هذه الشركة والحكومة البريطانية كانت تحس بأن وجودها فى المديرية الاستوائية يعوزه السند الشرعى ولذا تركت حدود السودان الجنوبية معماة مبهمة لكى تكون لها حرية العمل فى المستقبل تبعاً لتطورات الحوادث

وفى يونيو سنة ١٨٩٩ قامت ثورة فى أوغندة فاستعانت الحكومة البريطانية بفرقة بنادق أفريقيا الشرقية وبقوات من الهند لقمعها ثم عينت مندوباً سامياً هو سير هارى جونستون فى أول يوليو من ذلك العام وطبقت السياسة الاستعمارية للمرة الأولى فى أفريقيا نظام « الحكم غير المباشر » وفرض هذا النظام على بقية أراضى أوغنده ففرض على تورو فى عام ١٩٠٠ وعلى أنكول فى عام ١٩٠١ بواسطة اتفاقات صورية مع أمرائها .

(ز) وقد استغلت الحكومة البريطانية عقب استعادة السودان ضعف الحكومة المصرية التى لم تثر نكبة اغتصاب الجزء الجنوبى من المديرية الاستوائية الذى كان — إلى عام ١٨٩٠ — يضم كما رأينا مراكز « دوفيليه » و « فاديبك » و « فويرا » و « ماجنجو » بل كان يضم « واد لاسى »

العاصمة الأخيرة لتلك المديرية . استغلت الحكومة البريطانية ذلك الضعف لتثبت قدمها فى الجزء الجنوبى للمديرية الاستوائية فلما عاد الجيش المصرى إلى السودان عام ١٨٩٩ اقتصر فى توزيع وحداته على الجزء الشمالى من المديرية الاستوائية وكاد الاغتصاب يصبح حقيقة مادية بتوالى الزمن .

(ح) فى عام ١٩٣٧ بعد عودة الجيش المصرى إلى السودان تنيفذاً لمعاهدة الصداقة والتحالف مع بريطانيا لم يمكن هذا الجيش من دخول جنوب السودان بل اقتصر على البقاء فى الخرطوم .

(ط) عدت حكومة السودان مديريات جنوب السودان الثلاث وهى المديرية الاستوائية وبحر الغزال وأعالى النيل منطقة مغلقة closed area وبررت ذلك باعتبارات صحية . ومنعت حتى السودانيين من دخولها إلا بإذن خاص .

(ى) استعانت حكومة السودان بالمبشرين المسيحيين الذين انتشروا فى جنوب السودان انتشاراً هائلا عقب إخلاء الجيش المصرى له عام ١٩٢٤ على اذاعة الرعب فى قلوب الجنوبيين من الشماليين فكل شمالى « جلاب » وهو الاسم الذى كان يطلق على النخاسين أيام تجارة الرقيق . وجنوب السودان يتكون من قبائل عديدة لكل منها لغتها الخاصة ولذلك عمدت السياسة

الاستعمارية لتحقق فصل الجنوب عن الشمال إلى طبع كتب بالإنجليزية فى لغات تلك القبائل وطباع أبنائها. وكل مبشر يكلف بالعمل فى منطقة معينة عليه أن يتعلم لغة القبيلة التى تسكن هذه المنطقة ومعظم هؤلاء المبشرين يتولون تدريب أتباعهم من السودانيين الجنوبيين على مهنة معينة كالنجارة أو قيادة السيارات لكى يمكن لهؤلاء الأتباع الارتزاق من مزاولة هذه المهنة .

ولقد تبينت بنفسى أثناء إقامتى فى (جوبا) عاصمة المديرية الاستوائية ان الجنوبيين من مختلف القبائل التى تسكن هذه المديرية والتى يبلغ عددها عشرا على الأقل هى قبيلة « البارى » فى جوبا وتوريت و « الشولى » فى نيمولى — الابراهيمية — و « الزاندى » فى يامبيو وكلها من القبائل التى لا تزال تعيش فى نفس المناطق التى كانت تعيش فيها منذ ترلى أمين باشا إدارة هذه المديرية حتى عام ١٨٩٠ وقد أشير إليها فى كتاب (الحقيقة حول أمين باشا) الذى وضعه فيتا أفندى حسان كما ورد فى هذا البحث من قبل. وإلى جانب هذه القبائل الرئيسية توجد قبائل فرعية مثل قبيلة (الديد نجا) فى كابوتيا شرق النيل « بحر الجبل » وقبيلة (الفيجولو) فى لوكا وقبيلة (الأبوكايا) فى يى وقبيلة (المورو) فى ماريدى وكلها غرب النيل « بحر الجبل » وقبيلة (الموندارى) فى تريكاكا

على ضفة النيل « بحر الجبل » الغربية تبينت أن الجنوبيين لايقتصرون على النفور من الشماليين الذين يعملون فى بعض الشركات كشركة الخطوط الجوية السودانية أو الذين يعملون فى إدارات حكومة السودان المختلفة بل إنهم يكادون يقاطعونهم. بتحريض من البريطانيين فنادى جوبا الذى أسسه بعض المتعلمين من الشماليين الذين اجتمعوا فى جوبا لا يتردد عليه أحد من الجنوبيين إطلاقاً رغم أنه يقع فى قلب عاصمة المديرية الاستوائية وقد تحققت من أن محاولات عديدة بذلت لإقناع الجنوبيين المتعلمين بالانضمام للنادى ولكن دون جدوى .

وقد ذكر لى أحد مهندسى الرى المصريين أن أحد الجنوبيين المتعلمين تحرش به توهماً من هـذا الجنوبى بأن المهندس المصرى قد رمقه بنظرة احتقار كما أكد لى هذا المهندس بأنه تحدث إلى عديدين من هؤلاء الجنوبيين فتبين انهم يتوهمون — بايحاء من البريطانيين — بأن كل شمالى إنما تنطوى نفسه على الرغبة فى استعباد الجنوبيين وفى إعادة عهد النخاسة بشكل أو بآخر !

(ك) فى عام ١٩٤٤ أنشأت حكومة السودان مجلساً استشارياً لشمال السودان وحده أى للمديرية الشمالية والخرطوم وكسلا والنيل الأزرق وكردفان ودارفور دون مديريات جنوب

السودان وهى المديرية الاستوائية وبحر الغزال وأعالى النيل وكان المجلس مكوناً من ثمانية عشر عضوا يمثلون مجالس المديريات وعشرة أعضاء عينهم الحاكم العام وعضوى شرف هما السيد على المرغنى باشا رئيس الطريقة « الختمية » والسيد عبد الرحمن المهدى باشا رئيس « الأنصار » .

وكان قصر تمثيل المجلس الاستشارى لشمال السودان نوعاً من جس النبض لما اعتزمته السياسة الإنجليزية وتبين فى المراحل السابقة من فصل هذا الجزء الجنوبى وضمه إلى أوغندة بعد أن فصلت أوغندة عن المديرية الاستوائية .

* * *

طالب بالخبز فاعطيناه حق التصويت

لورد هيلى

وينص ما يسمى دستور سنة ١٩٤٨ على إنشاء «مجلس تنفيذى» مكون من عدد يتراوح بين ١٢ ، ١٨ عضواً نصفهم على الأقل من السودانيين ويضم « زعيم الجمعية التشريعية » والوزراء وبعض المستشارين الذين لا يتولون وزارات معينة ووكلاء الوزارات كما ينص هذا الدستور على إنشاء « الجمعية التشريعية » التى تضم عشرة أعضاء منتخبين بطريق الانتخاب المباشر يمثلون المدن السبع الكبرى فى السودان واثنين وأربعين عضواً

منتخبين بطريقة الانتخاب غير المباشر يمثلون باقى أنحاء السودان الشمالى . وثلاثة عشر عضواً يمثلون مجالس المديريات الجنوبية الثلاث. وعشرة أعضاء يعينهم الحاكم العام. وأعضاء « المجلس التنفيذى » إذا لم يكونوا قد انتخبوا أو عينوا فى الجمعية .

والمجلس التنفيذى فى السودان — حتى اكتوبر ١٩٥١ — مكون من وزير الزراعة ووزير الصحة ووزير المعارف وهم سودانيون ومن مستشار بلا وزارة سودانى واثنين من المستشارين البريطانيين السكرتير الإدارى والسكرتير القضائى والسكرتير المالى وهم بريطانيون ومن قائد الأمن ومن اثنين من وكلاء الوزارات السودانيين .

ورغم كثرة عدد القبائل فى مديريات جنوب السودان الثلاث فإن الجمعية التشريعية لا تضم إلا ممثلى ثلاث قبائل فقط فمن بين الخمسة الذين يمثلون المديرية الاستوائية ممثل لقبيلة « البارى » وممثل لقبيلة « المورو » ومن بين الأربعة الذين يمثلون مديرية أعالى النيل ممثل لقبيلة « الدنكا » ومن بين الأربعة الذين يمثلون مديرية بحر الغزال ممثل آخر لقبيلة « الدنكا » وباقى الثلاثة عشر ممثلا لجنوب السودان موظفون سابقون فى حكومة السودان عينوا تعييناً بواسطة المديرين البريطانيين

الذين يرأسون مجالس المديريات .

وقد تبينت الهيئات الوطنية السودانية هذه اللعبة الاستعمارية التي قصد بها صرف السودانيين عن التفكير في مصيرهم السياسي المشترك مع إخوانهم المصريين فقاطعت انتخابات هذه الجمعية التشريعية التي تمخضت عن شبه لجنة من لجان حزب الأمة الذي يدعوا ظاهراً إلى استقلال السودان أي يعارض فكرة الوحدة مع مصر .

وقد وفقت السياسة الاستعمارية فعلا في صرف تفكير نفر من السودانيين عن الحقائق المادية التي يكاد وهجها يعمى البصر ، صرفتهم عن التفكير في أن السودان الذي يبلغ عدد سكانه نحو ثمانية ملايين لا تزيد إيراداته السنوية عن عشرة ملايين من الجنيهات وفي أن هذه الإيرادات كانت عندما أرغم الجيش المصري إرغاماً عام ١٩٢٤ على ترك السودان أربعة ملايين ومائتين وثمانية وتسعين ألفاً وثمانمائة وستة وخمسين جنيهاً فلم تزد عام ١٩٣٩ إلا إلى خمسة ملايين وثلاثة وخمسين ألفاً وسبعمائة وخمسة وستين جنيهاً ولم تتعد عام ١٩٤٧ — وهو آخر بيان رسمي منشور — عشرة ملايين ومائة وواحد وأربعين ألفاً وأربعمائة وخمسة وتسعين جنيهاً . والمصروفات في ميزانية السودان تنقص بقدر يسير عن الإيرادات فلا ينال السوداني

من ميزانية حكومته هناك أكثر من جنيه واحد فى العام مما يدل على إهمال استغلال الثروة القومية إهمالا شائناً وبالتالى إهمال مرافق الإصلاح العامة بسبب عجز الإيرادات عن الاضطلاع بما تتطلبه مشروعات الإصلاح من نفقات ويكفى لتبين الفرق بين مصر والسودان فى هذا الشأن أن نذكر أن الميزانيه المصرية تزيد عن مائتى مليون من الجنيهات وقد تضاعفت هذه الميزانية خمس مرات عما كانت عليه قبيل عام ١٩٣٩ تنفق على عشرين مليوناً من المصريين أى أن نصيب المصرى من هذه الميزانية لا يقل عن عشرة أضعاف نصيب أخيه السودانى .

ولما أجمعت الهيئات الوطنية السودانية على مقاطعة الجمعية التشريعية عادت السياسة الاستعمارية تضفى لوناً جديداً على هذه الأسطورة فأبدت استعدادها لتعديل الدستور تعديلا من شأنه تلافى اعتراضات المعترضين لكى تستدرج من تستطيع من استدراجه للاشتراك فى نظام الحكم القائم .

وفى أكتوبر سنة ١٩٥١ قضت مصر على هذه المناورات باصدار القانون الذى نصت المادة الأولى منه على أن « يلغى القانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٣٦ بالموافقة على معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا الموقعة بلندن فى ٢٦ أغسطس

سنة ١٩٣٦ ومن ثم ينتهى العمل بأحكام تلك المعاهدة والاتفاق المرافق لها الخاص بالإعفاءات والميزات التى تتمتع بها البريطانية الموجودة فى المملكة المصرية وينتهى العمل كذلك بأحكام اتفاقيتى ١٩ يناير و ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ بشأن إدارة السودان » وباصدار القانون الذى نصت المادة الأولى منه على أن « يكون للسودان دستور خاص تعده جمعية تأسيسية تمثل أهالى السودان وينفذ بعد أن يصدق عليه الملك ويصدره » والذى تنص المادة الرابعة منه على أنه « يحتفظ بالشئون الخارجية وشئون الدفاع والجيش والنقد فيتولاها الملك فى جميع أرجاء البلاد » وبإصدار القانون الذى تنص المادة الثانية منه على أن « الملك يلقب بملك مصر والسودان » .

أما الاستعمار فى كينيا فقد بدأ بشراء الحكومة البريطانية للشركة الإمبراطورية لشرق إفريقيا البريطانية وحلول تلك الحكومة محل الشركة فى « الحقوق » ! التى اغتصبتها من ملوك وزعماء الأقطار النيلية . ففى عام ١٨٩٥ أعلنت الحكومة البريطانية حمايتها على المنطقة التى تقع بين ممباسا — على شاطئ المحيط الهندى — وحدود أوغندة .

وقد بدأ المستعمر البريطانى العتيد لورد ديلامير منذ ذلك العهد يضع أسس الاستعمار فى هذا القطر النيلى الذى

رأى أن جوه المعتدل يصلح لإقامة الأوربى الأبيض إقامة صحية لا تحد من نشاطه . كما رأى أن هذا القطر الواسع المساحة لا يضم إلا قلة فى عدد السكان تتيح للمستعمرين البيض أن يتحكموا فى اقتصاده. وقد خلفه هناك « سير تشارلز أيليوت » فنفذ برنامجه الاستعمارى منذ عام ١٩٠٠ . وأذاع أن أراضى كينيا الزراعية المعروفة باسم « الأراضى العالية » Highlands إنما تعد « بلاد الرجل الأبيض » ومد خط سكة حديدية طوله تسعمائة كيلو متر وأكد أن كينيا ستسد حاجة المستعمرين البيض دون الالتجاء إلى قروض خارجية .

وانتقلت شؤون الحماية على كينيا إلى وزارة المستعمرات البريطانية.

وفى عام ١٩٠٨ تدفقت جموع المستعمرين وفتحت الأراضى الواقعة شمال نيروبى إلى جبل كينيا للاستعمار بمد خط سكة حديدية وأرغمت قبيلة « المازى » على هجر أرض وطنها لهؤلاء المستعمرين . . .

وقد حاول ديلامير أن يحصل من الحكومة البريطانية لكينيا — عندما بلغ عدد المستعمرين الأوربيين فيها نحو ستة آلاف — على الحق فى الحكم الذاتى لصالح أولئك المستعمرين ولكن اشتعال نار الحرب العالمية الأولى عاق تحقيق ذلك الكلام وفى عام ١٩٢٠ أصبحت كينيا مستعمرة تابعة للتاج البريطانى

وزالت صفة « الحماية » عنها .

أما القطر النيلى الثالث من أقطار منابع النيل وهو تنجانيقا فقد بدأت قصة استعماره فى عام ١٨٨٤ بإنشاء الدكتور كارل بيترز لشركة الاستعمار الألمانى وبإسراعه فى عقد ست معاهدات مع رؤساء القبائل الإفريقية على شاطئ القارة الشرقى . وفى فبراير عام ١٨٨٥ حصل على ضمان من إمبراطور ألمانيا بحماية « الحقوق » ! التى تنازل أولئك الرؤساء الإفريقيون إلى الشركة عنها. وقد لقى الاستعمار الألمانى مقاومة عنيفة من سلطان زنزبار المسلم وسارعت الشركة الألمانية إلى استخدام العنف بل التوحش فى إخضاع العرب الذين تعرضوا لها والذين كانوا يتسيطرون على طريق القوافل بين الشاطئ الشرقى وبحيرة تنجانيقا واستعانت الشركة بقوة عسكرية قدمت من ألمانيا للتغلب على مقاومة العرب وزعماء القبائل النيلية .

وفى أول يناير ١٨٩١ فرضت ألمانيا حمايتها على تنجانيقا وعينت « حاكماً إمبراطورياً » .

واتسم الاستعمار الألمانى فى تنجانيقا بطابع دموى يفسره بعض الباحثين فى شئون هذه الأقطار النيلية بأنه يعود إلى افتقار الألمان إلى الخبرة فى الاستعمار ! (١)

(١) Louis Roux : Kenya, Tanganycka, Uganda P. 70

واشتعلت بين عامى ١٩٠٥ ، ١٩٠٦ نار ثورة لم تكن تتوقعها سلطات الاستعمار الألمانية من قبائل جنوب تنجانيقا فقابلتها هذه السلطات كعادتها بوسائل القمع الوحشية التى تركت أثراً فى نفوس النيليين من أهل المنطقة ولكنها دفعت الحكومة الألمانية فى نفس الوقت إلى تعديل نظام إدارة البلاد وأنشأت الحكومة الألمانية وزارة خاصة فى برلين وفصلت بين السلطات المدنية والسلطات العسكرية فى القطر المحمى وحاولت أن تحكم هذا القطر بنفر قليل من الموظفين الألمان. وفى عام ١٩٠٤ مدت خطاً حديدياً وصل إلى « موشى » فى منطقة جبال كلمنجارو وفى عام ١٩١٤ مدت خطاً حديدياً آخر يصل بين دار السلام وكيجوما على بحيرة تنجانيقا وكانت تهدف من مد هذه السكك الحديدية إلى حث المستعمرين الألمان على استغلال هذا القطر. وقد وصلت قيمة الصادرات إلى أربعة ملايين من الجنيهات قبيل الحرب العالمية الأولى .

وفوضت معاهدة فرساى لبريطانيا أدارة تنجانيقا طبقاً لشروط الانتداب التى وضعتها عصبة الأمم حتى عام ١٩٤٦ . ومنذ ذلك التاريخ وضعت تحت وصاية الأمم المتحدة . وقد تلقت عام ١٩٤٨ أول زيارة من اللجنة المكلفة بمراقبة هذا النظام الدولى من قبل هيئة الأمم المتحدة .

صيحات نيلية حرة

من الثابت أن أول صيحة فى سبيل تحرير وادى النيل من التدخل الأجنبى قد ارتفعت فى شمال الوادى وعلى وجه التحديد فى مصر إذ تقدم بعض المصريين لزعامة الرأى العام فى أوائل عهد الخديوى توفيق وألفوا حزباً سرياً سموه الحزب الوطنى بزعامة محمد سلطان وأحمد عرابى ومحمود سامى البارودى وسليمان أباظة وحسن الشريعى وأصدروا منشوراً فى ٤ نوفمبر عام ١٨٧٩ تضمن برنامج ذلك الحزب أشار معظمه إلى كارثة الديون التى مكنت الأجانب من الاعتداء على سيادة مصر[1]

وقد تطور هذا البرنامج فيما بعد عندما تبين زعماء الشعب المصرى أن الأيدى الأجنبية تعمل على أن تحكم مصر حكماً استبدادياً فأعلن على العالم برنامجه الشامل الذى تضمن

١ — المحافظة على استقلال مصر ومقاومة من يحاول إخضاعه

---

(١) أحمد عرابى — « كشف الستار عن سر الأسرار — فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية » ص ١٤٩

ويجعلها ولاية عثمانية .

٢ ــ الولاء للخديوى وتأييد سلطته ما دامت أحكامه جارية وفقاً للعدل والقانون والإلحاح عليه بتنفيذ ما وعد به من إعطاء الشعب حكماً نيابياً

٣ ــ إخضاع الأجانب لما يخضع له المصريون ومساواتهم بالمصريين فى اقتضاء الضرائب منهم

٤ ــ زيادة عدد الجيش للدفاع عن سيادة مصر إلى أن تبدأ الحياة النيابية باعتبار الجيش حارساً للشعب الذى لا سلاح له .

٥ ــ جميع المصريين سواء فى الحقوق مهما اختلفت عقائدهم الدينية .

٦ ــ إصلاح البلاد مادياً وأدبياً ونشر التعليم وتوفير الحرية السياسية لكافة المصريين وهى الحرية التى يعتبرها الحزب حياة الأمة(١) .

والنظرة الأولى لهذا البرنامج يتبين منها أنه تضمن الخطوط الرئيسية الخارجية لمطالب الشعب المصرى فى الحياة الحرة الكريمة وأنه امتاز برجولة التعهد بمقاومة كل محاولة للاعتداء على سيادة

---

(١) Blunt : Secr t History of the English Occupation P. 556

وقد نشر البرنامج بعدد جريدة « التيمس » الذى صدر فى أول يناير عام ١٨٨٢

مصر بالقوة . وقد أثبت هذا الحزب فعلا فيما بعد أنه قاوم الجيوش الإنجليزية التى غزت مصر عام ١٨٨٢ المقاومة العسكرية التى كانت فى طاقة البلاد وقتئذ .

ولما بدأ مصطفى كامل حركته الخالدة للمطالبة بحقوق الشعب المصرى دعا إلى تمجيد المصرية ورفع شأنها فكان أول زعيم نيلى فهم نفسية الجماهير فسما بها وقضى على الرجعية التى كانت سائدة والتى كانت تتنصل من الانتساب إلى المصرية بجملته المأثورة، لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا[1] .

وكانت عقليته السياسية وهضمه لأساليب الاستعمار من النضوج بحيث قال « باطلا يعتقد البسطاء أن الإنجليز مع كونهم ينوون البقاء فى مصر يقبلون منح أهليها حكومة دستورية . لأنه لو جاز ذلك لكان وجودهم فى هذه الديار يوم يؤسس فيها مجلس نيابى تام السلطة واسع السلطان نافذ الكلمة لغواً ولأصبحوا فى هذا القطر لاعبين .

وقامت مصر بعد ذلك بثورتها عقب حرب ١٩١٤—١٩١٨ بزعامة المغفور له سعد زغلول باشا وقد حلل بعض المؤرخين الأوربيين المتوفرين على دراسة تاريخ الشرق الأدنى هذه الثورة فقرروا أنها اعتمدت على شخصية الزعيم المصرى القوية

(١) خطبته بالإسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧

وأن برنامجها كان يتخلص فى شيئين : الاستقلال وحكم الشعب بواسطة الشعب(١).

ومركز وادى النيل الجغرافى يجعل له أهمية دولية خاصة ففى هذا الجزء من العالم لا تزال تتصارع القوى الدولية للسيطرة على أهم طرق المواصلات فى العالم لكى تفوز بالسيادة على هذا العالم .

وفى هذا الجزء يبدو جلياً كيف يقف نظامان من أنظمة التحكم فى العالم . أحدهما نظام الاستعمار الأنجلو سكسونى القائم على التوسع التجارى والصناعى لصالح الرأسمالية تؤيده دعاية سداها المبادئ المسيحية والديمقراطية ويوحى به الوهم بأرستقراطية الجنس « النورديكى » الذى يقطن شمال أوربا . والآخر نظام الاتحاد السوفيتى القائم على التوسع الاشتراكى الذى يوحى به مثل أعلى جديد يعلن المساواة بين جميع الأجناس والشعوب مساواة مطلقة كما يعلن استعداده لمساعدة جميع الشعوب الراغبة فى التحرر .

وأمام هذا الجهد الذى يبذله النظامان اللذان لم تطمئن الشعوب النيلية إلى كليهما تجد هذه الشعوب نفسها فى عراك

---

(١) Hans Kohn: Western Civilisatin in the Near East. P. 83

مع خصمها الخارجى وهو الاستعمار الذى يرى من مصلحته أن تبقى هذه الشعوب فى حالة ضعف وفى مستوى منخفض من الحياة وهى حالة يعرف الخصم المستعمر كيف يستغلها .

وقد ورثت الشعوب النيلية من الماضى تركة مثقلة بالفقر وقل التعاون بينها وهذه النقائص تنبىء بخلق جيل من الزعماء المثقفين الذين يحسون بها ويتعهدون بالقضاء عليها[١] .

ومما لا شك فيه أن التوسع الاستعمارى الأنجلو سكسونى قد أساء إلى وادى النيل كما أساء إلى غيره من بلاد الشرق الأدنى فقد بلغ من أثرة السياسة الاستعمارية أثرة وحشية فى استغلال هذه البلاد وفى اختيار حكومات عاجزة لا ضمير لها من أبنائها لحكمها أن تسببت فى خراب بعضها وتعريض كافة بلاد الشرق الأدنى للخراب [٢] . وقد تبين فعلا بعد الحرب العظمى الأولى أن الغرب قد نجح فى غزو الشرق مرة أخرى كما فعل أثناء الحروب الصليبية[٣] مع فرق أن الغزو الحديث كان لأغراض استعمارية اقتصادية. ويكفى أن أذكر هنا أن مصر — وهى دولة مزدحمة بالسكان وغنية —

---

(١) المرجع السابق صحيفة ٦

(٢) Morgan Shuster : The Strangling of Persia.

(٣) Hans Kohn. — المرجع السابق الإشارة إليه — ص ٦٨

قد احتلت من عام ١٨٨٢ وظلت تعانى ذلك الاحتلال إلى يوم ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ عند ما أعلنت الحكومة الإنجليزية تصريحها المعروف باستقلال مصر بل إلى مابعد ذلك بأعوام .

وفى خلال تلك الأعوام الأربعين لم تتورع الإدارة الأجنبية التى كانت وحدها مسئولة عن وزارة المعارف العمومية عن ترك الأمية متفشية فقد أثبت إحصاء عام ١٩٣٧ أن نسبة اللذين يستطيعون القراءة والكتابة من الذكور عشرين فى المائة من مجموع عدد السكان ونسبة اللاتى يستطعنها من الأناث ٤ فى المائة . وقد اعترف اللورد كرومر فى تقريره عن مصر عام ١٩٠٥ بأن من يقابل بين صناعة مصر الآن وبين ما كانت عليه منذ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة مضت ــ أى قبل الاحتلال البريطانى ــ يجد أن الأمكنة التى كانت مزدحمة بصناع الغزل والحياكة والصناعة والخيم والأحذية والصياغة والعطارة والأدوات النحاسية والسروج والمناخل والأقفال قد قلت أو اندثرت وقامت على أطلالها مقاه وحوانيت ملأى بالبضائع الأوربية .

ولا شك أن سياسة التوسع الاستعمارى فى مصر قد قضت بألا تكون فى مصر زراعة غنية إلا زراعة القطن ولكن المصريين لا يجنون منها ربحاً صناعياً منذ أغلقت مغازلهم

لأن رجال الاحتلال رأوا وجوب إغلاقها لكى تربح مغازل لانكشير ومانشستر وليفربول وبذلك يصدر القطن من مصر إلى المغازل الإنجليزية ويعود إليها قماشاً باهظ النفقات(١)

وثابت أن الاستعمار البريطانى فى السودان قد اتبع نفس الطريق فى عرقلة التقدم العلمى فإن الإحصاء الرسمى لحكومة السودان عام ١٩٤٧ يقرر أن مجموع الطلبة الذين يتلقون العلم فى مختلف أنواع المعاهد ذكوراً وأناثاً فى مديريات شمال السودان الست لا يتجاوز ٨٤٨٢٦ ومن المعلوم أن عدد سكان هذه المديريات الست خمسة ملايين كما أن هذا الإحصاء نفسه يقرر أن مجموع هؤلاء الطلبة والطالبات فى مديريات جنوب السودان الثلاث لا يتجاوز ١٨٨٣٥ . ومن المعروف أن عدد سكان هذه المديريات الثلاث يتراوح بين مليونين ونصف وثلاثة ملايين(٢) .

ومن الواضح أن عدد هؤلاء الطلبة من القلة بحيث يسم هذا الجزء من وادى النيل بطابع التأخر كما يسم الاستعمار بطابع الإمعان فى عرقلة كل نهضة علمية .

---

(١) جوليت آدم - « إنجلتره فى مصر » ص ١٨٤ (ترجمه على فهمى كامل)

(٢) تقويم السودان عام ١٩٤٩ صحيفة ١٠٢ - ١٠٣

ويقتضينا الواجب فى هذا البحث العلمى أن نعترف بأن الصيحات الحرة الأولى التى ارتفعت بمهاجمة الاستعمار البريطانى فى الأقطار النيلية الثلاث التى ينبع منها النيل وهى أوغندة وكينيا وتنجانيقا كانت صيحات المفكرين الأحرار من الأوروبيين أنفسهم الذين أبى تفكيرهم الحر أن يسدلوا الستار على ما يرتكبه مواطنوهم من آثام فى حق الملايين من إخواننا النيليين أهل هذه الأقطار .

فقد كانت الفكرة — قبل إلغاء الرقيق — فى استعباد الأوروبيين للإفريقيين فكرة أساسها اختلاف دين هؤلاء المستعمرين عن دين الإفريقيين أكثر منها فكرة إختلاف لون هؤلاء المستعمرين عن لون الافريقيين والدليل على ذلك أنه عند ما كان يعتنق الإفريقى المسيحية كان يمنح نظرياً حقه فى استرداد حريته(١) .

ولذلك كان اتصال الإفريقى بالمستعمر الأوربى يختلف اختلافاً بيناً عن سابق اتصاله بقوم آخرين وفدوا إلى هذا الإفريقى من الشرق . فالعرب الذين حملوا الإسلام إلى إفريقيا وإن جاروا المسيحيين — قبل إلغاء الرقيق — فى استعباده

---

(١) Mac Crone Race Atlitudes in South Africa, 1937 P. 7.

إلا أن ديمقراطية الإسلام لا تقر أى تفريق بين أبناء الجنس البشرى بسبب اختلاف ألوانه .

وقد لوحظ أن الإفريقى على استعداد بل إنه تواق حتى يومنا هذا لأن يقدم خدماته إلى العربى(١)

وتثبت الإحصائيات أن عدد الأوربيين بالنسبة لكل عشرة آلاف نيلى إفريقى لا يزيد عن ستة فى أوغندة وستة عشر فى تنجانيقا وخمسة وستين فى كينيا .

وقد ألفت وزارة المستعمرات البريطانية عام ١٩٣٦ لجنة لدراسة الحالة الاقتصادية فى الأقطار النيلية وفى غيرها ونشر تقرير هذه اللجنة فى عام ١٩٣٩ فقرر بأن إيراد الغالبية العظمى من شعوب المستعمرات أدنى بمراحل من الحد الأدنى المطلوب لكى يقوم بأود هذه الشعوب وأن أطعمة هذه الشعوب تنقصها البروتينات الحيوانية والكلسيوم والفسفور والحديد والصوديوم والفيتامينات المختلفة وأن الغذاء غير المناسب يعد السبب الرئيسى لارتفاع نسبة وفيات الأطفال التى تزيد عن مائتين فى الألف من المواليد ويصل فى بعض الأنحاء إلى ثلثمائة فى الألف وهذا الرقم يوازى عشرة أضعاف وفيات الأطفال فى جنوب استراليا مثلا حيث لا

(١) Orde Browne : African Labourer. P. 13.

تزيد نسبة الوفيات عن ٣٠ – ٣٥ فى الألف من المواليد وفى إنجلترا لا تزيد عن ٥٧ فى الألف[١] .

ويقرر هؤلاء الباحثون البريطانيون فى شئون الأقطار النيلية الثلاث التى ينبع منها النيل أن مستوى التعليم فيها من الانحطاط بحيث لا يمكن أن يقارن بما يناله « السيد » الأبيض من التعليم . ففى كينيا — كما قرر وزير المستعمرات فى مايو سنة ١٩٣٩ — بلغ ما أنفق على كل طفل أوروبى فيها خلال عام ١٩٣٧ ثمانية عشر جنيها واثنتى عشر شلناً بينما لم يزد ما انفق على كل طفل نيلى من أهالى القطر عن أربعة عشر شلناً وثلاث بنسات وقد جنى عشرون فى المائة من هذا المبلغ عن طريق فرض ضرائب مباشرة على هؤلاء الأهالى النيليين[٢]

وتعد كينيا بحق نقطة سوداء فى الاستعمار البريطانى سواء من جهة مستوى الأجور أو أنظمة تسخير العمال بالقوة فى العمل فالنيلى من أهالى كينيا الذى يعمل فى مناجم الذهب لا يتقاضى فى الشهر أكثر من إحدى عشر شلناً وستة عشر بنساً وكثيرون من هؤلاء النيليين التعساء يقضون نصف العام فى مثل هذا العمل لكى يتمكنوا من كسب ما يكفى لدفع

---

(١) A.G. Russell : Colour, Race and Empire, P. 32.

(٢) المرجع السابق ص ٣٦

الضريبة المستحقة لحكومة الاستعمار وقدرها ثلاثون شلناً فى العام . ولكى يوفروا إذا أمكن بعض المال الذى يسد النقص فى المحصول الذى تغله قطعة الأرض الصغيرةالتى يسمح للواحد منهم باستغلالها والتى تتراوح مساحتها بين ثلاثة وأربعة أفدنة . فإذا عجز النيلى فى كينيا عن مواجهة هذه التكاليف كان عليه أن يسخر أطفاله فى العمل وقد قضى القانون رقم ١٩٣ لسنة ١٩٣٧ بأن والد الطفل أو الولى الشرعى على الطفل الإفريقى يجوز له إذا تجاوزت سن هذا الطفل عن عشر سنوات بموافقة هذا الطفل ! أن يمرنه فى العمل الذى يؤديه الوالد أو الولى لمدة لا تتجاوز خمس سنوات وقد اقترح أن ترفع هذه السن إلى اثنتى عشر سنة فى الأعمال العادية وإلى أربعة عشر سنة فى الأعمال الصناعية فماذا يفعل هؤلاء الأطفال ؟ إنهم أولا قد يرسلون إلى مكان يبعد خمسمائة ميل عن منازلهم حيث لا تفرض أية رقابة عليهم وحيث يتعرضون للآثام الخلقية وللإدمان على الخمر . وقد ألفت حكومة كينيا لجنة أقرت بأن حوادث إدمان هؤلاء الأطفال على الشراب قد ثبتت ولكنها لم تر فيها ما يستحق أن توصف بأنها مشينة ![1] .

وقد نشرت مجلة العمل الدولية فى مارس سنة ١٩٤١ أن

---

(١) المرجع السابق ص ٤٥

حوادث إضراب العمال فى كينيا قد تكررت وأنهم تبينوا أن الإضراب سلاح فعال وأن العامل الإفريقى يتقدم بسرعة وأن من الواجب القيام بتحرى أسباب شكواه تحرياً يستلزم الصبر والعطف ويستهدف وضع علاج حاسم وأساس للعلاقة بين أصحاب العمل والعمال ثم تساءلت المجلة هل يقدر لهذه السحابة التى لا تتجاوز قبضة اليد أن تتطور فتصبح زوبعة من زوابع خط الاستواء ؟

وقد ظهرت فى كينيا جريدة باسم « بارازون » اتسع انتشارها عام ١٩٤٢ بسبب دفاعها عن حقوق المواطنين ضد أطماع المستعمرين البيض .

ويذهب بعض الباحثين فى شؤون الأقطار النيلية إلى أن كينيا — وهى أتعس مكان فى القارة[١] — التى تبلغ مساحتها خمسمائة واثنين وثمانين ألفاً من الكيلومترات المربعة ويسكنها أربعة ملايين وخمسة وخمسين ألفاً من النيليين الإفريقيين لا يزيد عدد الأوربيين فيها عن تسعة وعشرين ألفاً وخمسمائة وعدد العرب عن أربعة وعشرين ألفاً وعدد الهنود عن أربعة وأربعين ألفاً . وثلث هؤلاء المهاجرين تقريباً يسكن فى العاصمة « نيروبى » — هذا القطر النيلى كانت تحكمه قبل الاستعمار

(١) Bigland; Pattern in Black and White, P. 130.

البريطانى قبيلة « المازى » التى رأينا فى الفصل السابق أن أفرادها يمتازون بمهارتهم الحربية وقوتهم الجسدية وأنهم من الرعاة الذين لا يهتمون بالزراعة. فلما بدأ الاستعمار البريطانى بشراء الحكومة البريطانية للشركة الإمبراطورية لشرق أفريقيا البريطانية دفعوا المازى إلى أماكن خصصت لهم يطلق عليها فى التعبير الإنجليزى اسم Reserves لا تكفيهم وأغتصب البيض أراضيهم وتبلغ مساحة الأراضى المغتصبة التى لا يحق لغير البيض استغلالها ستة عشر ألفاً وسبعمائة ميلاً مربعاً وبينما أصبحت كينيا موطنا ممتازاً للأوربيين تحولت إلى لعنة على أهلها الأصليين الذين فرضت عليهم أنظمة تجعل منهم أنصاف عبيد[1] ويحرم على هؤلاء النيليين أن يزرعوا نباتات تنافس ما يزرعه البيض كما أنهم مجردون من كافة المزايا السياسية أو حتى الأمل فى هذه المزايا ومحرومون من أى تعليم فنى . وهذه العقلية الاستعمارية عقلية فاشية بحتة وقد ثبت فى قضية قتل حدثت فى كينيا عام ١٩٤١ كان المجنى عليه فيها أحد الأوروبيين أنه كان يحتفظ بنشرات فاشية . وأنه كان يخطب فى اجتماعات يعقدها الأوربيون الفاشيون. وأنه كان يحمل بطاقة عضوية فى الحزب الفاشى البريطانى الذى يترعمه « موزلى » وأن بعض

---

(١) A.G. Russell : Colour Race and Empire P. 78

أعضاء هذا الحزب قد قبض عليهم فى هذه القضية[١] .

وقد حول اقتصاد زراعة البن فى كينيا وتنجانيقا إلى اتجاه لا هدف له إلا تحقيق مصالح المستعمرين البيض ففى المدة السابقة على عام ١٩٢١ كان النيليون يملكون مائة وخمسة وعشرين الف شجرة بن فى منطقة كليمنجارو فطالب المستعمرون بتحريم الزراعة على أهالى البلاد[٢] ولكن هذا الطلب لم يجب وفى عام ١٩٢٢ كان عدد زارعى البن ستمائة من النيليين وارتفع هذا العدد فى عام ١٩٢٦ إلى ثمانية آلاف وكان عدد أشجار البن فى عام ١٩٢٢ مائة وثمانين الف شجرة فارتفع فى عام ١٩٢٩ إلى مليونين ونصف مليون شجرة وعاد المستعمرون البيض إلى المطالبة بفرض رسوم رخصة على زراعة البن بواقع عشرة جنيهات على كل مزارع وهو مبلغ يزيد على متوسط إيراد الفرد النيلى فى كينيا لكى يشلوا نشاط هؤلاء النيليين ويرغموهم على هجر هذه الزراعة ولكن هذه المحاولة فشلت هى الأخرى .

وقد بلغ من قسوة النظام المفروض لتحصيل الضرائب أن وضع تسعة عشر ألفاً من هؤلاء الإفريقيين النيليين فى

---

(١) جريدة الديلى تلجراف مايو سنة ١٩٤١

(٢) Ormsby-Gore : Report on East Africa P. 152.

عام ١٩٣٧ بمعسكرات الاعتقال فى كينيا لا لسبب إلا لعجزهم عن دفع الضرائب . وقد أعلن مستر مالكولم ماكدونالد وزير المستعمرات البريطانى صراحة أثناء مناقشة تقرير وزارته عن عام ١٩٣٩ أنه إذا رؤى رجل فى بعض المستعمرات يأكل قطعة من اللحم فإنه يثير الدهشة التى يثيرها الرجل الإنجليزى إذا رؤى يأكل ورقة من أوراق البنكنوت !

ولم تقتصر القسوة فى جباية الضرائب على كينيا وحدها بل تعدتها إلى تنجانيقا فقد بلغ عدد النيليين الذين سخروا فى العمل لسداد الضرائب المستحقة عليهم عن عام ١٩٣٦ واحد وثلاثين ألفاً وستمائة وخمسة[١]

وقد حرم المستعمرون البيض فى الأقطار النيلية الثلاث حق تأليف الجماعات السياسية — التى أحلها البيض لأنفسهم — على النيليين أهل البلاد . كما استغلوا ظروف الحرب العالمية الثانية للمعارضة فى أى تعديل إصلاحى فى التشريع الخاص بنقابات العمال وقد اعتبرت « جمعية كيكويو المركزية » وجمعيتان أخريان من جمعيات العمال هيئات خطرة ومخلة بأمن المستعمرة[٢]

---

(١) A.G. — Russell, — Colour, Race and Empire P. 110

(٢) Leys : Colour. Bar in East Africa P. 140

وفى المجلس التشريعى لكينيا يبلغ عدد ممثلى المستعمرين الأوربيين الذين رأينا أن مجموعهم لا يتجاوز ثلاثين ألفاً بما فيهم النساء والأطفال أحد عشر نائباً وعد ممثلى الهنود الذين رأينا أن عددهم لا يتجاوز أربعة وأربعين ألفاً – خمسة نواب وممثلى العرب الذين رأينا أن عددهم لا يتجاوز أربعة وعشرين ألفاً – نائب عربى بينما أهل البلاد الذين يبلغ عددهم أربعة ملايين وخمسة وخمسين ألفاً لا يمثلهم إلا نائبان معينان بواسطة سلطات الاستعمار !

هذه صفحة من صفحات الاستعمار الأوربى فى وادى النيل وقد تبينا فى باب « الشعوب النيلية » كيف أن شعوب هذه الأقطار النيلية تكون وحدة « جنسية » لا انفصام بينها كما تكاد تكون وحدة لغوية . وتبينا أيضاً أن الاستعمار الأوربى قد فرض على هذه الأقطار حدوداً مفتعلة سياسياً لا يبررها أى اعتبار جغرافى أو تاريخى أو « جنسى » .

وقد تبين المستعمرون الأوربيون أن الفصل بين هذه الأقطار النيلية إسراف فى التعسف ففكرت الحكومة البريطانية عام ١٩٢٩ فى إنشاء « اتحاد » بين أقطار منابع النيل الثلاثة كينيا المستعمرة . وتنجانيقا التى تحت الوصاية بانتداب من عصبة الأمم . وأوغندة التى تحت الحماية. ولكن اللجنة التى ندبتها

عصبة الأمم عام ١٩٣٣ للنظر فى ذلك رفضت الفكرة على أساس أن انتداب بريطانيا لإدارة تنجانيقا لم يكن قد انتهى بعـــد .

وعادت الفكرة إلى الوجود بين عامى ١٩٣٤ و ١٩٣٥ باجماع ممثلى الأوروبيين فى كينيا وأوغندة ولكن الفكرة رفضها وكيل وزارة المستعمرات البريطانية لنفس السبب .

وفى عام ١٩٤٥ وضعت الحكومة البريطانية مشروع قانون قبله الأوربيون المهاجرون إلى الأقطار النيلية الثلاثة مع بعض تحفظات ورفضه الهنود فأعيد تقديمه عام ١٩٤٧ وصدر رغم معارضة الهنود وهذا القانون يحقق نوعاً من « الاتحاد » بين الأقطار النيلية إذ أنه أنشا ثلاث هيئات تتقاسم السلطات التنفيذية والتشريعية .

فالهيئة الأولى وهى « اللجنة العليا لشرق إفريقيا » تضم حكام الأقطار الثلاثة . كينيا وتنجانيقا وأوغندة ورئاستها ــ بنص القانون ــ للأول .

والهيئة الثانية وهى « الهيئة التنفيذية لشرق إفريقيا » تضم رئيس اللجنة السابقة ومديرى المالية والمواصلات والبريد وسكرتير الشؤون الاقتصادية والمستشار القانونى لكل من الأقطار الثلاثة ورئيس الجمعية المركزية وهى الهيئة الثالثة .

والهيئة الثالثة وهى «الجمعية المركزية لشرق إفريقيا» التى تتيح لأهل الأقطار الثلاثة الاشتراك فى إدارة مصالحها .

وهى مكونة من بعض أعضاء الهيئة الثانية ممثلين للإدارة المركزية ومن أعضاء غير موظفين منتخبين بواسطة المجالس التشريعية للأقطار الثلاثة على أساس أربعة مندوبين عن كل قطر ويمثل الأوربيين فى هذه الهيئة اثنان ويمثل الهنود مندوب واحد كما يمثل جميع الإفريقيين أهل البلاد مندوب واحد مع أننا رأينا أن مجموع عدد هؤلاء الإفريقيين فى هذه الأقطار الثلاثة هو ثلاثة عشر مليوناً وستمائة ألف بينما عدد الهنود فى الأقطار الثلاثة لا يزيد عن مائة وتسعة وستين ألفاً وبينما عدد الأوربيين لا يزيد عن ثلاثة وخمسين ألفاً !

ولقد اهتم بعض المفكرين المصريين بمصير هؤلاء الملايين من إخواننا الإفريقيين النيليين الذين يعيشون حول منابع النيل فاقترح بعضهم « إنشاء اتحاد نيلى » يجمع مصر والسودان وأوغندة(١) وقد يلاحظ على هذه الفكرة اقتصارها على ضم أوغندة إلى هذا الاتحاد النيلى مع أن وادى النيل يشمل كما رأينا القطرين الآخرين وهما تنجانيقا وكينيا .

ودعا البعض الآخر إلى إدماج مبدأ « إفريقيا للإفريقيين »

---

(١) فؤاد أباظة باشا — مجلة المصور العدد ٩٤٩

كقاعدة من قواعد القانون الدولى العام التى لا يجوز الخروج عليها أو المساس بها كما سبق أن أدمجت قاعدة « أمريكا للأمريكيين » التى نادى « مونرو » بادماجها ضمن قواعد ذلك القانون(١)

وليس هذا البحث مجالا للأفاضة فى تفاصيل الشكل الذى تتخذه الجهود التى تبذل لتحرير الأقطار النيلية التى لا تزال ترسف فى أغلال هذا الاستعمار من ذل هذا الاستعمار ويكفى أن نقرر فى ختام هذا البحث أن الاجماع قد انعقد بين العلماء المحايدين الذين توفروا على دراسة شؤون هذه الأقطار على أن مصر دون غيرها هى الدولة التى يمكنها إدخال النظم العصرية فى الحكم إلى الأقطار الواقعة على جانبى النيل.

فقد قرر سير صمويل بيكر الإنجليزى « أن الحضارة لم تصل إلى قلب إفريقيا إلا بعد أن أمتدت الحدود المصرية إلى خط الاستواء »(٢)

وقرر هيلد براند الألمانى فى خطاب إلى رئيس الجمعية الجغرافية المصرية فى ٣١ ديسمبر عام ١٨٧٥ « لا توجد

---

(١) محمود كامل — « العمل لمصر » سنة ١٩٤٥ ص ١٥٥ ، ١٥٦

(٢) صمويل بيكر — كتاب الإسماعيلية ص ٤١٢

أمة أصلح – فى اعتقادى – من مصر لرفع مستوى المدنية فى إفريقيا »(١)

وقرر شيليه لونج الأمريكى « إننى أكرر أن مصر وحدها دون غيرها هى التى يتوفر لديها شعب يصلح صلاحية خاصة لخدمة هذه الأقطار الإفريقية وإلى هذا الشعب – لا إلى البعثات الأجنبية – يجب أن يتجه كل محب للجنس البشرى . وإذا شاءت العناية الإلهية أن تسعد أقاليم إفريقيا الوسطى بوسائل إنسانية فان هذا الهدف لايمكن أن يتحقق إلا بواسطة الشعب المصرى »(٢)

وقرر الفونس جويلى الفرنسى « أن استقلال مصر لا يتحقق إلا بشرط أن تمتد وحدتها مع الأقاليم الجنوبية إلى منابع النيل فان ترك هذه المنابع بين يدى سلطة أجنبية أنما هو وسيلة من وسائل الضغط الفعال على سياسة مصر الخاجية»(٣)

إن مصر لم تبد فى تاريخها قط كدولة استعمارية . وليس فى طبيعة أهلها أن يكونوا مستعمرين . بل أنها وقفت فى المحافل الدولية دائماً إلى جانب كل شعب أو مجموعة شعبية تتوق

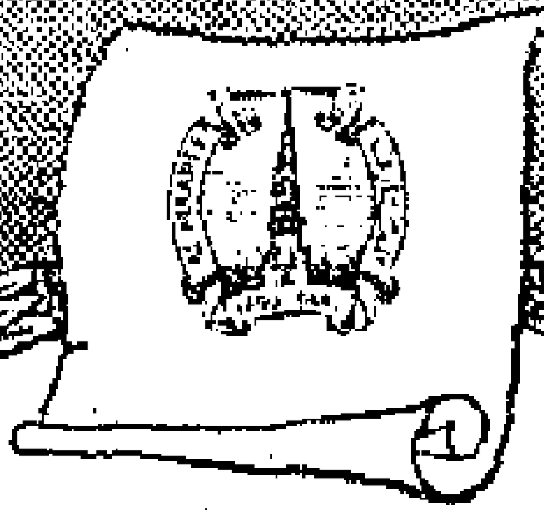
---

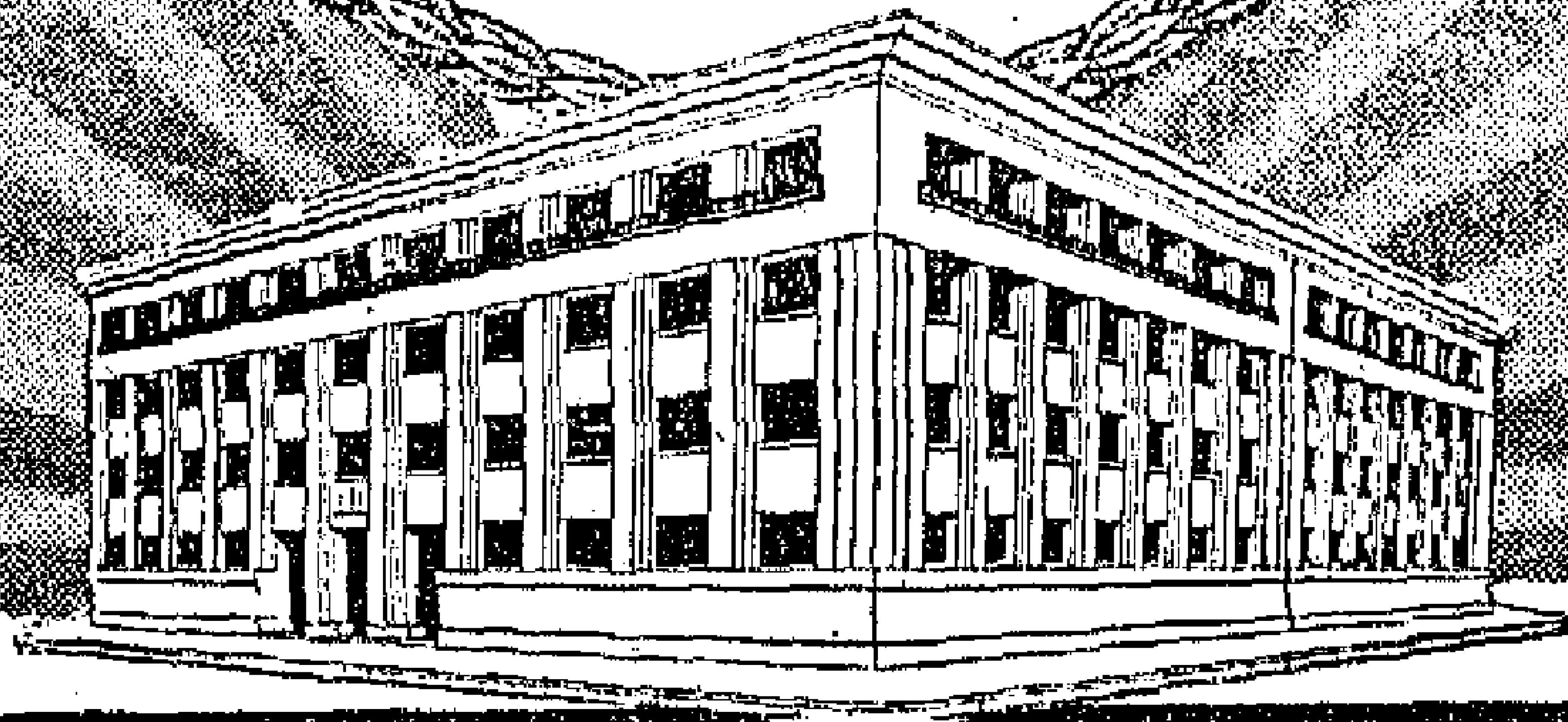
(١) الدكتور محمد صبرى – مصر فى أفريقيا الشرقية ص ٧٦

(٢) Chaillé Long : L'Afrique Centrale

(٣) Alphonse Gouilly : L'Islam devant le monde moderne P. 89

إلى التخلص من نير الاستعمار . وكل ما يرمى إليه هذا البحث هو لفت أنظار النيليين فى شمال وادى النيل ووسطه أى فى مصر والسودان إلى ما يعانيه إخوانهم فى جنوبه حول منابع النيل لكى يتعاون الجميع على تحرير أهل هذه المنابع وعلى أن يترك لهم كامل الحق فى اختيار شكل الحكم الذى يفضلونه .





ابتداء من أول يناير سنة ١٩٥٢

تصدر

مجلة الأولاد فى جميع البلاد

سندباد

المجلة الأولى من نوعها . ستكون بمادتها ورسومها وتنسيقها وإخراجها خير ما يودع بين أيدى الناشئة فيطالعها بشغف وفائدة جميع الأولاد بنين وبنات .

احجزوا منذ الآن

النسخ اللازمة لأولادكم وتلاميذكم

رئيس التحرير الأستاذ محمد سعيد العريان

تصدر عن دار المعارف بمصر

جنرال  الكتريك

U.S.A.



ثلاجات منزلية وتجارية
اجهزة تكييف الهواء
اجهزة تبريد
أعمال الإضاءة الحديثة
مبردات للمياه
أدوات كهربائية منزلية

اشتر الأفضل..

جنرال  الكتريك

U.S.A.

٢ر٧٠٠ر٠٠٠
ثلاجة جنرال الكتريك تستعمل
بنجاح منذ عشر سنوات تقريبا

الموزعون المعتمدون للقطر المصرى

شركة إيسترن للكهرباء

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت باشا ت ٧٨٠٦٠ بالقاهرة

وتباع لدى وكلائنا بجميع أنحاء القطر

PMO

اقرأ

عباس محمود العقاد

سارة

دار المعارف بمصر

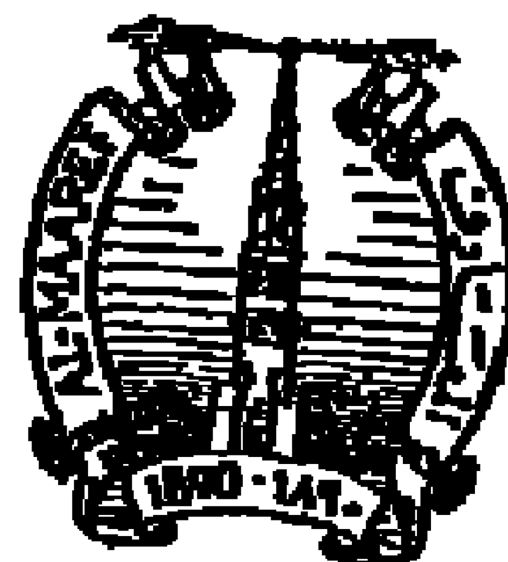
سارة

عباس محمود العقاد

سارة

اقرأ ١٠٨
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٠٨ – يناير سنة ١٩٥٢



أهو أنت ؟

مضت خمسة أشهر قبل أن يجرؤ على عبور ذلك الشارع مشياً على قدميه . وليس الشارع مقفراً أو مخيفاً ، لأنه محاط بالعمار ، مزدحم فى جوانبه بالسابلة والسكان . وليس هو بالبعيد عن طريقه ، لأنه يوشك أن يحتاج إليه فى ذهابه وإيابه إلى حيث يقيم فى ضاحية المدينة . ولكنه كان شارعاً يلتقيان فيه عند ذهابهما إلى دار الصور المتحركة ، ثم يلتقيان فيه عند خروجهما منها .

وكانا يجلسان إذا دخلا تلك الدار فى مكانين متجاورين ، ولكنهما لا يدخلان إليها ولا يخرجان منها متجاورين . بل يرسل هو إلى نافذة التذاكر من يبتاع التذكرتين لكرسيين فى مكان قلما يتغير . ثم يلقاها فى ذلك الشارع ، فتأخذ إحدى التذكرتين وتسبقه إلى الدار ، ويظل هو بضع دقائق فى بعض الأندية العامة ، ثم يلحق بها إلى المكان المعروف .

وكان من عادتها أن تقارن بينها وبين بطلة الرواية إذا أحست منه إعجاباً بها أو ثناء عليها .، وتسأله فى ذلك أسئلة

ذكية خبيثة لا تسهل المغالطة فى جوابها ، إلا على سبيل المزاح والمداعبة .

سألته مرة وقد لمحت منه اهتماماً بالروايات التى تظهر فيها إحدى الممثلات : إذا سمحت لك هذه الممثلة بقبلة . . . أتقبلها منها ؟

فعلم أن الجواب الجد عن هذا السؤال غير سليم العواقب ، وعمد إلى العبث والمراوغة ، قال : وهل من الأدب أن أرفض قبلة تعرضها سيدة ؟

قالت : دعنا من حديث الأدب فما عن هذا أسأل . . . أنا أسألك عن دخيلة نفسك ، أسألك عن رغبتك . . . فهل ترحب بتلك القبلة إذا وجدتها ؟

فعاد ثانية إلى العبث والمراوغة . وطفق يقول : أما إن كنتُ أمثل معها على الستار الأبيض فأنت تعلمين أن القبلة لا غنى عنها . . . تلك واجبات الفن يا صديقتى ، ولا تتم الفنون إلا ببعض التضحية !

قالت : أو تضحية هى ؟

قال : نعم كل قبلة غير قبلة المرأة التى يحبها الرجل هى تضحية . بل هى — إن شئت — سخرة !

فرضيت وهى تعلم أنه يغالط ويراوغ فى الجواب ،

وأحبت أن تشعر أنه لا يقبل تلك الممثلة الجميلة إذا أتيح له تقبيلها . . . وهى تعلم أنه لا يقول صدقاً ولا يعمد إلى الصراحة ! . . وقالت وهى تضحك : لقد نجوت ! إن قبلة تتمناها لهى خيانة فى الضمير ، ولا فرق بين خيانة الضمير وخيانة الواقع ، إلا التنفيذ !

وإذا خرجا للرياضة بعد الفراغ من الصور المتحركة فكثيراً ما كانت تمد يدها إلى مفكرته فى جيبه فتكتب فيها كلمة تناسب رواية الليلة ، أو تناسب الرياضة التى خرجا لها ، إن كانت لها مناسبة ملحوظة .

فكتبت مرة وقد شهدا رواية المرأة المترجلة : « هل أعجبتك رواية المرأة المترجلة ؟ أما أنا فسأكون لك امرأتك فقط » . وكتبت مرة أخرى وقد شهد رواية المرأة المحتالة : « أرجو ألا ترى المرأة المحتالة إلا فى السينما . أما فى الحياة فحسبك المخلصة . . . فلانة » .

وربما مضت سنة أو سنتان على مشاهدة الرواية وهى تذكر كلَّ كلمة قالها فى التعليق عليها أو فى انتقادها . فاتفق يوماً أنهما حضرا الصور المتحركة فى إحدى الضواحى الصيفية ، حيث تعرض المشاهد القديمة بعد سنة أو سنتين من عرضها فى المسارح الكبيرة ، وشهدا هناك رواية هزلية

عن صياد فاشل يستعيض من فشله فى الصيد بالمبالغة فى الوصف والحكاية ، فكان يرفع البندقية ويطلق الطلقة الواحدة فى اتجاه واحد فيقع الطير على يمينه وشماله من جميع الجوانب ، ويظل يتساقط من هنا وهناك إلى ما بعد إطلاق البندقية بلحظة غير قصيرة ؛ فقال لها : أليس الأحسن والأبرع أن يسقط هذا الطير مشوياً على الأطباق ؟

فضحكت طويلا وقالت : أتذكر أنك قلت هذه الكلمة بعينها عند ما شهدنا هذه الرواية فى البلد للمرة الأولى ؟ !

ولا يندر أن يسمع منها أثناء التمثيل كلمات سريعة وتعليقات مبتدرة تكشف بها — على غير قصد منها — عن أعمق أعماق المرأة ، وتهزأ فيها بالرياء الأنثوى الذى يبدو فى خجل المرأة وامتناعها .

من ذلك أنهما شهدا رواية من روايات الثورات يبدو فيها طريد جريح مهدد الحياة بجراحه ومهدد الحياة بمطاردة أعدائه ، وقد لاذ بأحد البيوت فأكرمه أهل البيت وكتموا أمره ، وتعهدته بالعلاج فتاة فيما دون العشرين من العمر سليمة القلب وسيمة الطلعة ممشوقة القوام . فمالت إليه شفقة ثم مالت إليه حباً ، ثم تمالك نفسه بعد طول العلاج ، حتى انفردا فى بعض الجلسات فبلغ من سرورها به وسروره بها

أن نظر إليها ونظرت إليه ، وعيونهما تومض بالمحبة ، ثم اعتنقا في قبلة طويلة جارفة . . . .

وكان بين المتفرجين على مقربة منهما سيدة في نحو الأربعين ، وفتيات ناهدات في مثل سن الفتاة . فصاحت السيدة : انظرن إلى الخائن ! . . . إنه خدعها ! قالت صاحبتنا وهمست ساخرة . . أتقول خدعها ؟ إنه كافأها أحسن مكافأة يستطيعها !

* * *

وهكذا كانت دار الصور المتحركة عندهما شيئاً أكثر من ملهى الفراغ وموعد اللقاء : كانت محور حياتهما الغرامية ، وهل كانت لهما من حياة في ذلك الحين غير الحياة الغرامية ؟ وكانت ملتقى الذكريات والعواطف ووسيلة التقارب والتفاهم فيما يشعران به وما يلاحظانه من أحوال المحبين والمحبات ، وكانت ذخيرة من المناظر التي يقترن كل منظر منها بكلمة ، أو بخاطره ، أو بمناقشة ، أو بأمنية يملكان تحقيقها ، أو بأمنية يكتفيان منها بالحلم والخيال .

فلما وقعت الجفوة بينهما وانقطع طريقهما إلى تلك الدار كانت كل خطوة في تلك الطريق كأنما تثقل النفس بآكام فوق آكام من الذكريات والآلام . وكانت كل

زاوية من الزوايا كأنما تخفى فيها رصداً من الشياطين الثائرة والعقبان الكاسرة ، وكان اجتناب تلك الطريق أسلم الأمور وأهون المحذورات .

ثم مضت الأشهر وخيل إلى صاحبنا أنه لم يعد يخشى أو يذكر ، فاجترأ على العبور بالطريق مرة بعد مرة ، وعبر بها ثلاث مرات أو أربعاً على الأكثر ، وكانت الرابعة هى التى فوجىء بها هذه المفاجأة التى لم تكن فى الحسبان .

إنه لم ير صاحبته بعد اللقاء الأخير فى أثناء تلك الأشهر الموحشة . لأنه اجتنب الأماكن التى عساه أن يراها فيها ، ولزم بيته فى معظم الأيام وقد علم أنه ما من مرتاد أو متنزه يقصد إليه إلا وهو خليق أن يعاوده ببعض الذكريات ، إن لم يعاوده ببعض ما يسوءه أن يراه .

فلما عبر الشارع المهجور تلك الليلة مطرقاً كعادته حين يسير على غير قصد إلى مكان معلوم — سمع من جانبه صوتاً يناديه : صوتاً يعرفه بين ألف صوت ، بل بين جميع ما خلق الله من الأصوات والأصداء : صوتها هى بعينها يهتف به : أهو أنت ؟

أهو أنت ؟ سمع هاتين الكلمتين فأحس لهما صدى كانفغار الهاوية تحت السفينة فى البحر اللجى من أثر عاصفة

أو زلزال ، وقبل أن يجيب ذلك السؤال الذى لا يحتاج إلى جواب ، وفى أقل من رجع الصدى بل فى أقل من اللمحة الخاطفة التى انقضت بين ارتفاع رأسه إليها والتقاء نظره بنظرها — هجم على نفسه طوفانٌ من الدوافع والهواجس التى لا يوجد لها اسم فى اللغات الإنسانية ، لأن اللغات الإنسانية لا تستطيع أن تضع اسماً لألوف من النقائض والمفاجآت التى يجتمع فيها الرعب والسرور والشوق والنفور والهيام والاشمئزاز، وتريد فيها النفس أن تقف وتريد فيها القدم أن تسير ، بل تريد فيها النفس أن تقف ، لأنها لا تقوى على أن تريد.

ولو أنه رآها عند أول الطريق قبل أن يفاجئه من صوتها ذلك الهاتف الطارئ — لعله كان يعرف ما هو مقبلٌ عليه ويستعيد فى نفسه شيئاً من ذلك العزم الذى أعانه على القطيعة ، وأمده بدواعى الإصرار عليها ، كلما جنح إلى اللين والإغضاء والمغالطة .

ولكنه أخذ على حين غرة ، فوقف هنيهة لا يدرى ما يقول .

ووقفت هى أيضاً لا تدرى ما تقول ، وكأنما ندمت على الكلمة لأنها لم تسمع لها جواباً سريعاً ، ولم تزل تخشى ما يجيء به ذلك الجواب . فأومأت إلى مركبة قريبة واقفة

بين مركبات كثيرة ، وإذا بهما يسيران معاً إلى تلك المركبة ، فتجلس فيها ويجلس هو إلى جانبها وهى تقول : هذا خير من أن يرانا الناس مشدوهين كالصنمين !

والواقع أن الناس التفتوا فعلا وجعل بعضهم ينظر إلى بعض ويتهامسون . فقال لها : صدقت . . . . هو خير !

ثم صاح الحوذى : إلى أين يا بك ؟

فلما لم يسمع رداً من « البك » عاد يسأل : إلى أين يا سيدتى ؟

فهمست صاحبتنا : ألا تقول للحوذى إلى أين ؟

فأجابها وهو يوجه خطابه إلى الحوذى : إلى حيث تشاء !

وكأنما ندمت مرة أخرى على الركوب ، وعلى اللقاء ، وعلى السؤال . لأنها كانت تنتظر من صاحبها لهفة على مكان من أماكن الرياضة المعهودة التى ألفا أن يترددا عليها . . فجلست صامتة .

وجلس كذلك صامتاً . وطال الصمت . . لا لأنه كان يريده ، أو لأنه كان يأبى الكلام ، ولكن لأنه كان يفتش عن كل كلام فى الدنيا فاذا هو يهرب . . . أو يستعصى ولا ينقاد .

كان الكلام الذى يريده هو التواعد إلى غد حيث

يلتقيان فى المنزل ، وحيث يقولان ويعيدان ويتأهبان للعذر ويتأهبان للملام .

ولكنّ هذا هو بعينه الكلام الذى كان لا يريده !

يمنعه أن يفوه به مانع الكبرياء ، ومانع الخوف من تجديد ما فات ، ومانع الشك فيمن تصاحب وفيما تضمر وفيما عسى أن تلقى به كلامه فى دخيلة نفسها من الزراية والاستخفاف .

وطال الصمت ، وقالت وكأنما تناجى نفسها : يحسن بنا أن نقف هنا للنزول .

واعترف هو فى طوية ضميره أنه لا يريد أن تنزل قبل أن يقول لها شيئاً أو يسمع منها شيئاً . واعترفت هى فى طوية ضميرها أنها لا تريد أن تنجز تهديدها ولا تريد أن تبرزه فى صورة التهديد . لأنها تعلم أن جواب صاحبها الوحيد على التهديد هو التحدى . . . أو هو تركها تنزل وحدها ، وإن كان يود استبقاءها فى الحقيقة !

ولعلها أخطأت فى حسابها هذه المرة ، فإن صاحبها بعد أن جلس إلى جانبها ، وبعد أن أحس حرارة جسمها ، وبعد أن لمس بضاضة معاطفها ، وبعد أن تلقى أنفاسها على صفحة خده وهى تميل إليه تنتظر كلامه ، وبعد أن غاص فى تلك الغيبوبة التى استنام إليها كما يستنيم الساهر البعيد

العهد بالنوم إلى أول ضجعة على الفراش ، وبعد أن أصبح هو وعزيمته شيئين منعزلين بينهما من البعد ما لا ينجع فيه دعاء ولا استحضار . . . بعد هذا كله لعلها كانت لاتتخاطر كثيراً إذا هددته بالنزول من المركبة واقتضاب ذلك الصمت العقيم .

ولكنها لم تهدد ولم تنزل . . . بل صاحت غاضبة : ما بالك لا تنطق ؟ أمعقود اللسان وأنت لك لسان كالثعبان ؟

وربما أحب أن ينفى عنه تهمة الاضطراب والحصر والضيق بالكلام فى مفاجأة اللقاء ، فقال لها وهو يتلعثم : أين كنت ؟

قالت فى السينما !

قال من حيث لا يشعر بمعنى ما يقول : مع من ؟

فأجفلت مقطبة ، وأجابته بلهجة فاترة ولكنها مفعمة بالتهكم والتأنيب : أولا أذهب إلى السينما إلا مع أحد؟ ألا تزال فى ضلالك القديم ؟

قال : وماذا بدا لى من الهدى الجديد فأعدل عن الضلال القديم؟ ولماذا صرفت كلامى إلى ما فهمت؟ ألا يجوز أن تذهبي إلى السينما مع سيدة؟ فلماذا تستغربين السؤال ؟

قالت : لأنك غريب فى هذه الليلة.. ماذا أقول ؟ لأنك

غريب فى كل حين !

ثم اقتضبت على غير انتظار وهى تشيح بوجهها وتهمس بصوت مسموع : هذا شرح يطول ونحن نهيم فى الشوارع على غير مقصد . . . فأولى بنا أن نرجىء الحديث إلى وقت آخر . ألا ألقاك غداً فى المنزل ؟ . . . . غداً فى الساعة الخامسة ، أسمعت ؟

قالت ذلك وهى تستوقف الحوذى وتهم بالنزول عند محطة الترام .

وإنها لتنزل من المركبة إذ تعمدت أن تدنو بوجهها من وجهه وتزم شفتيها وتغمض جفونها قليلا وهى تنظر إليه أو تنظر إلى غير وجهه ، فقبلها كأنه أداة كهربائية ديس على مفتاحها ، وشعر بالندم وشفتاه لا تزالان على شفتيها . ولكنه شعر به وشعر بنفسه فى تلك اللحظة غريقاً بعيداً كما يشعر بالجسد الغريق الهامد يراه فى أعماق الأوقيانوس الهدار . وقال وهو أيضاً نادم : غداً فى المنزل !

قالت : فى الساعة الخامسة موعدنا القديم !

وافترقا على موعد اللقاء..

موعد

فارقته على موعد اللقاء فى الساعة الخامسة « موعدنا القديم ! » .

وكأنما كانت كلمة الموعد « القديم » وحدها طلسما ساحراً نقله من حالة إلى حالة ، وأخرجه من الحذر والتردد إلى الراحة والاستبشار . . . . فاحتجبت عنه صفحة الشكوك والآلام والمنغصات ولم ير أمامه إلا « الموعد القديم » بل « المواعيد القديمة » فى كل يوم ، وما كانت تحتويه من سرور ومتعة وصفاء ، وذكريات لا تزال مرتسمة فى الذهن ، سارية فى الجوارح كأنها وظيفة من وظائف الأعضاء .

وانطلق من المركبة خفيف الخطى موفور النشاط يكاد لا يعرف أحداً ، ويكاد لا يعرفه من كان يراه قبل ذلك بساعة أو أقل من ساعة .

وأول ما خطر له أن يدخل فى ذلك المساء دار « الصور المتحركة » التى كانا يلتقيان فيها معظم الأوقات ، كأنها باب كان موصداً أمامه ففتح على مصراعيه ، أو فاكهة

ممنوعة رفع عنها المنع والحرمان .

ومن عجائب العاطفة الإنسانية أنها أبداً مولعة بالمراسم والشعائر ، فلا تستولى على النفس حتى ترسم لها « طقوساً » وعادات تذكر الإنسان بطقوس العقائد والعبادات . فلما خطر له أن يقصد إلى دار « الصور المتحركة » أو إلى ذلك « الحرم » الذى كان ممنوعاً حتى ذلك المساء — لم يكتف بتذكرة واحدة . بل طلب له تذكرتين اثنتين ، وهو لا ينوى أن يصطحب أحداً ، ولو جاءه أحد يصطحبه لفر منه كما يفر المرء من غريم .

وقضى الوقت الباقى إلى الساعة التاسعة فى قلق واشتياق كأنّ موعد التمثيل هو موعد اللقاء المنظور .

ثم بدأ عرض الصور وهو يزعم لنفسه أنه يشهد الرواية ويتتبع الممثلين والممثلات ، وليس فى خلده من ذلك شىء إلا كما يرى الناعس المهوم ما حوله من الأشباح ، أو يسمع ما حوله من الأصداء . . . . كل ما يثبت فى خلده منها أنها أشباح وأنها أصداء !

ثم جاءت فترة الاستراحة فإذا بالفتى الذى يبيع هناك بعض الحلوى والمرطبات مقبل عليه فى دهشة واستفهام يسأله : أكنت مسافراً يا بك ؟ . وقبل أن يسمع الجواب أسرع فقال :

إن السيدة كانت هنا فى حفلة الغروب ؟

وإذا بصاحبنا يسأله وهو لا يقصد السؤال ، ولو فكر فى سؤاله قبل أن يلفظ به لكتمه وأخفاه : أكانت وحدها ؟

وخيل إليه أنه يلاحظ فى نظرات البائع ولهجته تلميحاً خبيثاً يقول له ما لا يريد أن يعرفه ، ولا يريد أن يجهله فى الوقت نفسه . . . . فسلبته تلك الملاحظة كلّ طمأنينة إلى ما سيقوله البائع من خبر مقبول أو خبر مرفوض ، وود لو أنه يسكت فلا يجيب بشىء .

ولكن البائع لم يزد على أن هز رأسه وقال : لا أدرى . . . كانت إلى جانبها سيدة . . . ولعلها كانت معها .

فاندفع من صاحبنا سؤال آخر كما اندفع السؤال الأول وهو يغالط نفسه ، ويحسب أنه يتهكم أو يريد من البائع أن يحسبه متهكماً غير جاد فى مطاولة الحديث : جانبها ؟ أى جانب ؟ إن للإنسان جانبين لا جانباً واحداً كما تعلم .

وهنا ظهر من البائع الخبيث أنه فهم كل ما هنالك من الشك والاستطلاع . فقد عودته صناعته أمثال هذه المواقف وأمثال هذه الأسئلة وأمثال هذه الشكوك . فلم يفته أن « البك » يستطلع ويرتاب . . . ومن يدرى ؟ فلعله كان يرى بعينه ما يدله على أن البك جدير بالاستطلاع والارتياب !

فتمهل قليلا وقال : « كان إلى جانبها الآخر هذا الممر . . وأشار بيده إلى أحد الممرات التى بين الصفوف .

فارتفع كابوس ثقيل عن صدر صاحبنا ، وأحب أن يعتقد أن كلام البائع خليق أن يزيل من نفسه جميع الشكوك ، لا مجرد الشك الذى خامره عن زيارة السيدة لدار الصور المتحركة فى ذلك اليوم .

إلا أنها طمأنينة عاجلة لم تلبث أن ذهبت كما جاءت فى طرفة عين ، وإذا بصاحبنا يناجى نفسه ذلك النجاء الذى كان غائباً عن خاطره منذ فترة وجيزة . يا عجباً ! إنى لأجتنب هذه الدار كأنها تجمع شياطين الأرض كلها فى حيز واحد ، وهى تزورها ولا ترى فيما كان بيننا من القطيعة موجباً لاجتنابها . . . لو كان قلبها خالياً من هوى آخر لما استطاعت ذلك ولفعلت كما كنت أفعل أنا إلى هذا المساء . . . والأغلب الأرجح أن هذا البائع يعلم من خفية الأمر أكثر مما يبوح به أو يريد أن يبوح . ألا ترى إلى غمزات عينيه وحركات وجهه ونغمات كلامه ؟ فماذا على المنحوس لو أفضى بما عنده وأراحنا من هذا العناء ! !

وعاد صاحبنا يتساءل فى ضميره : ما عنده ؟ أهكذا جزمت سريعاً بأن « عنده » سراً وأنه يستطيع أن يبوح بأكثر

مما قال ! ألا يجوز أنه لم يعرف سراً على الإطلاق ، وأن ما حسبته غمزات ونغمات مريبة فى صوته إنما هى عادة هذه الطبقة عند ما تتحدث لرجل عن امرأة ، أو عند ما تتحدث فى كل شىء بين رجال ونساء .

— يجوز !

— لا يجوز !

وهكذا انطلقت فى مخيلة صاحبنا أوهام وأشباح لا عداد لها فى تلك الساعة القصيرة ، ولا يقاس إليها كل ما شهدته تلك الدار من الأوهام والأشباح ومن المبكيات والمضحكات .

ولم ينقذه مما استغرق فيه إلا انتهاء التمثيل وزحام الخروج ولقاء بعض الأصحاب وسهرة كثرت فيها الشواغل وطال الحديث .

ونام تلك الليلة على أثر انفضاض السهرة ، وكان يقدر أنه لن ينام .

ولكنه لو قضى الليل كله ساهراً لما عمل فى اليقظة إلا الذى عمله وهو نائم . حلم وتفكير وهواجس وخيالات تضطرب وتصطخب ويتبع بعضها بعضاً ، ولا تميل إلى جانب الرضا لحظة حتى تعود إلى جانب الوسواس والمنغصات .

ثم استيقظ فى الصباح وهو يسأل نفسه كأنما يسأل مخلوقاً

غريباً يجهل ما عنده من نية وشعور : أتنوى أن تنتظرها في الموعد ؟

فما هو إلا ان وضح السؤال في خاطره حتى شعر بأنه سؤال غريب يدل على ما وراءه ، وحتى بدت له الدهشة من أن تكون هناك نية معقولة غير الانتظار .

وهنا دارت في سريرة هذا الرجل – هذا الرجل الواحد – مناقشة عنيفة طويلة كأعنف ما تدور المناقشة بين رجلين مختلفين ، كلاهما مصر على عزمه وكلاهما يحاول جهده أن يخدع الآخر ويستميله إلى رأيه ، وكلاهما يبذل كل ما هو قادر عليه في هذا الحوار من أساليب الإقناع والإغراء والرياء والتصريح :

– كيف لا تنتظرها ؟ أتعطي سيدة موعداً ولا تنتظرها فيه ؟ أهذا يليق برجل ؟

– ولكنها ليست سيدة كسائر السيدات ، ولا زائرة من زائرات المجالس العامة اللواتي تقع بيننا وبينهن هذه التكاليف . . . . إن هذه المجاملات أو هذه القيود لا حساب لها في العلاقات التي انطلقت من جميع القيود .

– ولكن مم عساك أن تخاف ؟ انتظرها وقل لها إنك لا تريد أن تراها بعد هذا الموعد !

— عجباً . . . أتجهل ما أخافه ؟ أتجهل تلك الآلام التى لا حيلة فيها لمخلوق ولا تزال تبتدئ من حيث تنتهى ، وتنتهى من حيث تبتدىء ، لأنها تبتدئ وتنتهى من الشكوك وليس للشكوك قرار حاسم ، ولا مقطع بيقين ؟ أتجهل تلك الأشباح اللئيمة التى تطل عليك فى أطيب أوقاتك فتنغص عليك كل لذة وتكدر عليك كل صفاء ؟

— ولكن علام كل هذه الشكوك التى ليس لها من أول ولا آخر . . . اصرفها عنك مرة واحدة وافرض أسوأ الفروض — وقدر أنها تخونك وأنك تلهو بها فى ساعات فراغك ، ولا يعنيك من شأنها بعد ذلك إخلاص ولا خداع .

— أأنت مخلص فيما تقول ؟ وكيف تنقلب هذه المرأة التى كانت كل نساء الأرض عندى ، وكل ما يخفق له قلبى ، فتصبح بين مساء وصباح وهى لهو ساعة ومتعة فراغ ؟ أهذا خداع يجوز على إنسان ؟ أو تضمن إذا أنا اتخذتها لهواً ومتاعاً ألا يتمكن اللهو ويطيب المتاع ، وأننا لا ننكفىء بعد أيام أو بعد أسابيع إلى استغراقنا القديم وشكوكنا القديمة وعذابنا الأليم ؟ لا لا هذا محال باطل ، واستدراج لا يستر ما وراءه ، وتزوير لا أرضاه .

— لكن الفتاة مليحة مع ذاك . . تصور بضاضتها وهى

جالسة إلى جانبك فى المركبة ، وأنفاسها وهى تهب على خدك فتسرى فى جميع أوصالك ، وقبلتها وهى ترتعش على شفتيك ، وحلاوتها وقد زادها النحول فى هذه الأشهر حلاوة على حلاوة ، ونحولها نفسه وما ينبىء عنه ويكشفه لك من المودة والحنين ، وتصور ذلك كله بين يديك فى مدى بضع ساعات وأنت مع هذا تفكر . . . تفكر فيماذا ؟ فى نبذ هذه النعمة التى تسعى إليك ، وفى الخوف والجبن والفرار !

— هذا حق كله . إن الفتاة لمليحة ولا نكران . . . ولكن !

ولكن ماذا يا أخى . . . ! انتظرها واله بها ولا تدعها لغيرك ينال منها ما لا تنال . . . ولا تستضعف عزيمتك هذا الاستضعاف المهين وأنت رجل ذو عزيمة ومضاء . . . فإذا عاودتك الشكوك فأنت قادر على قطع العلاقة بينك وبينها كما قطعتها من قبل ، وإلا فأنت رابح ما استرجعت من متعة وسرور .

— عزيمتى ؟ وأين هى عزيمتى إن كانت لا تنجدنى فى هذا النزاع العنيف ؟

— إنها تنجدك فى كل حين ولكنك أنت لا تريدها الآن . . . لا تريد عزيمة الجفاء والقطيعة ، ومتى أردتها

غداً فهى حاضرة لديك ، وهى فى كل ساعة طوع يديك . . .
ومع هذا ألا يشوقك أن تستمع إلى حديثها عن أيام القطيعة بينكما ؟ ألا يجوز أن تفسر لك بعض الغوامض ، وتريك من البواطن ما ينقض الظواهر ، وتصف لك من حالها فى غيابها عنك ما يهمك ولو من باب الدراسة والاستقصاء ؟

وتعاقبت الساعات ساعة بعد ساعة فى هذا الحوار الخبيث ولا قرار . وتناول صاحبنا غداءه ولا قرار . وجاءت الساعة الرابعة ولا قرار .

نعم لا قرار فيما يشعر به صاحبنا أو صاحبانا المتحاوران على أصح التعبيرين . غير أن الذى حدث بعد ذلك يدل دلالة لا شك فيها على أن الإنسان يقرر ما ينويه وهو لا يشعر ولا يعترف بشعوره ، بل يدل على أن صاحبينا المتحاورين لم ينفردا بالميدان فيما شجر بينهما من عراك عنيف ، وإنما كان معهما ثالث لا يدريان به وهما ماضيان فى الإقناع والإنكار .

فنى الساعة الرابعة وبضع دقائق — والحوار على أشده بغير قرار — وجد صاحبنا أنه يلبس ملابس الخروج ويفتح باب حجرته وينحدر على الدرج إلى حيث لا يعلم إلا أنه خارج من المنزل وكفى . . . ومضى فى طريقه مهرولا كمن يمضى إلى غاية معلومة يخشى أن يفوته لحاقها ، وركب سيارة لم

يعرف إلى أين تحمله إلا بعد أن أستقر فيها ؛ واستطاع أن يمكث حيث ذهب ساعات ثلاثاً لا ساعة واحدة ولا نصف ساعة كما كان يتمنى وهو يعالج أن ينجو من الموعد المحدود .

ثم ساوره القلق ودلف إلى منزله بالسرعة التي فارقه بها ، واستحالت كل حيرته قبل الخروج إلى حيرة أخرى ، أو شوق آخر : وهو أن يعرف ما حدث في غيابه بجميع تفصيلاته : هل حضرت في الساعة الخامسة ؟ أو حضرت قبلها أو بعدها ؟ وماذا قالت حين علمت بخروجه ؟ وما بدا على وجهها وهي تصدم بهذه « المقابلة » ؟ وإذا كانت لم تحضر فما الذي عاقها عن موعدها ! ولماذا ضربت ذلك الموعد باختيارها ! هل ضربته وهي تنوي أن تخلفه من اللحظة الأولى ، أو طرأ الحائل بعد ذلك على الرغم منها ؟

وإنه لبفتح الباب بالمفتاح الذي في جيبه ولا ينتظر أن يدق الجرس كعادته في الأوقات الأخرى ، إذا بالخادم يصادفه وراء الباب ، وهو يظن — بل يرجو — أن يخبره على الفور أن سيدة حضرت في غيبته ولا تزال في انتظاره ، ويغلو به هذا الوهم حتى يعجل بالالتفات إلى حجرة الاستقبال ليلقى السيدة التي تنتظره فيها .

ولم تمض في ذلك إلا لمحة خاطفة والخادم شاخص لا ينبس

بحركة ولا يلوح عليه أنه يحمل خبراً من الأخبار يستحق أن يقال ، ويساوى تلك اللهفة التى تعتلج فى صدر صاحبنا .

فأسرع صاحبنا سائلا : ألم تحضر إلى هنا السيدة؟ ألم تقل شيئاً ؟

فقال الخادم فى فتور غريب : لا أعلم !

فانفجر صاحبنا غاضباً : كيف لا تعلم؟ ألم تكن هنا ؟ هل هى أوصتك بأن تقول ذلك ؟

قال الخادم وفى صوته احتجاج من يستغرب ولا يفقه معنى هذا الاتهام : يا سيدى قلت لك لا أعلم ، لأنك نزلت من هنا وأنا نزلت وراءك حسب المعتاد فى سائر الأيام .

فاشتعل صاحبنا غيظاً ، وهم أن ينقض عليه لولا أن هرب الرجل من أمامه فتبعه إلى باب الخدم ، وهو يعلنه بالطرد وألا يعود ليريه وجهه مرة أخرى . ولم يصفح عنه إلا بعد ثلاثة أيام ، وبعد أن شفع له أن الرجل معذور لأنه لم يأمره بالبقاء فى المنزل ، وقد أنساه أن يأمره بالبقاء فيه ما كان مشغولا به من حوار .

الشكوك

من النادر جداً أن يتواعد محبان على اللقاء بعد فراق طويل ثم لا يسرعان إلى موعد اللقاء بلهفة شديدة واشتياق عظيم ، إن لم يكن حباً أو حنيناً أو رغبة فى المتعة والسرور ، فعلى الأقل من قبيل الفضول والاستطلاع والرغبة الملحة عند كل منهما فى الوقوف على أخبار صاحبه وأحواله أيام الغياب الطويل : هل أحبت غيره ؟ وهل أحب غيرها ؟ وهل سلت ؟ وهل سلا ؟ وبماذا يشعران فى الحب الجديد؟ أو ماذا بقى عندهما من الحب القديم ؟ وماذا تقول له حين تخلو به ؟ وماذا يبدر من كلامه حين يخلو بها ؟ وأشباه ذلك من الأسئلة التى يلقيها كلاهما على نفسه ويحسب أنه فى أشد الحاجة إلى الوقوف على جوابها . فربما كان هذا الفضول من أقوى مظاهر الحب ، ومن أوثق روابط الاتصال بين كثير من الناس محبين كانوا أو غير محبين . فإذا حدث غير ذلك واجتهد أحد العاشقين أو كلاهما فى اجتناب الموعد المنتظر بعد طول العزلة والجفاء ، فلا بد أن يكون بينهما شبح قائم من الآلام والأكدار يغطى

على جميع المشوقات والمرغبات ، ويعكس الفضول والاستطلاع فيستحيل إلى صمم ونفور ، ويصبح كل شيء أهون من تجديد تلك الحالة المكروهة والعودة إلى ذلك الشبح المرهوب .

وهكذا كانت الشكوك التي تمثلت لصاحبنا فانساق بغير وعي ولا إرادة إلى اجتناب الموعد ، والفرار من المنزل ، والحزء بكل إغراء وتشويق ينبعث في أعماق حسه من شيطان ذلك الشغف القديم .

كانت شكوكاً مرّة لا تغسل مرارتها كل أنهار الأرض وكل حلاوات الحياة : كانت كأنها جدران سجن مظلم ينطبق رويداً رويداً ولا يزال ينطبق وينطبق وينطبق حتى لا منفس ولا مهرب ولا قرار . وكثيراً ما ينتزع ذلك السجن المظلم طبيعة الهرّة اللئيمة في مداعبة الفريسة قبل التهامها ، فينفرج وينفرج وينفرج حتى يتسع اتساع الفضاء بين الأرض والسماء ، ثم ينطبق دفعة واحدة حتى لا يمتدّ فيه طول ولا عرض ولا مكان للتحول والانحراف : بطل المكان فلا مكان ولا أمل في المكان ، ووجب البقاء حيث أنت في ذلك الضيق والظلام فلا انتقال ولا رجاء في الانتقال .

وكان صاحبنا كالمشدود بين حبلين يجذبه كلاهما جذباً عنيفاً بمقدار واحد وقوة واحدة ، فلا إلى اليمين ولا إلى اليسار ،

ولا إلى البراءة ولا إلى الاتهام . . . بل يتساوى جانب البراءة وجانب الاتهام فلا تنهض الحجة هنا حتى تنهض الحجة هناك ، ولا تبطل التهمة فى هذا الجانب حتى تبطل التبرئة من ذلك الجانب . وهكذا إلى غير نهاية وإلى غير راحة ولا استقرار .

وضاعف هذه الحالة ذكاؤها من ناحية ، وطبيعة ذهنه وتفكيره من ناحية أخرى . فهى من الذكاء بحيث لا تقدم على عمل واحد أو حركة واحدة لا يختلف فيها وجهان ولا تقبل التضليل والنكران ، وهو فى تفكيره وطبيعة ذهنه يخلق الاحتمالات الكثيرة ، فلا يجوز عنده احتمال راجح إلا جاز عنده فى اللحظة نفسها احتمال راجح فى قوته ووزنه وجوازه ، ولا يدفع هذا أو ذاك إلا بدافع حاسم لا تردّد فيه . . . ألم لا نظير له فى آلام النفوس والعقول ، وحيرة لا تضارعها حيرة فى الإحساس والتخمين ، وأقرب ما كان يشبه به هذه الحيرة حالة الأب المستريب الذى يشك أفجع الشك فى وليد منسوب إليه : هل هو ابنه أو هو ابن غيره ؟ ومن هو ذلك الطفل الصغير الذى يتقاضاه حقوق البنوة على الآباء ؟ هل هو رمز الحب والعطف والصدق والوفاء ، أو هو رمز الخداع والخيانة والاستغفال والاحتقار ؟ هل هو مخدوع

فى عطفه عليه ، أو هو مخدوع فى نفوره منه ؟ وكيف يفصل فى هذين الخداعين ؟ وكيف يطيق الصبر على واحد منهما ، وكلاهما لا يطاق .

بذلك كان يشبه حيرته وهو يحاول الاستمتاع بعاطفته التى هو مستغرق فيها ، ويحاول فى اللحظة بعينها أن يبترها وينساها ولا يعود إليها . ثم لا يدرى فى أى المحاولتين هو مصيب. ولا بد أن يدرى ، وهيهات لا سبيل إلى الدراية بحال !

وإذا كان بعض الشكوك فى العشق من وساوس الأوهام ، فما لا نزاع فيه أن العاشق أصدق الناس فى شكوكه حينما يبنيها على أسباب صحيحة وحقائق ملموسة ، لأنه يعرف صاحبته معرفة لا يخفى معها عارض من عوارض التغير ، ولا لمحة من لمحات العين ، ولا همسة من همسات الضمير : يعرف نظراتها ويعرف كلماتها ، ويعرف ما تقوله عن سجية وما تقوله بتكلف واصطناع ، ويعرف أن بعض الخشونة أدل على الحب والإخلاص من بعض المجاملة ، ويعرف نفسها وكيف تستتر فيها الخفايا ، ويعرف جسدها وكيف تختلج فيه النوازع والشهوات . وقد يسأله من يسأله : كيف خامرتك الشكوك ؟ فيضحك من نفسه أن يجيبه بما يلزح له أو يطلعه على بعض تلك الأسباب ، وقد يؤثر فى معظم

الأحيان أن يكتمها ويموّهها على أن يفضى بها إلى إنسان كائناً ما كان .

وبعد فهل الغدر فى الحب مستحيل ؟

كلا ! ليس بمستحيل ولا مما يقارب المستحيل . وليس صاحبنا بالذى يصدق ذلك ولا صاحبتنا بالتى تصدقه وتدعيه .

لقد اعترفت له بعلاقتين سابقتين : إحداهما متينة مستحكمة طويلة والأخرى هوجاء حامية سريعة ، وإحداهما مع كهل يقارب الأربعين والأخرى مع فتى فى نحو الخامسة والعشرين . وإحداهما صيدت فيها ولكن على غير كره منها ، والأخرى كانت هى فيها الصائدة وهى التى نصبت الشباك ، فوقع الصيد على عجل وأسرع الحراس المحنقون فأطاروه !

اعترفت له بما كانت تحتال به من الحيل البارعة لتلقى عشيقها الأول ، وبما كانت تُعمّى به على من حولها حتى لا يرتابوا فى أمرها ، وإذا استرابوا لم يجدوا عليها ما يثبت الريبة ويقطع اللسان .

واعترفت له بالردود المفحمة التى كانت تدبرها لترغم المتهمين على السكوت . واعترفت له بما تخجل منه المرأة المعتزة بجمالها ومكانتها ، فقالت له إنها لم تكن على يقين من حب عاشقها الأول ، ولم تكن تبالى أن يحبها اكتفاء بعلمها أنها هى

تحبه . وذهبت فى امتهان كرامتها — وهى مغرورة بفتنتها وامتيازها — إلى حد من الخضوع لا يحمد إلا فى التدين والإيمان . فقالت إنها لمحت منه مرة أنه يطيل النظر فى مجلسها إلى امرأة أخرى من صديقاتها . . . فخطر لها أن تناجى نفسها سائلة : هل يجسر يا ترى على أن يطلب منها الوساطة بينه وبين تلك المرأة فى التقريب والتمهيد ؟ ! . . . قالت : « فراعنى هذا السؤال ، ولكنى عدت فشعرت أنى سأفرح بأن أسره وإن جاء سروره من هذا الطريق المهين ! » .

ثم انقطعت هذه العلاقة على الرغم منها وعلى الرغم منه ، وتمادت بها الوحدة وهى فى دهشة مخيفة ، فجعلت تلتفت إلى شاب وسيم من الجيران ، ثم تمعن فى الالتفات إليه حتى أصبح انتظاره وهو عائد إلى منزله فى الهزيع الأخير من الليل شغلا لها شاغلا فى اليقظة والمنام ، وأخذت تحاسبه فى طويتها على هذه السهرات وتتخيل مع من تكون وكيف تكون . . . ! ويزيدها ذلك لجاجة فى الواقع ولجاجة فى الانتظار ، ولم يلبث هذا الالتفات منها أن أدى إلى الالتفات منه ، ثم إلى التحية ، ثم إلى لقاء جنونى فى المنزل الذى يحيطها فيه الآل والأقربون ، وكانت هذه المغامرة العجيبة هى العلاج الباتر لذلك الجنون العجيب !

وراح صاحبنا يذكر كيف اجتمع بها أول مرة ، ويذكر ما تحدثت به إليه فى أول رياضة خلوية . . . لم يطل بهما الجلوس يومئذ حتى استأذنت فى الانصراف لأنها ذاهبة إلى موعد مع صديق ، وأرته خطاباً من ذلك الصديق يقول لها فيه إنه يشترى فى ذلك اليوم سيارة ويحب أن يستأنس برأيها وبذوقها فى اختيار اللون والطراز . فأذن لها صاحبنا وهو يقول مازحاً : « هذا موعد يرشحك لصناعة مفيدة . . . فلا تهمليه ..

قالت له فى أول لقاء بعدها : « لشد ما كنت أترقب منك أن تستبقينى وتؤخرنى عن ذلك الموعد . ولو قلت لى : لا تذهبى ! لما ذهبت . . . ولو مزقت الخطاب أو خطفته من يدى لجزيتك على صنيعك أحسن الجزاء » .

وكانت تحب الضحك وتفطن إلى الفكاهة وتضحك أحياناً حتى تشرق عيناها الواسعتان بالدموع ، ولكنّ صاحبنا لا يذكر أنها ضحكت يوماً كما ضحكت أمامه وهى تمثل الصديق صاحب السيارة وتروى ما جرى بينها وبينه حين اجترأ أول مرة على اقتراح خطير ، بعد تمهيد وتحضير ، وحذر وتحذير . . . وما هو الاقتراح الخطير ؟

قبلة . . . ! نعم قبلة ، وأكدت الكلمة وهى تروى الحكاية مرتين .

قالت : « إنه كان ينتظرنى فى طريق الزمالك ، فلمحت أول ما وقع نظرى عليه أنه مهموم قلق يخفى على أطراف شفتيه نية من النيات ، وكان ذلك بعد أن التقينا عدة مرات وانفردنا فى الخلوات ساعات . فلم يعسر علىّ أن أستشف تلك النية ، وراقنى أن أستدرجه إلى الإفصاح عنها لأرى كيف يتدرج فى الكلام ، فأضجرنى كثيراً قبل أن يستجمع فى قلبه القدرة على أن يقول : يا فلانة !

قلت : نعم يا فلان .

قال : إن لى أمنية أحب أن أفاتحك فيها وأرجو ألا ترفضيها ولا تسيئى تأويلها .

قلت : إننى أحب أن أرى أمانيك كلها تتحقق ، ولا سيما الأمانى التى فيها لك الخير والنجاح .

قال : أشكرك . . . لكن هذه الأمنية فى يديك أنت !

قلت كالمستغربة : فى يدى أنا ! ما علمت قبل الآن أننى رئيسة عليك ، ولا أننى قادرة على نفعك وتوفير ما تتمناه !

فأحجم قليلا ، وخشيت أن يعدل عن مجرى حديثه فعدت أقول : ومع هذا أسمع منك هذه الأمنية فلعلى أشير عليك بما يفيد .

وبعد جهد جهيد صرح وهو يستغفر ويتلعثم بأنه يتمنى

على الله أن أسمح له بقبلة ! !

فسكتُّ هنيهة لا أدرى هل أضحك أو أتغاضب . وظن أنني أتجهم وأقطب وأنني أهم أن ألومه وأخاطبه بما يسوءه ، فأسرع إلى الاعتذار ، وأسرعت أنا إلى الكلام لئلا أضحك ، قائلة : أو هذا مما يحسن بك يا فلان ! لكأني بك غداً تتمادى إلى أكثر من ذاك . . .

فضاح كمن مسته نار : أنا ؟ ! أتظنين يا فلانه أنني من هؤلاء ؟ معاذ الله يا فلانة . معاذ الله .

لم ينس صاحبنا كيف كانت تضحك وهى تحكى له هذه الحكاية ، واستدلّ من ضحكها أكثر مما استدلّ من كلامها على مبلغ استخفافها بما يسمونه الصداقة بين النساء والرجال ، فما الذى يمنعه أن يصدق أنها تستخف بالوفاء وتمضى مع أيسر الأهواء ؟

لا بل هى قد اعترفت له بما هو أدعى إلى الشك والريبة من جميع ما تقدم . . . فقد غضب منها وغضبت منه ، قبل الغضبة الأخيرة ، مرات عديدات ، بعضها يعقبه الصلح فى يومها وبعضها يتجاوز الأيام وقد يتجاوز الأسابيع ، ففى إحدى هذه المرات افترقا بعد عراك عنيف بالغ فى العنف والتهجم فوق ما تعوّدا من عراك وصدام . وسافر إلى مصيفه

وسافرت إلى مصيفها ، ولا مطمع لهما فى لقاء ، وبلغ من يقينه بالفراق الفاصل أنه عاد من سفره وهو لا يترقب منها سلاماً ولو سلام المجاملة والتكليف ، ولكنه بعد أيام قليلة تلقى غلافاً فيه صور شمسية تمثلها إلى جانب بعض المشاهد الخارجية التى يرحل إليها المصطافون والسائحون ، ومضت أيام معدودات وإذا بجرس التليفون يدق وإذا بالمتكلم ذلك الصوت الذى لا يلتبس عليه بين ألوف الأصوات .

— الحمد لله على السلامة !

— سلمك الله وعافاك !

— هل لى أن ألقاك اليوم ؟

— نعم . تفضلى !

— أتفضل ؟ لا . لست أتفضل ، ولكنى أزورك لألتمس الغفران . . . . هل فى وسعك أن تمثل دور الكاهن فى الديانة المسيحية ؟

قال : أخشى أن يكون دورك إذن هو دور الخاطئة ؟

قالت : هو ذاك . فإلى اللقاء . . . فالتليفون لا يتسع لمثل هذا الحديث .

لم يشعر ذلك اليوم وهو ينتظرها بخداع ولا باستغفال ولا احتقار . ولكنه شعر بخسارة وأسف ، وانتظرها كما ينتظر

الطبيب مريضاً يلجأ إليه ، واستقبلها عاطفاً عليها متطلعاً إلى ما وراء حديثها مستعداً للتسامح فى الإصغاء إليها . فدخلت وهى تقول فى غير احتجاز ولا امتناع : لا قبلات ولا تحيات حتى تعرف قصتى وأعرف رأيك . اسمع يا فلان . إننى لا أومن بصداقة المرأة للمرأة ولا عزاء لى فى معاشرة الصديقات المزعومات على الإطلاق ، فإن لم يكن إلى جانبى رجل أهابه وأحبه وأعتمد على سنده فأنا فى وحشة الهالكين ، وأنا ضعيفة ضعيفة ضعيفة ، لا طاقة لى على دفع الغواية . وقد افترقنا يائسين ليس لك حق عندى وليس لى حق عندك ، وأنا لا أحاسبك على شطحاتك فى مصيفك إن كانت لك شطحات ! ولكنى أسمح لك أن تحاسبنى على الصغيرة والكبيرة وأبوح لك بأننى زللت فى المصيف وانغمست فى صلة غرامية ليس فيها غرام فى الحقيقة ، ولم أحضر إليك اليوم بل لم أرسل إليك الصور إلا وقد قطعت تلك الصلة وهيأت نفسى لاستئناف مودتنا القديمة . وهأنذا الساعة بين يديك فماذا أنت قائل ؟ هل تقبلنى ؟

فاستزادها من خبر تلك الصلة التى لا غرام فيها كما تقول ، واسترسلت هى فى تفصيلات لم تستر فيها سراً ولم تصبغ فيها أمراً بغير لونه ، ولم تقف دون معرة أو نقيصة كأنها

تفرغ قلبها بين يدى الكاهن على حسب « إنذارها » فى حديث التليفون .

قال بعد أن أصغى إليها فى صمت وإبهام : إننى يا فلانة لا أملك أن أجيبك هذه الليلة ، إن أنا قبلتك فلست آمن أن أندم وإن أنا رفضتك فلست آمن كذلك أن أندم . ولكن دعينى بضعة أيام ريثما أروض سريرتى على عزم وثيق وأخبرك بما صحت نيتى عليه ، غير خائف من عواقب العجلة .

وما انقضت تلك الأيام حتى استقبلها صافحاً ، وسألها أن تذكر أبداً أنه قد يفهم عذرها من الضعف ولن يفهم لها عذراً من الختل والخداع ، وحمد لها صراحتها ولكنه فى الواقع لم يسلم من الاحتراس والتوجس منذ تلك الساعة ، ولم يزل على تفاهم دخيل بينه وبين طواياه أنه لا يأوى إلى حصن حصين ، وأنه مع ذلك هو حصنه الذى لا بد أن يأوى إليه !

فلما ساورته شبهات الشك توالت أمامه الدلائل من فلتات اللسان وشوارد الخاطر وعلامات الزينة والحلى والملابس وما إلى ذلك من علامات هى لمن يعهدها أثبت من البراهين وأصدق من الشهود ، ورانت السآمة على كل لقاء ، وتغلغلت اللواعج والأشجان فى كل فراق ، وغلبت الأكدار على كل صفاء

وكل رجاء . ولم يبق إلا أن يقبلها على أن يستغرق هو فى حبها ويسمح لها هى أن تفرغ لغيره وهذا مستحيل ، أو يقبلها على أن يلهو بها وتلهو به وهذا أيضاً مستحيل ، أو يسوم نفسه قطيعتها وهذا ما قد عول عليه ، وظن أنه استطاعه وقدر عليه خمسة أشهر .

وإنه لفى حسبانه هذا يوشك أن يودع القلق والأسر ويقبل على الطمأنينة والحرية ، إذا به يهاجم فى الصميم ! وإذا بالظواهر والبواطن كلها تضمن له وهى تتدفق عليه أنه عائد لا محالة إلى ما ودع من شقاء وألم ، وليس بين تلك الظواهر والبواطن كلها ما يضمن له أقل ضمان أن يعود إلى ما ودع من ثقة ونعيم ، فماذا عساه أن يصنع ؟ لا تسل فكره ولا تسل قلبه ولا تسل ضميره ، بل سل كل وشيجة من وشائج لحمه ودمه وأعصابه التى عزمت عزمها بغير اكتراث لفكره أو لقلبه أو لضميره ، واستقلت بإرادتها وهى لا تترجم عن تلك الإرادة إلا بالعمل الواقع دون التفكير ودون التعليل ودون التفسير ، فطلبت النجاة بالبداهة المرتجلة وحملت الجسد الذى هى قوامه إلى خارج المنزل وهى لا تعى ولا تفقه إلى أين تسير . ولا لوم على من يطلب النجاة ، فإنما هكذا تطلب النجاة ! !

علاج الشك

مواجهة الحقيقة من أصعب المصاعب فى هذه الدنيا : « أولا » لأننا فى الغالب لا نعرف ما هى الحقيقة . « وثانياً » لأننا فى الغالب لا نحب أن نعرفها إلا مضطرين ، حين نياس من قدرتنا على جهلها ، ونشك ثم نشك ثم نرى آخر الأمر أن الشك أصعب وأقسى من مواجهة الحقيقة والصبر عليها . و « ثالثاً » لأننا إذا عرفناها ففى الغالب — أيضاً — أنها تكلفنا تغيير عادة من العادات ، وليس أصعب على النفس من تغيير ما اعتادت . . . فالموت نفسه لا صعوبة فيه لولا أنه يغير ما تعوّدناه ، وفراق الموتى لا يحزننا لولا أنه تغيير عادة أو عادات كثيرة .

وقد كانت الحقيقة أنهما — أى صاحبنا وصاحبتنا — قد تغيرا كثيراً بعد أن مضت على صحبتهما برهة من الزمن ، ولكنهما لبثا برهة أخرى من الزمن وهما لا يريدان أن يعترفا بهذا التغيير .

تغيرا فلا سرور لهما فى اللقاء ، وقد كان اللقاء عندهما

أكبر سرور يشعر به الإنسان .

ولكنهما لم يزالا يتلاقيان .

تغيرا واشتدّ بهما التغير وهما لا يجسران على مواجهة الحقيقة . . . فلو سأل نفسه هل يريد اللقاء حقاً أو يريد الفراق لما استطاع الجواب ، أو لقال فى نفس واحد إنه يريد اللقاء ويريد الفراق . ولو سألت هى نفسها هذا السؤال لكان جوابها أنها لا تعلم لماذا تحضر فى الموعد كل يوم ، ولماذا لا تفضل الانقطاع على الحضور .

هو لم يجزم بخيانتها كل الجزم فلماذا يتركها ؟ . . . ولكنه لا يسر بلقائها فلماذا يلقاها ؟

وهى لم تيأس من صلاح شأنه معها ، أو لعلها لم تيأس من قدرتها على خداعه ، ويعز عليها أن تتهم نفسها بهذا العجز وهى تفخر بذكائها . . . فلماذا تفقد الثقة بحيلتها وبراعتها واقتدارها ؟ ولماذا لا تجرب كياستها مرة بعد مرة حتى تنجح أو يستوى لديها الفشل والنجاح ؟

وهكذا ظلا أشهراً عديدة يمثلان سعادتهما الأولى ويخرجان من مسرح التمثيل كل يوم راضيين أو ساخطين ، وخير ما وصلا إليه فى تلك الفترة الطويلة أن يظفرا بالتصفيق من المتفرّجين . . . . وهما وحدهما المتفرجان والممثلان !

وكلما حان موعد اللقاء ذهبا إليه كما يذهب الممثل إلى حضور تجربة جديدة بعد أن فشلت تجربته السابقة ، ولا بدّ له من الذهاب ولا سرور له فى القعود والإحجام ، والتسليم بينه وبين ضميره أن الذهاب لا يفيد .

لقد كانا يحضران إلى الموعد بحكم العادة التى لم يجسرا بعدُ على تغييرها ، لأنهما كانا يخافان من التفكير فى التغيير ، ويخافان من التفكير فى ذلك الخواء الموحش الذى يستولى عليهما لا محالة بعد ذلك التغيير . فهما يحضران لأنهما خائفان من الغياب ، لا لأنهما راغبان فى الحضور .

أما قبل ذلك فما أبعد الفرق وما أهول الاختلاف وما أحب اللقاء بعد طول الانتظار ! وإن أطول أمد لهذا الانتظار ما كان ليزيد على يوم واحد ، أو بعض يوم فى معظم الأوقات .

كانت الساعة الخامسة كأنها علامة موسومة فى مدار الفلك بالشهب والكواكب والهالات ، وكان صاحبنا يتعجل الوقت قبل حلولها بربع ساعة فيلتزم مكانه وراء النافذة لينظر من ثقوبها إلى منعطف الطريق حيث يلوح القادم أول ما يقبل على الدار . وكثيراً ما كانت الغيوم تكفهرّ والغيوث تنهمر والهواء يعصف بارداً قارساً فى صبارة الشتاء ، وصاحبنا واقف وراء النافذة قبل الموعد بربع ساعة يوشك وهو وجل منقبض

الصدر غائم الخاطر أن ييأس من وصول صاحبتنا فى موعدها ، ولها العذر كل العذر إذا هى تأخرت ساعات أو عدلت عن الخروج طول ذلك اليوم . . . ولا يزال فى مرقبه نهباً لهذا الوسواس لمحة بعد لمحة كأن الزمن قد استحال إلى أجزاء تعدّ بالملايين وملايين الملايين لابستين دقيقة فى الساعة وستين ثانية فى الدقيقة ! ! وكلما تقدّم جزء من هذه الملايين تضاعف الوجل وتفاقم الحذر واختلجت الهواجس المثيرة كما تختلج الذرات فى قارورة يرجها الشلال الدافق أعنف ارتجاج . وبعد مليون جزء من أجزاء الزمن تقترب الساعة الخامسة فإذا هى الساعة الخامسة إلا عشر دقائق ! وبعد مليون آخر ثم مليون ثم مليون تقترب ثم تقترب فإذا هى الساعة الخامسة بالدقيقة والثانية . . . والويل له إذا تجاوزت هذا الحدّ ولو إلى دقائق معدودات ، لأن الدقائق المعدودات لا بدّ أن تترجم فى لغة الانتظار والهواجس بالملايين بعد الملايين التى لا يجمعهما الحصر والإحصاء ، وإنه ليطيل النظر إلى الطريق حتى يعتريه شبه غيبوبة لا يحقق الناظر فيها ما يراهِ تحت عينيه ، فما رآها مرة بعد هذا الانتظار تهل من مطلع الطريق إلا كما يرجع إلى النائم صحوه أو كما يرجع إلى المذهول رشاده ، وتتقدّم وهى تتهادى فى خطواتها التى كأنما

تتهيأ كل خطوة منها لعناق مشوق ، وينفتح الباب وينقسم العالم إلى قسمين اثنين لا ثالث لهما فى الذهن ولا فى الخيال: قسم فيه كل شىء وقسم ليس فيه من شىء . . . أو قسم موجود وقسم ليس له وجود ، والبيت هو القسم العامر الزاخر الحافل الوهاج ، والدنيا هى القسم المهجور الذى لا تتسع قاراته وبحاره ومن فيها وما فيها من السكان لأوسع من مكانها فى خرائط الأطفال .

والذى يحدث فى الشتاء قد كان يحدث مثله فى الصيف أيام السّموم والحرور . فلا تأخير ولا اعتذار ، ولا سلامة مع ذلك من قلق الانتظار ، حتى يحين الموعد ويستقر القرار .

فى تلك الأيام كانت كل هنيهة لها شعورها المحبوب المتجدد البهيج : إذا انفتح الباب للقاء فذلك شعور القائد الذى يفتح باب حصنه ليلتقى نجدة الأمان والاطمئنان إلى زمن طويل ، وليطرد المخاوف من وراء ذلك الباب إلى مهرب سحيق ؛ وإذا انفتح الباب للوداع فذلك شعور الشارب الذى استوفى نصيبه من العقار وبقى له نصيبه من النشوة والتذكار ، ونصيبه من الشوق فى الغد إلى مثل هذا اللقاء ومثل هذا الوداع ومثل هذا الانتظار ، وبين لقاء كل يوم ووداعه ألف لقاء ووداع وألف انتقال من حال إلى حال ، وألف سكينة

وألف ابتدار .

تلك أيام ! . . . ثم جاءت بعدها أيام . وشتان أيام وأيام !

نعم شتان حقيقة وتمثيل . . . وأى تمثيل ؟ ! تمثيل اللاعب الذى يساق إلى دوره سوقاً لأنه يخشى الإخفاق لا لأنه يأمل النجاح .

واستمرت المواعيد ، واستمرّ اللقاء ، واستمرّت السآمة ، واستمرّ الشقاق ، واستمرّت مع كل ذلك محاولات عقيمة مستميتة أن يعود ما لا سبيل إلى أن يعود .

وكانت هى تقلد نفسها فى أيام الصفاء فتمدّ يدها إلى جيبه بعد عاصفة من اللوم الجارح والملاحاة الموجعة كما كانت تمدّها إلى جيبه بعد ساعات الرضى والدلال ، لتخرج منه المفكرة المعهودة وتكتب فيها أسطراً أو كلمات تسجل بها ما كان فى ذلك اليوم ، فكتبت يوماً بعد مقابلة لم يُسمع فيها إلا جدال ومحال أو سكوت هو أثقل من الجدال والمحال : « نزهة رسمية فى عربة . ثم مناقشة جدية . ثم مصافحة وتقبيل ، ولا عجب فى ذلك . . . فإن الحب يسهر ! » .

نعم يسهر من الأرق لا من العناية !

وسهر الحب إلى اليوم التالى فالتقيا وتراضيا وتناولت هى

المفكرة وكتبت فيها خمس كلمات : « سامحت من غير سبب . أحبك » .

ولكنها كانت آخر ما كتبت فى مفكرة ذلك العام ، وفيما بعده من أعوام .

ومن الناس من يستطيب أمثال هذه المقابلات ولو لم يكن فيها إلا تمثيل ناجح أو تمثيل خائب ، وصاحبنا خليق أن يكون واحداً من هؤلاء الناس لو اقتصر الأمر على الفتور والتكلف والمناقشة والملال . . . ولكن الشيء الذى لا يطاق هو أن تشك ثم لا تستطيع أن تصل إلى الحقيقة ، ولا أن تكشف عن الشك ولا أن تستقرّ عليه ، فإنها حالة لا يطاق لها دوام ولا بدّ لها من انتهاء فكيف هذا الانتهاء .؟

أول ما اتفقا عليه أن يتفاهما على الفراق أسبوعاً أو أسبوعين ريثما يعرفان كيف يكون صبرهما على هذا الفراق القصير ، ويعرفان من ثم كيف يكون صبرهما على الفراق الحاسم الذى لا لقاء بعده . فإن هان عليهما بعد هذه المحاولة أن ينفصلا بسلام فلينفصلا إذن بغير ندم ولا خصام ، وإن عزت عليهما القطيعة فعسى أن يكون الاشتياق إلى اللقاء فاتحة الرغبة الصادقة من جديد ، وعسى أن يفهم كلاهما من مكان صاحبه عنده ما ينهاه عن مطاوعة الهواجس ومجاراة الشكوك .

وقد استفادا من هذه المحاولة العسيرة فائدة لا يحتقرانها بعد طول السآمة وطول النزاع ، فإن اللهفة الصادقة التى طغت عليهما يوم عادا إلى اللقاء قد عادت بهما إلى حنين شبيه بالحنين القديم ، ونعما فى ذلك اليوم بمتعة هنيئة لم ينعما بها منذ عهد طويل .

ولما شيعها إلى الباب وهو يقول إلى اللقاء فى الغد قالت :
لا . . . . إن اللقاء بعد يومين أو ثلاثة أمتع وأشهى . . . .
وسأخبرك أو تخبرنى عن الموعد متى طلبناه . . . ولا نتفق عليه الآن !

واستحسن منها هذا التسويف كما كان من قبل يستحسن منها نشاطها فى تعجيل المواعيد ، وودّ فى خلده لو يتأجل اللقاء خمسة أيام أو ستة لا يوماً أو يومين . ففى ذلك فطام للهوى وشحذ للشوق والرغبة ، وامتحان لقوى النفس يسبر غورها ويلذ فيه حب الاستطلاع .

إلا أنها محاولة قصيرة لم يكتب لها العمر المديد . فما هو إلا موعدان حتى أحس كما يحس كل رجل يفهم طباع المرأة التى يهواها أنها لم تحافظ على وفائها ولم تعصم جسدها أيام الغياب ، وأنها أصبحت ترحب بالتسويف لأنها تريده وتستريح إليه . . . ورجع إلى ذاكرته يفتش لعله يذكر هل

هى التى اقترحت فى بادئ الأمر أن يعالج الشك بالتسويف والمباعدة بين المواعيد أو هو الذى بدأ بالاقتراح ، فتذكر أنها كانت تحوم حول الاقتراح وتوحيه إليه وتهم بأن توقع فى ذهنه أنه هو صاحبه وموحيه . . . فقال لها متهكما : أرى أن الحل الأخير الذى اهتدينا إليه يرضى أكثر من اثنين ! !

قالت : ماذا تعنى ؟

قال : أعنى أنه ربما أرضى ثلاثة بدلا من اثنين ، وربما أرضى أربعة . . . من يدرى ؟

قالت متهكمة : وربما خمسة أو ستة . . . . زيادة خير . . . ولماذا تكره الرضى لعباد الله ! ؟

وتلا هذه المحاورة منظر من مناظر المسابقة فى الإيلام والتبكيت والغضب والإغضاب . قال فيه وقالت ، وتمادى فيه وتمادت ، وباح فيه وباحت ، وخرجت من المنزل محنقة لا تودع ولا تسلم ولا تعد بلقاء مؤجل ولا بلقاء سريع . . . .

وانقضت مدة لا يسمع منها ولا تسمع منه ولا يسعى إليها ولا تسعى إليه . ونازعته أهواؤه مرات فى أثناء هذه المدة أن يراها وأن يتحدث إليها فتنفر أشد نفور وكظم هذه الرغبة بجهد أليم . وبينما هو يحسب نفسه غاضباً نافراً إذا به يتحول رويداً رويداً إلى مشفق حزين ، وإذا بإشفاقه الحزين أقرب

إلى إشفاق الأبوة الرحيمة منه إلى إشفاق الغرام اللجوج ، وإذا به فى ساعة من الساعات يكتب إليها هذا الخطاب :

أيتها الصديقة :

أيّا كان رأيي فيك أو رأيك فىّ فلا ضير فى إرسال هذه الكلمة إليك ، ولا خسارة علىّ إن ضاعت عندك أو صادفت نصيباً من الإصغاء . . . . إن مسحة من الألم ألمحها على وجهك تخيل إلى أننى أخاطب منك مستمعاً ، وأن موضعاً حياً فى ضميرك لا يزال مفتوحاً لهذا الخطاب .

لا حاجة إلى البحث فى تفاصيل حياتك القديم منها أو الجديد ، فحسبى ما سمعته من لسانك ، وحسبى أنك تعترفين لى أنا بعلاقات ماضية مع أكثر من رجل واحد . وفى هذا كفاية وفوق الكفاية !

فلو قيل لى إننى سأسمع هذا الخبر من إنسان لما خطر لى قط أننى أسمعه منك أنت باختيارك ، ولو جاز أن تبوحى به لكل أذن لكانت أذنى هى الأذن الوحيدة التى يجمل بك أن تكتمى السر عنها ، لأننى أنا الرجل الوحيد الذى يرى لك كرامة غير كرامة جسدك ، ويحب أن يعرف لك قيمة أكبر من هذه القيمة .

ومع هذا بأى بساطة كنت تتحدثين عن علاقاتك

بالرجال وخلوتهم بك هنا وهناك . . . لكأنما كنت تفخرين ! . . . أو كأنما كنت تشفقين من كتمان هذا الحظ السعيد ! . . . فياصديقتى لشد ماضللك الشقاء حتى جهلت ما تعرفه المرأة بالفطرة بغير حاجة إلى تعليم وتلقين ، وحتى نسيت أن المرأة تستطيع أن تكون لهذا ولذاك ولكنها لا تستطيع أن تفخر بشيء لم تعجز عنه امرأة بين النساء . فهل أصدّق حقاً أنك أنت تلك المرأة التى لم يبق لها إلا هذا الفخر المخجل الأليم ؟ وهل أنت حقاً تلك المرأة التى تجد سعادتها فى هذا المجال ؟ !

أظن – وأرجو أن يكون ظنى صحيحاً – أنك تخدعين نفسك ياصديقتى الخادعة المخدوعة . لست أنت التى تشعر بالسعادة فى هذه العيشة الأسيفة . . . . غيرك من النساء تنعم بها وتستطيبها ، ولكنّ شقاءك أنت بها لا يعدله شقاء .

انظرى إلى وجهك فى المرآة . انظرى إلى ألم ضميرك الذى يبكيك كثيراً ولا ريب فى ساعات الوحدة والانفراد ، ثم اسألى نفسك : ما نهاية كل هذا وما العاقبة وما المصير ؟ لو بقيت على هذه الحالة سنة واحدة لفقدت جمالك فى عنفوان شبابك وفقدت كل ثقتك بنفسك واحترامك لشعور الأنوثة الذى لا سعادة لامرأة بغيره . وماذا فى الحياة بعد فقد الثقة وفقد احترام الشعور ؟ أنت فى تلك الحالة بين اثنتين : إما أن

تألفى العيشة التى تؤلمك الآن وهذا هو موت النفس الذى يموت به كل سرور صحيح ؛ وإما أن تتعذبى بها أبداً بغير عزاء يهوّن عليك فقد الصحة والنضارة ، وأنت إنما تفرين من العذاب وتطلبينّ الراحة والاطمئنان .

أنت تتألمين ولكنك تجهلين ما يدفع عنك هذا الألم المخيف . . . فاذكرى نوبات الحيرة وتبكيت الضمير التى كانت تساورك حين تحضرين إلىّ ، واذكرى كيف كنا نفترق وقد هدأت نفسك بعض الهدوء واستراح ضميرك بعض الراحة . . . كان اهتمامى بك حتى بالغضب عليك يفرج شيئاً من الضيق الذى يسد عليك منافذ الأمل ، لأنه يعطيك فكرة عالية فى نفسك ، فيعزيك ويقويك ويرفع عنك ذلك الصغار الذى يسمم كل شعور وينغص كل نعيم .

اذكرى كيف كان وجهك يشرق بالبشاشة من عهد قريب ، وكيف ظهر ذلك على صحتك وملامحك فسألتنى فى يوم من الأيام بين الجد والمزاح : أصحيح . . . أصحيح أن وجهى يمتلىء ويحلو ؟ كان ذلك وأنت تشعرين إلى جانبك بنفس إنسانية تحنو عليك وتفكر فيك وتجتهد فى عذرك ما استطاعت ، وترعاك فى الغيبة والحضور ، وهذا أحوج ما تحتاج إليه المرأة خاصة فى هذه الحياة .

فكل امرأة — كل امرأة بلا استثناء — فى وسعها أن تجد رجلا يأخذها جسداً ويطرحها سائماً بعد حين بلا أسف ولا شكر ولا احترام .

ولكن ليست كل امرأة واجدة تلك النفس العطوف التى تفهم الدنيا وتفهمها الدنيا وتحب لها الخير لغير غاية وتهتم بها وحدها بين جميع الناس وتراها أهلا للرضى والغضب والشكر الملام .

أنت أمّ فاذكرى ذلك جيداً .

أنت فتاة ذكية متعلمة حساسة يقل بين الفتيات مثالك فى هذه الصفات ، فلا تنسى عزتك التى تليق بك ولا تنزلى قدرك منزلا لا ترضاه لقدرها كل فتاة ، واسألى نفسك مرة أخرى : هل وصلت امرأة إلى النهاية المخيفة — إلى المرض والهوان — من غير هذه البداية ؟ وهل وصلت امرأة إلى تلك العاقبة وهى تظنّ أنها واصلة إليها أو أنها قريبة منها ؟ كلا ! . . . كلهنّ يا صديقتى يحسبن أن النهاية بعيدة وأن الاحتراس كاف للأمان الدائم والنجاة من عاقبة غيرهنّ . والعاقبة واحدة على كل حال !

ولست أنت لسوء حظك كأولئك النساء اللواتى تحوطهنّ حمايات كثيرة وقرابات مشتبكة تستر العيوب وتضلل الشبهات .

فأنت فى حياة التجرّد والانفراد عرضةٌ لكل شىء

وفريسة رخيصة لكل واش أثيم، وكم جنى عليك حرمانك من أنس القرابة الشفيقة وحنان الأم الرءوم ومعيشة الزوجية الهانئة، فخسرت السعادة وأفسد عليك اليأس عاطفة الرحمة والإخلاص .

ولكن هل من الضرورى لك أن تجنى أنت أيضاً على نفسك بيديك فتسلبيها حتى سلوه الألم الشريف وإباء الحرمان العفيف ؟ وهل يبقى حرمان فوق حرمان المرأة التى لا تعرف السعادة ولا تعرف الألم الذى تحترمه هى ويحترمه الناس ؟

أنا لا أيأس على الرغم من كل شىء . . . بى من عطف عليك وعلم بحقيقة نفسك الضعيفة الطيبة و « ظروفك » السيئة ما يمنعنى أن أنظر إليك نظرة قاسية .

وما تمنيت ولا أتمنى شيئاً كما أتمنى أن أراك بعين الإعجاب والفخر والمحبة . ولكنى أقول لك وأنا آسف : إن فقدك لم يكن هيناً علىّ فى وقت من الأوقات كما هو هين علىّ الآن . فإذا كتبت إليك هذه الكلمة فإنما هى كلمة صديق يريح ضميره وواجب أخير لا بدّ من أدائه ، وإذا أبيت إلا أن تفهمى لها معنى من معانى الأنانية فافهمى إذن أنها كلمة إنسان يذكر برهة من حياته ويودّ أن يحتفظ بهذه الذكرى نظيفة شريفة إلى آخر أيام الحياة .

والوداع ، والسلام .

الرقابة

لماذا كتب ذلك الخطاب ؟

إنه لم يستوضح نفسه سبباً لكتابة ذلك الخطاب وهو يفكر فى كتابته ، ولا استوضحها السبب وهو يكتبه ويسلمه إلى الرسول الذى تعود أن يسفر بينهما بالرسائل . ولكنه جلس بعد كتابته يسأل ويعجب : أى خاطر ذلك الخاطر الذى ورد على باله وهو يحسب أنه واصل إلى نتيجة ترضيه من كتابة هذه المواعظ ؟ أيظن أن خطاباً كهذا قد يثوب بها إلى الوفاء والإخلاص إن كانت تخون وتخدع ؟ أيزعم ولو على سبيل الوهم البعيد أنها تتعظ وتندم لأنها تقرأ كلاماً كهذا الكلام وتروى النظر فى مصير كذلك المصير .

آخر ما يطمع فيه العاقل أن يظفر بهذه النتيجة من امرأة يميل بها الهوى ويوسوس لها شيطان الخداع ! فكيف بصاحبتنا التى يعرفها حق عرفانها ويعرف أن الكلام لا يستحق عندها الهزؤ والتحدى بمزية أفضل من مزية الوعظ والتذكير . . . إنها تريد أن تثور وتجمح ، ولا شىء أقمن بإشباع شهوة الثورة والجماح من مخاطبة الإنسان بكلام يصدر عن العقل ويلبس ثوب

النصيحة والهداية !

إذن ما أضيع الوعظ عند صاحبتنا التى تتذوق الكلام وتعطيه « درجته » العادلة من التقريظ والتأثر ، ولا يبعد أن تبكى إذا كان فيه ما يحرك الشجن ويستدر الدمع . ولكنها لن تزيد على ذلك ، ولن تخلط بين التقدير الفنى والنتائج العملية ! ولو كانت فى موضع السلطان العثمانى سليم الأول لبكت من قصيدة الشاعر الذى تشفع لديه بالشعر البليغ ليعفو عنه . . . ثم أمرت كما أمر بسوقه إلى ساحة الموت عقيب إنشاده القصيدة : لأن الفن شيء والسياسة شيء آخر ! !

أم إن صاحبنا — وليكن اسمه «هماماً» وليكن اسمها منذ الآن « سارة » لتيسير الكلام عنهما — أم إن صاحبنا هماماً قد شاقته الفتاة بعد الفراق القصير ولم يشأ أن يعترف بشوقه ولا أن يستدعيها إليه صراحة فعمد إلى كتابة الخطاب ليفتح باب الحديث فاللقاء . . . ؟ !

لا . ولا كل هذا .

إن هماماً لم يكن من دأبه أن يقصر فى مراجعة نياته ودسائس طبعه ، ولقد يغلو فى ذلك حتى يعزو إلى نفسه من المقاصد ما ليس فى حسبانه ، ولكنه — غلا أو لم يغل — ما كان فى وسعه أن يزعم أنه بحاجة إلى تلك الحيلة لتدبير اللقاء دون استدعاء .

فاللقاء لم يكن بالشيء العسير ، ولم يكن بينهما بعد من القطيعة ما يلجىء إلى الحيلة والمناورة ، ولعل انتظاره الهداية من توجيه ذلك الخطاب أقرب إلى التصديق من التذرع به إلى تدبير لقاء.

السبب في الحقيقة أنه لا سبب هناك ... السبب هو الحيرة الملحاح التي تستحثنا إلى كل عمل مستطاع دون أن نستوضح أنفسنا عن علة معقولة أو نتيجة مأمولة . وكل من حار هذه الحيرة يوماً يذكر أنه فعل شيئاً لا علة فيه ، ولا هو يقبل التعليل:

كذلك يفعل الأب الذى يرى، بين يديه ولداً مريضاً ميؤساً من شفائه وهو لا يستقر إلى التسليم ، وكذلك يفعل المحرج الذى يرى أن العمل واجب لأنه خير من سكون لا صبر له عليه . وكذلك يفعل الذى لا بد أن يفعل ، لأنه بالفعل يستريح . أما بالسكون فلا راحة ولا أمل فى الراحة .

وأتبع وصول الخطاب حديث بالتليفون . لم يكن هذا الحديث بالمقصود ، ولكنه لم يكن كذلك بالمكروه ولا بالمرفوض .

وأتبع الحديث موعد وزيارة . وجاءت فى الموعد وهى تبدو بتلك الطلعة التى يعهدها منها بعد كل مغاضبة وقبل كل مصالحة : طلعة السفير الذى يدخل المملكة الغريبة ولا يدري أحرب أم سلام ، فهو لا يبرز القوة ولكنه يتقى أن يبرز الضعف

ولا يحمل غصن الزيتون ولكنه مستعد به فى الحقيبة المغلقة ، ولا يتجهم ولكنه لا يتطلق و يتبسط . .. فلم تتهيأ للموعد بزينتها التى تعلم أنها تروقه وتستجلب هواه ، ولكنها لم تهمل زينتها إهمال المعرض قليل الاكتراث . فهى زينة صالحة مع قليل من الاعتذار ... وإذا وصل الأمر إلى هذا فأى اعتذار لا يغنى غناءه ولو جاء عفو الساعة ؟ !

وكان من دأبها أن تختلس رضاه وتحطم الحواجز بينها وبينه بسلاح من سلاحين : بالدعابة والتهكم ، أو بالأسى والتضعضع . فأما فى هذه المرة فسلاح الأسى والتماس الشفقة لن يلائم مظهر السفارة التى تتردد بين الحرب والسلام . فدخلت من الباب وهى تشهر سلاح التهكم والمناوشة ، والتفتت وهى داخلة كمن ضل الطريق وأفضى به السير إلى غير المكان المتوقع ، فقالت وهى تلقى بقبعتها :

من أكبر العجب أننى وصلت إلى هنا ولم أصل إلى المعبد!

قال همام فى سره : ويحك ! هذه تحية وعظك ! ثم أجابها من نمط تحيتها قائلا : معبد ؟ استغفرى الله يا أمة الله ! ! وهل تستطيع قدماك أن تحملاك إلى المعبد ولو قادك إليه ألف دليل ؟

قالت ولم تتريث : إنه لتقريظ حسن لبيتك أن يكون هو

المكان الوحيد الذي تحملني إليه قدماى ! !

قال وهل تحسبينني أغتبط بهذا التقريظ ؟

قالت : معاذ الله ، ولا سيما وأنت بخطابك صاحب دعوى في الهداية والإرشاد لا تقل عن دعوى أهل الصناعة . . . . ومع ذلك لا أظنك اسفاً لهذه الغلطة

وبدأت في نغمة الدلال بعد ما أنست من لهجة الحوار أن الساعة ساعة غصن الزيتون لا ساعة السيف . ثم دنت منه تقبله ، فقبلها وضمها وأجلسها وجلس إلى جانبها وهو يغمغم متخاذلا : لو أنها غلطة قدمين يا سارة ؟ !

قالت غلطة قدمين أو غلطة يدين ، ألا تستطيع أن تتعلم « الربوبية » ساعة وتغفر الزلات ؟

وضحكت ضحكة حلوة خبيثة مسترسلة ليس لها معنى إلا أنها تقول فيها : أنا أعرف كيف أرضيك ؟ أليس كذلك ؟

فجاراها في الضحك وقال لها بلهجة المستظرف والعاشق معاً : وهل أحرص عليك يا ملعونة إلا لهذه الحذلقة ؟ متى علمت أن ربا من أرباب الأساطير غفر الزلات لشريكة قلبه ! إنهم يغفرون للمخلوقات التي تخون المخلوقات من أمثالها ، أما « الخيانة العظمى » فأين هم الأرباب الذين يغفرونها ؟

واطمأنت إلى مكانها ، وشعرت أنها في بيتها . . . نعم في

بيتها لا فى « سفارة » تقبل عليها غريبة وتخرج منها مقبولة أو مريبة ، فوثبت من جانبه كما يثب الطائر بلا تنبيه ولا انتباه . إلى أين ؟ إلى « الرشاش » كعادتها فى كل زيارة بلا اختلاف بين صبح ومساء وصيف وشتاء ، لأنها لا تميز الفصول كما تقول إلا بالتقويم وجريدة الأزياء !

أفى هذه تريد التفريط يا همام وهى فى قبضة يديك ؟ لا يا صاح ! لست معك فى هذا . . . إنما التفريط فيما يعوض ويستبدل ، فأما الذى لا يعوض عنه ولا بديل له فإن احتمال الأذى فيه لخير من احتمال ضياعه واللهفة عليه .

وإنه لفى هذه المناجاة إذا هى تتهادى وتنفض شعرها كما تنفض الفرس الكريمة عرفها ، وإذا هى أمام المرآة مصقولة ندية كالثمرة الناضجة فى شعاع الفجر البليل . . . وكالشيطان !

منذ الأزل وقفت هذه الفتنة إلى جانب ووقف إلى الجانب المقابل لها حكماء الأرض وهداتها ومشترعوها وأصحاب النظم والدساتير فيها ، وقالت هذه الفتنة كلمتها وقال الحكماء والهداة كلمتهم ، ونظرت ونظروا ، ووعدت وأوعدت ووعدوا وأوعدوا . وأمامك الناس جميعاً فأسألهم واحداً واحداً : كم مرة سمعتم هذه وكم مرة سمعتم هؤلاء ، وأنا الضمين لك أن فى تاريخ كل إنسان مرة واحدة على الأقل سمع فيها لهذه الفتنة ولم يسمع معها لحكمة

الحكماء ولا لشيء من الأشياء .

لبست هي المرأة المسموعة هنا ولكنها هي الطبيعة .

والمرأة والرجل والحكماء والحكمة ألعوبة الطبيعة التي لا تسأم اللعب ، ولا تعرف الجد لأنها لا تعرف التعب . وربما كانت المرأة أضعف هذه الألاعيب كما يكون الطعم أضعف من السمكة التي تأكله ، وإن كان الطعم ليقودن السمكة إلى الهلاك.

ومن القاضي الفاصل بين الطبيعة والحكمة ؟ إنما القضاء لمن ينتظر منهما الحجة الأخيرة والنتيجة الخاتمة . ولكن ليس للطبيعة انتهاء . فهي في جميع الأزمان صاحبة القول الأخير .

في ملحمة الصراع بين الفتنة والحجى ينسى الإنسان ما لا ينسى ، ويخطر له الإغضاء عما يشهده بعينيه ويثبته ببرهانه ، ولقد خطر هذا لهمام في تلك اللحظة ووسوس له الهوى أن ينزل بتلك المرأة الماثلة أمامه إلى حيث ينسى خيانتها ولا يذكر إلا متعتها . فتمنى في تلك اللحظة أمنية غريبة : تمنى لو كان حبه لها أقل ، وماضيه معها أقصر ، وشرطه عليها أقرب وأيسر . إذن لاكتفى منها بما تعطيه ، واستبقاها على شرطها ومرامها لا على شرطه ومرامه .

إن الرجل الذي يهب للمرأة ساعة من يومه يكتفي منها بساعة من يومها ، ولكن هل يكتفي منها بتلك الساعة وهو يهب لها

ساعاته وأيامه وينسج حولها ماضيه وحاضره ، ويحجب بيديه ضياء المستقبل الذى يطلع عليهما مفترقين كأنه يطمع من الدنيا فى غرام بغير فراق ؟

إن الابن لن يكون ابناً أو نصف ابن . وإن التحفة النفيسة لن تكون صحيحة أو نصف زائفة ، فهى إما صنعة الفنان المنسوبة إليه والفترة المردودة إليها ، أو هى ليست بصنعته على الإطلاق ، فلا تقريب ولا توسط فى هذه الأمور .

وهذه المرأة ، بل هذا العالم الحاشد من النساء لأن كل لحظه من لحظاته معها تمده بنسخة منها قلما تختلط بأخواتها ، هذه المرأة التى لا مرأة غيرها كيف يرضاها ولديها رجل غيره فى إبان هواها ؟

ليست الحكمة هى التى تتكلم هنا ولكنها هى الطبيعة ، ومن ذا يقاوم الطبيعة فى غوايتها غير الطبيعة فى ثورتها ؟ ؟ إن الصراع هنا لبين ندين متكافئين ، والويل للفريسة المطرودة بين الندين .

لا ! سأحتفظ بهذه التحفة وأصونها جهد ما فى وسعى من احتفاظ وصيانة ، ولكننى لن أحتفظ بها إلا تحفة نفيسة . . . فإذا بعتها فلن أبيعها إلا وقد أيقنت أننى غير مغبون فيها ولا نادم عليها .

تحفة بين يدى لا شك فيها . . . أقول حيناً إنها تحفة

نفيسة فليس فى كنوز الأرض ما يعدلها ويقوم بثمنها ! وأقول حيناً إنها تحفة زائفة فلو بعتها بدرهم لما كنت بخاسر .

وهذه هى الحيرة . فقولى ياحكمة الحكماء وياهداية الهداة ، وقولوا لى ياصيارفة هذه الجواهر ويادهاقين هذه المعادن ، ويامن يستطيعون أن يضعوا المنظار لحظة واحدة وراء هذه العين اللامعة فيلمحوا هنالك الفارق الهائل بين ما يباع بدرهم وما ليس يباع بكنوز الأرض وذخائر البحار .

لا ! لن أبيعها إلا بدرهم . فإن كانت الأخرى فلا بيع ولا شراء : « لما غلا ثمنى عدمت المشترى »

نعم وعدمت البائع أيضاً . . . هذه هى الحيرة فكيف الخروج منها ؟ لا حاجة إلى أكثر من نظرة واحدة لتسويم هذه الجوهرة . فمن ذاك الذى تتاح له تلك النظرة ؟

كان همام فى تلك الأيام يقرأ رواية « سيدة الأكاذيب » للكاتب الفرنسى الكبير بول بورجيه ، ولعله قرأها لعنوانها وما يرجو أن يطلع عليه من أكاذيب سيدتها . . . وفى الرواية امرأة لعوب من نساء الأسر المترفات ، وزوج متغافل وعاشق كهل يبذل المال والحلى والهدايا ، وعاشق ناشىء يبذل شبابه وجماله وطرافة هواه ، وكل من هؤلاء راض بنصيبه إلا العاشق الفنى الذى يتنطس ويتوجس ويلح فى كشف الأسرار فيعمد إلى الرقابة ولا

يلبث أن يخلص إلى الحقيقة . فما الرأى إذن فى الرقابة ؟

إن نظرة من رقيب أمين لتغنى عن كل صيارفة الجواهر الذين يسومون معادن الوفاء وليس لهم معيار واحد يبطل فيه الخلاف . . . فإن لم يكن من الرقابة بد فلتكن الرقابة ، ولكل شىء من جنسه آفة !

وأثلجت تلك الخاطرة صدر همام وإن كانت قد غضت من سروره باللحظة التى هو فيها ، ومن أين يخلص السرور وبينك وبينه رقيب ؟

تتابعت الخواطر عدواً دراكاً فى رأس همام وهو يتأمل الفتنة الماثلة أمام المرآة ويتناسى شغفه بها كلما تمادى فى تفتيشها واستقصائها ، ولم تستغرق كل هاتيك الخواطر منه ريثما فرغت « سارة » من تسريح شعرها وتجفيف إهابها : لأنه كان يستعرض هاتيك الخواطر كما يستعرض صفحة مفتوحة بين يديه يحيط بها فى نظرة واحدة ، ولم تكن خواطره لتشغله عن كلمة من هنا وتعليق من هناك جواباً لما كانت تعابثه به من الملاحظات والمناوشات . . . غير أنها فطنت لما يجول فى خلده وأدركت أنه ليس معها بجميع قلبه ولسانه . وأشفقت أن يستطرد ويستطرد فتتسع المسافة بينهما . فاستدارت إليه من المرآة متفترة متكسرة ، ومدت جيدها وثنت أعطافها وقالت : أرانى متعبة . أريد أن

أذهب . . . أو أريد أن أنام

وانقضى اليوم بسلام ، ونسيا أو تناسيا خطاب « الوعظ » بعد ما كان من عبث التحية الأولى ، ونزلت سارة وهى مستريحة مستبشرة خفيفة القلب والطوية لا يبدو عليها أثر من التكلف والرياء .

ومن دأب المرأة إذا انتعشت حواسها أن تخف وتنشط ولا يثقل على ضميرها عبء من الأعباء ، وهذا الذى يلوح للرجل فى صورة البراءة فينخدع ، أو هذا الذى يسمونه أحياناً بعمق المرأة وقدرتها على إجادة الرياء وإخفاء ما فى الطوية ، وإنما هى فى خفتها كالطفل الذى تأخذه حماسة اللعب فلا تحضره الشواغل ولا تثقله الدخائل ، وقد ود « همام » لو يستطيع أن يخلط بين هذه الخفة وخفة البراءة ، وما هو بمستطيع . فليرجع إلى الزقابة فهى مرجع الإنصاف ومقطع الخلاف ، وفيها وحدها تسويم لتلك المتعة بكنوز الأرض وذخائر البحار ، أو بدرهم لا يندم عليه ملقيه فى التراب .

وكيف الرقابة ؟

صحت النية على الرقابة فلا مناص منها . وبقى أمر الرقيب والعثور عليه . فمن يكون هذا الرقيب ؟

لم يشرع همام فى بحث هذه المسألة حتى وضح له أنها مشكلة كثيرة الشعاب . فخطر له فى مبدأ الأمر أن يستعين برجل يؤدى هذه المهمة وينقده على ذلك أمراً يرضيه . ثم قلب الأمر على وجوهه فرأى أن هذا الرجل المستأجر يحتاج إلى رقيب عليه لضمان إخلاصه وجده وحسن التبصر فى عمله . . . فإذا ترك بغير رقيب فأغلب الظن أنه يأتى فى اخر كل نهار ومعه كشف طويل عريض بأجور السيارات والجلوس على القهوات ورشوة الخدم والبوابين ، ولا فائدة من جميع ذلك غير التضليل والمراوغة والتشويق لاستطالة الرقابة واغتنام الأجور .

ثم تنقضى الأيام وهو لم يعرف شيئاً ولا أعان على معرفة شيء . وهبه عرف بعض الحقيقة أو عرف الحقيقة كلها فهذا أخطر وأخسر . . . لأنه يستغل معرفته كلما احتاج إلى المال لابتزاز الأتاوات والإنذار بكشف الأسرار ، فيوماً يهدد السيدة

ويوماً يهدد السيد ويوماً يقارب الأقرباء والأولياء ويلوح لهم بما وراء الغطاء . ولعله يختصر الطريق من أوله فيطلع السيدة على مهمته ويفسد الأمر فساداً لا صلاح بعده .

رقيب أجير لا ينفع فى هذه المواقف ، ولن ينفع فيها إلا الصديق الصدوق .

نعم لا ينفع فيها إلا رجل يعنيه أن يعرف الحقيقة ويؤمن قبل ذلك بأنها حقيقة تستحق عناءها ! فكم عندك يا همام من أمثال هذا الصديق ؟ مئات ؟ ؟ عشرات ؟ ؟ آحاد ؟ ؟

إن الناس يحسبون « الضيق » محك الصداقة الذى لا يكذب ولا يخيب . والناس فى ذلك مخطئون ! لأن الصديق الذى ينجد صديقه فى الضيق قد يتخلى عنه وينقلب عليه فى أعماق السريرة.

وليست المعونة الصادقة هى المعونة التى تدخل فى رقابة العرف أو فى رقابتك أنت بينك وبين صديقك ، ولكنها المعونة التى لا حسيب عليها غير الضمير ، ولا باعث لها غير اتفاق الهوى وامتزاج الشعور .

كثير من الأصدقاء يعينون أصدقاءهم فى الضيق لأن العرف يحمد لهم هذه المعونة ويتخذهم مثالا للأمانة والوفاء وجميل الفداء.

وكثير من الأصدقاء يعينون المرء على الشئون التى يشعر هو بمعونتهم أو بتقصيرهم فيها ، لأنه يحمد لهم ما صنعوا ويجزيهم بما

أسلفوا ويرد لهم ما أقرضوا . أما الشئون التى لا رقابة عليها للمرء ولا للعرف فالمعينون عليها أقل من القليل ، وهمام — أو غير همام — سعداء إن ظفروا من كل ألف صاحب بواحد فذ من هؤلاء الأعوان .

فى هذه الشئون يستطيع الصديق أن يقصر وأنت لا تشعر بتقصيره ، وربما قصر ولم يؤمن هو بأنه مقصر ملوم ، لأنه لا يؤمن بجنون العاطفة ونزوات الهوى . . فكيف يتقى مغبة التقصير ويصبر فى سبيل ذلك على الجهد العسير أو اليسير ؟ وإذا انكشف تقصيره فمن ذا الذى يلومه ؟ لعله يلقى يومئذ من المعذرة والثناء أضعاف ما يخشاه من العذل والمذمة . وذلك كله على أهون الفروض .

أما أصعب الفروض فهو أن تنقلب الرقابة إلى مطاردة والمطاردة إلى اقتناص . . وليس أصعب الفروض دائماً بأبعدها وأندرها فى الوقوع !

حيرة جديدة « نجا » إليها همام من الحيرة الأولى . . والحيرة الأولى باقية كما كانت فى موضعها القديم .

وإن هماماً ليضرب أخماسه وأسداسه ويبرح فى ضربه وإيجاعه إذا بالقدر يحل له المشكلة العصية أسهل حل مستطاع ، وإذا بالسماء تنفتح على حين غرة ويهبط منها الرقيب المنشود ! !

ـ ماذا جاء بك يا أمين ؟

ـ جاءت لى أجازة أيام .

ـ ويحك ! أنت طول عمرك تفصل من أعمالك بغير داع . أفما كان فى وسعك هذه النوبة أن تنفصل فصلا نهائياً يا لئيم !

قال أمين وقد فوجىء : لماذا هذا الاستعجال على الفصل؟ ما الخبر ؟

قال همام : الخبر أنك لازم لنا مدة طويلة . . أطول من أيام . . . ولعلها أطول من أسابيع .

وسرد له المسألة بأقصى ما رآه صالحاً من التفصيل والإسهاب ، فلم يكذبه حدسه ، وأسرع أمين بالإجابة والموافقة ، وأوشك أن يسرع بالشكر والتهلل كأنه كان يتمنى ما اقترح عليه ، ووعد أن يأتى بقصارى جهده فى هذه الأيام القليلة ولا حاجة إلى الفصل المألوف !

لم يكن همام قد نسى أميناً فى مشكلة الرقابة ، وليس أمين بالصديق الذى ينسى فى مشكلة من قبيلها ، لأنه يؤمن بالواجبات الشعرية أشد من إيمانه بجميع الواجبات الإنسانية ، وهو ذو أريحية ومروءة وصدق لسان وصراحة شيمة ، ويحسب أن خيانة الصديق فى العشق لا تقل عن الخيانة فى أقدس الحرمات ، وبينه وبين المطاردة والاقتناص هذا الخلق المستقيم الجميل وشىء آخر

غير مستقيم ولا جميل ! وهو أسنان عوجاء مثرمة ووجه كثير التجاعيد والغضون . . فإلى أن يمسخ طبعه وتنصلح أسنانه ووجهه هو ولا ريب وفاق الشرائط من وجوه كثيرة ، وأحق من الصحب قاطبة بالتذكر والاعتماد !

إلا أن هماماً تخطاه بادىء الأمر لسببين : أحدهما أن أميناً كان يومئذ يعمل بقرية بينها وبين القاهرة مسيرة ساعات على جميع وسائل المواصلات : على القدم وعلى المطية وعلى السفينة وعلى القطار أو السيارة . وثانيهما — وأخطرهما — سهوات الذكاء التي اشتهر بها أمين ويالها من سهوات ! فهي كعيب ذلك الزنجي الذي يكذب في السنة أكذوبة واحدة . . . . وفي هذه الأكذوبة الواحدة قاصمة الظهور .

فيجوز أن يكون إخلاصه هو كل المطلوب في هذه المواقف ، ويجوز أيضاً أن يكون هو كل المحذور ، وهمام وحظه ونصيبه بين الجوازين ! وإليك المثال :

كان السيد أمين في إحدى إجازاته القصيرة بنزل بمنزل همام ، ودق التليفون عصاري يوم في مسألة عاجلة فخف همام إلى الخارج وأوصى أميناً أن ينتظره ريثما يعود بعد نصف ساعة ، وأن يستقبل ضيوفاً قادمين في هذه الآونة ويعتذر إليهم بعذر همام المفاجئ ، ويبلغهم أنه سيرجع بعد هنيهة ليقضي معهم الأصيل

حسب الموعد . . . وقد عاد همام بعد نصف الساعة المقدور فلا أميناً ولا ضيوفاً وجد فى المنزل ! ! وكل ما وجده بطاقات الضيوف فى عقب الباب عليها كلمات موجزة تشف عن الأسف والاستغراب .

ولبث همام يقدر فى ذهنه ما توهمه الضيوف من أسباب مغيبه المتعمد ولا مراء . فإنه لا يخرج فى هذه الساعة ، وليس للضيوف إلا أن يعتقدوا كل الاعتقاد أنه راغ عن الموعد أو أخفى نفسه وتركهم يرجعون على أعقابهم مسافة ليست بالهينة ولا بالقصيرة .

وبينما همام يستغرب خروج أمين ولا يدرى ماذا أخرجه خاصة فى هذا اليوم الذى سئل فيه الانتظار — أقبل السيد أمين يحمل فى يديه قازوزتين وقليلا من الفاكهة والحلوى ، وهو راض عن نفسه رضى الرجل الضليع بمهام الأمور .

قال أمين وهو يخفى اعتزازه واغتباطه بحسن تدبيره وعرفانه بالواجبات التى ينساها الغافلون : إنك يا صاح قد نسيت أن الثلاجة خالية ، وأن الضيوف قادمون ، وقد ذهبت أحضر لهم بعض الشىء فعسى أن يستطيبوه !

فضحك همام غيظاً وعجباً من اهتداء صديقه إلى العمل الوحيد الذى لا ينبغى أن يعمل واعتقاده مع ذلك أنه هو الواجب

٧١

الذي ينبغي دون سواه . . . وربت على كتف الصديق قائلا : أحسنت أحسنت يا مولانا ، وما عليك الآن إلا أن تعدو بالقازوزة والفاكهة فى أثر الضيوف فلا شك أنهم منتظروها فى الطريق ! وأراه البطاقات وما هو مكتوب عليها فما زاد على أن فغر فاه ونطق بحكمته المأثورة كلما أدرك خطأه : « مدهش ! » حضروا وعادوا ؟ ليس لهم حق ! . . أما كان يصح أن ينتظروا ؟ ... نعم كان يصح أن ينتظروا . أما هو فلا يصح أن ينتظرهم فى البيت .

مضحكات الرقابه

بدأت الرقابة وفاقاً لما كان منظوراً منها بغير اختلال : أمانة بالغة وشدة لا هوادة فيها ، ثم مضحكات لا تنقطع يوماً إلا ريثما تعود على أمثال أغرب وأبعد عن الحسبان . . . وهي مضحكات حين تنقضي عليها ثلاثة أو أربعة أعوام ، أما في أوانها فأيسر ما فيها يغيظ غيظ الجنون .

ومن اليوم التالي ظهرت أمانة الرقيب حرفاً حرفاً في كل جليلة ودقيقة ، فطابقت رواياته كل ما كان يعلمه همام من أخبار سارة التي تحكيها له طواعية أو التي يتحرى سؤالها عنها في ثنايا الحديث . وما كان همام يطلع أميناً على مواعيده مع سارة ولا على الساعة ولا على الجهة التي ينويان اللقاء فيها ، فكانت مطابقة الأخبار لهذه المواعيد وما يلحق بها من الحواشي والملابسات مؤكدة لهمام ما كان يعتقده من صدق أمين وصواب الاعتماد عليه .

وجاء أثناء الرقابة يوم شات من أيام الزمهرير ، عاصف قارس مطير . فأشفق همام أن يتصرف أمين فيستبيح لنفسه

إهمال الرقابة فى ذلك اليوم ولا لوم عليه . إذ أين هى السيدة الرشيقة الأنيقة التى تغادر دارها بين أوحال الأرض وسيول السماء !

إن أميناً لمعذور إذا هو استباح الإغضاء والهوادة فى مثل ذلك اليوم المكفهر العبوس ، ولكن الذى يعرف سارة لا يعرف يوماً هو أحق بتشديد الرقابة من ذلك اليوم ، لأن هذه الأوقات هى أوقاتها المختارة للتسلل والروغان ، وفرق عشرين درجة فى ميزان الحرارة الجوية لا يقابله فرق مثله فى حرارة جسمها الفتىّ المنيع ، لأنها لم تعرف قط ما هو مدلول كلمة الزكام فى الآناف والأجسام .

أشفق همام من ذاك فهبط من داره ملتفاً فى دثارة ، وركب ساعة ليبلغ إلى المكان الذى يتربص فيه أمين . فألفاه متربصاً حيث يقيم كل يوم .

لا خوف إذن من هذه الناحية . ولا غبار على نتيجة الرقابة فى اليوم كله . فقد خرجت سارة فعلا قبيل العصر وعادت إلى منزلها قبيل المغرب ، ولم تذهب فيما بين ذلك إلا إلى منزل صديقه عزيزة لها كانت تناجيها بأشجانها وتطلعها على أسرارها ، فلم يشأ همام أن يكون مفرطاً فى التوجس والافتراض . ولم يلاحظ إلا أن الخروج فى اليوم المطير لزيارة صديقة أمر غريب

مريب ، واكتفى بتفسير هذه الغرابة بأنها واحدة من غرابات « سارة » وبدواتها التى لا تتقيد بالعرف والاصطلاح . . . ولو أتيح له أن يعلم يومئذ — كما علم بعد شهور — أن الصديقة العزيزة لم تكن إذ ذاك فى المنزل ولا فى القاهرة لما كبح ظنونه عن الإفراط فى التوجس والافتراض .

وكان الرسم المتفق عليه بين همام وأمين أن يقص أمين كل ما يراه ويسمعه منذ خروج سارة من منزلها إلى عودتها ، كائناً ما كان شأنه من التفاهة وقلة الدلالة فى نظره . فلا يسقط شيئاً ولا يستهين بشىء وإن هان ، وضرب همام مثلا لذلك لون الرداء وزى الملابس فهو شىء لا يختلف مدلوله فى رأى أمين ولكنه يدل على الكثير فى رأى همام ، وضرب مثلا آخر أن تركب السيدة الترام فتتخطى مقصورة السيدات إلى مقصورة الرجال ، أو تتخطى هذه وتلك إلى كراسى الدرجة الثانية . فلا يمكن أن يكون ذلك بغير دلالة تقترن بدلالة أخرى فتعين على جلاء الحقيقة ، وهكذا من أمثال هذه الطفائف والقرائن التى لا غنى عنها للوصول إلى نتيجة من وراء الملاحقة والرقابة .

ولم يكن فى سرد هذه المشاهدات صعوبة على أمين لأنه كان مطبوعاً على التقاط ما يبصر ويسمع ومحاكاة ما يلتفت إليه من اللهجات والحركات والإشارات . فجاء يوما بعد مراقبة نهار

كامل بحكاية ما شك همام وهو يسمع أوائلها أنه لن ينتهى إلى أواخرها حتى يضع يده على لباب الحقيقة ، ويتطرق منها إلى النبأ اليقين .

قال لقد خرجت السيدة عصراً تلبس رداء عنابياً ومعها طفل صغير ، فذهبت إلى بيت صعدت إلى دوره الأعلى ثم نزلت ومعها سيدة تكبرها بعدة سنوات ، ومضتا إلى دار من دور الصور المتحركة فى شارع عماد الدين ، فجلست أنتظرها على القهوة الملحقة بالدار ، ولم يمض نصف ساعة حتى خرجت وحدها وليس معها الطفل ولا السيدة ! . . .

ما شك همام حين وصل أمين إلى هذه المرحلة من حكايته أن فى الأمر شيئاً وأنه يتعقب الأثر الصحيح إلى النتيجة الصحيحة.

نعم إن أميناً أخطأ إذ لم يدخل معها إلى قاعة الصور المتحركة ولكن خروجها بعد ذلك قد أصلح ذلك الخطأ وعفى عليه . . . وما يراه بعد الخروج هو المهم ، وليس ما يراه فى القاعة إن رأى هناك ما يستحق الالتفات . . . وإلا فلماذا تخرج بعد نصف ساعة ؟ ولماذا تخرج وحدها ؟ وذلك الثوب العنابى أليس هو الثوب الذي تحب أن تتزين به لخلوتها وتحسبه أجمل عليها من سائر ثيابها ؟ ! فالحقيقة إذن على مدى خطوتين ، ويستر الله فلا يعثر أمين بإحدى سهواته فى إحدى هاتين الخطوتين . وماذا

عسى أن يعثره بعد هذا المدى ؟ وكيف يعثر يا ترى ؟ ذلك بعيد . . . وأغلب الظن أن الأمر سينكشف وأن الغاشية ستنجلى وأن ليل الشكوك والهواجس المضطربة سيسفر بعد لحظة عن فجر صادق بين .

ثم ماذا يا أمين ؟

ثم سهوة من تلك السهوات التى تنقض فى صدمة المباغتة ، والتى لا ترد على البال ولا تقع فى الأوهام ، والتى يخيل إليك أن أميناً لم يعثر بها إلا لأنه تعمد أن يعثر بها وأصر على تدبيرها ؛ لأن ما صنعه هو الشيء الوحيد الذى لا ينتظر أن يكون .

اعتدل أمين فى مجلسه واتكأ على عصاه ، وقال فى راحة الذى لم يضيع أقل فرصة وأقصى احتمال : إن السيدة لم تعد بعد خروجها من دار الصور المتحركة !

ــ ويحك ، وإلى أين ذهبت

ــ لا أدرى

ــ كيف لا تدرى ؟ ألم تتبعها ؟

ــ لا . لأننى ما شككت فى أنها خرجت لحاجة لها ثم تعود . . ولا يليق أن أتبعها .

فانتفض همام وهو يغالب غيظه وسخطه وصاح به : ياأخرق! أليس فى دار الصور ما يغنى سيدة مهذبة عن الخروج إلى

منعطفات الطريق ؟

ففطن أمين ساعتئذ لسهوته « الجبارة » . . . وأخذ فى تمحل الأعذار والمسوغات ، وهو — على صدقه — لا يتورع فى هذه الأزمات المحرجات عن أكذوبة صغيرة يتقى بها التهزئة والتسخيف أشد من اتقائه الملامة والتعنيف ، وقال : الواقع أننى صادفت والدى عابراً فحيانى وجلس معى وخشيت إن أنا تبعت السيدة فجأة أن يستريب ويتكدر . فلبثت فى مكانى على رجاء أن تعود.

ومن الجائز حقاً أن تكون السيدة قد ذهبت ولم تعد لأنها واعدت صاحبتها أن تلقاها فى مكان اتفقتا عليه . ولكن إلى أين ذهبت ؟ ولماذا ذهبت ؟ . . . هنا الحيرة التى لا تدع للذهن أن يتجه خطوة إلى اليمين حتى يرجع فيتجه خطوة إلى الشمال . ثم يتبلد حائراً فى موقفه لا إلى هنا ولا إلى هناك .

فى الحى الذى قصدت إليه بيوت فيها مخادع محجوزة لطلاب الغواية ، وفيه أسرتان بينهما وبين سارة ولاء وثيق ، وبعض الأطفال فى إحدى الأسرتين مريض . ويجوز أن تكون سارة قد ذهبت إلى مخدع من مخادع الغواية كما يجوز أنها ذهبت للسؤال عن الطفل ولم تصطحب طفلها خوفاً عليه من العدوى ، وما عدا ذلك من الاحتمالات يتقابل ويتوازن بحيث لا ترجح كفة على كفة ، وإن رجحت إحدى الكفتين فإنما ترجح بالتخمين والتقدير، وليست

الرقابة للتخمين بل لليقين القاطع المفصل الذى لا لبس فيه .

ويجيء أمين فى يوم آخر بنبأ من هذه الأنباء التى تدنو بهمام إلى مدى خطوتين من الشاطيء ثم تقذف به فى لمحة عين كما يقذف الموج الغريق إلى مدى آباد لا تعبر ، وقد حدث نفسه بالنجاة . . .

ذهبت السيدة إلى دار الصور المتحركة ولقيها شاب مديد القامة ، فحمل الطفل وقبله ودخل معها إلى الدار وودعها بعد الانصراف إلى أن ركبت الترام الذى يصل بها إلى المنزل . فتبعها أمين ولم يتبع الشاب الذى هو موضع البحث والسؤال ! !

وتضاربت الظنون فى وهم همام حتى كانا بعد يومين يسيران هو وأمين فى الطريق فأوشك أمين أن يقفز من جانبه ويعدو وراء شاب مقبّع[1] طويل وقد صاح فى صوت مسموع : هذا هو الشاب !

فلم يمنعه همام أن يستمر فى صياحه وعدوه إلا بمشقة ؛ وأدرك الشاب وتبينه فمن ذا رأى أمامه ؟ . . . أخاها !

ولا ذنب لسهوات أمين فى هذه القصة إلا فى غفلته عن متابعة الشاب وإيثاره أن يتابع السيدة بعد ركوبها الترام . . . كأنما المقصود أن يعرف منزلها لا أن يعرف من كان

---

(١) يلبس القبعة .

معها ، أما البقية فالذنب فيها ذنب همام لأنه كتم عن صاحبه كل ما يتعلق بسارة غير شخصها ومسكنها . حذراً من سهواته لا حذراً من نياته .

* * *

ولزمت سارة مسكنها يوماً لا تريمه إلى زيارة ولا إلى مسرح ، وتلك نادرة لم تتكرر فيما عدا أيام حفلاتها وولائمها غير مرات معدودات . فليس لسارة عالم تعيش فيه غير عالم الدنيا الواسعة وعالم الحب والمحبين . أما عالم الضمير الذى يروده الإنسان وحده ويأنس فيه إلى التفرد والوحشة فذلك أبغض العوالم إليها وأثقلها وطأة عليها . لا تمكث فيه هنيهة إلا بإغراء كتاب ، وقلما يكون الكتاب عندها إلا منفذاً إلى الدنيا الواسعة ، ودنيا الحب والمحبين .

فسنحت لهمام خاطرة أن يجرب الرقابة داخل المنزل لعل هناك أحداً تحوم حوله شبهة ويصلح لاتجاه المظنة ، ولما سأل أميناً عن النور فى جناح سارة : من أين كان مصدره فى ذلك اليوم؟ علم أنه كان يصدر فيما بين الساعة السابعة والساعة الثامنة من الحجرة التى يعلم همام أنها حجرة النوم ، وهى حجرة لا تأوى إليها سارة إلا لتنام ، ولم تتعود أن تستقبل زوارها ولا أن تقرأ فى غير حجرة الاستقبال . . . ولم تختل تلك الوتيرة سنوات كان همام يجاورها فيها ويلم بجميع عاداتها وحركاتها فى منزلها ، فلماذا تختل فى

ذلك الموعد من المساء ؟ لماذا تختل القاعدة فى الموعد الذى تكون فيه على انفراد بعد نوم الطفل وانصراف الخادمة ؟

ربما كانت الرقابة داخل المنزل ألزم وأجدى من الرقابة خارجه ولو يوماً من الأيام . وقد أدى أمين رسالته فى هذه الرقابة الجديدة وخاب كما خاب فى غيرها ، لولا أن الحيبة هنا كانت مشفوعة بخطر الضرب المبرح والفضيحة الشنيعة ، فما سلم منه إلا بأعجوبة من أعاجيب السياسة !

ذلك أنه ولج المنزل متسللا وصعد السلم متلكئاً ليقرأ الأسماء التى على الأبواب . ولمحه فتى يهبط من أعلى المنزل فظن أنه يتلصص أو يتجسس ، وليس التجسس ببدع فى ذلك الحين . فانتهره الفتى مزدرياً ، وناداه متأففاً : مالك تتسكع على الأبواب يا هذا ؟ ماذا تريد ؟

ولم يكن أمين بالذى يتراجع إذا هوجم ، ولا بالذى يلين إذا خوشن . وقد تملكه الربكة إذا خوطب فى رفق وأدب واضطر إلى تدبير الجواب وتحضير المعاذير . فأما إذا قوبل بالتوقح والإهانة فلا ربكة ولا عناء . . . إنما هى دقة بدقة وصيحة بصيحة ، وصفعة بصفعة ، إذا استطرد اللجاج إلى هذه النهاية .

فما حفل أمين بالفتى ولا زاد على أن نظر إليه متجهماً متجعداً وقال : امض فى سبيلك . فليس هذا من شأنك ! !

ولقد دهش الفتى والتفت إليه مذهولا وهو يتمتم : ليس من شأنى ؟ كيف؟ إننى أسكن هنا . . . إن فى المنزل آلى وحرمى ! يا لها من أعاجيب ! يا لها من صفاقة ؟

ولكنه مع ذلك نزل . وسمعه أمين ينادى على البواب من أقصى الطريق ويقول له : أين أنت ؟ وماذا عساك أن تصنع إذا كنت تسمح لهذا الجاسوس أن يقتحم البيت ويتسمع على الأبواب ؟

جاسوس ؟

لقد سلم أمين بفضل الجاسوسية والخوف من الجاسوسية . ومن ذا يضرب الجواسيس ووراءهم قوة الشرطة وقوة الدولة وكل قوة تخاف فى تلك الأيام ؟

سلم أمين من الضرب وهبط السلم يتهادى غير هياب ولا وجل ! وألهمة الله أن يشمخ بأنفه ويزجر البواب قائلا : أنتم تأكلون بغير عمل . أنتم لاتستحقون أجوركم . . . لقد صفقت وناديت فما أجابنى أحد ، ولقد حاولت أن أراك لأسألك عن جناح خال فما اهتديت لك إلى شبح ، ولو سكنت فى هذا البيت لما أبقيت عليك !

فقبع البواب واستخذى ، ولاح له أنه غانم سالم إذا انجاب هذا الرجل السليط سواء كان جاسوساً أم باحثاً عن مسكن ،

وتركه ينفتل لطيته وهو يتبعه بقوله : معذرة يا بك ! لا بأس يا بك ! حقك علينا يا بك !

واقترقا وكلاهما يحمد الله على النجاة . إلا أن أميناً قضى منذ تلك الساعة على مستقبله فى الرقابة مضروباً أو غير مضروب وناجياً أو غير ناج ! ! فما كان فى وسعه أن يتراءى وهو آمن على جلده « حول مكان الواقعة » كما يقولون فى لغة الشرطة قبل أن تنصرم أيام وأيام . . . وشاءت المصادفات ألا تكون الخسارة عظيمة . فإن عناء الرقابة قد ضاع بغير جدوى ، وأن أيام الإجازة قد قاربت الانتهاء .

القطيعه

حصلت القطيعة ولما تسفر الرقابة عن نتيجة .

حصلت ولم يردها أحد ، ولم يغتبط بها أحد ، كأنها مخلوق قائم بمعزل عن أبويه : تريد له بنيته المستقلة ما تريد ولا يريد لنفسه أو يريد له أبواه : يمرض وينحل ويموت وهو لا يريد الموت ولا يريده له القوامون عليه . بل كأنه الجنين الذى استوفى حمله فلا بد له من الظهور ، ولو ماتت أمه وانفطر قلب أبيه .

أو لم يقل همام إنه لن يفرط فى هوى سارة ولن ينفصل عنها إلا وهو واثق كل الوثوق من خيانتها ، وعاجز كل العجز عن صيانتها ؟ . . . أو لم يقل أنها حلية مونقة إن غلت سومت بكنوز الأرض وذخائر البحار ، وإن رخصت هانت عن السوام والصيان؟ أو لم يقل ذلك ويعتزم العزم كله ويستجمع النية كلها على أن لا فراق ولا قطيعة إلا وقد عرف ما تساويه من قيمة وما تستحقه من غيرة وضنانة .

بلى ! قال كل ذلك ، ونوى كل ذلك ، ولكن الحب الذى أوحى إليه كل ذلك قد فسد وانحل ومات ، ولم يبق إلا أن

يدفن ؛ وأن يحمله إلى الدفن أبواه ! وهما آخر من يود له الموت ، ويخف به إلى ذلك المصير .

لو كانت المسألة قضية تنظر وحكماً يصدر بعد نظرها لكان عجيباً أن تثبت القطيعة قبل ثبوت الخيانة ، وأن تقع العقوبة قبل وضوح الجناية . ولكن من هو القاضى هنا ؟ ومن الجانى ؟ ومن الفريسة ! ومن صاحب الفصل وشارع القانون ؟

هنا قضية لا تلمح فيها قاضياً حتى تراه جانياً وتراه فريسة وتراه مقضياً عليه ، فلا حكم ولا براهين ولا شريعة ! بل حادث من حوادث القدر ينقض كما تنقض الصاعقة أو يشتعل كما تشتعل النار . هنا عناصر طبيعية لا تسأل فيها ماذا تنوى وماذا تريد؟ بل تسأل فيها ماذا عملت بعد أن تعمل ؟ كالذى يهرب من السيل ليقع فى الهاوية ، وكالذى يهرب من البركان ليقع فى اللجة الزاخرة ، وكالذى يهرب من النمر ليبتلعه التمساح ، وكالذى يهرب من الرصاص لتنوشه الرماح . كل ما أنت قادر أن تجزم به هنا أنه لن يستطيع البقاء حيث كان . . وهل يستطيع البقاء حيث صار ؟ كلا ! ولا هنالك يستطيع البقاء .

فإذا سألت : لماذا اعتزم همام القطيعة بعد أن كان يعتزم التربص والمطاولة — فليس سبيلك أن تعلم أنه آثر القطيعة وحمد مغبتها واستمرأ مذاقها ، وإنما سبيلك أن تعلم أنه لا قرار له على

ما كان فيه ، وأنه مدفوع إلى الهرب منه كما يندفع الهارب من النمر إلى التمساح .

* * *

فى أيام الرقابة وبعدها بأسابيع قليلة تكررت الزيارات وتسابق همام وسارة فى الاستزادة منها وهما يتكلفان ، ولا يجهلان أنهما يتكلفان . أحلى ما كانا يتمليانه من سويعات الهوى فى تلك الأيام إنما كان بالقياس إلى هواهما الخصيب المطواع كالثمار المحفوظة فى العلب ، بالقياس إلى الثمار على أشجارها بين غياضها وأنهارها .

ولم يكن همام يصور لحدسه كيف تشعر سارة بتلك السويعات المصطنعة . ولكنه هو كان يشعر شعوراً لا يزال يعاوده ويبرز أمامه كلما جهد فى تبديله والإشاحة عنه بخياله : كان يشعر كمن يلهو ويتلاهى على مقربة من جنازة وفى جوار مقبرة ، فمن حيثما أقبل أو أعرض فهنالك ظلال الموت ، وكآبة الفناء ، وسوانح الأحزان .

ومن أعجب ما كان يتمثله وهو يداعبها ويعانقها ذات يوم — سرير شيخ محتضر يتابع التدخين ولا يلقى بلفيفة إلا أومأ إلى من حوله فى طلب لفيفة أخرى . وما كان الشيخ يصنع ذلك قبل أن يثقل عليه السقام ويتدانى منه شبح الحمام . ولكنه كان

يدخن مرة فدخل عليه همام عائداً ، واستبشر قائلا : بركة يا عماه ! إن الذى يتطعم الدخان يتطعم العافية ، وأراك تتقدم إلى الشفاء إن شاء الله .

ومن تلك الساعة لم تعد للشيخ من وسيلة يحاذر بها وهم الموت غير التدخين كلما شارف اليقين . فهو يتبع اللفيفة بأختها ليقنع نفسه بأنه يشتهيها ، وأنه ما دام يشتهيها فهو على رجاء فى العافية والبقاء .

لقد كان يدخن ويبالغ فى طلب التبغ خوفاً من خيال الموت لا سروراً بموالاة التدخين . وما أقرب هذه الصورة الفاجعة مما كانت فيه سارة وهمام ؟

لقد كانا يحرقان من لفائف الحب أضعاف ما أحرقا فى عنفوانه وانطلاق طوفانه . ولكنهما يفرطان فى الحب ويتكلفان الإفراط لشعورهما بقنوطه لا لشعورهما برجائه ، ولإقبالهما على شتائه الأجدب لا لإقبالهما على ربيع بهجته وروائه .

وكانا فى عنفوان الهوى يتشاجران ولا يباليان الشجار ، ويتغاضبان ولا يحفلان من الغضب ، ويختلفان ويلحان فى الخلاف ولا يتحرزان من الخلاف والإلحاح : جسم فتى قوى فماذا تضيره هبة من عاصفة أو لفحة من هجير . فلما شاخ الحب أجفلا من الغضب والخلاف ، كما يجفل الشيخ الهرم من

غضبة تنذر بالقضاء عليه . فلا هما هانئان بوئام ولا هما قادران على خصام .

سرور مشكوك فيه ، وإن غاب عنه الشك فهو هزيل . وألم حق لا شك فيه ، ثم يتلو اللقاء اللقاء فيزيد هماماً علامة من علامات الخيانة التي ليس بعدها من إقناع عنده غير يقين اللمس والعيان .

وإنهما ليدافعان الغضب والخلاف ويطاولان المغالطة والمراء إذا بالغضب يدفعهما فى شلاله بين صخوره وأوحاله ، فيندفعان ويندفعان كأبشع ما يكون الهياج والثوران ، وكأنما هما نادمان على ما كان من مصانعة وبهتان . كلا ! لا جدوى من المراء . لابقاء لهذه الحال. لامناص من الفراق إن كان لا مناص منه... ولا مناص !

كانا يتلاقيان — إذا لم يتلاقيا فى المنزل — عند مفترق طريق فى الضاحية ينشعب يميناً إلى ناحية الصحراء ، ويساراً إلى ناحية الأندية ودور الصور المتحركة ، وكانت تلمحه مقبلا فتسبقه خطوات إلى حيث تواعدا من قبل : فإما فى الصحراء أو فى بعض الأندية يدخلانها على انفراد .

وقد تواعدا — بعد أسبوع من تلك الغضبة الثائرة — على اللقاء عند ذلك المفترق من الطريق . ليعطيها أوراقها وصورها

وذكرياتها ويسترد منها أوراقه وصوره وذكرياته ، ثم يفترق كل منهما فى طريقه إلى حيث يختفى من حياتها وتختفى من حياته .

وقبل الموعد بساعة أخذ فى جمع تلك الأوراق ومراجعتها ليعلم منها ما هو مطلوب وذو بال وما هو مهمل ومطروح . فيا لله كم تبلغ الورقة الخفيفة من وقر وفداحة ! وكم تختلف المعايير والأحجام فى موازين الأكف والأذهان : لقد كانت الرسائل والصور والهدايا كلها لا تملأ حقيبة صغيرة تحملها اليد الواحدة ؛ ولكنه كان يحمل الورقة منها وكأنما يزحزح جبلا راسخاً يشل السواعد والأقدام دون صخرة واحدة من صخوره .

ومشى إلى الموعد مشية لا اختيار فيها ولا إكراه ! مشية الرجل الذى يسعى بقدميه إلى غرفة الجراحة ليبتر عضواً من أعضائه غير آمن أن يكون فى بتره الموت ، أو مشية الأمهات اللواتى كن فيما مضى يحملن فلذات أكبادهن إلى مذبح الأرباب ، قرباناً غير رخيص ولا مزهود فيه . . . وسبقها إلى الموعد فانتظرها دقائق معدودات لاحت له كأنها آباد ، ولكنه فى الواقع كان لا يتمنى لها الفوات .

ثم أقبلت فى ثوبها العنابى وطرتها المشتهاة ! ونظرت إليه وهمت أن تنحرف إلى ناحية الصحراء . . . لم ؟ إنهما اتفقا على اللقاء لحظة فى مفترق الطريق يأخذ منها ويعطيها ولا حاجة بهما

إلى مراجعة. وكانت الطريق فى تلك الساعة خالية إلا من عابر بعيد أو عابرة بعيدة. ففيم انحرفت إلى ناحية الصحراء؟ ألمراجعة الأوراق؟ لو شاءت المراجعة هنالك لما أعانهما غبش المساء. إنه حكم العادة على ما يظهر. أما هو فكل ما ساوره فى تلك اللحظة خشية الانفراد والأمن من الأنظار، وخشية ما يزجيه الموقف المنفرد من كلمة أو عبرة أو نظرة وجيعة، وخشية الوهن والتردد والإرجاء! وخشية العودة من البداءة إلى التيه المفزع الذى أشرف فى تلك اللحظة على النهاية. وتلك جرعات لا يطيب للفم أن يترشف منها كل يوم

أخذ منها وأعطاها. وسلم ولم تجبه أو سلمت ولم يجبها، أو نسيا السلام والوداع معاً. لا يذكر، وافترقا فى طريقين متدابرين.

لو كان همام فى غير ذلك الموقف لتذكر وقال وتدبر: تذكر مفترق الطريق بالأمس وتذكر مفترق الطريق فى هذا المساء وقارن بين لقاء قلما يضن فيه بشيء ولقاء قلما يجاد فيه بسلام الوداع الأخير. ولكنه كان مغمور الفؤاد فى جو من الغم واليأس كجو الضباب الكثيف: لا تسترسل فيه العين إلى مدى بعيد ولا ترى ما حولها إلا فى غلاف من نسيج الأطياف، وكل ما يذكره بعد ما افترقا أن جسما غاب عن النظر ولم يشيعه وهو يغيب!

وسار فى وجهة المنزل وكأنه يريد أن يبتعد منه لا أن يدنو

إليه بخطاه ، وفى يده حقيبة صغيرة لا يدرى ماذا يصنع بها ، ويزعم أنه يود لو ألقاها فى عرض الصحراء لولا ما فيها من حديث يصونه عن الإفشاء . . . . يزعم ذلك ويفهم من حيث لا يشعر أن ساطياً لو سطا على الحقيبة فى تلك اللحظة ليمزقها ويحرقها لذاده عنها كما يذود الشحيح عن بقية ما لديه من حطام . ثم دخل المنزل وتهافت على أقرب كرسى فى أقرب حجرة ، فلو شهده شاهد يجهل ما كان فيه لخاله قادماً من مسيرة أيام لا مسيرة لحظات . . .

وكان فى المنزل عشير قديم يعلم أين ذهب ومن أين عاد . فلما طال سكوت همام وعزوفه قال له صاحبه يمازحه ويسليه : علامَ أنت آسف يا صاح ؟ ؟ هل تركت فيها من بقية وطر تشتهيها ؟ هل عندها من متعة لم تستوف شبعك منها ؟ فما بالك تأسى وتكتئب وقد أراحك الله من رفاتها بعد أن نعمت بروحها ولبابها ؟

عزاء حسن حين تكون المرأة التى تفقدها مائدة تفرغ منها وقد أتيت على آخر لقمة فيها . أما حين تكون جزءاً من الحياة لاتنفصل إلا فصلت معها شطراً من لحمها ودمها وظاهرها وباطنها فذلك أضعف العزاء ، بل هو نقيض العزاء .

إنما يعزيك الزميل الذى تحسه قريباً منك بشعور مثل

٩١

شعورك . . . ولقد يغنيك من عزائه إحساسك بقربه ساعتئذ وهو صامت واجم دون كلام ولا إيماء . أما الكلام الذى سمعه همام من صاحبه وهو فى جواره فقد تركه يصغى إليه وكأنه يتسمع ألفاظاً مغلقة من هاتف لا يراه !

من هى ؟

من هى سارة ؟ . . . من هى الفتاة التى مشينا معها هذا الشوط ولا نعرفها ، والتى رأينا منها خطوطاً ولم نر منها صورة ، والتى قرأنا عنها كلمات كثيرة ولكنها كلمات بينها كثير من الفواصل ، وحروف كثيرة ولكنها حروف يعوزها كثير من الإعجام ؟ . . .

هى شىء يعرف ولا يعرف . . أتتكلم بلسان الصوفية ؟ كلا . بل بلسان العرف المقرر والمشاهدات اليومية ، فإن سارة بنت من بنات الواقع الحى الملموس . . وبنات الواقع هن اللواتى نعرفهن جيداً ولا نعرفهن جيداً ، ولو كانت من بنات الخيال لما بقى منها شىء مجهول .

وليس بالنافع أن نصفها كما كان يراها همام فى أيام صفوه وهيامه ، أو نصفها كما كان يراها فى أيام نفوره واشمئزازه ، أو نصفها كما كان يراها وهو على القرب سائم ، أو كما كان يراها وهو على البعد مشوق ، ولكننا قد نصفها مزيجاً من هؤلاء فنخلص من وصفها إلى صورة تشبه « سارة » التى خلقها الله ، وتشبه سارة

التى يذكرها همام بعد زوال الغاشية وانقضاء السنوات .

هى جميلة : جميلة لا مراء ، ليست أجمل مَن رأى همام فى حياته ولا أجمل من رأى فى أيام فتنته وشغفه ، ولكنها جميلة جمالا لا يختلط بغيره فى ملامح النساء . فلو عمدت إلى ترتيب ألف امرأة هى منهن لنظمتهن واحدة بعد واحدة فى مراتب الجمال المألوف ، ونحيت سارة على الصف وحدها . . . وإن كنت لا تنكر — ولا تبالى أن تنكر — أنها تأتى بعد مئات .

لونها كلون الشهد المصفى ، يأخذ من محاسن الألوان البيضاء والسمراء والحمراء والصفراء فى مسحة واحدة . وعيناها نجلاوان ، وطفاوان ، تخفيان الأسرار ولا تخفيان النزعات : فيهما خطفة الصقر ودعة الحمامة . وفمها فم الطفل الرضيع لولا ثنايا تخجل العقد النضيد فى تناسق وانتظام ، ولها ذقن كطرف الكمثرى الصغيرة ، واستدارة وجه وبضاضة جسم لا تفترقان عن سمات الطفولة فى لمحة الناظر . وبين وجهها النضير وجسمها الغضير جيد كأنه الحلية الفنية سُبكت لتنسجم بينهما وفاقاً لتمام الحسن من كليهما . فليس هو جيداً كأى جيد . ولكنه الجيد الذى يوائم بين ذلك الوجه وذلك القوام .

يتخطاها من يراها على عجل ، ثم يعود مدركاً أنه قد تخطى شيئاً لا يفات ، فليست من الروعة بحيث تقسرك على

التحديق إليها ، وليست من سهولة المرأى بحيث ترسلك ناجياً فى سبيلك . . . قوام بين هذا وذاك ، أو طراز آخر غير هذا وذاك.

لو تكفّل بها خبير من معاهد التجميل الحديث لخفف شيئاً من قوامها الرداح بين الربعة والطويل ، قبل أن يبرزها فى معرض الرقص والرشاقة . ولو تكفل بها قهرمان القصر عند كسرى أو عبد الحميد لما ضاره أن يزيد فيها حيث ينقص زميله الحديث ، قبل أن يزفها إلى الشاهنشاه .

حزمة من أعصاب تسمى امرأة . وهيهات أن تسمى شيئاً غير امرأة !

استغرقتها الأنوثة فليس فيها إلا أنوثة . ولعلها أنثى ونصف أنثى ، لأنها أكثر من امرأة واحدة فى فضائل الجنس وعيوبه ، لا لأنها أضعف من امرأة واحدة .

ولقد يخيل إلى الإنسان فى أحايين أن يتمم مخلوقاً ببضعة من مخلوق ، وأن يسوى تكويناً بتكوين ، ويمزج عنصراً من الأبدان بعنصر ، فامرأة يتممها رجل ، وآدمى يتممه حيوان ، وطلعة فتاة يتممها قوام فتى ، وأبوّة أحرى أن تنتقل إلى أمومة ، وأشباه ذلك من أخيلة المزج والتركيب . أما هذه المخلوقات فلو انتقل عصب منها إلى تكوين ليث غضنفر لبقى هنالك عصب أنثى بين جميع ما حوله من ألواح وأمشاج ولو بقى ألف سنة ... ولو أنها تفرقت

بين أجسام شتى لكانت فيها خميرة أنوثة يوشك أن تطغى على جميع تلك الأجسام .

شغلتها جواذب الجسد قبل أن تفقه معناها وتسمع باسمها ومسماها . فلما كانت بُنيّة دارجة فى المدرسة ذهبت يوماً إلى كرسى الاعتراف تستغفر الكاهن عن مخالفة وصية من الوصايا العشر التى حفظتها ، وتتوب عن مقارفة الخطيئة التى دعوها فى المدرسة «متعة أو ترفا» على سبيل الكناية ! فذعر الكاهن ولم يصدق ما يسمع . واستعادها مرة بعد مرة وهى آخذة فى ذعر كذعر الكاهن من مس العدوى ورهبة الصوت . . . ماذا ؟ فيما دون العاشرة وبين جدران مدرسة ليس فيها إلا البنات تزل بنية لم يكعب ثدياها وتقترف أم الخطايا التى يقترفها النساء والرجال؟ . . وما سكنت بلابل الكاهن المذعور حتى بدا له من لهجتها أنها لا تفقه ما تقول ، وأنها تلهو بمحاكاة المعترفات لأنها أحبت أن تصنع مثل ما يصنعن ، وبحثت عما تعترف به فلم تجد غير هذه الخطيئة التى تجهلها . وقد نجت الخاطئة الصغيرة بعركة أذن وجيعة ، ثم ذهبت تسائل الزميلات ما هذا الذى ذعر منه الكاهن ذلك الذعر الشديد ؟ فلا تفوز بغير ضحكات وغمزات

قال لها همام وهى تحكى له حكايتها : لقد حسب لك اعترافك قبل أوانه . . . ولئن اعترفت بالأمس وما أخطأت

لأنت اليوم تخطئين وما تعترفين !

وعاشت بعد ذلك تنظر إلى خطايا الأديان نظرة المرأة الوثنية التى نشأت قبل أن ينشأ الأنبياء . فهى ليست كالمتدينة التى خامرها الشك فى دينها ، ولكنها كالمرأة التى لم تتدين قط ولا قبل لها بالتدين . . . عن نزعة طبيعية فيها لا عن بحث ونقاش واطلاع ، ومثلها كمثل الطفل يأكل الحلوى خلسة إن لم يأكلها جهرة ، وآباؤه مع ذلك هم الملومون لأنهم منعوه ، وليس هو بالملوم لأنه اختلس ما لا بدّ له من اختلاسه !

ليست غواية الجسم عندها كجوع الحيوان يشبعه العلف ، ولا كضجر المدمن يخدره العقار ، ولكنها كرعدة الحمى وصرعة الفرح الجموح ، يتبعها النشاط والمراح كما يتبعها الإعياء والبكاء .

لها فراسة نفاذة فى كل ما بين الجنسين من علاقة ، لو حصلتها بالتعليم والتلقين لاستغرقت أعماراً إلى جانب عمرها فى القراءة . ولكنها تفطن لما فى نفس المرأة لأنها إمراة ، وتفطن لما فى نفس الرجل لأنها امرأة ، ويعينها ذكاء موصول بالفطرة ، وتعبير يتضح فى ذهنها ، وإن لم يتضح بعض الأحايين على لسانها .

والحق أن هذه الفتاة كانت فى معرفتها بطبيعتها الأنثوية

أعجوبة ، وكان همام يسمع منها ما قل أن تفهمه امرأة وإن شعرت به ، وقل أن تقوله وإن فهمته ، وقل أن تحسن التعبير عنه وإن أرادت أن تقوله . إذ المعهود فى المرأة أنها تشعر ولا تفهم شعورها أو أنها تفهمه ولا تعمد إلى الصراحة فيه ، أو أنها تعمد إلى الصراحة فيه ولكن لا تحسن التعبير . أما هذه الفتاة فعلم الأنوثة عندها كعلم الحساب عند بعض الأطفال الذين يجمعون ويضربون عشرات الأرقام بغير تدوين ولا مراجعة : مسألة بداهة سهلة لا إجهاد فيها للفكر ولا اعتساف ولا تعليم !

فى سهرة من سهرات الصور المتحركة شاهدا رواية من روايات الغرام بين الكهول بطلها « أدولف منجو » الممثل المشهور بتمثيل هذه الأدوار ، أو المشهور بقدرته على غزو قلوب النساء الناضجات . وكان « منجو » بغيضاً إلى همام كما هو بغيض إلى كثير من النظارة فى دور الصور . فاراد همام أن يناوىء صاحبته فقال لها : أما والله إن النساء لسخيفات إن كان لمثل هذا الرجل هذه الحظوة عندهن ؟

فأجابته متحدية : ولم لا تكون له هذه الحظوة عند النساء ؟ ألا تعجب المرأة إلا بفتى صبوح أو بفتى متين الأركان ؟ هذا خطؤكم معشر الرجال . إن الفتيان الحسان

الأشداء قد يفتنون المرأة ، وقد يخلبونها ، وقد يهيجون نفسها ، ولكنهم لا يقربونها إليهم ولا إلى نفسها . . إن أحدهم لينظر إليها كأنه غريب يمشى فى بلد غريب يخشى أن يتقدم أو يتأخر ، متهيباً يعديها بالتهيب ، فتقوم بينهما الحواجز والسدود ولا يسهل التقريب بينهما بعد ذلك . أو ينظر إليها نظرة القانص الفاتك فيربكها ويزعزع شعورها ويوقع الهزيمة فى سريرتها .

أما الرجل الخبير بالنساء من أمثال « أدولف منجو » فإنه ينظر إليها بعد أن نظر إلى مئات من قبلها فإذا به يعرفها مكشوفة معراة من كل ستر ومن كل طلاء ، وإذا بها تحس كل الإحساس أنه يعرفها كما تعرف نفسها فى مخدعها ، وإذا هى قريبة منه لا تحتاج إلى تقريب ، بل قريبة منه بوحى لا تدركه ولا تلتفت إليه ، قريبة منه كما يكون الرجل والمرأة فى الخلوة بعد عشرة أعوام . والرجل الخبير بالنساء يشبع منهن فيزهد فيهن ولا يتهالك عليهن . . . فإذا أحست المرأة بالفتور منه فى الطلب والمغازلة خشيت أن تكون هى المعيبة المجفوة فى نظره بالقياس إلى من عرف من النساء ، ولم تتهمه فى ذوقه بل اتهمت نفسها فى جمالها ، و « جاذبيتها » كما هو دأب المرأة من سوء الظن بنفسها أمام هؤلاء الرجال ،

ونشأت عندها الرغبة فى اجتذابه واستطلاع رأيه ، واستسلمت له فى سهولة وطواعية ، لعلمها أن الحيلة معه لا تخفى عليه . بعد ما شهد الكثير من حيل النساء . . .

هل بحثت سارة هذا الموضوع بحث الفلاسفة ؟ هل قرأته فى كتاب من كتب الصور المتحركة ؟ يجوز ! ولكن فطنتها وحسن روايتها لما قرأت لا تزالان عجيبتين بين شبيهاتها من الفتيات .

وتمييزها لملامح الرجولة ومظاهرها تمييز لا يخطئ لأنه أشبه بالغريزة التى لم تعرف غير الصواب لأنها لم تعرف غير صواب واحد . كصواب النحلة فى بناء الخلايا . فالرجال الذين يشبهون النساء لا يستحقون منها حتى نظرة الزراية . . لأنها لا تشعر لهم بوجود ، وما عدا هؤلاء من رجال فهم نماذج عدة تبلغ المئات ولكنهم مشمولون جميعاً فى رجولة واحدة خلاصتها القوة والثقة والبروز ، والطغيان القابل للرحمة والحنان ، وقبس من أريحية الخيال ونفحة من حماسة الروح ، تحسبان فى الزينة عرضاً ولا تضمنان الرجحان فى الميزان .

ولهذا تضل الطريق الذى تسلكه مع من تهواه ولو سلكته مرات فى النهار ، لأنها تُلقى كل اعتمادها على صاحبها حتى لتكاد تنظر بعينيه وتمشى بقدميه . وأبغض من تبغض — وهى

قارئة حصيفة — أولئك النسوة الثائرات على الرجال المطالبات بما يسمينه حقوق الحرية ، فهى تقول إنها لو سئلت أن تكون رجلا ما قبلت ، وأنها لو كانت تثور لثارت على الرجال لأنهم يستمعون إلى ذلك الهراء .

ومن لوازمها التى لا تفارقها أنها ما حضرت قط روايةً فيها نزاع بين رجل وامرأة وعاشق وعاشقة ألا كان عطفها فى جانب الرجل وإن غدر وإن خان ، ويشق عليها منظر العاشق الموله المغموم فتهتف من قلبها لا من لسانها وحده : ما من امرأة تستحق هذا العذاب !

تحب التدليل كما تحبه كل بنت من بنات حواء ، ولكنها تكره التدليل السخى الفياض كما تكره التدليل المعسول الناصع الحلاوة ، وإنما تحب أن يقطّر لها التدليل تقطيراً وأن يشاب لها أبداً ببعض التوابل والأفاويه !

سألت صديقها وقد صفت واستسلمت لعطفه عليها : أتحزن علىّ إذا مت ؟

فلم يدر كيف يجيبها ، ولكنه قال : هذا سؤال سابق لأوانه يا بنية ! .

قالت : ستبكى ولا شك . لا أسألك فى ذلك . . . ولكن كم عبرة يا ترى تميزنى بها على من بكيتهم ؟

قال وهو لا يظهر المزح ولا يحاول أن يكلمه : أراجع ما عندى من « رصيد » العبرات وأجيبك قبل الوقت المناسب بقليل !

قالت : أنت لا تريح !

قال : ولكنى أراك مرتاحة . . . أأنت تموتين ! ومن الذى يأذن لك أن تموتى !

وكانت مرتاحة حقاً لما سمعت ، ولو أنه أسمعها غير ذلك من حسرات التفجع والتعوذ ومواعيد الحزن القاتل وعهود الوفاء الدائم لفترت وملت وانقلبت عليه ، ولكنه إذا ضمها وربت عليها وضن بعد ذلك بالكلام فقد وفاها من التدليل غاية مناها ، وضمن ألا تفسد عليه صفاء الساعة التى هى فيها .

وكان همام يمتحن معارفها الغرامية كل يوم أو كل أسبوع أو كل سهر مرة على أبعد تقدير ، ويرشحها على أثر كل امتحان لوظيفة من الوظائف التى « تؤهلها » لها تلك المعارف الكثيرة . . . إلا أنه استقر آخر الأمر على أنها أصلح ما تكون مديرة للأضاءة فى مسرح تمثيل ! لأنها تعلم مواقع الرؤية علماً لا خطأ فيه ، وربما وقفت فى المكان المكشوف والنوافذ مطلة عليه من جوانب شتى ، ثم لا تبالى أن تمازح صاحبها وتغرية بمزاحها وتجميشها . فإذا أحجم

وتردد ضحكت منه ساخرة ، وأولعت بتعييره والتهكم عليه ، لأنه لم يفهم لأول وهله كما فهمت هي أن الأشعة المردودة عن زجاج النوافذ هناك تحجب النظر من ورائها ! !

تعلمت وهامت بأوربا ، فأوربا عندها نبي معصوم : كل شيء فيها خير من كل شيء في غيرها . وهذه التي تغفل عن الأديان حتى يخيل إليك أنها لم تسمع قط بمكة وبيت المقدس وطور سيناء — هذه الوثنية في عالم الدين تراها في عالم الأزياء فتعلم لأول وهلة أنها لا تغفل لحظة واحدة عن وحي باريس ومناسك الأزياء في العالم الأوربي بأسره . . . لأنها تتحرج من وضع شريط في غير موضعه أو لبس زي في غير موعده ، تحرج الزاهد الصالح من ذنب ينفيه عن رحمة الله ويخلده في جحيم عذابه .

وكان صاحبها هماماً على نقيضها يهزأ بالعرف وقد يتعمد الخروج عليه ولو في المجامع العامة . لحق بها ليلة بدار الأوبرا وهو في ملابسه الصباحية فكادت حين رأته إلى جانبها تجن من الغيظ وتتجاهل معرفتها به ومصاحبتها إياه . وجعلت تنظر إليه نظرات فيها من الاستغراب والاستهوال والإكبار لهذه الجرأة أو لهذا التهور بمقدار ما فيها من الأسف والحنق والاستنكار ، ومالت إليه تقول : ماذا يظن هؤلاء الناس ؟ إنهم لن يقولوا إلا أن هذه الفتاة مسكينة مع هذا الرجل !

قال متظاهراً بالاعتذار وقد علم أن المعابثة أنفع أساليب الاعتذار معها فى هذه الحالة : لا عليك أيتها الفتاة المسكينة . فى المرة التالية سأحمل فى يدى كسوه السهرة لأدفع عنك هذه المسبة . . . إلا أنهما — حين خرجا من الدار — غلب عليها حب التحدى على الرغم من رغبتها فى التستر والمداراة ، فخرجت وهى آخذة بذراعه كأنما تغيظه هو أو تغيظ المتفرجين !

وتقرأ أوربا كما تعبد أزياءها ولكن ماذا تقرأ ؟ إن شئت فلا مانع من بيرون وشوبنهور ، على شريطة أن يوصيها بقراءتهما رجل يفهمها وتفهمه ، وأن تقرأ فى ديوان بيرون قصة دون . جوان ، وأن تقرأ فى القصة أنباء خلاعته وعيثه بين مخادع الجوارى الحسان فى قصر السلطان . أما شوبنهور فيجب أن يكون كله على وتيرة مقاله فى الحب والشهوة بين الذكر والأنثى ، وليتشاءم بعد ذلك ما استطاع !

عاطفتها حية غير أنها مشغولة بشاغل واحد ، فلا تهمها الشفقة على المظلومين والمنكوبين ولا تهمها المظالم والنكبات ، لا لأنها قاسية ولا لأنها مغلقة جاسية ، ولكن لأن مكان الشفقة مشغول مستغرق ، فلو خلا جانب منه برهة لما استعصى على الشفقة أن تنفذ إليه أو تطغى عليه ؛ وكأنها الطيارة المحلقة ، وكأن نزواتها هى الدافعة لها فى الفضاء . فإذا دفعتها

فهى ناهيك من حركة وصعود وهبوط ! وإن وقفت لحظة فهى حجر ملقى على التراب ، ولسان حالها فى العواطف الإنسانية أن تقول لرجلها : أشفق أنت وتمرد على الظالم وأعن بما تشاء ، وأنا وراءك إلى حيث تقودك قدماك .

وهى وثنية فى مقاييس الأخلاق كما هى وثنية فى التدين ، لا تؤمن بالعصمة الإنسانية فى أحد ولا فى صفة ، وشديدة الإيمان بضعف الإنسان مع أضعف المغريات . . . استطرد الحديث يوماً إلى جان دارك فقالت هازئة : كم رجلا يا ترى عرف أنها عذراء ؟ ! فقال لها همام : إنها عذراء بشهادة الطب وشهادة الخواتين الموقرات .

فقالت : لقد شهد لها أضعاف هؤلاء بالمعجزات ، فهل تصدق معجزاتها ؟

وكان من دأبها أن تحب الغلبة فى المناقشة على طريقة كل أنثى مع تنوع الأسلوب والعبارة ، فإذا عز عليها الجواب راغت منه وغيرت مجرى الحديث ، أو تقول حيناً : أسكتنى وما أقنعتنى ! وحيناً آخر : ناقشنى يا أخى ناقشنى . ولكن بحق السماء والأرض عليك لا تكتفنى . . . دع لى يا أخى حرية الكلام ! ! . . . فهى تريد جواباً يروقها أو يترك لها باب الكلام مفتوحاً بغير انتهاء !

فلما سألته : هل تصدق معجزاتها ؟ قال: نعم . . . أصدق أنها صنعت المعجزات ، وجاءت بخوارق العادات ، ولكنها معجزات إنسانية لها أسباب إنسانية ، وإن تضاربت فيها أقوال المفسرين من المؤمنين وغير المؤمنين . ثم قال : والفرق بعيد مع هذا بين شاهد يقص ما تراه العين وشاهد يقص ما يخيله له الإيمان . . . فشاهد العين مصدق . وشاهد الإيمان لا يلزمنا تصديقه إلا إذا جاريناه فى إيمانه .

قالت : هذا قميص الكتاف يا أخى ! هذا قميص الكتاف ! .

ومن الصعب أن تفهم ما يرضيها إذا اتهمت أمامك أخلاق الناس جميعاً وراحت تقدح فى دعاوى الصداقة والوفاء والفداء . فليس يرضيها أن تكون على رأيها لأنها تحب الرجل أريحياً ذانخوة وحماسة وطموح إلى عظائم الآمال والرغائب ، وتصديق بالوفاء والفداء . وليس يرضيها أن تناقضها وتضطرها إلى التسليم ، لأن الإكراه مكروه على كل حال . ولكنها إذا كانت تجاري طبيعة المرأة فى حب الجدل والثرثرة والعناد فهى تجارى طبيعة المرأة أيضاً فى إعجابها بطموح الرجل وصلابته وأحلامه ، وربما استراحت إلى الشعور بقوة عقله كما تستريح إلى الشعور بكل بأس فيه ، فما كان يدري همام

هل يناقضها أو يجاريها فيما تقول . وتلك حيرة يعالجها من عالج النساء .

قصت عليه مرة قصة صديق لزوجها أرسله إليها « وسطاء الخير » ليسفر فى الصلح بينها وبنيه ! قالت : فهل تدرى ما صنع ؟ إنه جاء يغازلنى وينفخ فى جمرة الغضب بينى وبين زوجى !

ثم قالت : ما أكذب الصداقة فى هذه الدنيا !

قال همام وقد أراد أن يعابثها ويسليها ! إن صاحبنا لمعذور . وإن الإغراء بالخيانة لعظيم . . فليت جميع الأصدقاء لايخونون إلا بإغراء كهذا الإغراء .

ثم ضحك ، وضحكت ، وتماجنت فى الضحك وراحت تقول له : أراك ضننت علىّ بقميص الكتاف اليوم ؟ لا . لا . إننى أريد اليوم قميص الكتاف . . . قل . قل أليست كل صداقة فى الدنيا لغرض ؟ هل يصادق الناس أحداً إلا لمال أو جمال أو سلطان أو نحو ذلك من الذرائع واللبانات ؟

قال همام : ومن لم يكن له مال ولا جمال ولا سلطان ولا مزية من المزايا فهل هو إنسان يستحق صداقة إنسان ؟

فوثبت وصفقت كما يصفق الطفل الأرعن قد ظفر بالأمنية الممنوعة ، وجعلت تقول : ها هو ذا قميص الكتاف .

ها أنت ذا أخيراً يا بني ، وأقبلت عليه تقبله وتناوشه ، وتبذل له ذخيرة من السرور ، كأنها فاكهة مترعة برحيقها ليس لها قشر ولا بذور .

وهي على ولعها بحديث الأكاذيب الشائعة في أخلاق الناس وعودتها إليه آونة بعد آونة لم تنع على الناس أكاذيبهم قط بمرارة الناقم واستخفاف المتشائم ، وإنما تتحدث بها كما تتحدث بصحفة من الطعام الشهي لم يتقنها الطاهي . . ولا حرج أن تمضي في حديث انتقادها بعد ازدرادها . فهي لهذا يصح أن تسمى « وثنية » في تقويم مقاييس الأخلاق ، ولا يصح أن تسمى متشائمة أو ناقمة على الناس .

أما مذهبها في « الكرامة » فمذهب خليق أن يخيف من يحب لها الكرامة ، ويود أن يأوي من كرامتها إلى حصن منيع على الطرّاق . وأحسن ما توصف به الكرامة على مذهبها أنها « كسوة اجتماعية » لا يخلعها المرء في المجالس ولا يلبسها ممزقة أو مرقعة أو موصومة . فعيوب الكرامة وعيوب الكساء سواء في هذا القياس !

إذا قيل أمامها إن فلانة أباحت نفسها لخادمها قالت — وهي تزعم المناقشة حبا للمناقشة — إن المرأة قد تهفو هذه الهفوه وهي لا تنظر إلى مثل الرجل إلا كما تنظر إلى حذاء . وليس كل

رجل يصل إلى فراش المرأة يسودها . بل هو قد يكون خادمها في ذلك الفراش . وإذا قيل لها إن فلانا ضرب حبيبته قالت : وهل ضربها إلا لأنه يحبها ؟ إن المرء ليضرب نفسه فى الحائط إذا بلغ به الغيظ ذلك المبلغ ، لو كان ضرب النفس يشفى غلة المغيظ !

وإذا قيل لها إن امرأة فى التاريخ أو فى قيد الحياة تهالكت على اللذات قالت : إن المرأة لا تتهالك على اللذات إلا أن تفقد الرجل الذى يفوق اللذة فى روعها . فتحب الرجل لأجل اللذة بدلا من أن تحب اللذة لأجل الرجل الذى تهواه وتستكين إليه !

وما نفرت قط من مذمة خبيثة عن مبدأ وعقيدة ، وإنما تنفر من جميع الأشياء التى تأباها كما ينفر المرء من طعام يعافه : فهى مسألة ذوق ورغبة ، وليست مسألة شرف واعتقاد ! .

ومثل هذه الكرامة لن تعصم صاحبها أن يقارف أخبث المنكرات ، كلما حلت له وغفلت عنه عين الرقيب .

ويحار طبيب الأخلاق كما يحار طبيب الأبدان فى إيواء هذا المزاج إلى مأواه من الصحة والداء . أفمن كانت كذلك فى نزعاتها وخلجاتها أتكون فى رأى الطب امرأة سليمة مستقيمة

على سواء الطبيعة ؟ إن الإغراق يستلزم الزيغ والاختلال فى التركيب . . ولكن أى اختلال عسى أن يكون فى تركيب الجسم الذى يندمل جرحه بعد يوم ، ويقضى النهار والليل فى صبارة الشتاء بلباس الصيف ولا يدرى ما الزكام ؟ كل اختلال يجاور هذه المناعة هو اختلال عجيب الجوار عميق القرار .

أكبر الظنّ أن الفتاة على ما بها من جموح وشطط كانت وشيكة أن تستقيم وتتزن لو رزقت زوجاً يوائم شوقها إلى الرجولة ويغلق عليها منافذ الغواية . ولكنها خابت فى الزواج فشقيت ، ولجت بها الشقاوة حين كفرت بصداقة الصديقات ومؤاساة الشفيقات ، فعاشت فى عالم قد أقفر من جنس حواء إلا أن تكون منافسة مريبة أو عاذلة رقيبة ، ولم يبق فيه إلا رجال !

وجوه

ذو الوجهين منافق ، وذو الوجه الواحد ميت !

يعيب الإنسان أن يصنع له نفساً غير نفسه ووجهاً غير وجهه ، وأن يبدو للناس بوجهين يلعن أحدهما الآخر ، ويعلم هو أنهما — كليهما — ملعونان . ولا يعيبه أن يكون له مائة وجه ينم كل منها على سمة من سماته ومعنى من معانيه ، ويعرض لنا من ذهنه وسليقته وقلبه فى ساعة ما ليس يعرضه فى ساعة أخرى . لأن كل وجه من هذه الوجوه حق وليس بكذب ، وجوهر وليس بطلاء ، وصفحة من كتاب لا تتم قراءته إلا باستعراض جميع الصفحات .

ذو الوجهين فى كل وجه من وجهيه كذب وطلاء . وذو الوجوه المنوّعة السمات ، المعدّدة الملامح ، المفرقة المعانى راوية صادق الخبر ، يرينا كل يوم بينة جديدة على صدقه ، ولوناً جديداً من تمامه ونقصه ، ونفساً جديدة فى تعبير جديد . والرجل الذى لا تختلف له صورة من صورة ولا تمثال من تمثال هو جماد يختلس عنوان الحياة . والوجه الذى يصوره مائة

مصور فيخرجون جميعاً بطابع واحد لا يتبدل هو جدار فى هيئة إنسان ، ولكنه جدار لا تختلف عليه الظلال والألوان.

وليس منا إلا من يعرف صاحباً يحاول أن يخفى بعض مثالبه أو بعض سيئاته ثم يلتقط المصور التقاطة فإذا هو حاسر الطبيعة بغير نقاب ، على كِره منه وعلى كره من المصور . ولعله هو نفسه يرى الصورة فلا يفطن لما كشفت من أمره ، لأنه يفهم إفشاء الكلام ولا يفهم إفشاء السمات والقسمات .

وليس من اللازم اللازب أن يطول الزمن بين الصورتين المختلفتين للوجه الواحد ، فإنى لأذكر أنى رأيت صوراً ثلاثاً لطفل واحد فى السنة الأولى من عمره أخذت فى ساعة واحدة فى مكان واحد تذكاراً ليوم ميلاده : ترى إحداها فلا تملك أن تقول : ما أشبه هذا الطفل بأبيه ، وترى الثانية فلا تملك أن تقول : ما أشبه هذا الطفل بأمه ، وترى الثالثة فتستطيع أن تقول إنه ليشبه أمه كما تستطيع أن تقول إنه ليشبه أباه . ويصدق هذا على كبار السن كما يصدق على صغارها . فلا يندر أن يلتفت الإنسان التفاتة خاطفة على غير قصد منه أمام المرآة فيلوح له شبهٌ من عمومته أو شبه من خؤولته لم يكن قبل ذلك يلمحه فى صفحة وجهه ، وقد تنصرم السنون ولا يلمحه مرة أخرى إلا فى مثل تلك اللفتة الخاطفة.

وأعرف أباً مشهوراً له خمسة من الأبناء الذكور يجلس كل منهم إلى جانبه فلا تخفى المشابهة بينهما أقل خفاء ، ولا يحتاج الناظر إلى فراسة ثاقبة ليعلم من فوره أنهما ابن وأبوه . ثم يجتمع الإخوة الخمسة فلا يبدو بينهم هذا التشابه إلا بفراسة المتأمل ، لتقارب الأصل وفروعه وتباعد الفروع متفرقات .

ومما لا ريب فيه أن سمات الأخلاق والأفهام شيء يستكن فى النفس قبل أن يبدو على أسارير الوجوه ، وإنها لشيء لا يزول من النفس وإن زال أثره الظاهر فى بعض الأحيان . وإنه على قدر معانى النفس يكون تعدد الملامح وتعدد الوجوه ، وعلى قدر تعدد الوجوه يكون الأنس بالمنظر المتجدد والمحضر المتعدد ، ويقل السأم ويعظم الشوق والنشاط إلى اللقاء .

وسارة كانت من ذوات الملامح والوجوه اللواتى لا يطالعنك بمنظر واحد فى محضرين متواليين : تراها مرة فأنت مع طفلة لاهية تفتح عينيها البريئتين فى دهشة الطفولة وسذاجة الفطرة بغير كلفة ولا رياء ، وتراها بعد حين — وقد تراها فى يومها — فأنت مع عجوز ماكرة أفنت حياتها فى مراس كيد النساء ودهاء الرجال . وتضحك ضحكة فتعرض لك وجهاً لا يصلح لغير الشهوات ، وضحكة أخرى — وقد تكون على أثر الأولى —

فذاك عقل يضحك ولب يسخر ، كما تسخر عقول الفلاسفة وألباب الشيوخ المحنكين .

هى تارة أم رؤم تفيض بحنان الأمهات حتى ليوشك أن تسع به أطفال العالمين ، وحسبك أن ترسمها هكذا ولا تضع فى أحضانها طفلا يرضع ولا إلى جانبها طفلا يدرج ، لتستحق الصورة عنوان الأمومة . وهى تارة أخرى شريدة بوهيمية لم تستقر قط فى دار ولا وطن وما استقرت قط مع عشيق .

لها صورة إلى جانب سرير لو نحيت عنها السرير جانباً لمثلت لك راهبة خاشعة تهم بالصلاة ، أو ضحية من ضحايا الآلهة تساق إلى محراب القربان . ولها صورة على سفح الهرم لو أخفيت منها الهرم لخلتها حورية مخمورة فى أرض يونان القديمة ، تهم بالرقص فى كروم باخوس .

وكان همام يراقب هذه الشخوص ويتصفح هذه الوجوه وهو مغتبط تارة ومشفق تارة أخرى ، ويعزو تقلبها واطرادها إلى الفتوة الحية التى تُحبس فى محابس الأفكار والعادات والتقاليد ، فهى أبداً فى أيدى العواطف والنوازع كعجينة الخلق المهيأة للصوغ والتركيب فى كل ساعة .

وخطر له أن ينشىء حولها رواية مسرحية هى جميع أبطالها وهى البطل الوحيد فيها ، تدور محاوراتها على المثال الآتى :

سارة : إنى لا أرضى أن أصاحبك فى الطريق وأنت فى هذه الثياب الفاضحة .

سارة : وهل تحسبين أننى أسر بمصاحبتك وأنت بهذه السحنة العابسة وهذه المسوح المحزنة وهذا الزى الذى يشبه زى الحداد .

سارة : على رسلكما أيتها الصديقتان . لا تتخاصما ولا تشرعا فى تمزيق ما عليكما من ثياب . إنها تستركما على كل حال ، وأنتما ضيفتاى غداً . . . تحضران إلى وليمتى وقد شحذت كل منكما أظافرها لصاحبتها ؟ لا عليكما من المصاحبة فى الطريق... احضرا من طريقين مختلفين . ! ولتكن كل منكما فى الثياب التى تروقها ، فأنتما تعلمان أننى أحبكما ، ولا أنكر منك ياسارة شفوف الخلاعة ، ولا منك ياسارة مسوح الرهبانية !

سارة : وهل عندك وليمة غداً ؟ من دعوت إليها غيرنا من السيدات ؟

سارة : دعوت سارة و . . .

سارة : سارة ! أخشى أن تكون تلك الفتاة التى لاتتحدث أبداً إلا عن زينتها وجواهرها وحلاقها ووواشطها .

سارة : لا بل هى سارة التى لا تتحدث أبداً إلا عن وليدها .

سارة : ها أنذا قد حضرت فى غير الموعد الملائم على ما يظهر . . . وآسف لأنى قطعت عليكن لذة الاغتياب . فالغيبة لذيذة . ولا سيما غيبة الصديقات .

سارة : لم نقل عنك شيئاً . وإنما أردنا تعريفك فقلنا إنها هى سارة التى تحب وليدها العزيز ولا تفتأ تتحدث عنه .

سارة : وأى عجب فى ذلك . ألا تحب الأم وليدها وهل للمرأة فخر أشرف وأشهى من الأمومة ؟

سارة : أخطأت ياصديقتى . إن فخر المرأة جمالها .

سارة : بل فخر المرأة ذكاؤها .

سارة : بل فخر المرأة من تحبه ويحبها . . . ويحى ويحى ! . . . لقد كانت المشاجرة بين اثنتين فما زلنا حتى جعلناها بين أربع .

سارة : وإن شئتن فلتكن بين خمس ... علام تختلفن ؟ ألا تسمحن لى بنصيب فى هذا الخلاف ؟

سارة : أهلا بك يا سارة . . . ! أخشى ألا تكون لك فرصة باقية لخلاف . . . لقد استنفدنا جميع الفرص بين قائلة إن فخر المرأة أمومتها ، وقائلة إن فخر المرأة جمالها ، وقائلة بل فخرها ذكاؤها ، وقائلة لا هذا ولا ذاك . بل فخرها حبها وغرامها ... فماذا أنت قائلة بعد ما قيل ؟ لقد ضيعت الفرصة يا مسكينة !

سارة : كلا ياصاحبتى ، لا تتعجلى بالرثاء الحالى . فقد نسيتن فخراً للمرأة لا ينقطع عن الأمومة والذكاء ولا الجمال ولا الغرام . ولا أدرى كيف نسيتنه هذا النسيان ؟ فخر المرأة عذابها يا أخوات ! .

سارة : صدقت يا صديقة !

سارة : ماذا تقولين ؟ صدّقت ؟ يا للعار . هذا كلام العجائز ، هذا حديث خرافة . هذا مذهب عتيق أقدم من حواء والحية . إنما خلقنا للسرور نأخذه ونعطيه . فمن نذر المرأة للعذاب لا أصاب فى الدنيا غير العذاب :

سارة : ليسقط التمرد !

سارة : ليحى التمرد .

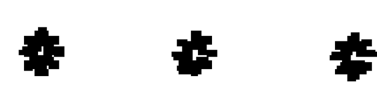
* * *

ثم يتقاربن ويتلاحمن ويتسربن كلهن فى شخص واحد ، يبقى على المسرح فى ثياب الشرطة ، ويصيح : أين المشاجرة وأين المتشاجرات . . .

* * *

وقد تلا همام على سارة هذا الفصيل الصغير فاستملحت الفكرة وصفقت لها طريلا .

قال همام : كفاية. لقد ظفرنا بتصفيق الممثلة الوحيدة للرواية .



ولم تكن هى فى بادىء الأمر تفطن لهذا الذى يلاحظه همام من غرائب شخصها وطرائف ملامحها : إنما كانت تعرف كيف تبدي بضاضتها فى الثياب البيضاء ، وكيف تخيل لك النحافة فى الثياب الدكناء أو السوداء ؛ وكيف تصفف طرتها بما يُظهر من وجهها سمات الطفولة . وكيف تصففها بما يكشف منها جانب الذكاء ويَزين القسمات بأشراف جبينها الوضاء ، وتلك صناعة تحذقها كل امرأة تلتفت إلى محاسنها وتسمع رأى الرجال والنساء فيما يعجبهم من مراها . لكنها لم تكن تلتفت إلى ما وراء ذلك من تقلب المعانى وتعدد الشخوص .

فإنهما لفى يوم رائق صاف جميل الأصيل وهمام يتأمل وجهها الذى تبدل الأشعة والظلال من معانيه كل لحظة ، وتبدل العواطف والخلجات من ملامحه كل فترة ، إذا به يهتف فجأة بكلمات لا مقدمة لها ولا سابقة لتفسيرها : كم لك من وجوه يا سارة . !

فانتفضت فى ذراعه ، وحسبت أنها مقدمة لاتهام وملاحاة ، وهما يستمرآن نعيم ذلك اليوم الرائق الصافى الجميل ، وقالت : ماذا تعنى ؟ .

قال : هدّئى من روعك . إنما ثناءً أردت لا ملامة ،

وأخذ يشرح لها ما يعنيه كأنه يحدثها عن امرأة غائبة أو عن شخص من شخوص الروايات ، وهى تصغى إليه مسبوتة ، ثم مستريحة ، ثم مبتسمة ثم طروباً متهللة ، وهو يرى مصداق ما يلاحظه عليها ويحدثها عنه ، حتى كان ختام الحديث اقتراب الشفاه بداهة وطواعية . . ثم نكتة من نكاتها التى لا تخذلها فى أمثال هذه المواقف . . . ألقتها إليه وهى تتناءى عنه مرحة ضاحكة : أحمد ربك . عندك من سارة المظلومة حريم كامل ، فلا تشكر نفسك كثيراً على الوفاء !

كيف عرفها ؟

ترتيب الحوادث أن تنتهى ثم نكر راجعين للسؤال عن بدئها . وسبيل التواريخ أن تنطوى السير وتنصرم الدول ثم تنقضى مناشئها وأسباب ظهورها . فنحن لا نحيد عن مجرى الزمان حين نعرف الساعة كيف تلاقت سارة وهمام ، بعد أن عرفنا منذ برهة كيف كانت القطيعة وكيف كان اللقاء الأخير .

لم يقصد همام أن يلتقى بسارة ولم تقصد سارة أن تلتقى بهمام . . . وإنما جاء اللقاء كما تجىء معظم الحوادث الكبرى فى معظم التواريخ والسير : من زواج وفراق ورحلة واختيار مساع واقتحام غيوب ، مصادفةً لا يسبقها عمد ، وعرضاً لا يمهد له بتفكير .

خرج همام يتمشى فى الخلاء ضحوة من ضحوات الخريف التى تبتهج فيها الشمس فى هدوء ، ويرقص فيها الهواء فى حنين ، ويرق فيها الجو فى تشوف وارتقاب ، وتطرح فيها النفس أعباءها كما تطرح القافلة أحمالها عند مشارفة الواحة

المبشرة بالماء الغزير والظل الظليل ، ريثما تنهض بالعبء من جديد .

ماذا عسى أن يكون العبء المنظور ؟

لا تقول الشمس ، ولا يجيب الهواء ، ولا يشف عنه الجو. ولا تحفل النفس ما يكون ، حتى يكون . . . إن كان !

ويعود همام من رحلته وقد علق جميع همومه وأجل جميع نياته ، وأصبح جزءاً من الشمس والهواء والجو ، ولم يعد جزءاً من عالم الإنسان . وألفى نفسه وهو عائد إلى منزله على مقربة من مسكن صاحبه الأستاذ زاهر ، وهو رجل ظريف طيب النحيزة من أولئك الذين يَرضون فيسلون ويُطربون ، و يسخطون فيكونون أدنى إلى التسلية والطرب ، لطرافة ما يرتجله فى هذه الحالة من مفارقات اللذع والتنديد .

وكان يومئذ يسكن فى بيت من بيوت الحجرات المفروشة تديره خائطة فرنسية ليكن اسمها « ماريانا » . . . . فدلف همام إلى المنزل يزور صاحبه ويقضى معه فترة يقفزان فيها بين معارض الحديث التى لا وصلة بينها ، ويضحكان ضحكاً كثيراً ، إن لم تكن فيه فكاهة عالية ففيه ولا شك تمرين نافع للرئتين .

ووجد « ماريانا » فى فناء الدار تطعم الديكة الرومية التى

عندها صحفة من « المكرونة » البائتة ، وعندها فتاة مليحة يصعب تقدير سنها ، لأنها تصلح للعشرين كما تصلح للخامسة والعشرين ، وتسمى آنسة كما تسمى سيدة ، وهى مشغولة بكساء تقلبه وتمعن النظر فيه .

قال همام : أسعد الله الصباح . أين زاهر يا مدام ؟

فردت تحيته بمثلها ، وقالت : أو لا نراك إلا زائراً لزاهر ؟؟ إنه خرج منذ هنيهة على أن يعود بعد قليل .

والتفت همام إلى صحفة المكرونة قائلا : أرى أن الديكة اليوم إيطالية وليست رومية !

فلم تجب ماريانا بغير ابتسامة عريضة ، وإنما أجابت الفتاة قائلة : إن كان الجنس بالطعام فالديكة هنا عالمية لا تدين بجنس من الأجناس : مصرية إن أكلت الفول المدمس، وإنجليزية إن أكلت البطاطس، وهندية إن صبرت على الصيام الطويل .

فنظرت إليها « ماريانا » نظرة العتب المصطنع ، واستظرف همام جوابها واستغرب مشاركتها فى الحديث فى وقت واحد ، ورحب مع ذلك بهذه المشاركة التى أحس لتوها أنها وافقت هواه ، وأنه كان يسوق الحديث إليها إن أبطأ المساق .

قال همام : إن الآنسة تعرف كل شىء عن ديكة البيت

وتذبذبها فى الوطنية ، ولكنى لا أذكر أننى رأيتك هنا يا آنسة قبل الآن .

ماذا يقول ؟ أيقول لا أذكر أننى رأيتك ؟ أكان من الجائز إذن أن يراها ويهملها وينسى أنه رآها ؟

أحس همام أيضاً أن الكلمة لم توافق هواها ، وسمعها تجيب بشيء من الامتعاض المكتوم كأنها تخاطب نفسها :

ولماذا تدعونى يا آنسة ؟ أتستصغرنى ؟ إننى ربة بيت ، وأم !

* * *

يا للمرأة ! أتريد أن يفهم أنها غضبت لأنه دعاها ياآنسة؟ لا والله ! لقد كان بريق الرضى بهذه التسمية يومض فى عينيها . . . إنما عز عليها أنه جعلها شيئاً مهملا يجوز أن يراه مرة أو مرات ثم ينساه ، فأسفرت عن الغضب وسترت السبب ، وتوارت وراء حجاب المجاملات والألقاب ، فأحب أن يغيظها قليلا وعاد يقول : ولكن السيدات يا آنسة . . يلبسن فى أصابعهن علامة تسمى خاتم الزواج . فأين هذه العلامة ؟

قالت : ذلك شرح يطول .

قال : عسى أن أسمعه فى وقت قريب .

ثم اقتضب الحديث والتفت إلى شيخ متهدم يعبر الفناء ،

فسأل الحائطة : أهذا ضيف جديد عندك يا مدام ؟

فزمّت شفتيها لا يدرى أهى مشمئزة من الرجل أم راثية لحاله ، وقالت : ضيف ولكن لا أظنه طويل المقام . ألا تراه يتعثر بقدميه ؟

وفى أقل من دقائق لا تتجاوز الخمس عرف همام والفتاة كل ما تعرفه « ماريانا » عن الرجل وعاداته وأطواره ، وثروته التى تربى على الألوف ، ولا وارث له ولا قريب ولا قريبة تلوذ به فى شيخوخته الكئيبة .

قال همام : وما حاجته إلى البحث عن وارث ؟ إن الورثة يبحثون عنه ولا يقصرون « عند اللزوم » .

قالت : ألا يحتاج إلى من يعوله ويواسيه ويحف به وهو يودع دنياه ؟ .

قال همام : إن كنت يا ماريانا حريصة على خروجه من حجراتك فانصحى له بكتابة إعلان فى الصحف السيارة ، يقول فيه إنه يملك كذا من الألوف ويحتاج إلى كذا من الإخوان وأولاد الأعمام وأولاد الأخوال ، وانظرى كيف يضيق بيتك عن الطالبين والطالبات ممن « آنسوا فى نفوسهم الوفاء بالشروط » .

فنسيت الفتاة غضبتها الصغيرة واندفعت ضاحكة ، وما

زالت حتى أجبرت هماماً — وهو فى غنى عن الإجبار — أن يحول الحديث إليها قائلا : وأنت يا سيدة . نعم أنت يا سيدة فى هذه المرة : لأية قرابة ترشحين نفسك إذا أعلن الرجل إعلانه ؟

فهزت رأسها تفكر . ثم قالت : أوفرها نصيباً فى الميراث ؟

قال : لا تكونين إذن إلا زوجة ؟

قالت ما معناه : فأل الله ولا فألك . أى غرام غرامك هذا بذكر الزواج والزوجات والأزواج ؟ . . ثم رفعت رأسها متأففة كأنها تطوى حديثاً لا تحب أن يجرى لها على لسان ، وهى فى الواقع تود لو أفرغت كل ما فى جعبتها من ذلك الحديث ، أول ما تسعف المناسبة وتبدر بادرة من إغراء .

قال همام : لاتؤاخذينى أن ذكرت الزواج مرة أو مرتين ، فإنى لم أتزوج قط ولا خبرة لى بهذا الجانب من مزعجات الدنيا . . .

قالت : أصحيح ؟ . . لقد أراحك الله . فبأى جانب من مزعجات الدنيا أنت خبير ؟

فأسرع همام قائلا : لذلك شرح يطول !

قالت : يا لك من منتقم . . . على أنك تستطيع أن تطمئن كل الاطمئنان ، فإنى لا أكلفك عناء هذا الشرح

ولا أستطلع دخائل شأنك . . . لست فضولية بحمد الله .

قال : وإذا كنت أنا فضولياً ؟

قالت : إذاً يختلف الأمر .

قال : كيف يختلف ؟

قالت : يلوح لى أنك كما وصفت نفسك : أنت فضولى ولا فخر .

قال : ليس مع كل الناس .

قالت : تحيات وغزل . . ! وعما قريب : عيناك وجنتاك وأهواك ولا أنساك ، إلى آخر هذا الموال المحفوظ .

قال : ولماذا عما قريب ! . . الآن !

قالت : أنت عجول ، وأنت جرىء أيضاً .

قال : إن وعدتنى أن أجنى للصبر ثمرة . فأنا أصبر من أيوب ، قوليها كلمة واحدة وأنا لا أتعجلك شيئاً ، وأنصرف الآن ! .

قالت : وصاحبك الذى تسأل عنه ؟

قال : ها . . . يلوح لى أنى أعجبتك ! وأنك تستبقيننى !

قالت : لولا أنك تمزح لقلت إنك مغرور غروركم كلكم معشر الرجال . لا تتكلم الواحدة كلمتين مع واحد منكم حتى يحسبها مجنونة بهواه .

قال : أو يحسب أنه مجنون بهواها !

قالت : طيب والله ... ! لقد قطعنا شوطاً بعيداً جداً فى نصف ساعة . . . ولا أدرى ما خطب « ماريانا » سامحها الله ؟ أين ذهبت وتركتنا ؟ ألعلك على اتفاق معها أن تهيىء هذا اللقاء ؟ . . ما فى ذلك من عجب ، فهكذا تصنع الخائطات فيما يقال .

وسمعت « ماريانا » اسمها فعادت تهرول وتتساءل : ماذا تقولين عنى يا ساره ؟

قال همام : إنها تتهمك بأنك تدبرين عن عمد خلوةً غرامية بين هذه الديكة وهذه الدجاج .

قالت ماريانا : أنا أعلم على الأقل أن الدجاج لا تحتاج إلى من يدبر لها الخلوة مع الديكة .

قالت الفتاة : قاتلك الله يا عجوز السوء . لماذا تنصلين من التهمة ؟ أما كان الأولى أن تتمهلى لحظةً لعلى كنت أنوى أن أشكرك على ما صنعت ؟

فطاش الفرح بهمام ، وأوشك قلبه أن يفلت من نياطه ، وانتشى نشوة خمسين كأساً فى رشفة واحدة ، وقال وهو يهجم على « ماريانا » : بل دعى لى أنا أن أشكرها . إننى أقبل وجنتيها . . . إننى ألثم فاها . . . وصنع ما يقوله قبل أن

تفيق « ماريانا » من دهشتها وقهقهتها . ومال إلى الفتاة قبل أن تدري ما هو صانع قائلا : وأقبلك أنت أيضاً إكراماً . . . لماريانا . وقبلها .

ثم جلس مأخوذاً بما حدث يتوقع ماذا تكون الكلمة الأولى التي تلفظها الفتاة : أتشتم ؟ أتصطنع الغضب ؟ أتنطلق من المنزل ؟ .

وكأنما كان التوقع هو شغله الشاغل فى حينها دون ما يتبعه من ثورة أو مسامحة ، فاستطال الأمد وما انقضت غير ثوان فى توقع ما يكون . وزاده فرحاً على فرح أن شيئاً مما توقعه لم يحدث . . . وأن كل ما حدث أن الفتاة بهتت وراحت تقول شيئاً لا بدّ أن يقال ، فقالت فى صوت خافت : لقد آذانى شاربك الطويل .

وتم التعارف بالأسماء .

واسترسل الحديث أصداءً لا يقصدها القائل ولا يصغى إليها السامع ، لحظة يسيرة ثم انقلب الفرح غماً ثقيلا بغير منفذ وبغير دلالة . فإن الفتاة لبثت تتكلم ويبدو من عينيها أنها تفكر فى غير ما تتكلم . ثم خرجت ساهمة بغير استئذان إلا حين قاربت الباب ، فقد انثنت تحيي هماماً تحية من يؤدى « واجب اللياقة » لا تحية من يجامل فى وداع .

قال همام : ما معنى هذا ؟

قالت « ماريانا » : لا عليك منها . إنها ستعود يوماً ما لا محالة .

قال : لست عن هذا أسأل ؟ فهل هى غاضبة ؟

قالت : مم تغضب ؟ أمن القبلة ؟ فلم لم أغضب أنا ! ؟

قال : خيبة الله عليك يا عزيزتى ما ريانا . . . . دعينا من غضبك أنت ورضاك ، فانها هى القبلة الأولى والأخيرة بغير مراء ! ولئن رضيت عنها فما أنا براض . . . ولكن الذى يعنينى ألا تكون قبلتها هى القبلة الأولى والأخيرة . فما رأيك ؟

قالت : ابغ لك مستشاراً غيرى . إننى أعرف كيف أوفق بين الكسوة وصاحبتها . ولا معرفة لى بالتوفيق بين رجل وامرأة !

فلم يشأ همام أن يطيل الكلام ، ولم ينتظر صاحبه الذى لم يعد ولم يكن يبالى فى تلك الساعة أن يعود . وخرج منقبضاً متحاملا يلوم نفسه على خروج الفتاة ولا يلوم نفسه على تقبيلها . كأنما كان يستطيع الفصل بين الأمرين ! . . وعادت القبلة إلى شفتيه كأنها طيف يرف على مهاده الأول. حتى لقد أوشك أن يضم شفتيه ليلامس ذلك الثغر الذى لاح له أنه ينضغط وينضغط من لينه وطزاوته إلى غير نهاية ، وسرت لذعته الباردة كلذعة النعناع الذى هدأت سورته وبقيت

ذكراه ، فازداد غماً على غم .. ولعن ذلك الشيطان الكامن فى أعماق كل نفس يثير لواعجها وينكأ جراحها ، فى حيثما احتاجت إلى التهوين والنسيان .

وذهب إلى المكتب فتلقاه الخادم قائلا : إن سيدة سألت عنك بالتليفون . فلم يعره كبير التفات .

وعاد الخادم بعد فترة يقول : إن سيدة على التليفون تسأل عنك . . . وأظنها السيدة الأولى .

فنهض همام إلى التليفون وآخر ما فى ذهنه أن المتكلمة هى فتاة ذلك الصباح ، وقال بغير اكتراث : من المتكلم ؟

قال صوت كصوت الفتاة بعد التحريف المعهود فى أداة التليفون : ألا تعرفنى ؟

قال : عرفتك الآن . أنت سارة ولا ريب !

ولم يلاحظ هو ولا لاحظت هى أنه حذف اللقب وخاطبها باسمها كما يتخاطب الأصدقاء الأقدمون !

قالت : أو كنت تنتظر هذه المحادثة ؟

قال : لا أزعم أننى كنت أنتظرها ، ولكنى أحسب أننى كنت أتمناها !

قالت : إذن هل تحب أن أراك الليلة فى دار الصور المتحركة ؟

قال : بل أحب أن نلتقى على انفراد . فذلك أروح وأسلم .

قالت : إنما عنيت أن تشهد الرواية لأنها تشبه قصتى تمام المشابهة . ويجوز أن تكون القصة مما يعنيك .

قال : لأن أسمعها من لسانك خيرٌ من أن أشهدها مع مئات .

قالت : فأين إذن ؟ .

قال : ما رأيك فى حديقة الأهرام ؟ إنها مكان قلما يغشاه أحد فى هذه الآونة ، وسنلتقى فى زاوية من الطريق ونستقل سيارة من هناك إلى الحديقة ، وأسمع منك أو أقول لك كل ما تحبين .

* * *

كان أول ما فاهت به وهى تجلس إلى جانبه فى السيارة أن قالت : لا بد أنك حسبتنى مجنونة وقلت فى خلدك : ما هذه الرعناء التى تقبل التقبيل ، ثم تخرج مغضبة ، ثم تتكلم بالتليفون ، ثم تحضر إلى الموعد طائعة ، فماذا حسبتنى بربك ؟ قل لى ولا تكذب !

قال : على كل حال لست بآسف لجنونك .

قالت : وأنت يا حضرة العاقل اللبيب الرشيد أما حاولت أن تفهم لماذا كان خروجى بهذه المفاجأة قبل أن ترمينى بالجنون ؟

قال : مستفهماً : أللأمر علاقة بماريانا ؟

قالت : هو ذاك . فلو أننى أطلت المكث لباخ الغضب بعد ذلك ولو أننا تواعدنا أمامها لوقعت فى براثنها بلا رحمة ، فإما أن أطيعها فى كل ما يعن لها ، وإما التهديد والإنذار.

فربت على خدها كأنها طفلة أجادت درسها . وقال : إنك لحصيفة ياهذه التى تتطلع منى إلى تهمة الجنون . ولكنها حصافة مخيفة !

ثم حكى لها ما قالته ماريانا بعد انصرافها ، وكيف أنها لم تغضب حين قبلها ! فكيف تغضب الفتيات الماجنات ؟. فأخذت تضحك حتى اغرورقت عيناها بالدموع . وثابت إلى الحصافة فأوصته أن يزور « ماريانا » فى اليوم التالى ويثابر على سؤالها بضعة أيام . ثم ينسى المسألة كأنه ألقى بها فى ذمة المصادفات .

وانطوت المسافة إلى حديقة الأهرام بمثل لمح البصر ، وزعم همام وهو يناول السائق أجره أن سيارته أسرع ما أنجبته المصانع الحديثة ، وأنه حرامٌ عليه ألا يشترك بها فى سباق السيارات .

وخف كل شىء فى الدنيا حتى أشفقا أن يذهل قانون الجاذبية عن واجبه المرسوم ، وشعرا بهذه الخفة من حولهما

ولا سيما حين بصرا بالمكان خالياً من كل إنسان . فانطلق الكلام كأنه ثرثرة الأطفال ، وانبعثا معاً فى خلق جديد .

وطلبا الطعام فظهر لهمام أن صاحبته من صاحبات النظام المتحذرات من كل ما يجلب السمنة فى طعام وشراب . فصدفت عن كل ما اقترحه عليها إلا صحفة شواء لا تشبع : فأراد أن يحذرها من القسوة على جسدها ، وقال لها : إن بعض الأجسام إذا خف لم تكن خفته على استواء واحد . فيخف هنا ويسمن هناك ويشوه من حيث يراد له حسن الهندام ، ولا ينال أصحابه إلا الجوع والندم ! .

فنظرت إليه بعينى طفلة تخاف ، وسألته مستوثقة : أحق ما تقول ؟ .

قال : حق كل الحق . وسأريك إذا زرتنى فى المنزل صور التماثيل التى يعدونها فى العالم بأسره نماذج لجمال الأنوثة. فإن تماثيل الزهرة التى صنعها اليونان — وهم أساتذة الذوق السليم — ليست على نحافة ولا دقة فى الخصور والأطراف ، ولكنها مثال الجسم المتين المنسوق . وسيفسد علينا سماسرة البدع الحديثة تنويع الجمال فى بنات حواء . فأين نرى البضاضة والسموق إذا أصبح النساء وكلهن نحيفات هزيلات ؟ وكيف تتعدد القوالب إذا كانت المرأة لا تخلق لنا إلا فى

قالب واحد ؟

سرها ما سمعت فسألته عفواً : أيعجبك إذن هندام جسمى على ما هو عليه ؟

قال متماجناً : ومن أين لى أن أحكم ؟

ثم أحجم عن التمادي فى هذه النغمة ، وأيقن أنهما فى هذه الخفة التى يشعران بها ليستطيعان أن يتحدثا عن الموت كما يتحدثان عن الرقص واللهو والمجانة ، وأحب أن يتحول الحديث إلى قصة الزواج التى وعدته أن تقصها عليه ، والتى يتوقف على فهمه إياها أن يفهم مدى العلاقة التى ستجمعه بهذه الفتاة الجالسة فى تلك الساعة أمامه . فقال وهو لا يحذر من تنغيصها باستطراده : إن كنت لا تُرضين زوجاً بالتماس النحافة فعلام كل هذا العناء ؟ أهناك رجل آخر ؟ .

وصح ما قدره همام، فكان جوابها على نغمة الخفة التى شملت فى تلك الساعة كل شيء ، وقالت : أو تحسب أن المرأة لا تتزين إلا لزوج أو حبيب ؟ إنها لتتزين لنفسها . وإنها لتتزين للرجل الذى فى عالم الخيال ، ولو لم يكن له فى عالم الواقع وجود .

واسترسلت تتهكم كأنما سألت نفسها وهى تسأله : أأرضى زوجاً ؟ ألا ليت هذا كل ما يعنينى ! . . . إذن لأكلت

قنطاراً من الأرز والزبدة كل يوم !

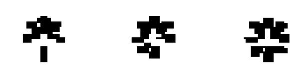
واجتازت النقلة بين إرضاء الزوج وقصة الزواج فى جملة أو جملتين . ثم انقضى نصف ساعة علم فيه همام صفوة ما أرادت أن يعلم . فلو سأل سائل : أصدّقها فى جميع قولها ؟ أعذرها فى جميع فعلها ؟ لكان من الصعب عليه أن يجيب بالإيجاب .

بيد أنه أدرك مما سمع أنها طفلة فقدت رحمة الأمومة ، ونمت وهى لم تعرف إلا جماح الحيوية العارمة ، لا تمسكها هداية أم ولا تقوى على حبسها التقاليد الضعاف ، مع ذلك الذكاء الوقاد الذى لا تخفى عليه خافية الموانع والمحظورات ، وأنها لو سيقت إلى زوج « يملأ عينها » ويحقق معنى الرجولة فى رأيها وعاطفتها لاستقرّت بعض الاستقرار وقنعت بعض القناعة . ولكنها أخطأت حظها من الزواج وبرمت بفراغ قلبها فلم تعذر الدنيا ، والتمست لقلبها وحده جميع الأعذار .

قالت وقد سردت له قصتها : أصغرت الآن فى نظرك ؟

قال : أمنى تطلبين الحكم ؟ أنا حاكم مغرض فلا تنفعك الشهادة منى ، غير أنى أقول إن الذين ينصفونك فى الدنيا قليلون .

قالت : لا حاجة بى إلى إنصاف الدنيا . فلتحفظه لمن يطلبونه .



ولقد رجعا من الحديقة إلى الجيزة مشياً على الأقدام ، لم يتعبا ولم يشكوا طول الطريق . وجاء الترام فركبت فى مقصورة النساء وركب مع الرجال .

وكان الموعد الثانى فى بيت همام .

أيام

أجل هى فتاتى لا مراء فيها . ولئن خشيت حباً فإن هذه هى الفتاة التى يحق لى أن أخشى حبها وأخشاها .

سنحت هذه الخاطرة فى حدس همام مع سنوح سارة فى أول الطريق طفرةً واحدة . وكان همّام ممن يقيسون ارتقاء المرأة بسلوكها فى مسألة المواعيد ... فأبغض النساء إليه المرأة التى تحسب سرور الرجل بلقياها سبباً كافياً لتنكيده بالانتظار وتكديره بالإبطاء فى الحضور إلى الموعد ، ولو كان فى وسعها أن تسبقه إليه . . . وعندها أنه ما دام راغباً فى لقائها فلا يصح أن يهنأ بهذه الرغبة خالصة ويسعد بهذه المتعة صافية ، وعليه أن يبذل ثمنها نكداً لا ضرورة له وغصة لا حاجة إليها ، وهو صاغر راغم يحرّق الأرّم ولا يعرف له حيلة غير الإنابة والتسليم . وإلا فماذا هو صانع ؟

وجواب « ماذا هو صانع ؟ » هذه يختلف باختلاف الرجال واختلاف أنواع الهوي . أما جوابها عند همام فهو الانتظار خمس عشرة دقيقة على الأكثر ريثما ينقضى أقصى المدي

المفروض لاختلاف الساعات فى التقديم والتأخير . ثم ينصرف ولا يسأل عن العاقبة ، إلا إذا اتضح له بعد ذلك أن العذر مقبول .

فلما رأى سارة — وهو يراقب الطريق من وراء النافذة — قد أقبلت فى أول الطريق قبل الموعد بدقيقتين أو ثلاث ، ولاحظ للمرة الثانية أنها تتحرى الدقة فى رعاية المواعيد ، فرح بمعرفتها ورحب بالعلاقة بينه وبينها . وأحس فى حينها أن تنشب هذه العلاقة جذورها فى فؤاده فيتبعها مالا بد أن يتبعها من لواعج ونكبات وفواجع ، وأيقن أن هذه الفتاة تفهم كثيراً جداً . لأن الفتاة التى تفهم أن لها قيمة غير قيمة الدلال المصطنع ، وأن العاطفة أنفس من أن تشاب بالتنكيد والتكدير لغير داع — هى صاحبة ذكاء مطبوع يفقه قيمة الزمن وقيمة الشعور وقيمة السرور ، ولا يقتصر ذكاؤه على النظر إلى عقربى الساعة لإدراك الميعاد !

وفى الحق أن سارة قد بهرت هماماً بأشياء كثيرة فى أول زيارتها لمنزله غير رعايتها للمواعيد .

فلو كانت تعرف ما يروقه ويستهويه من النساء معرفة تفصيل وتدقيق لحسب أنها تجوز امتحاناً عسيراً وتتعمد أن تخرج منه بالتزكية التى ليس بعدها تزكية ، والشهادة التى

ليس فوقها شهادة .

هو قليل المرح فيروقه من المرأة أن تكون مرحة بغير تكلف ولا مبالغة ، ويسمى المرح الذى يزين المرأة ويشوق الرجل مرحاً « موقّعاً » تشبيهاً بالغناء الذي ينطلق انطلاقاً وينبعث انبعاثاً ولكنه يقف حينما يحسن به الوقوف . ويسكن حينما يطلب منه السكون : يقف ويسكن لا على اقتضاب موحش وانقطاع ناشز ، ولكن على نغمة تفصل اللحن من اللحن أو على قافية تختم البيت بعد البيت ، فهو الوقوف الذى يريح ويشوق ويزيد لذة الإيقاع وطرافة السماع .

وهو يحب من المرأة الزينة التى تغرى مَن يبصرها إغراءً لا يخفى ، ولكنها لو أنكرته وزعمت أنها لم تتعمده ولم تفكر فيه لما استطاع أحد تكذيبها ببرهان .

وهو يحب المرأة التى تدرك الفكاهة ويكره التى تتخذ من فكاهتها صناعة أو معرضاً مفتوحاً فى كل ساعة ، وأقرب دليل عنده على اتفاق المزاجين هو دليل « نيتشه » الذى يقول إن الضحك من نكتة واحدة هو العنوان الواضح على تقارب الضاحكين فى المزاج والتفكير ، وما انفصل اثنان بفاصل هو أبعد من ابتعادهما فى تمييز النكات .

وهو يحب ربة البيت التى تكون أول خادمة فيه لأنها

سيدته الوحيدة ، ويحتقر المرأة التي تأنف من تلويث يديها في مطبخها كما يحتقر الرجل الذي يأنف من تلويث يديه في حقله أو حديقة داره .

وهو يحب المرأة التي تستطيع أن تكون « إنساناً » في بعض الأوقات بمعزل عن الأنوثة والذكورة ، فلا تكون الأنوثة الحيوانية هي كل وظيفتها في الحياة .

ولقد تجلى له كل أولئك من سارة في أقل من ساعة ، يوم جاءته في أول زيارة . جاءته في زينة تلفت العين إلى كل مزية في جسدها ، ولا تلفت النظر إلى عيب في نفسها .

ولم يكد يستقر بها المجلس حتى نهضت إلى أثاث الحجرة تضعه في مواضعه التي تهواها ، وإلى جوانب البيت تعيد تنظيمه على النحو الذي تود أن تراه ، وإلى المطبخ تجول فيه بنظرة فاحصة تدرك لأول وهلة كيف طهيت كل صحفة ، وكيف أعدت كل طبخة وكيف لوحظت النظافة في التحضير والغسل والتجفيف .

وحان وقت المائدة فقدم لها « الديك » قائلا : هذا اعتراف بفضل الديك في تعارفنا ، وتمهيد محادثتنا الأولى .

فما أسرع ما قالها حتى بادرته متهانفة : لا أحب يا صاحبي أن تعرف لي فضلا على هذه الطريقة !

فطرب للنكتة ووجم فى وقت واحد ، ولو كان يتوقع عند فتاة صغيرة هذه الفكاهة الماضية لاحترس بعض الاحتراس. ولكنها فاجأته بها فوجم ولم يسعه إلا أن ينقذ نفسه وهو يردد فى شيء من التعلثم : إن كنت لا تأبين أن أمزجك بدمى ولحمى وأن أجعلك جزءاً منى فالطريقة لا تهم ، وأنت أكلة شهية تطيب لى بغير حاجة إلى السكاكين والقدور !

وكان حديثها على المائدة — وقد استغرقت ساعتين — على هذه الوتيرة من أمتع وأفكه ما تكون أحاديث الموائد.

لاحظت أنه لا يأكل من صدر الديك ويقصر اختياره على الجناحين والوركين. وقالت : كان من حقنا أن نتزوج، فنحن زوجان طبيعيان : أنت لا تأكل الصدر وأنا لا آكل غيره ، فلا يشجر بيننا نزاع .

قال عفو الخاطر غير عامد لما يقول : هذا مذهب شوبنهور منقولا إلى المطبخ !

وأحس أنه أقحم اسم شوبنهور فى غير مقحم . أعلى المائدة ومع فتاة يدار ذكر هذا الفيلسوف المتشائم عدو النساء؟

وإنه ليهم بتوبيخ لسانه والتراجع إلى موضوع غير هذا الموضوع الذى أثاره ، وإنه ليريد أن يأخذ عليها سبيل السؤال عن شوبنهور ومذهب شوبنهور إذا هى تلاحقه قائلة :

نعم ، القصير يطلب الطويلة والأبيض يطلب السمراء ، والبدين يطلب النحيفة ، ومن يأكل جناح الدجاجة يطلب من لا تأكل الجناح . . . هذا تطبيق صحيح لمذهب الفيلسوف .

فراعه تعقيبها وسرعة التفاتها إلى « محل الشاهد » كما يقولون أضعاف ما راعته نكاتها ، ولمحت هي دهشته فاستطردت تقول : على رسلك ! لا تخف ولا تجفل ! فلست بحمد الله فيلسوفة ، وما قرأت شوبنهور إلا لأن « أحداً » أرادني على قراءته ، ولأن تفهيمه إياى كان ذريعة اللقاء بيننا ، وما كان بالجائز أن يحضر إلىّ ليفهمني رواية أو مقالة ممتعة . . . فلم يعد لنا بدٌّ من الفلسفة وأمرنا إلى الله ! فاغرب همام في الضحك ، لأنه تخيل شوبنهور العظيم بوجهه العبوس وعينيه الظريفتين اللتين تبرقان من الحرد والسخرية وهو يسمع بأذنيه كيف انتقمت منه امرأة وهزئت به ، وسخرت فلسفته لغرامها .

وأثنى همام على صراحة سارة وقلة دعواها ، واطمأن إلى سياق الفلاسفة والشعراء فقال : الآن امنت مرة أخرى أن صديقي « هيني » خبير بالنساء في جده ومزاحه . . . .

قالت : ومن صديقك هذا هيني ؟

قال ! لا تهيبي . فليس هو بفيلسوف مغلق ، ولا هو

بالكاتب الذى يحوجك إلى ترجمان أو مفسر ، إن حلا لك أن تقرئيه وحدك فهو شاعر سلس سائغ ، وما أحسب له نظير فى الدعابة وخفة الروح .

قالت : أصحيح ؟ وماذا قال عنا معشر النساء هذا الشاعر الظريف ؟

قال : إنه ضجر من سيدة دعية لها عينٌ واحدة تتطفل على الأدب فكتب عنها يقول : كل امرأة تكتب فإنما تتجه بإحدي عينيها إلى القرطاس وبالعين الثانية إلى الرجل . . . ما عدا فلانة طبعاً . . . فإن لها عيناً واحدة كما يعلم القراء .

فراقتها غمزة الشاعر للمرأة الدعية ، وقالت : أما من جهتى أنا فإنى لأقر وأقسم بين يديك وبين يدى الله إن هينى لظريف وإنه لصادق ، فما تقرأ المرأة إلا عن رجل أو بسبب رجل ، وكل ما عدا ذلك كذب وادعاء .

وتشعب الحديث ، وتفتحت مغاليق الأسرار من الجانبين ، وفى غير مناسبة ظاهرة سألته وفى عينيها خبث كخبث الأطفال المناوئين : كم عمرك يا همام ؟

قال همام : دعى هذه المحرجات يا بنية . فإن أبيت إلا الإلحاح فسأخبرك على شريطة واحدة ، وهى أن تخبرينى أنت — بداءة — لماذا تسألين ؟

وقالت : ولمَ ؟ أيتغير عمرك بتغير أسباب السؤال ؟ على أنني لا أنوى أن أدعك تطيل التخمين ، وأريد أن أفرض لك اثنتين وثلاثين سنة إذا كنا متفقين فى نسبة السن كما اتفقنا فى غيرها من المقارنات . . فإننى أنا فى الثالثة والعشرين ، وينبغى أن يكون عمر المرأة نصف عمر الرجل مضافاً إليه سبع سنوات .

قال : بل تسمحين أن يكون عمرك خمساً وعشرين ليتفق الحساب من الطرفين ، وأقسم لك أننى ما أسقطت يوما واحداً ، وإنك أسقطت السنتين الناقصتين !

* * *

وتوالت المواعيد بعد الزيارة الأولى على تباعد بينهما فى مبدأ الأمر ، ثم على تقارب يوشك أن يكون بلا انقطاع .

إلا أنهما اتفقا على أن ينائرا سحابة يوم الجمعة لحلوة كاملة لا مشاركة فيها ولا يعوقهما عنها عائق .

فيوماً على رمال الهرم ، لأنها تريد أن توقظ الفراعنة ! ويوماً على القناطر الخيرية ، لأنهر تريد أن تحاسب النيل العتيق على عرائسه الغريقات ! ويوماً على زورق بين روض الفرج والروضة ، ويوماً فى حلوان ويوماً عند آثار صقارة ، ويوماً فى صحراء ألماظة ، ويوماً فى جوار عين شمس والمطرية .

فإن لم تكن رياضة خلاء فعكوف فى المنزل من الصباح إلى المساء ، وذلك أمتع الأيام .

يخلو المنزل نهارها فلا طاهى فيه ولا خادم ولا نزيل غير سارة وهمام ، وقد جعلا خدمة المنزل فى ذلك اليوم شعائر مقدّسة كالشعائر التى يتولاها الكهان ، فهما يتبركان بها ولا يخجلان منها وهى فى يدها المكنسة وهو فى يده سكينة التخريط ... أو هى تمزج الحلوى وهو يقلب الآنية على النار... ... أو هى تملأ الأطباق وهو ينقلها إلى المائدة . حتى إذا حان وقت الطعام مثلت إلى جانب المائدة فى وقار وخشوع وقالت : انتهى دور الخدمة . فتفضلوا أيها السادة .

وتتسرب إلى المنزل أنباء الأصيل بالاستقراء لا بالمشاهدة فى معظم الأيام ، فيقرآن أو يسمعان بعض الأغانى ، أو يلعبان « الدومينة » قليلا وهى لعبة تحذقها سارة ويعتقد همام أنها أصح الألعاب وأشدها مطابقة للحياة . فالشطرنج والضامة يعولان على الحيلة وكل شىء فيهما مكشوف بعد ذلك ، والنرد يعوّل على المصادفة والذكاء ، وكل شىء فيه مكشوف بعد ذلك ، والورق إما مصادفة وإما صراع قلما يشبه صراع الحياة .

أما « الدومينة » ففيها حساب للمصادفة وفيها حساب للتدبير وفيها حساب لليقين وفيها حساب للظنون ، وفيها حساب

للغيب الذى تجهله أنت وخصمك وللغيب الذى تجهله أنت ويعرفه خصمك أو يجهله هو وتعرفه أنت ، وللعيان الذي يعرفه كل من يشاء ، لها قوانين تمنعك أن تتحرّك على هواك ، ولها حرية تمنحك الخيار بين ما فى يدك .

قالت سارة يوماً بعد ما استعادت شرح « فلسفة الدومينة » للمرة الخامسة أو السادسة أو السابعة : أو لا تستمتع باللعب إلا أن تكون له فلسفة ؟

قال : لا : بل أنا أستمتع بالشىء ثم أبحث عن فلسفته ، وإننى لأبحث عن فلسفته كما يجيل الشارب الكأس فى جميع جوانب فمه ولهواته ، كى لا يبقى جانب من النفس لا يأخذ نصيبه من متاعه . فأحسه وأعمله وأذكرة وأفكر فيه وأستقصى معناه !

وأمثال هذه الأسئلة كانت تصدر منها كما يسأل الصبى أباه الشيخ فى دالة ومحبة ، أو كما يفتش المالك منزلا دخله واستولى عليه فراح يسأل عن كل صغيرة وكبيرة فيه ، فما كان فى تلك الأسئلة فضول غريب ولا تهجم واغل ، ولكن السائل والمسؤول عنه هما جزء من مكان واحد تدور عليهما أسواره وتحتويهما جدرانه ، ويتفقد فيه من يشاء ، ولا فضول ولا اقتحام .

لماذا هام بها ؟

حوّاء أخرجت من جنة ، وبناتها كل يوم يخرجن من جنات . . . فهل المرأة ضرة الجنة تغار منها غيرة الضرائر ؟ لا ندري . ولكنها هى المرأة أبداً لا تريد للرجل أن ينعم بغير نعيمها ، أو يسعد بغير سعادتها ، وليس يعنيها أن تفرح معه كما يعنيها أن تكون سبب فرحه وينبوع سعادته دون كل ينبوع . وربما أرضاها أن تكون سبب ألمه وألمها ، ولم يرضها أن تشاركه السعادة الوافية ، إن كان للسعادة سبب سواها .

كان همام قانعاً بالمودة الهنيئة الوادعة بينه وبين سارة : إن حضرت سره حضورها وإن غابت لم يغضبه غيابها ، لا يفرض عليها حقاً ولا يحسب أنها تفرض حقاً عليه ، ويتحدان وينفصلان ولا قلق فى الأمر ولا استطلاع ولا استكراه ، لها وقتها كله وله وقته كله ، إلا مايشتركان فيه من الوقت فهو لهما على السواء ، بلا اقتسام ولا جور ولا اعتداء . غير أن « سارة » لم يعجبها هذا الجدول المترقرق المنساب وأبت إلا أن تراه شلالا يعج ويثور ، ويضطرب ويمور ، فنصبت فيه الحواجز وأقامت فيه الصخور .

كان يسألها فى مبدأ العلاقة بينهما عن موعدها المقبل فتذكر له يوماً ويذكر هو أن ذلك اليوم يوم زيارة صديق أو يوم شهود احتفال أو يوم عمل من الأعمال التى تشغله عن اللقاء، ويرجوها أن تنظر فى تأجيل الموعد ، فلا يعجبها ذلك .

وكانت تستعجل الانصراف فى بعض زياراتها وتعتذر إليه بموعد أو بمصلحة أو بما شابه هذه المعاذير ، فيأذن لها ولا يمسكها ، فلا يعجبها ذلك ! وقالت له يوماً بعبارة صريحة إنه لو « أمرها » بالبقاء لبقيت وهى مسرورة .

وقالت له أياماً إنه لو فضل موعدها على كل موعد غيره لفهمت أنها أثيرة عنده وأن لقاءها محبب إليه مفضل لديه ، فلما قال لها إنه يفضل لقاءها على غيره إذا كان حراً فى الارتباط بهذا أو بذاك — قالت : هذه حجج يحتج بها الرجال حين يريدون وينبذونها حين لا يريدون ، وإنه لو ترك من أجلها ميعاداً لتركت من أجله مواعيد .

واستباحت لنفسها رويداً رويداً أن تفتش فى أوراقه الخاصة وهو لا يمنعها . فعثرت فيها مرة بصورة فتاة هيفاء ممشوقة القوام فى غلالة تنم على محاسن بدنها وانسجام أوصالها . فصاحت به عابسة : ما هذه ؟

وكان همام قد نسى الصورة ونسى أنها هناك . فنظر إليها

وقال بغير اكتراث : فتاة راقصة !

غير أنه لاحظ أن سارة لم تؤخذ بجمال الفتاة كما أخذت بنوع جمالها ، فلو كانت أجمل مما هى مائة مرة وكانت تشبه سارة فى بضاضتها لما راعها أن تعثر بصورتها هناك تلك الروعة التى بدرت منها فى صيحتها العابسة . لكن الفتاة هيفاء ، وجميلة الهيف ، وليس فيها ما يعيب بعض النحيفات من هزال وقلة اعتدال ، وطلعتها مع ذلك طلعة راقصة كسائر أوصالها تكاد تنضح بالخفة والنغم . وقد كانت نوبة النحافة والتنحيف يومئذ فى بداءتها وفى إبانها ، وكانت سارة تروض بدنها رياضة قاسية لتخف وتستوى على طراز الجمال الحديث ، فكان هذا جميعه مما ضاعف اهتمامها بالفتاة وألهب فضولها .

قالت وفيم تحتفظ بها ؟

قال : صورة فنية جميلة ، كأنها تمثال ، كأنها تحفة .

قالت وهى تنظر إلى توقيع الفتاة وخطها الركيك : ولماذا هذا التوقيع ؟ ولماذا لم تقرنها بثانية وثالثة ورابعة ؟ أهى الراقصة الوحيدة التى راقك جمالها ؟

قال : إن كان لا يقنعك إلا مجموعة كاملة من صور الراقصات فليس فى الأمر صعوبة . . . ثم قال : لو علمت يا خبيثة مقدار ما وهبك الله من حدة الذكاء لأنفت أن تغارى

من صاحبة هذه الصورة وأنت ترين « أميتها » ماثلة فى خطها .

قالت : أو تظن أننى أبتهج بأن تحبنى لحدة ذكائى وتحب هذه الراقصة لما . . . لما لست أدرى ما أنت واجد فيها ؟

قال : أنا لا أحبها . . .

قالت : أصحيح ؟ إذن هل أنا فى حل من تمزيق الصورة ؟

قال : لا أمنعك ، ولكنها خسارة .

قالت : أهى خسارة أم تخشى أن تسألك عنها صاحبتها ؟ إننى لا أنافس الراقصات يا سيدى ! فاحتفظ بالصورة كما تهوى ، ولكن أرجوك أن ترد إلىّ صورتى . فلست أختار لها أن تقيم هنا وأمثال هذه الصورة فى مكان واحد .

فكبر الأمر على همام ، وأحس لأول مرة أن فراق سارة يثقل عليه ، فقال لها ، إن كان لا يريحك إلا أن تمزقى الصورة فمزقيها . . .

فما أمهلته أن يتم الجملة حتى قبضت على الصورة تمزقها كل ممزق كأنها تضمر لصاحبتها ضغينة وهى لم ترها ولم تسمع باسمها ، ولا يذكر همام أنه بصر بامرأة تفرح هذا الفرح بتمزيق ورقة إلا امرأة جاهلة أسلمها الساحر المشعوذ لفة من الورق رغم أنها هى الرقية التى كتبتها لها الضرائر ليبتلينها بالسقم فى جسمها والنكد فى عيشها .

فزقتها وكأنها تود أن يصير جسمها كله أيديا تشترك فى تمزيقها .

وهكذا أخذت تحاسبه وأخذ يحاسبها ، وشعر بالتضييق عليه ولكنه لم يضجر منه ولم يتبرم بالباعث إليه ، وأنشأ يتعود أن يفكر فيما تصنعه وفيمن تلقاه أثناء غيابها ، ويتعود أن يسألها وأن يتحرى حركاتها . . . وفرغ لها فوقع فى روعه ألا يقنع منها بما دون الاستئثار والتفرد ، وانقلب الجدول الهادئ المنساب رويداً رويداً فغاب فيه الحمل الوديع وبرز منه الأسد المتحفز ، ولو ظل كما كان جدولا وديعاً لصفا واسترسل . أو لانتهى كما ينتهى النهر إلى مصبه فى رفق وسخاوة .

ذلك سبب من أسباب الهيام وقلما يكون الهيام لسبب واحد .

ومن أسبابه الكثيرة لذة الاستكشاف الدائم المصحوب بالتجديد والتنويع ، فإن الرجل ليسره أن يستكشف المرأة ، ويسره ألا يزال واجداً فيها كل حين ميداناً جديداً للاستكشاف ، ويسره أن يراقب المرأة وهى تستكشفه وتتخذ لها منسرباً إلى عواطفه ، وترفع من دخائله حجاباً وراء حجاب ، ويسره أن يستكشفا الدنيا معاً والناس معاً والطبيعة معاً بروح مركبة من روحين وجسد مؤلف من جسدين ، وضياء كله شفوف وتجديد وآفاق تنساح إلى آفاق . فإن وقف الاستكشاف ولم يتجدد من

جانب الرجل ومن جانب المرأة فقد يكون سبباً للسآمة والعزوف لا سبباً للشغف والهيام .

إن المرأة فى استكشافها الرجل لكمن يجوس خلال الغابة المرهوبة ليهتدى أولا وآخراً إلى موطن الرهبة منها ووسيلة الطمأنينة إلى تلك الرهبة ، ثم يرتع فى صيدها وثمرها ويشبع من مظاهر العظمة والفخامة فيها .

وإن الرجل فى استكشافه المرأة لكمن يجوس خلال الروضة الأريضة ليهتدى إلى مجتمع الظل والراحة والمتعة والحلاوة بين ألفافها وثناياها . فهو يستكشفها ليعرف أحلى ما فيها وهى تستكشفه لتعرف أرهب ما فيه . ثم تصبح الروضة روضة وغابة ، وتصبح الغابة غابة وروضة ، ويقوم حواليهما سور واحد يشعران به إذا خرجا إلى الدنيا ، ولا يشعران به وهما بنجوة منها

وكان همام وسارة يتكاشفان كل يوم ولا يخفيان أنهما يتكاشفان . . . بل يتحدثان بما يعن لهما من شأنها وشأنه كأنهما رحالتان فى نزهة طويلة ، يشتركان فى مراجعة عمل النهار كلما سكنا إلى ظلال الخيمة فى ظلام المساء .

كان يراقبها فى نفسها ويراقبها فى نفسه : كان يرى المرأة المرحة الطروب وهى تلهو وتعبث ، ويرى المرأة الكسيرة المطواع وهى تلتمس الأمان والعزاء . ويرى الإنسانية الفطرية وهى تطيع

الغريزة وتلبس « دورها » على مسرح الطبيعة بين نباتها وحيوانها ومكانها وأهوائها . ويرى المرأة الذكية وهى تقرأ النثر والشعر وتنتقد الصور المتحركة ، ويرى المرأة العصرية وهى تتغلب على امرأة الجيل الغابر فى ميدان ، وتخضع لها وتنهزم أمامها فى ميدان ، ويرى من وراء ذلك جميعه وفى خلال ذلك جميعه المرأة الخالدة التى لا تتحول ولا تتبدل ، والأنثى السرمدية التى يهمها من « الذكر » الحماية والجاه قبل كل شىء وبعد كل شىء ، ولا يهمها العقل والرجحان والفضائل والمناقب إلا لأنها وجه من وجوه الحماية والجاه.

لقد أكبرته كثيراً وهى تسمع الثناء عليه فى مجالس أناس من علية الناس لا يعلمون ما بينهما من صلة ، ولا يستريحون إليها لو علموها .

ولقد أكبرته كثيراً وهى تقرأ له أسفار النوابغ من أساطين الأقدمين وفحول المحدثين الغربيين ، وهو يعقب على ما يسمع بكلمة هنا وكلمة هناك ، ويناقش لها ما يبدو أنه حقيق بالمناقشة. وليست هى من الجهل بحيث يخفى عليها سداد مناقشاته ، وليست هى من قلة الثقة به بحيث تغلق المنافذ على ذهنها مكابرة وتقليداً كما يفعل العامة الجامدون ، وليست هى من العلم بحيث تفهم أن نوابغ الغرب كائنة ما كانت أقدارهم وبالغاً ما بلغ صيتهم واشتهارهم خاضعون للنقد قابلون للتشريح والتصحيح ، بل هى قد

نشأت نشأتها الأولى على تقديس هؤلاء النوابغ والعلو بهم إلى مرتبة العصمة والتأليه ، فإذا بدهتها الملاحظة ولم تجهل سدادها فغرت فاها الصغير وحملقت بعينيها الواسعتين كما تفعل الطفلة وهى تتفرج على منظر طريف . وجال فى قلبها إكبار تعبر عنه بكل ما تستطيع من علامات التحبب والتدليل .

إلا أن شيئاً من ذلك — فى مدى السنوات الطوال — لم ينعشها ولم يلمس كوامن أنوثتها ولم يقدح من سرورها به وحنينها إلى جواره مثل ما نعشها وسرى فيها وتجلى عليها فى حادثة عرضية حدثت ذات مساء فى مركبة من مركبات الأجرة بين الزمالك والجزيرة :

كانت المركبة تسير على مهل والحوذى قد غفل عن إشعال مصابيحها بعد مغيب الشمس ، فصدمت واحداً من ثلاثة أو أربعة من رجال الضبط كانوا يتمشون على ساحل النيل فى محاذاة العوامات والذهبيات ، وذلك جرم من الحوذى تضيق عنه رحمة الله ! فإن كل شيء ليجوز للحوذى الغافل إلا أن يصدم السادة « رجال الضبط » وهم هم أصحاب الحول والطول والقول الفصل فى الخيل والركبات والسيارات والحوذية والساقة ، وما يحملون ومن يحملون ! . . فإذا كان ذلك فى أثناء « تأدية وظيفة » كما يسهل القول والإثبات فويل يومئذ للمسكين ! ثم ويل

يومئذ للمسكين . . . إنه لذاهب من الدار إلى النار وما له من شفيع .

وقد كان أصاب الغافل الأثيم جزاءه اليسير فى سرعة لاتليق بمركبات الخيل ولو كان لها مائة حصان ، فجذبه « رجال الأمن » من مقعده الرفيع وصافحوا صدغيه بكل ما وسعته الكفوف من مرانة على هذا الضرب من المصافحات ، وجعل الرجل يستغيث ويعتذر ويتوسل ولا جواب له إلا ضربات متداركات تتبارى فيها الألسنة والكفوف . وطال الخصام ولاح لهمام أنه لا يؤذن بختام . . . فلم يجد مناصاً من النزول والسعى فى الإصلاح . ولم يغب عن باله أن اللجاجة قد تفضى برجل الضبط « المعتدى عليه » إلى كتابة محضر واستدعاء شهود ، وأنه سيكون لا محالة واحداً من هؤلاء الشهود . فإذا أفضى الأمر إلى ذلك فقد كان ينوى أن يعطيهم عنوانه إن قنعوا به ، أو يصاحبهم بعد أن يحتال فى صرف سارة وإبعادها عن القضية ما استطاع .

على أن المسألة لم تلجئ إلى شىء من ذاك ، ولم تستغرق أكثر من دقيقة أو دقيقتين ، فقد كان « رجال الضبط » ظرفاء رقاق الحاشية يعرفون هماماً بالرؤية والسماع وإن لم تجمعهم به صداقة . فتلطف أكبرهم وحيى هماماً بلقبه دون اسمه ، واتجه إلى الحوذى بعد أن صفعه الصفعة الأخيرة . . وأسلمه الرخصة

المنزوعة . . . . وهو يهنئه بالسلامة إكراماً للرجل الذى معه لا إكراماً لأمه وأبيه اللذين من صفاتهما كيت وكيت ، كما علم قبل ذلك على ما يظهر . !

لم تكن سارة من السذاجة بحيث تفرق من محذور هذه الحادثة ، ولم تكن من قلة الحيلة بحيث تعنى بتدبيرها إن ساءت الجريرة ، وقد أفهمها همام قبل نزوله من المركبة أن اتقاءالمحذور سهل من « الوجهة الرسمية » . . . وقد سبق لهما أن تعرضا معاً لمهاجمة بعض العاطلين الذين يأخذون الطرقات على المارة فى الضواحى البعيدة رجاء المساومة على ما يحسبونه من الفضائح الغرامية . فنظرت إليهم غير حافلة وتركت هماماً يزجرهم وينهرهم ليعلموا ألا رجاء فى المساومة ولا خوف من فضيحة . فلم يكن سرورها بصاحبها تلك الليلة سرور النجاة من مأزق مخيف والفزع من عاقبة محذورة ، وإنما كان سرور المرأة بالحماية والثقة والاستسلام وهى مغمضة العينين .

فلما عاد همام إلى المركبة واستوى فى مكانه فيها لم تزد على أن زحفت إلى جانبه واستكانت إلى جواره وتطامنت فى حضنه تطامن الفرخ فى حضن أبيه ، وهمست تحت أذنه وهى تمسح خدها بخده ما أسعدنى بجوارك سيدى ومولاى . . . وكانت تلك أول مرة دعته فيها تلك الدعوة ، وكان ذلك كل ما فاهت به من

تعبير عن سرورها وما كانت فى حاجة إلى أن تزيد . . . فقد كان شعور همام بسرورها الناعم المرفرف الشكور غنياً عن كل كلام .

وعرف همام أنها استكشفته وطبعته فى صفحة المحاكاة عندها بعد فترة وجيزة ، فجعلت تحكيه وتمثله فى ضحكه وحديثه وتأمينه الصامت ، واعتراضه بالإشارة ، وردوده وهو مشغول ، وردوده وهو حاضر القريحة ، وتعقد أحياناً محادثة طويلة بينها وبين نفسها . تتكلم فيها مرة بصوتها وأسلوبها ومرة بصوت همام وأسلوبه ، فتجيد المحاكاة فى اللهجة والتفكير إجادة لا يعيبها الفرق بين الصوتين والجسمين والهيئتين ، بل يزيدها ملاحة على ملاحة .

وإنها لقد عرفت منه بزكانة المرأة فى شهر واحد ما لم يعرفه أصدقاؤه وخلطاؤه فى أعوام . فتقول له : إن الزوبعة منك لا تخيف ولا تطول بمقدار ما يخيف الاستقرار الذى بطل فيه التردد وخلا من كل هياج وكل ثورة ، وتقول له : إننى إذا أردت أن أهزمك لم أبرز لك بسلاح ولم ألبس لك شكة الحرب ، فأقودك من أذنيك .

* * *

وما زالا يتكاشفان ويتكاشفان حتى علما أنهما مكشوفان

لا يتواريان فى جنة لا ينبت فيها ورق التين . فكان هذا التكاشف سبباً ثانياً من أسباب هيام همام ، وقلما ينحصر الهيام فى سببين اثنين !

نعم . فقد كانت لهيامه بها أسباب مختلفات ، بعضها محدود واضح المعالم وبعضها مزيج من (شتى أسباب) لا تتضح لها حدود .

فمن تلك الأسباب الواضحة أنه كان يحس إحساساً شديداً أن توديع هذه العاطفة قد يرادف فى معناه توديع الحياة .

لأنه تعلق بها وهو فى العقد الرابع من عمره . فإذا انقطع ما بينه وبينها فمن له بفتاة تخلفها فى مثل ذكائها ونضارتها وموافقتها؟ وإذا وجد الفتاة فمن له بالقلب الذى يلبى دواعى الصبا وينزع منازع الفتوة ويتقد ويخبو على حسب المشيئة ، ويغامر اليوم فى عاطفة مرجوة وقد كان بالأمس فى عاطفة يائسة مضيعة ؟

إن خبت هذه العاطفة فهى جذوة الغرام الأخيرة ، وعليه أن يذكيها ويرعاها كما كان الأقدمون يرعون الشعلة المقدسة مخافة أن تنطفىء فلا يستعيدونها . قبل أن يحذقوا صناعة الزناد والثقاب .

ومن أسباب هيامه بها ألفة متغلغلة فى أنحاء النفس والجسد كألفة المدمن للعقار المخدر : من شاء أن يسميها حباً فهو صادق ، ومن شاء أن يسميها بغضاً فهو صادق ، ولمن شاء أن

يزعم أن المدمن يتعاطى عقاره وهو راغب فيه . ولمن شاء أن يزعم أنه يتعاطاه وهو ساخط عليه . فقصارى القول أنه يتعاطاه ، وأن الإقلاع عنه يكلفه جهد الطاقة وغاية المشقة .

ومن الحق أن نذكر هنا أن الرجل يعشق الأنثى فى مبدأ الأمر لأنها امرأة بعينها : امرأة بصفاتها الشخصية وخلالها التى تتميز بها بين سائر النساء ، ولكنه إذا أوغل فى عشقها وانغمس فيه أحبها لأنها « المرأة » كلها أو المرأة التى تتمثل فيها الأنوثة بحذافيرها وتجتمع فيها صفات حواء وجميع بناتها ، فهى تثير فيه كل ما تثيره الأنوثة من شعور الحياة . وأى شعور هو بعيد من نفس الأنسان فى هذه الحالة ؟ إن الأنوثة لتثير فيه شعور القوة ، وشعور الجمال وشعور اللذة ، وشعور الألم ، وشعور الجموح والانطلاق من قيود المنطق والحكمة ، وشعور الإنسان كله ، وشعور الحيوان كله ، بل تثير فيه حتى الشعور بما وراء الطبيعة من أسرار مرهوبة ومن أغوار لا يسبر مداها فى النور والظلام ! لأن المرأة حين تمثل الأنوثة هى مناط الخلق والتكوين ، وأداة التوليد والدوام والخلود ، وهى مظهر القوة التى يبديها كل شىء فى الوجود ، وكل شىء فى الإنسان .

* * *

وكذلك تجمعت أسباب الهيام من ألفة إلى متعة إلى تفاهم

إلى اتفاق فى أمور ، إلى اختلاف فى أمور غيرها ، حتى استحكمت أواصر الملازمة ، وتلاحمت وشائج الفتنة . فلما أنشأ يحاسبها على حقوق الوفاء ، ويتقاضاها أمانة الإخلاص ، لم يكن ذلك غلواً منه فى تنزيه العصمة الإنسانية ولا غلواً منه فى تنزيه عصمتها ، ولكنه حاسبها ذلك الحساب لأنه حتم لا مندوحة له عنه ، ولأن السكوت عنها كان أشق عليه من حسابها .

وإلا فماذا هو صانع ! أيفارقها ؟ ذلك عسير !

أيستبقيها على أن يكون لها وحدها ولا تكون له وحده ؟ ليس ذلك بيسير !

وهكذا يتفق أن يحاسب الرجل المرأة بميزان الملائكة ، وهو لا يستبعد منها غدر الشياطين .

حبان

إذا ميز الرجل المرأة بين جميع النساء ! فذلك هو الحب . إذا أصبح النساء جميعاً لا يغنين الرجل ما تغنيه امرأة واحدة ، فذلك هو الحب . إذا ميز الرجل المرأة لا لأنها أجمل النساء ، ولا لأنها أذكى النساء ، ولا لأنها أوفى النساء ولا لأنها أولى النساء بالحب ، ولكن لأنها هي هي بمحاسنها وعيوبها ! فذلك هو الحب.

وقد يميز الرجل امرأتين فى وقت واحد . لكن لا بد من اختلاف بين الحبين فى النوع ، أو فى الدرجة ، أو فى الرجاء . فيكون أحد الحبين خالصاً للروح والوجدان ، ويكون الحب الآخر مستغرقاً شاملا للروحين والجسدين . أو يكون أحد الحبين مقبلا صاعداً ، والحب الآخر آخذاً فى الإدبار والهبوط. أو يكون أحد الحبين مغرياً بالرجاء، والحب الآخر مشوباً باليأس والريبة .

أما أن يجتمع حبان قويان من نوع واحد فى وقت واحد فذلك ازدواج غير معهود فى الطباع . لأن العاطفة لا تقف دون المدى ولا تعرف الحدود ، وإذا بلغت العاطفة مداها جبت ما سواها !

وقد كان همام يحب امرأة أخرى حين التقى بسلارة فى بيت ماريانا : يحبها الحب الذى جعله ينتظر الرسالة أو حديث التليفون كما ينتظر العاشق موعد اللقاء ، وكانا كثيراً ما يتراسلان أو يتحدثان وكثيراً ما يتباعدان ويلتزمان الصمت الطويل إيثاراً للتقية واجتناباً للقيل والقال وتهدئة من جماح العاطفة إذا خافا عليها الانقطاع . ولكنهما فى جميع ذلك كانا أشبه بالشجرتين منهما بالإنسانين ، يتلاقيان وكلاهما على جذوره ، ويتلامسان بأهداب الأغصان ، أو بنفحات النسيم العابر من هذه الأوراق إلى تلك الأوراق . . .

كانا يتناولان من الحب كل ما يتناوله العاشقان على مسرح التمثيل ، ولا يزيدان .

وكان يغازلها فتومىء إليه بأصبعها كالمنذرة المتوعدة ، فإذا نظر إلى عينيها لم يدر أتستزيده أم تنهاه ، ولكنه يدرى أن الزيادة ترتفع بالنغمة إلى مقام النشوز . وكان يكتب إليها فيفيض ويسترسل ، ويذكر الشوق والوجد والأمل ، فإذا لقيها بعد ذلك لم ير منها ما ينم على استياء ، ولم يسمع منها ما يدل على وصول الخطاب ، وإنما يسمع الجواب باللحن والإيماء دون الإعراب والإفصاح .

وربما تواعدا إلى جلسة من جلسات الصور المتحركة فى

مكان لا غبار عليه ، فيتحدثان بلسان بطل الرواية وبطلتها ؛ ويسهبان ما احتملت الكناية الإسهاب . ثم يغيران سياق الحديث في غير اقتضاب ولا ابتسار . وكانا أشبه بالنجمين السيارين في المنظومة الواحدة ، لا يزالان يحومان في نطاق واحد ، ويتجاذبان حول محور واحد ، ولكنهما يحذران التقارب . . . لأنه اصطدام !

ولم تكن هند — وليكن اسمها هنداً — لتعتقد الرهبانية في همام ، ولا لتزعم بينها وبين وجدانها أنه معزول عن عالم النساء. غير أنها لم تكن تحفل اتصاله بالنساء ما دام اسمهن نساء لا يلوح من بينهن اسم امرأة واحدة ، وشبح غرام واحد ، فإن اسم النساء في هذه الحالة لا يدل على معنى ، ولا انتقاص فيه لما بينهما من رعاية واستئثار .

فلما شعرت بأن النساء تحولن عنده إلى امرأة لها شأن غير شئون أخواتها من بنات حواء زارته على حين غرة في مكتب عمله، وهي الزيارة الأولى والأخيرة من قبيلها ، ولم يكن لها مسوغ من طول الغيبة ولا امتناع حديث التليفون . فما شك لحظة في غرض الزيارة ولا في باعثها ، وتوقع منها عتباً عنيفاً على أسلوبها في التعبير الصامت المبين ، ولكنه علم سلفاً أنها غير منصفة في عتبها ، لأنه لم يختلس منها شيئاً هو من حقها عليه . فرحب بها وأبدى له

استغرابه لزيارتها وابتهاجه بسؤالها عنه ، وأنصت مترقباً . . .
فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج : لست زائرة ولا سائلة !
قال إذن . . .
ولم يتمها لأنها نظرت إليه كمن يستحلفه ألا يتكلم . وانحدرت من عينيها دمعتان . فما تمالك نفسه أن تناول يدها ورفعها إلى فمه يقبلها ويعيد تقبيلها ، فمانعته ولم تكفف عن النظر إليه . ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة : وهى تتمتم هامسة دع يدى . ودعنى ! ثم انصرفت بعد أن سكن جأشها وزال من صفحة وجهها أثر الدموع .
لو جاءت هذه الزيارة وهمام فى بداية العلاقة بسارة لما كان بعيداً أن تقضى على تلك العلاقة ، وأن ترد سارة اسماً مغموراً فى عامة عنوان النساء . بيد أنها جاءت وقد أوغلت العلاقة بينهما إيغالها الذى لا تراجع فيه ، وصمدت على طريقها تعدو مع الأيام عدواً لا تنظر فيه إلى الوراء . وفسح لها الطريق أن هماماً لم يكن يوغل فيها مثقلا بتبكيت ضميره . لأنه لم يخن هنداً ولم يقصر فى حقها عليه ، ولا وهم أنها تغضب من أمر لا عهد بينه وبينها فيه .
* * *
ولقد كانت سارة وهند على مثالين من الأنوثة متناقضين :

كلتاهما أنثى حقاً لا تخرج عن نطاق جنسها ، غير أنهما من التباين والتنافر بحيث لا تتمنى إحداهما أن تحل محل الثانية ، ويوشك أن تزدريها .

ماذا أقول ؟ بل لعلهما من التباين والتنافر بحيث تتمنى كلتاهما قبساً من طبيعة الأخرى ، لولا أنها تنكر الاعتراف بذلك بينها وبين نفسها ، فتسمح للتمنى أن يستحيل إلى نفور .

فإذا كانت سارة قد خلقت وثنية فى ساحة الطبيعة فهند قد خلقت راهبة فى دير ، من غير حاجة إلى دير !

تلك مشغولة بأن تحطم من القيود أكثر ما استطاعت ، وهذه مشغولة بأن تصوغ حولها أكثر ما استطاعت من قيود ، ثم توشيها بطلاء الذهب ، وترصعها بفرائد الجوهر .

الحزن الرفيع والألم العزيز شفاعة عند هند مقبولة ، إذا لم تكن هى وحدها الشفاعة المقبولة . أما عند سارة فالشفاعة الأولى بل الشفاعة العليا هى النعيم والسرور .

تلك يومها جمعة الآلام ، وهذه يومها شم النسيم .

تلك تشكو ويخيل إليك أنها ذات أرب فى بقاء الشرور تستديم بها معاذير الشكوى ، وهذه تشكو كما يبكى الطفل لينال نصيباً فوق نصيبه من الحلوى .

تلك مولعة بمداراة نقائصها لتبدو كما تتمنى أن تكون ،

وهذه مولعة بكشف نقائصها لتمسح عنها وضر الخجل والمسبة ، وتعرضها فى معرض الزينة والمباهاة .

تلك لها عدة المتانة والمجاملة ، وهذه لها عدة الرخاصة والبساطة .

لو عملت تلك عمل الرجال لانتظمت فى السلك السياسى ، ولو عملت هذه عمل الرجال لانتظمت نديماً فى حاشية أمير مفراح.

كلتاهما جميلة ، ولكن الجمال فى هند كالحصن الذى يحيط به الخندق . أما الجمال فى سارة فكالبستان الذى يحيط به جدول من الماء النمير ، هو جزء من البستان لا حاجز دون البستان ، وهو للعبور أكثر مما يكون للصد والنفور .

تلك ذات طموح وهم ، وهذه تحسب الواقع الذى يوائمها خيراً وأشهى من كل مطمع ومن كل همة .

تلك تعطيك خير ما أعطت على البعد والحيطة ، وهذه تعطيك خير ما أعطت على القرب والسرف .

كلتاهما ذات ثقافة وألمعية ، لكن ثقافة هند إلى المعرفة ، وثقافة سارة إلى الفطرة .

ولو نسينا العرف والاصطلاح لحار الإنسان أيهما أقوم فى السجايا والأخلاق . ولكن الذى لا ريب فيه ولا حيرة فيه أن سارة أرجح وأصلح قبل أن يتزل التكليف على أبناء آدم وحواء ،

وإن هنداً أرجح وأصلح حيثما نزل تكليف . . . أى تكليف !

* * *

وما زالت الصور النسائية تتوارى وتتهافت فى بديهة همام حتى احتجبت كل صورة إلا هاتين الصورتين المتقابلتين : إحداهما قائمة فى محراب : والأخرى باثقة كالزهرة من زبد العباب . ! وتعاقبت الأيام فأصبحت إحداهما صورة فنية نفيسة لا تقوم بمال ومثلت الأخرى كما كانت تمثالا من لحم ودم .

* * *

وكانت سارة لا تعلم من شأن هند إلا أن هماماً يعرفها ويكبرها ويزورها حيناً بعد حين. فكانت تتبرم بهذه الزيارات ، ثم كانت تتوخى أن تغويه وتشغله فى اليوم الذى يختاره لزيارة هند . . . فيؤجل الموعد لأنه لم يكن فى الحقيقة بموعد ، ولأن البعد يمنع الاتصال بسارة وما عندها من سرور ، ولكنه لا يمنع الاتصال بهند فى ذلك اليوم ، وفى كل يوم .

* * *

وراح همام ينسرق من نفسه وهو يدرى تارة ولا يدرى تارة أخرى ، حتى ابتلعته اللجة وشغلته سارة عن كل شاغل ، أو أصبحت على الأصح ممزوجة بكل شاغل . فبعد أن كانت فى أول التعارف بينهما واحدة من ألوف وملايين يشملهن عنوان

النساء مفضلةً إن حضرت ، وتغيب فيغنى عنها من حضر — عادت وهى الواحدة وحدها لا يغنى عنها سواها . وعاد همام ينظر إلى النساء فى الطرقات ويوشك أن يسأل جداً وصدقاً : ما بال هؤلاء ؟ ولماذا خلقن ؟ ومن ذا الذى ينظر إليهن ؟

لماذا شلك فيها

اثنان لا يشكان فى المرأة التى يحبانها ، وباب الشك فيها مغلق عندهما :

شاب فى مقتبل أيامه ، مخدوع فى أحلامه ، مؤمن بقداسة الحبيبة على منوال عصور الفروسية . يرتفع بها إلى سماء الطهر ، ويكبرها أن تخون ويكبر نفسه فى الحقيقة أن يخان ! ويسمع منها أنها تمحضه الحب وتخلص له الولاء فلا يدور بخلده أنه يسمع كلاماً يحتمل الصدق والكذب ، ويجوز فيه الغلو والتزويق . ويتعاهدان على دوام الصفاء بقية العمر كله فلا يخيل إليه أنهما يتعاهدان على مستحيل . لأنه يتمنى ، ولا يفرق بين ما سيكون وبين ما يتمنى أن يكون .

والآخر رجل مطموس البصيرة مملوء الخياشيم بالغرور والدعوى . . . يؤتى إليه أنه حسب المرأة من أمنية ومطمع ، فلا منصرف له عنها ، ولا معدى له إلى غيره . وإلا فماذا عساها أن تبغى عند غيره ؟ إنه رضى النساء من جمال واعتدال ووفرة ومال . فإذا قنعت به فما هى بمظلومة ، وإن لم تقنع به إنها إذن لظالمة !

حسن ! ولكن ألا يحدث فى الدنيا أن تكون المرأة ظالمة ؟

كلا ! ! لأن ذلك لا يسره ! ! وكفى ألا يسره شيء من الأشياء حتى لا يكون ولا يجوز أن يكون !

ولم يكن همام بهذا ولا بذاك .

لم يكن شاباً فى مقتبل أيامه ، لأنه جاوز الثلاثين وأوشك أن يصعد إلى الأربعين .

ولم يكن مخدوعاً بهذا الضرب من الغرور ، لأنه موكول إلى ضروب أخرى من غرور النفوس ، مطبوع على أن لا يعلق قيمته فى معارض الفخر والمباهاة على رأى إنسان من النساء ، أو من الرجال .

وكان قد خبر من أحوال المرأة والرجل ما أقنعه أن الخيانة بينهما ليست من الصعوبة والامتناع بحيث يتوهمان . فما من رجل كبر أو صغر إلا والمرأة واجدة بديلا منه يغنيها عنه فى جميع نواحيه أو بعض نواحيه : إن كان محبوباً فنى الرجال من هو أحب ، وإن كان مهيباً فنى الرجال من هو أهيب ، وإن كان جميلا أو سرياً أو قوياً فنى الرجال من هو أجمل وأسرى وأقوى . ولقد تستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، فليس من الضرورى أن تفاضل المرأة بين الحسن والأحسن والصالح والأصلح ، وليس من الضرورى — إن هى فاضلت — أن

تكون مختارة مفتوحة العينين فيما تدع وفيما تأخذ . فقد تكون مخدوعة مسوقة ثم تستنيم إلى الخديعة ، وقد تؤثر الرجل على الرجل شهوة طريق ، كما يذهب الإنسان إلى غدائه فيلقاه مطعم يفغم أنفه ببعض روائحه فيميل إليه ، وقد يعافه فى غير تلك الساعة .

وكان همام يعتقد أن الغش عند المرأة كالعظمة عندفصائل الكلاب ، يعضضها الكلب المدلل ويدخرها حيث يعود إليها وإن شبع جوفه من اللبن واللحم والأغذية المشتهاة . لأن ألوفاً من السنين قد ربت أسنانه وفكيه على قضم العظام وعرقها ، فهو يطلبها ليجهد أسنانه وفكيه فى القضم والعرق ، ولو لم تكن به حاجة إلى أكلها .

وألوف من السنين قد غبرت على المرأة وهى تخاف وتحتال وتراوغ وترائى وتلعب بمواطن الضعف فى الرجل ، حتى أصبح بعض النساء ممن قويت فيهن عناصر الوراثة وبرزت فى طباعهن عقابيل الرجعة ينشدن الغش التذاذاً به وشحذاً للأسنان القديمة التى نبتت عليه . . . ويسرهن أن يصنعن الشىء ويخفينه ولو لم تكن بهن حاجة إلى صنعه ولا إخفائه . لأن المرأة من هؤلاء تشتهى العظمة بجوع عشرين ألف سنة ، وتشتهى اللحم واللبن بجوع ساعات .

ولقد عرف همام سارة فلماذا لا يعرفها غيره ؟ ولم يصعب

عليه أن ينال عطفها فلماذا يصعب على غيره أن يناله ؟

إنه لم يكن يستبعد الغش والخيانة ، وليس بين الشيء الذى لا يستبعد والشيء الذى يتوقع إلا خطوة وعلامة محسوسة .

على أن الإنسان قد يتوقع الغش لفرط إشفاقه من الفقد والخسارة لا لفرط اتهامه وسوء ظنه ! فالخزانة التى تتركها فارغة هى بعينها الخزانة التى تملأها بالذهب والفضة والجواهر الثمينة ، لكنك تخشى على متانتها وهى حافلة عامرة ولاتخشى على متانتها وهى فارغة منسية .

وربما خرج الرجل الواحد من المنزل تنتظره فيه أم حنون وزوجة قالية ، فإذا تأخر عن موعد الإياب فأول ما يخطر على بال الأم أن ابنها قد أصابه مكروه ، وأول ما يخطر على بال الزوجة أن زوجها يعبث ويعربد ، ولا يمكن أن يكون الرجل الواحد رجلين فى الرشد والحصافة والقدرة على دفع الأخطار ، وإنما اختلف التوقع باختلاف الشعور والخشية . فتتوقع الأم المكروه لأنها تخشى المكروه ولا تبالى سواه ، وتتوقع الزوجة العربدة لأنها تخشى العربدة ولا تبالى سواها ، ولا يسوءها أن يصاب زوجها البغيض كما يسوءها أن يصيبها فى غيرتها وكرامتها الزوجية .

لهذا أصبح همام يحذر الخيانة حين أصبحت هذه الخيانة

شيئاً يهمه ويشغل باله ، ولم يتأهب لنفيها كما تأهب لقبولها ، ولم يكبح خواطره عن التمادى فى الظلم لأنه علم أن ضمان العدل موجود لا يغفل ! ! وضمان العدل أن سارة عزيزة عليه ، فما هو بمستعد للتفريط فيها تجنباً عليها ومطاوعة لوهم عارض أو شبهة طفيفة ، وما هو بقادر على التفريط إلا وقد أصبح وأمسى وليس له عن التفريط محيد .

* * *

خذوا أسرارهم من صغارهم . . . . وسر « سارة » إنما طرق مسامع همام — أول ما طرقها — من لسان طفلها الصغير .

كانا يتنزهان يوماً فى أرباض القاهرة ومعها طفلها الصغير ، فلعب الطفل ومرح وعدا وطفر ما شاء له مرح الطفولة ومرح المكان . . . ثم اتجه — طفرة أيضاً — نحو أمه وهو لا يدرى ماذا يصنع ، فاتخذ منها موقف العاشق المدله وجعل يفوه بألفاظ من عبارات المناجاة والغزل والتحبب والتدليل لا تسمع إلا بين عاشقين فى خلوة غرام ، وانطلق يرصها رصاً كأنما يتلقاها من ملقن أو يتلوها من كتاب ، فصحا همام من حلمه الذى كان سادراً فيه على مهل وتكاسل كأنه لم يتبين بعد معنى ما يسمع . وأسرعت هى فانتهرت الطفل انتهاراً شديداً وعنفت عليه وهى تبالغ فى نهيه أن يسترسل فى تمثيل دوره ، وأرادت أن توقع فى

روع همام بغير اكتراث ظاهر أنها إنما تزجر الطفل لبذاءة الكلام الذى يسرده لا لأنها تكتم سراً يوشك أن يفضحه بثرثرته وهذره . فقالت : تلك مصيبة العشرة السيئة والقدوة المرذولة . . . ما أدرى والله ماذا أصنع بهذا الطفل فى سنه الصغيرة ، فلا هو يصلح للمدرسة ولا هو يطيق الحبس والعزلة عن أنداده وأترابه ، ولا هو يسلم من معاشرة هؤلاء الأنداد والأتراب !

قال همام : ولكنك تعرفين أنداده وأترابه ، فمن منهم تحسبينه خليقاً أن يعيد على مسمعه تلك العبارات ؟

قالت : ومن أين لى أن أعلم ؟ فقد يسمعونه من خادمة أو خادم فى أكنان الحدائق وزوايا الطريق .

قال : أو هذا كلام خدم ؟ إن الخدم لا يصطنعون التدليل والغزل على هذا المنوال !

فسكتت وسكت ، وما فى ذهنه ذرة من الشك فى أن بعضاً من ذلك الكلام الذى لغط به الطفل قد صدر من أمه . . . لأنه كلامها ، فكيف تسرب إليه ؟ ومن أين ؟

إن هماماً ليذكر جد الذكر أنهما لا يتخاطبان فى محضر الطفل إلا كما يتخاطب الرجل والمرأة فى المجلس المشهود ، وليس لسارة زوج يعيش معها ، وليس من عادة الأزواج مع هذا أن يتغازلوا على هذا المنوال بمسمع الأطفال الصغار ، فمن أين

تسربت إليه المناجاة بطرفيها ؟ من أين ؟ نعم من أين ؟ !

واقترنت تلك الظاهرة فى حينها بظواهر مريبة مثلها . . . .

« ڤاريانا » التى كانت لا تؤتمن على سر المعرفة بينهما ما بالها اليوم قد أصبحت مأمونة الجانب مغشية الدار حتى لا حذر من التواعد لديها على غير ضرورة ؟ وتلك الزينة المعهودة بعطرها وشياتها ما بال سارة تحتفل بها فى غير أيامها ؟ ونوازع الغرائز التى لا سلطان عليها للمرأة ما بالها تتبدل ؟ ووسائل الحيطة الخفية ما بالها تتعدد ؟ وذلك التلطف المريب تلطف الآثم الذى يمسح حوبته بفرط المجاملة ويكفر عن خيانته الباطنة بفرط المصالحة الظاهرة ماذا وراءه وماذا فى أطوائه ؟

علامات وقرائن لا يأخذ بها القاضى فى قضائه بالإدانة ولكنها كافية للتشكيك فى خلوص النية .

والقضاء بعد مطالب بإقناع غيره محظور عليه أن يكتفى بإقناع نفسه . . . أما الرجل الذى ينشد الطمأنينة مع المرأة فلمن يحكم إن لم يحكم بحسه ؟ وبأى اقتناع يدين إن لم يدن باقتناعه ؟

وراء الأكمة ما وراءها . . تلك حقيقة لا ريب فيها ، ولكن ماذا وراءها ؟ قد يجهل الرجل ذلك على التحقيق والتفصيل ، ولكن ألا يكفى أن تكون هناك أكمة وأن يكون هناك شىء مجهول وراءها ليقوم الحائل بين القلبين ، ويكدر الجو بين الصفيين؟

وجائز عند همام أن تنصرف عنه سارة إلى غيره . ولكن ليس بالجائز عنده أن تستغفله لأنها تتوهم فى دهائها القدرة على الجمع بينه وبين غيره !

جائز أن يكون هو وهى ألعوبة واحدة فى يد الطبيعة التى تسوقه وتسوقها ، ولكن ليس بالجائز أن يكون هو ألعوبة فى يدها وأن تكون هى اللاعبة بلبه وولائه !

وقد نصب لقلبها الميزان الذى نصبه لقلبه فى السر والعلانية ، وأخذ عليها شبهات كثيرة ولم تأخذ عليه شبهة واحدة ، واتهمها فلم يشاهد عليها عذاب المرأة التى تفجع فى حب تقابله بحب مثله ، بل كان كل ما شاهده عليها محال المتهم الذى يجهد فى تفنيد تهمة ، ويود لو فاز بالغلبة ووقع على الأدلة الدامغة .

هل ظلمها ؟

يجوز . . .

وكلما أعاد همام هذا السؤال وأعاد معه هذا الجواب لمس به أغوار فتنتها واعتقد أنه يخدع عقله باختياره ، ويساعدها على تضليل حسه ورأيه ، وأنه لم يظلمها ولا افترى عليها ! ولولا ذلك لقد كانت شبهة أهون من هاتيك الشبهات كافية كل الكفاية للبت فى أمرها وطى السؤال والجواب عنها .

١٧٦

وخير له أن يفارقها بغير جريرة قادراً على آلام فراقها صائماً عن مسراتها ، من أن يعاشرها عاجزاً عن فراقها ، باذلا كل ما عنده من اهتمام ، مستحقاً كل ما عنده من احتقار واستخفال .

لقد سلبته الطمأنينة وكفى !

جلاء الحقيقة

انتهت مهمتى !

أى نعم . انتهت المهمة ، وبطلت الرقابة ، واستراح الرقيب ! .

وكان « أمين » موفقاً فى هذه المرة كل التوفيق ، لأنه زوّد هماماً بالحجة القاطعة التى يواجه بها غوايته ويقمع بها نكسات ضعفه ، كلما ساوره الندم وعزت عليه السلوى . ولم تأت هذه الحجة إلا بعد استئناف الرقابة بزمن غير قصير ، وجهد غير قليل .

ولكن علام الرقابة بعد القطيعة ؟ ألم ينحسم كل ما بين ذلك الرجل وتلك المرأة من علاقة ؟ ألم يقصر همام عن ذكر سارة ووفاء سارة وخداع سارة ؟ ألم يعوّل كل التعويل على أن يظن أسوأ الظنون ، ويفرض أشنع الفروض ، ويوطن عزيمته على خيانتها ولا يغالط وهمه فى شأنها ولو تفتحت له أبواب المغالطة ؟

بلى كان ذلك !

غير أنها كانت أحلاماً ، ولم تصح الأحلام إلا بضعة أيام .

وقد صحت الأحلام فى الأيام الأولى بعد القطيعة حتى ظن همام أنه قد سلا ، واستقرّ على السلوى ، فما يبالى بعدها من خان ووفى ومن ضل وغوى .. على أنها كانت راحة موقوته أشبه براحة اللذيع الساهد حين ينقلب من جنب إلى جنب ، وما به من نوم ولا غفوة على هذا الجنب ولا على ذاك .

ثم خرج همام من هذه الراحة الموقوتة إلى شىء آخر : إلى شىء غير الراحة وغير السلوى ، إلى الشعور القاصم بالفراغ ، وبالحرج والضيق ونفاذ الحيلة كلها فى ذلك الفراغ .

كل حاسة من حواسه فقدت شيئاً ، وكل لحظة من لحظاته فقدت شيئاً ، وكل مكان يغشاه فقد شيئاً ، وكل سرور من مسراته أو كل ألم من آلامه فقد معناه وغايته ولبابه ، وماذا عوضها جميعاً ؟ . . . . عوضها نقيضها الذى يلغيها ولا ينوب عنها ، فإما غم محبوس كظيم وإما حيرة عمياء ليس لها اتجاه ، وإما سكون موحش بعد حركة وجيعة ، وكل أولئك فى فراغ فارغ لا مبدأ له ولا نهاية ولا مهرب فيه ولا قرار .

خوى الجحيم الحىّ وهبط فى مكانه الزمهرير الميت ! وبئس هذا الموت وبئست تلك الحياة .

زمهرير لا يعيش فيه الأحياء ! ولكنما هو زمهرير خاص للتعذيب لا لمأرب غير التعذيب ، لهذا يعيش فيه من يعيش من الأحياء !

وجرّب السلوى ، وما خامره الشك فى أنها علاج مطلوب ، وأنها علاج مستطاع .

ولم لا يكون مستطاعاً أن يسلو الرجل امرأة بامرأة مثلها أو أفضل منها ؟ ألا يسلو الجائع عن صحفه من الطعام بصحفة مثلها أو أشهى منها ؟ فلماذا يعييه أن يسلو عن المرأة بغيرها من بنات حوّاء ؟

ونسى همام أنه ليس بجائع وإنما هو عليل مسلوب الاشتهاء . . . فمن حاجته قبل أن ينظر فى انتقاء طعامه أن يعيد ذوقه إلى اعتداله وأن يجد اللذة فيما يشتهيه ، ويستوى عنده قبل ذلك أطيبُ الطعام وأخبث الطعام ، كما يستوى الأكل والصيام .

بل نسى أن الرجل حين يحب المرأة فإنما يريدها هى ولا يريد ما هو أجمل منها ، وإنما يحبها ويحس بها لأنها هى هى لا لأنها امرأة لا فارق بينها وبين سائر النساء .

وكالنظارة التى تجلو العين لأنها نظارتها تكون المعشوقة للعاشق الذى عاشرها وألف محاسنها وعيوبها ، وتمثل كل صفة من صفاتها كأنها شخص مستقل « مخصوص » لا مشابهة بينه وبين الصفات عامة . فلا النظارة التى هى أبعد أمداً وأنفس زجاجاً تغنى العين التى تنظر بما دونها ، ولا المرأة التى هى أجمل طلعة وأكرم سليقة تغنى القلب الذى تعوّد أن يخفق لها أو يخفق معها .

لا بل تكون التسلية هنا أحجى بأن تنكأ الجرح وتضاعف الحسرة وتضرم لوعة الفقد والغيبة ، فالمرأة المجهولة تغنى عن عن المرأة المجهولة لأنك لا تعرف لها صفة تنكرها عند أختها . . . أما المرأة التى « تشخصت » فى حسك كل صفة من صفاتها فكيف ترى امرأة غيرها دون أن تشعر فى كل لمحة وكل لمسة أن لها وجهاً غير وجه فلانة ، وعيناً غير عينها ، وصوتاً غير صوتها ، وقواماً غير قوامها . وأعطافاً غير أعطافها ، وروحاً غير روحها ، وكلاماً غير كلامها ؟

وكيف تشعر بذلك دون أن تنقلب التسلية غصة ، ودون أن ينقلب العوض المنشود ذريعة من ذرائع الفقد الدائم والحرمان المتجدّد ؟

كلا ! لا تسلية عن « النظارة » المضبوطة بنظارة أنفس

منها وأقدر على التقريب والتوضيح .

ولا تسلية عن الابن الضائع بابن من صلب غيرك ولا من صلبك ، ولو كان أبر الأبناء الذين ولد الآباء، ولا تسلية عن المرأة المعشوقة بامرأة تفوقها ملاحة وتبرعها ذكاء ، وتبذها عندك وعند غيرك فى بعض الخصال ولا فى جميع الخصال .

وفى الحب كثير من بقايا الطفولة وتراث الغريزة ، فلا بدّ للقلب من فترة طويلة أو قصيرة يعاف فيها كل هوى غير هواه ، كما يعاف الطفل كل ثدى غير ثديه ، أو يعاف الطير كل أليف غير أليفه ، أو يعاف الحيوان كل سكن غير سكنه بين أمه وأبيه .

* * *

فى هذه الفترة عاد « أمين » إلى القاهرة بإجازة طويلة . ورأى من الأمسية الأولى التى قضاها مع همام أين تقف الأمور كما يقول بغير حاجة إلى إفاضة شرح وإطالة سؤال .

الحقيقة غير معروفة والسلوى غير ميسورة ، والوقت ثقيل كسيح لا يخف ولا يتحرك ! وكل وسيلة يقطعانه بها لا تلبث أن تمسه قليلا حتى تتثلم وتكل وترتد عن صفحته الكثيفة وجلده الصفيق ، فالقراءة لا تنفع ، واللعب لا يمنع

الذهن أن يشرد ويتيه . والسماع لا يطاق ، والرياضة مطلوبة مستحبة على أن تكون فى غير الأماكن التى كان يطرقها همام وسارة . وهل من مكان لم يطرقاه ؟

وكثر التحدث عن الجنون والمجانين وبوادر الهوس التى تصيب العقلاء من حيث لا يعلمون ولا يعلم أصحابهم المقربون . فكان همام يقول : ما أحسب إلا أننى سأكون بين الناس فى بعض الأيام فأخلط بالحديث عن سارة وظنون سارة ! ثم يسأل أميناً : ترى كيف تقع هذه المفاجأة فى فلان وفلان ؟ وكيف يكون هذا الخلط لو كان ؟ ؟

ثم يأخذان فى التمثيل والمحاكاة كأنهما يتلهيان ويتفكهان ، وأنهما لفى مرارة سقيمة تفسد جميع الطعوم !

هذا أو يعمد أمين إلى فنون من الألاعيب الصبيانية ينفى بها الملل ويموه بها الكآبة . فيدق التليفون ويجيبه الرجل المقصود أو غير المقصود . فيجرى بينهما حديث كهذا الحديث :

— هل أنت فلان ؟

— نعم أنا هو

— أواثق أنت مما تقول ؟

— عجباً . ما معنى هذا السؤال ؟

– عفواً يا سيدى عفواً . . . إنما أردت أن أتحقق من صواب عاملات التليفون . فهل عندك الرقم المطلوب بعينه ؟

– نعم يا سيدى . هل من خدمة ؟

– بل سؤال صغير إن سمحت !

– تفضل .

– أرجو أن تجيبنى ولا تستغرب . هل قرأت صهاريج اللؤلؤ ؟

– صهاريج اللؤلؤ ؟ ما هذا ؟

– أى نعم صهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكرى . طننتك قد سمعت به . . . أما سمعت به ؟ أما قرأته ؟

– بلى قرأته . فما هذه الأسئلة العجيبة ؟

– إذن تقرأه مرة ثانية !

ثم يلقى السماعة ، ويمضى فى تخيل فلان هذا وهو يغضب ويصخب وينعى على مصر والمصريين هذه الفصول التى لا تحدث فى باريس ولا لندن ولا برلين !

صبيانيات من هذا القبيل تشغل الوقت ويندر جداً أن تغضب هماماً على ضحكة أو ابتسامة ، إلى أن كانت ليلة من هذه الليالى المتشابهات طال فيها السأم ونزر فيها الكلام ورانت فيها الكآبة ، فقال أمين : ما الرأى فى استئناف الرقابة !

ولعله قالها لفتح باب من أبواب السمر ، أو لعله قالها لدفع السآمة ، أو لعله قالها شوقاً إلى إتمام عمل بدأ فيه وكبر عليه أن يتركه بغير نتيجة . . . . إلا أن هماماً رحب باقتراحه وحاول أن يجدّ فى معارضته كى يمهد لأمين طريق التراجع إن كان قد تعجل أو بدر منه ذلك الاقتراح تزجيةً للوقت وجذباً لأطراف الحديث ، فلم تسعفه أسباب المعارضة ولم يسعه إلا الموافقة ، وهو لا يدرى من فائدة لاستئناف الرقابة إلا أنه عمل لن يزيده تعباً على تعبه ، وقد يريح .

وبدأت الرقابة بكرةً وقد تدرب عليها أمين من جهة ، وتهيأت دواعيها من جهة أخرى ، وعاونتها المصادفات من جهة ثالثة فنجحت بعد محاولة طويلة نجاحاً كان جديراً بعناء المحاولة ، لأنه أراح هماماً وأراح أميناً وصوّب الضربة إلى رأس الأوهام واللواعج والمعاذير فقضى عليها .

عاد أمين من رحلته ذات يوم متهللا مسرعاً يتكلف الحزن والأسف تكلف الناعى الذى ينقل أخبار الوفاة إلى وارث مدين يتنازعه الحزن والسرور .

قال همام : خير

قال أمين : خير ، كل الخير

ولولا احتراسه أن يصدم صديقه بالنبأ السعيد المشئوم

لصاح صيحة « أرخميد » . . . . . : وجدتها . وجدتها ! ! . . .
وحق له أن يصيح ، فقد كان يمتحن زيفاً دقيقاً لا يقل عن الزيف الذى امتحنه الرياضى العظيم !

وسرد القصة بتفصيلاتها عملا بالوصية الأولى ، وإن لم يكن همام بالحريص فى هذه المرة على التفصيلات ، بعد أن نجحت الرقابة وظهرت النتيجة .

وفحوى القصة أنه تبع سارة من منزلها حتى نزلت فى ميدان باب الحديد . فمشت أمام ومشت وراء ، ودارت بعينيها فيما حولها تروز الطريق وتتوقى الأنظار ، فأطل رجل من سيارة كانت واقفة بالانتظار وأشار إليها . فانفتلت إلى السيارة فى سرعة البرق ، وتبين أمين الرجل بثيابه وسيماه .

قال همام : وهل تبعت السيارة ؟

قال أمين : لا . فقد غابت عن النظر قبل أن أدركها بسيارة أخرى .

قال همام مستضحكاً جذلا ليصرف عنه أسفه المصطنع ويسرى عنه ندامة هذا الفشل الصغير ، ويسره بنتيجة تعبه :

أحسنت يا سيد أمين ، أحسنت ! قد وصلنا . وصلنا وإن لم نصل إلى باب الدار . فاستمر على بركة كوبيد .

* * *

وانقضت أيام فى مثل حالة المفجوعين الذين اطمأنوا إلى موت فقيدهم فى ديار الغربة ولم يبق إلا أن تصل الجثة إلى مقرها الأخير بعد سنوات من وقوع المصاب : لا حدة ولا حداد ولا حرارة فى الانتظار . بل مسايرة للأيام والحوادث إلى أن تنتهى حيث يروقها الانتهاء .

ففى بعض هذه الأيام كان همام يركب الترام قبل الموعد بنحو الساعة إلى حيث يلقى أميناً ــ عشاء كل يوم ــ بعد رحلته اليومية المعهودة . فإذا بأمين يقفز إلى جانبه والترام سائر على أقصى سرعة .

فنسى همام ما كانا فيه ولم يذكر إلا نوادر أمين فى الخوف من ركوب الترام والنزول منه وهو سائر . فليس أظرف من سهواته المحفوظة إلا نوادره فى خوف الترام والمركبات والزوارق وكل ما يسير ويُخشى من سيره الهلاك . فقد ولع به أصحابه من جراء ذلك وتعقبوه بالمناوأة والمحاورة عسى أن يقلع عن خوفه فما أقلع ... . وآخر نوادره فى هذا الباب كان فى خلال ذلك الأسبوع ، وكان هو وأصحابه يغادرون حديقة الحيوان وهم يوهمونه أنهم سيركبون الترام الذى يهم بالمسير ، ويتباطأون لقلة اكتراثهم أن يركبوه وهو سائر . فأسرع قبلهم ليدركه قبل أن يتحرك . فتركوه ووقفوا ينظرون إليه وينظر

إليهم وهو لا يجسر على النزول !

وأبى أمين أن يقنع بهذا فى أضاحيك يوم ، فزاد عليه أضحوكة أخرى من سهواته وبدواته : مضى مع الترام إلى آخر الخط ثم قضى فى البحث عن أصحابه بقية الظهيرة ، وقد كان فى وسعه أن ينزل فى المحطة التالية ويركب معهم القطار الذى ركبوه . . . ولكن الرجل سخىّ بسهواته ومخاوفه لا ينفق منها بحساب !

ذكر همام هذا حين رأى المعجزة التى ما رآها قط ولا توقعها . . . وعلم أن أمراً خطيراً لا بدّ قد جرى فى الدنيا وقفز بأمين تلك القفزة النادرة ، بل تلك القفزة المقطوعة النظير ! ولا شك أن الضحك الذى سرى تلك الساعة إلى خاطر همام قد كان بطانة ناعمة وثيرة نسجتها المقادير ليتلقى عليها الخبر المشئوم الميمون ، المترقب بنافد الصبر ونافد الحيلة منذ شهور ، وقد كان له شأن أى شأن فى تهوين المسألة كلها وتلطيفها وإفراغها فى مرحلتها الأخيرة فى قالب السخر والفكاهة .

فلما جلس أمين إلى جانب همام لم ينتظر سؤالا ولم يأبه للضحك الذى كان يلوح على عينى همام ، وقال فى رصانة وتؤدة : انتهت مهمتى !

قال همام : لا ريب فى ذلك . فإن قفزتك وحدها لدليل

أقوى من كل دليل . فأوجز ياصاح . أوجز ولا ضرورة للتفصيل.

قال أمين : الآن هى فى مخدع مريب فى بيت قريب ، تبعتها إليه وعرفته وعرفت اسم صاحبه الذى يستأجره ، وعرفت أنها تغشاه من حين إلى حين .

فلم يزد همام على أن أغمض عينيه هنيهة . أغمضهما كأنه يتحاشى النظر إلى سبة شائنة ، أو كأنه يتهيأ للراحة بعد سهاد طويل فى ارتقاب خبر مكتوم مضنون به عليه . ثم أسرع فصافح أميناً وهز يده هزة الشكر والرضى والابتهاج ، وقال له : صدقت صدقت ، لقد انتهت المهمة ، فهلم نحتفل بتشييعها !

ونشط كلاهما نشاطاً لم يدريا ماذا يصنعان به وكيف يجريانه فى مجراه ، فانطلقا إلى أطراف المدينة يمشيان بل يغذان السير على غير هدى ، وطفقا يطوفان ويعودان إلى حيث كانا حتى صادفا اثنين من أصحابهما الأدباء يلتمسان السهر ولا يتفقان على مكان ، فانساقوا جميعاً إلى ناد متطرف على هامش الصحراء ، وكانت الليلة مقمرة والجو رائقاً والسيارات ذاهبة آيبة فى خفة وطرب واشتياق .

ويتم التوفيق فيكون أحد الأديبين صاحبنا الذى كان أمين يختلق له الأسئلة فى التليفون ، ويتم التوفيق مرة أخرى

فيجرى الحديث فى الأدب وفى النثر البليغ وفى صهاريج اللؤلؤ . . . أى نعم فى صهاريج اللؤلؤ بعينها ، ويقول صاحبنا: لقد قرأته مرتين ! ويوشك أمين وهمام أن يسألا : أكان ذلك بعد نصيحة التليفون ؟ ولكنهما يكتفيان بالإيمان ويحسبان الضحك ، ويضيفانه إلى حساب السرور الخفى الذى يحتويانه منفردين .

فيم كان ذلك السرور ؟

لعله كان سروراً بتقليم مخالب العذاب التى كانت تنوشه من كل جانب وهو ملقى بينها عاجز عن النجاة منها .

ولعله كان سرور الرضى بتحقيق الظنون وانقطاع الشكوك .

ولعله كان سرور القدرة على التفريط فى سارة بغير لاعجة من حسرة ولا خالجة من ندم . . . أو لم تعد امرأة من النساء بعد أن كانت المرأة « المخصوصة » بعاشق واحد دون سائر الرجال ؟ ألم تنقشع عنها سرابيل الحب الأثير التى كانت تغليها وتعلو بها فى ضمير همام ؟ ألم يسقط عنها « سحر » الانفراد الذى جعلها محبوبة لا تغنى عنها واحدة ممن يحملن عنوان النساء ؟

بلى ! كان ذلك أكبر ما سرّ هماماً فى تلك الليلة بما سمع من « بشارة » أمين ، وظل على سروره هذا أياماً يترشفه

ويكرع منه ولا يروى منه بالجرعة والجرعتين ، وصفا له شعور الراحة والسكينة برهة لا ينساها بقية أيامه ، فلم يرنقها عليه كدر ولا ألم من نكسات الداء القديم ، ولم يكد يشعر أن للداء القديم رسيساً باقياً إلا حين انقضت إجازة أمين وودعه صباح يوم للذهاب إلى عمله ، فقد كانا معاً كالسائحين فى طريق واحد معروف المعالم والأنحاء لهما على السواء ، فلما افترقا أحس همام كأنه قد ضل الطريق ، وألح عليه هذا الإحساس المبهم بضعة أيام ، ثم تراجع رويداً رويداً إلى رضوان صحيح ، أو رضوان يقنع نفسه بأنه صحيح .

إلا أن كوبيد شيطان مريد له لؤم الشياطين ونزغاتهم ومكائدهم وكراهتهم أن يتركوا الناس هادئين وادعين ، فمن حين إلى حين كان همام يسمعه يهجس له ويوسوس فى صدره ليسلبه ارتياحه إلى فراق سارة وقدرته على تناسيها ، فلا يفتأ يعاوده أبداً بهذا السؤال :

أليس من الجائز أنها وفت لك فى أيام عشرتها واستحقت وفاءك لها وصيانتك إياها وغيرتك عليها ؟ أليس من الجائز أنها يئست منك فزلت بعد الفراق ؟ ! . . . . ! !

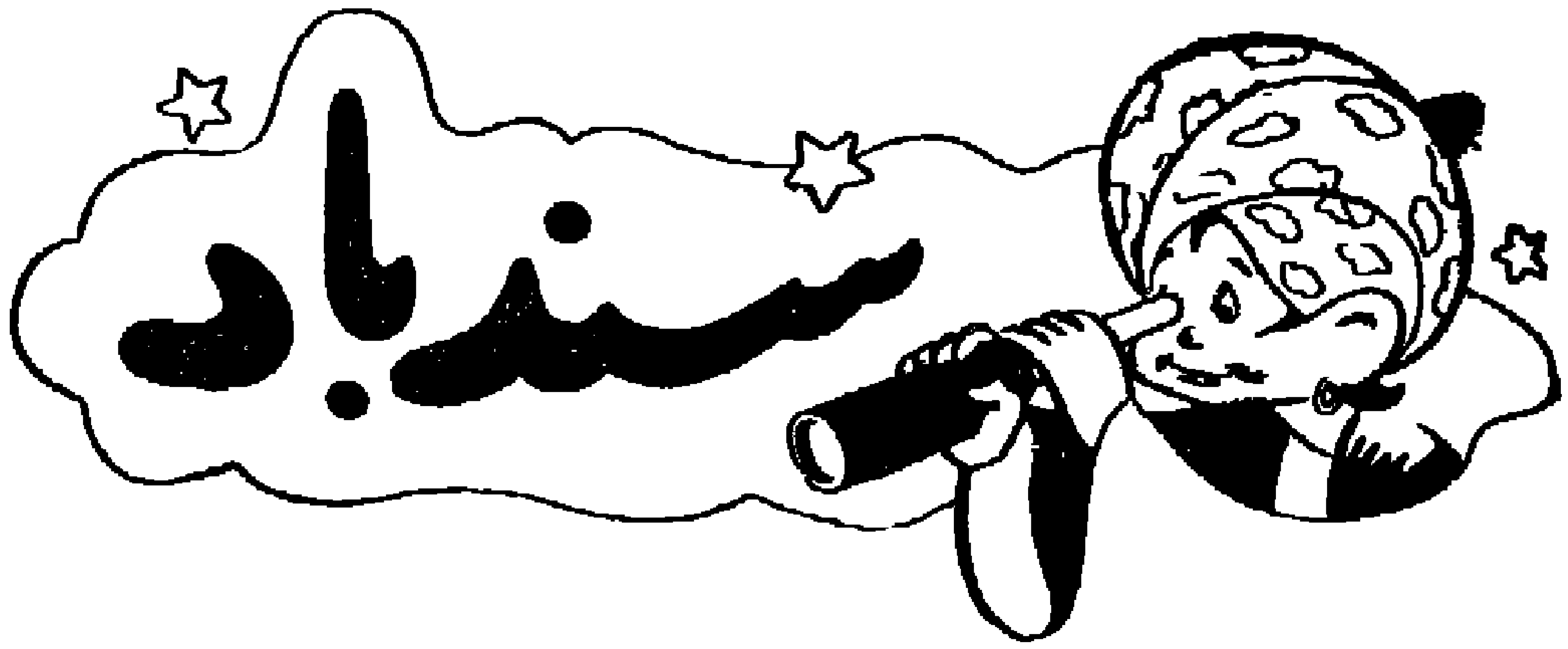
أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو
المتعة والثقافة وسمو النفس

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك


سندباد

جنرال الكتريك





ثلاجات منزلية وتجارية
أجهزة تكييف الهواء
أجهزة تبريد
أعمال الإضاءة الحديثة
مبردات للمياه
أدوات كهربائية منزلية

اشتر الأفضل..

٢،٧٠٠،٠٠٠
ثلاجة جنرال الكتريك تعمل
بنجاح منذ عشر سنوات تقريبا

جنرال الكتريك



الموزعون المعتمدون للقطر المصري

شركة إيسترن للكهرباء

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت باشا ت ٧٨٠٦٠ بالقاهرة
وتباع لدى وكلائنا بجميع أنحاء القطر

SPMO

اقرأ

عبد الستار أحمد فراج

نديم الخلفاء

دار المعارف بمصر

نديم الخلفاء

عبد الستار أحمد فراج

نديم الخلفاء

اقرأ ١٠٩

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٠٩ – فبراير سنة ١٩٥٢



قصة الحياة التى قضاها الحسين بن الضحاك هى قصة الخلفاء والأمراء العباسيين من أيام هرون الرشيد إلى عهد من خلافة المستعين وصورة لحياتهم فى قصورهم ومجالس لهوهم ومجونهم .

وقد تفرقت أخبار الحسين بن الضحاك وأشعاره فى كتب الأدب والتاريخ . وهى أخبار فيها طرافة ومتاع ؛ وشعر فيه رقة وجمال فإذا أكثرت من إيراد شعر للحسين وتوسعت فى ذكر أخباره فذلك عمد مقصود لما نجده فى هذه الأخبار من قصة محبوكة الأطراف مشرقة الجوانب زاخرة بشتى الصور والألوان وكان عملى جمعاً بين الرواية والدراسة وتأليفاً بين القصص والتحليل .

العصر والبيئة

لا يحتاج العصر العباسى وخاصة أيام الرشيد ومن تلاه إلى تقرير ما بلغته الحياة من ترف ورفاهية تشبه ما تتحدث به الأساطير، واقتران تلك الحياة بنهضة فى الأدب وخاصة الشعر تساير ما هم فيه من متاع ونعيم. وكان شعر هذا العصر تصويراً متقناً لحياتهم وتعبيراً بديعاً عما انغمسوا فيه، أو دفعتهم الحياة إلى أن يستمتعوا به ويتذوقوه.

وأبرز ما يتضح من تلك الصورة هو العبث والمجون والخمريات والاستهتار فى ذلك كله. وإذا كان الرشيد ميالا إلى مظهر الورع والاحتشام فإن بنيه فى عهده وبعده إلا المأمون كانوا أصحاب لهو وخلاعة، يجتمعون للصبوح قبل أن يزف الصبح هاتف الأسحار، ويتداعون للغبوق رغبة فى السهر، قبل أن تجرى ليالى العمر إلى غاية الموت حثيثات سراعاً، ويتخيرون ألوان الجمال المتفتح المنبث فى كل مكان. يعرضون كل هذا فى مجالسهم ويحرصون على أن يستثيروا اللذة من مكامنها فى نفوسهم والشهوات من خفاياها فى دمائهم المشبوبة ويتحدثون بما انتهبوا من لذات وأرضوا من شهوات أو يدفعون بعض الناس إلى أن يتحدثوا به ويصوغوه

شعراً يتغنى به المغنون . وفى كل قصر صورة من هذه الحياة الصاخبة العابثة وفى كل ناحية مظهر من هذا المجون والاستهتار ، ووجد الشعراء فى هذا استجابة لرغباتهم وتمكيناً لنزواتهم وأحسوا بالرضا والقبول لافتنانهم فى القول وجموح الخيال فتسابقوا إلى تلك المجالس ليرتشفوا من نعيمها المتحلب وليظفروا بالهبات المغدقة والصلات المتتابعة .

فى هذا العصر الباسم الحالم وتلك البيئة الناعمة الهائمة وذلك الجو المتضوع بالنفحات نشأ وانغمس الحسين بن الضحاك . ويبدو أنه وهب وجاهة وقبولا ومنح رجاحة فى العقل وسداداً في التصرف ومهارة فى الحديث وصبراً على احتمال الحدود المرسومة فى مجالس الخلفاء والأمراء وقصورهم فمكن له ذلك — رجلا وكهلا وشيخاً — من أن تكون له دالة على سادة عصره ترتفع به إلى حد الجرأة أحياناً وتجاوز الحدود فى بعض الأحايين وإن كانت تُقبل تلك ويتجاوز عن هذا حملا على محمل الفكاهة والإيناس .

وكانت للشعراء والأدباء مجالسهم الخاصة بهم تحوى ما تهفو إليه نفوسهم المتطلعة المتشوقة وتضم ما يرضى نزواتهم المتوثبة الجامحة ، فما تحدثنا الكتب أنه اجتمع داود بن رزين وأبو نواس وفضل الرقاشي والحسين بن الضحاك الخليع

وعمرو الوراق وحسين الخياط فى منزل عنان جارية الناطفى فتناشدوا إلى وقت العصر فلما أرادوا الانصراف قالوا : أين نحن الليلة ؟ فكلّ قال عندى ، فقالت عنان : بالله قولوا شعراً وارضوا بحكمى فقال كل منهم شعراً .

قال داود بن رزين :

قوموا إلى قطف لهـــو   وظـــل بيت كنـين
فيـه من الورد والمـر   زنجـــوش والياسـين
وريح مســـك ذكى   وفـــائح الـزرجـون
وقينـــة ذات غنـج   وذات دل رصـــين
تشـــدو بكل ظـريف   من صنعـــة ابن رزيـين

وقال أبو نواس :

لا بـــل إلىّ ثقـــاتى   قوموا بنـــا بحيـاتى
قوموا نـــلذّ جميعـــاً   بقـول هـاك وهـاتى

وقال فضل الرقاشى :

لله درّ عقـــار   حلت ببيت الرقـاشى
عذراء ذات احمـرار   إنى بهـا لا أحاشى
قوموا نـدامائى روّوا   مشـاشكم ومشـاشى
وناطحـونى بكأس   نطاح صُلب الكباش
وإن نكلت فحـلّ   لـكم دمى ورياشى

وقال عمرو الوراق :

قوموا إلى بيت عمرو   إلى سماع وخمر
وساقيات علينا   تطاع فى كل أمر
وبيسرى رخيم   يزهو بجيد ونحر
فهاك أحلى وأشهى   من صيد باز وصقر
هذا وليس عليكم   أولى ولا وقتُ عصر

وقال الحسين بن الضحاك الخليع :

أنا الخليع فقوموا   إلى شراب الخليع
إلى شراب لذيذ   وأكل جدى رضيع
فى روضة جادها   صوب غاديات الربيع
قوموا تنالوا جميعاً   منال ملك رفيع

وقال حسين الخياط :

قضت عنان عليكم   بأن تزوروا حسينا
وأن تقرّوا لديه   بالقصف واللهو عينا
فما رأينا كظرف الحسين   فيما رأينا
قد قرّبَ اللهُ منه   زيناً وباعد شينا
قوموا وقولوا : أجزنا   ما قد قضيت علينا

وقالت عنان :

مهلا فديتك مهلا   عنان أحرى وأولى

بأن تنالوا لـــديها أسنى النعـيم وأحلى
وإن عنـــدى حراماً من الشراب وحـلاّ
لا تطمعوا فى سوى ذا من الـبرية كـلاّ
يا سادتى خـبرونى أجاز حكمى أم لا ؟

فقالوا جميعاً : قد أجزنا حكمك ، وأقاموا عندها .

ومجالس الخلفاء والأمراء والعظماء وما كان يجرى فيها تفيض به الكتب ونعرض لبعضه لما فيه من طرافة وجمال :

قال الحسين بن الضحاك :

شربنا يوماً مع الأمين فى بستان فسقانا على الريق وجدّ بنا فى الشراب وتحرز من أن نذوق شيئاً فاشتد الأمر علىّ وقمت لأبول فأعطيت خادماً من الخدم ألف درهم على أن يجعل لى تحت شجرة أومأت إليها رقاقة فيها لحم فأخذ الألف وفعل ذلك ووثب محمد فقال : من يكون منكم حمارى؟ فكل واحد منهم قال له : آنا . لأنه كان يركب الواحد منا عبثاً ثم يصله ثم قال : يا حسين أنت أضلع(١) القوم فركبنى وجعل يطوف وأنا أعدل به عن الشجرة وهو يمر بى إليها حتى صار تحتها فرأى الرقاقة فتطأطأ فأخذها فأكلها على ظهرى وقال : هذه جعلت لبعضكم ؛ ثم رجع إلى مجلسه

(١) الأضلع : الشديد القوى الأضلاع .

وما وصلني بشيء . فقلت لأصحابي : أنا أشقى الناس. ركب ظهري وذهب ألف درهم مني وفاتني ما يمسك رمقي ولم يصلني كعادتي ما أنا إلا كما قال الشاعر :

ومطعم الصيد يوم الصيد مطعمه   أنى توجه والمحروم محروم

وبلغ من استهتار الشعراء في ذلك العصر وانصراف أذهانهم إلى الخمر ووصفها أن يقتبسوا كل معنى ولو كان من القرآن الكريم فيصفوا به الخمر. ففي نهاية الأرب قال الحسين ابن الضحاك : كنت مع أبي نواس بمكة عام حج فسمع صبيًّا يقرأ « يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا » فقال أبو نواس في مثل هذا يجيء للخمر صفة حسنة ، ففكر ساعة ثم أنشدني :

وسيارة ضلت عن القصد بعدما   ترادفهم أفق من الليل مظلم
فأصغوا إلى صوت ونحن عصابة   وفينا فتى من سكره يترنم
فلاحت لهم منا على النأي قهوة   كأن سناها ضوء ناز تضرم
إذا ما حسوناها أقاموا مكانهم   وإن مزجت حثوا الركاب ويمموا

فحُدث بهذا الحديث محمد بن الحسين فقال : لا ولا كرامة ما سرقه من القرآن ولكن من قول الشاعر :

وليل بهيم كلما قلت غوّرت   كواكبه عادت لنا تتذيّل
به الركب إما أومض البرق يمموا   وإن لم يلح فالقوم بالسير جُهّل

ولا يتورعون عن أن يتحدثوا بفضائحهم أمام الخلفاء ويجعلوها مثاراً للعبث والفكاهة . والخلفاء يطربون لذلك ويشربون عليه .

ولقد روت لنا الكتب ألواناً شتى مما كان يجرى فى العصر العباسى ؛ وإذا قرأنا شعر الحسين بن الضحاك وجدناه تعبيراً صادقاً ووصفاً دقيقاً يمثل زخارف القصور ومباهج النعيم وتفيض معانيه بما كانت ترجوه النفوس وينزع إليه الخيال فليست هناك رغبات حبيسة يكبتها الضغط فتلجأ إلى الظهور فى أثواب من الرياء مصطنعة بل انطلقت النفوس على سجيتها فى حرية متحللة من جميع القيود . وحياة الحسين بن الضحاك أنموذج كامل لتلك الحياة التى كان يحياها الناس فى العصر العباسى ممن أتيحت لهم بسطة فى المال أو تهيأ لهم مكان فى المجتمع المرفه إذ ذاك .

والذى يذكر للحسين بالتقدير والإعجاب أنه لم يصرف جهده فى المدائح ولم يكن ينزل إلى درك الاستجداء وإذا طلب شيئاً من الخلفاء والأمراء طلبه فى غير إلحاح ولا إلحاف ولم يذكر عنه شىء مما يطامن من كبريائه ويحط من قدره فى هذه الناحية إلا حادثة واحدة كانت بالبصرة ولعلها كانت فى نشأته الأولى بل كانت حقيقة فى نشأته الأولى حينما كان

تربأ لأبى نواس فى البصرة يتأدبان ويتعلمان قبل أن يصل إلى بغداد ويشتهر بها أمره ويرتفع فيها قدره . روى ابن المعتز فى طبقاته وأبو الفرج فى أغانيه وأبو هلال العسكرى فى ديوان المعانى أن الحسين كان فى المسجد الجامع بالبصرة فدخل عليه أبو نواس وعليه جبة خز جديدة فقال له : من أين هذه يا أبا نواس ؟ فلم يخبره فتوهم أنه أخذها من مويس بن عمران لأنه دخل من باب بنى تميم فقام الحسين فوجد مويس بن عمران قد لبس جبة خز أخرى فقال له :

كيف أصبحت يا أبا عمران ؟

فقال مويس : بخير ، صبحك الله به .

فقال الحسين : يا كريم الإخاء للإخوان .

فقال مويس : أسمعك الله خيراً .

فقال الحسين :

إن لى حاجة فرأيك فيهـا ... إننا فى قضائها ســيّان

فقال مويس : هاتها على اسم الله وبركته .

فقال الحسين :

جبـــة من جبابك الخز حتى ... لا يرانى الشتاء حيث يرانى

فقال مويس : خذها على بركة الله ومدّ كمه فنزعها ، وجاء وأبو نواس جالس فقال :

ـ من أين لك هذه ؟

فقال الحسين : من حيث جاءتك تلك .

ورويت له أبيات قليلة يطلب فيها اصطناع المعروف من الخلفاء فى صراحة وتحديد للمطلوب فقد ذكروا أن ابنه محمداً توفى وكانت له أرزاق فمات فقطعت أرزاقه فقال يخاطب المتوكل ويسأله أن يجعل أرزاق ابنه المتوفى لزوجته وأولاده :

إنى أتيتــك شافعــاً بولى عهــد المســلمينا
وشبيهــك المعــتز أو جه شافع فى العــالمينا
يا ابن الخلائف الأولين ويا أبا المتــأخرينا
إن ابن عبــدك مات والأيام تخترم القــرينا
ومضى وخــلف صبية بعــراصه متــلددينا(١)
ومُهــيرة عــبرى خــلاف أقارب مستعبرينا
أصبحن فى ريب الحــوادث يحسنون بك الظنونا
قطع الولاة جــراية كانوا بهــا مستمسكينا
فامنن برد جميــع ما قطعوه غــير مراقبينا
أعطاك أفضــلَ ما تؤ مّل أفضَــلُ المتفضلينا

فأمر المتوكل له بما سأل فقال يشكره :

---

(١) المتلدد : المتحير .

ياخير مستخلف من آل عباس اسلم وليس على الأيام من باس
أحييت من أملى نضواً تعاوره تعاقب اليأس حتى مات بالياس

وهذه الحادثة كانت من رجل منكوب على كبر السن فى ولد ترك ذرية ولا يستطيع هو أن يمدهم بشىء يجعلهم يعيشون فى المستوى الذى كانوا فيه .

وذكروا أن المعتصم أقطع الناس الدور بسر من رأى وأعطاهم النفقات لبنائها ولم يقطع الحسين بن الضحاك شيئاً فدخل عليه فأنشده قوله :

يا أمين الله لاخطة لى ولقد أفردت صحبى بخطط
أنا فى دهياء من مظلمة تحمل الشيخ على كل غلط
صعبة المسلك يرتاع لها كل من أصعد فيها وهبط
بوّئنى منك كما بوّأتهم عرصة تبسط طرفى ما انبسط
أبتنى فيها لنفسى موطناً ولعقبى فرطاً بعد فرط
لم يزل منك قريباً مسكنى فأعد لى عادة القرب فقط
كل من قربته مغتبط ولمن أبعدت خزى وسخط

فأقطعه داراً وأعطاه ألف دينار لنفقته عليها .

وتلك الحادثة فى عاصمة جديدة يريد أن يستقر بها فى دار يملكها . على أن مدحه للخلفاء والأمراء وطلبه منهم لم يكن فيه ما يشعر بالنقص وهبوط القدر فى عصر كانت

أموال الدولة وخزائن المملكة تحت تصرف الخلفاء يهبون من شاءوا كما يشاءون .

وإذا كان فى ذلك العصر شعراء نظموا فى الزهد والتقليل من شأن الحياة كمحمود الوراق وأبى العتاهية فإنما هم قلة لا يعتد بها ولا تجد لقولهم سميعاً إلا على أنه من الأدب المنظوم، ذلك لأن شعرهم كان مظهراً يخالف فعلهم ، يقولونه ولا يعملون به أو هو قول فى خريف العمر وإدبار الحياة والوقوف على شفا القبور، ومع هذا وذاك فقد كان صوتاً فى واد ، لا تحده مرتفعات ترجع صداه ، وقد انتهوا بعد أن كانوا كثماراً تشذ عن أوانها ضئيلة ضامرة ولا ينالها إلا القليل، وفوق هذا فقد كانت بضاعة لا تجد لها رواجاً فى سوق من خلفوا الرشيد .

مجالس الشراب فى القصور

يذكر ابن المعتز قاعة لمجلس الشراب كانت لأحد الخلفاء ويعرض لما يدور فيها فيقول : بنى للمخلوع « محمد الأمين » مجلس لم تر العرب والعجم مثله قد صور فيه كل التصاوير وذهب سقفه وحيطانه وأبوابه وعلقت على أبوابه ستور معصفرة مذهبة وفرش بمثل ذلك من الفرش فلما فرغ من جميع أسبابه وعرف ذلك اختار لدخوله يوماً وتقدم بأن يؤمر الندماء والشعراء بالحضور غدوة ذلك اليوم ليصطبحوا معه فيه ففعلوا فلم يتخلف أحد فدخلوا فرأوا شيئاً لم يروا مثله قط ولم يسمعوا به من إيوان مشرف فائح فاسح يسافر فيه البصر وجعل كالبيضة بياضاً ثم ذهب بالإبريز المخالف بينه باللازورد بذى أبواب عظام ومصاريع غلاظ تتلألأ فيها مسامير الذهب قد قمعت رءوسها بالجوهر النفيس وقد فرش بفرش كأنه صبغ الدم منقش بتصاوير الذهب وتماثيل العقيان ونضد فيه العنبر الأشهب والكافور المصعد وعجين المسك وصنوف الفاكهة والشمامات والتزايين . فدعوا له وأثنوا عليه وأخذوا مجالسهم على مراتبهم عنده ومنزلتهم منه ثم أقبل عليهم

فقال : إنى أحببت أن أفرغ متعة هذا المجلس معكم وأصطبح فيه بكم وقد ترون حسنه فلا تنغصوا ذلك بالتكلف ولا تكدروا سرورى بالتحفظ ولكن انبسطوا وتحدثوا وتبذلوا فما العيش إلا فى ذلك . . . ثم لما طعموا أتى بالشراب كأنه الزعفران أصفى من وصال المعشوق وأطيب ريحاً من نسيم المحبوب وقام سقاة كالبدور بكؤوس كالنجوم فطافوا عليهم وعملت الجوارى من خلف الستائر بمزاهرها فشربوا معه من صدر نهارهم إلى آخره فى مذاكرة كقطع الرياض ونشيد كالدر المفصل بالعقيان وسماع يُحيي النفوس ويزيد فى الأعمار فلما كان آخر النهار دعا بعشرة آلاف دينار فى صوانى فأمر فنثرت عليهم فانتهبوها والشراب بعد يدور عليهم بالكبير والصغير من الصرف والممزوج وليس يمنع أحد منهم مما يريد ولا يكره على ما يأباه » .

لقد كان للحسين فى هذه المراتع والمجالس نصيب وافر يغشاها بعد أن اشتهر أمره وذاع ذكره ، ورققت حواشيه مجالسُ صالح بن الرشيد ، فأعدته تلك المجالس إلى أن يتسامع الناس بظرفه وطيب أحاديثه وعذب شعره فيتلقفه مجتمع أوسع مجالا وأسبغ نعمة وأكثر مرحاً وأبلغ اهتماماً بالخلاعة والخمر والمجون . وهذه المناظر الخلابة وتلك الحياة الصاخبة وما يكفله

أصحاب السيادة فيها من رزق موفور للندماء والشعراء تطلق اللسان العيي وتفجر الجنان الأصم وترقق القلوب الجامدة وتفتق الخيال المنطوى فما بالك إذا كانت الشاعرية متوثبة واللسان طلقاً والقلب جموحاً ! وقد وصل الخليع إلى المرتبة التى نالها بجدارة فى هذا المضمار فرتبت له أرزاق وقدر له عطاء وكفل له عيش هنىء أغناه عن السعى فى طلب المعاش وصانه عن تكلف المديح ، لاستدرار الأرزاق من كل ناحية ، ولم يكن الخليع نهماً إلى جمع المال وتضخيم الثروة فهو بما وصل إليه قانع وعن نفسه راض وبحياته التى يحياها قرير وإنها لحياة ما له فى دونها وطر

الديارات

ومن مغانى اللهو ومراتع اللذة تلك الديارات المنبثة على شواطئ الأنهار فى العراق حيث كانت تقصد للتنزه والاستمتاع لما يحيط بها من البساتين ، ويترقرق حولها من المياه ، ويتجاوب فى جنباتها من أغاريد ومزامير ، تنساب فى هدوء الليل وأنفاس السحر فينشط لها أولئك الذين جعلوا دأبهم مبادرة اللذات ومباكرة الصبوح . وإن فى دقات النواقيس وصياح الديكة وصخب الدجاج لإيذاناً بمعاقرة خبيئات الدنان وتنفيساً عما يخامر الصدور من لواعج الغرام .

ولم يقتصر أمر زيارتها والاسترواح بمجاليها على الشعراء والأدباء بل تعدى ذلك إلى الخلفاء والأمراء وقد أخذ الحسين من هذا بنصيب موفور فما كانت تطيب لهم اللذات إلا إذا شاركهم فيها من يجتبون من واصفى هذا المتاع وذلك النعيم .
فدير مديان على نهر كرخايا قرب بغداد ، وكان ديراً حسناً حوله بساتين وعمارة، نزله المعتصم ومعه الحسين بن الضحاك فقال فيه :

حُث المدام فإن الكأس مترعة بما يهيج دواعى الشوق أحيانا

إنى طربت لرهبان مجاوبة بالقدس بعد هدوّ الليل رهبانا
فاستنفرت شجناً منى ذكرت به كرخ العراق وأحزاناً وأشجانا
فقلت والدمع فى عينى منحدر والشوق يقدح فى الأحشاء نيرانا
يا دير مديان لا عُرّيت من سكن
ما هجت من سقم يا دير مديانا
هل عند قَسك من علم فيخبرنى
أن كيف يسعد وجهُ الصبر مَنْ بانا
سقيا ورعيا لكرخايا وساكنه
بين الجنينة والروحاء من كانا

وقد تقوم الحانات بالقرب من تلك المراتع وتحوى من مديرى الكؤوس ومرتلى الألحان من يدير اعتدال قوامهم وحسن وجوههم ولحظات عيونهم رءوسَ الشاربين :

يا «عمر نصر» لقد هيجت ساكنة
هاجت بلابل صب بعد إقصار
لله هاتفة هبت مرجعة
زبور داود طوراً بعد أطوار
يحثها دالق[1] بالقدس محتنك
من الأساقف مزموراً بمزمار

---

(١) دلق البعير شقشقته : أخرجها ولا يكون ذلك إلا بصوت من هديره وقد استعار ذلك لصوت الراهب وهو يرتل .

عجت أساقفها فى بيت مذبحها
وعج رهبانها فى عرصة الدار
خمار حانتها إن زرت حانته
أذكى مجامرها بالعود والغار
يهتز كالغصن فى سُلب مسودة
كأن دارسها جسم من القار
تلهيك ريقته عن طيب خمرته
سقيا لذاك جنى من ريق خمار
أغرى القلوبَ به ألحاظُ ساجية
مرهاء (١) تطرف عن أجفان سحار

وبعد افتضاض بواطى الخمر وأباريق المدام وارتشاف ما تحويه من شراب يشع كاللهب مصبوغاً بالدماء يُغرق اللاهون فى المجون وينهمكون فيما تذهب به الظنون كل مذهب :

وعواتق باشرت بين حدائق ... ففضضتهن وقد غنين صحاحا
أتبعت وخزة تلك وخزة هذه ... حتى شربت دماءهن جراحا
أبرزتهن من الخدور حواسراً ... وتركت صون حريمهن مباحا
فى «ديرسابر» والصباح يلوح لى ... فجمعت بدراً والصباح وراحا
فاذهب بظنك كيف شئت وكله ... مما اقترفت لذاذة وجماحا

(١) المرهاء : العين الخالية من الكحل .

ولا يريد الحسين أن تكتحل العيون بالنوم بين هذه المغانى وتلك الكؤوس ونقر النواقيس ونجوى الحمام :

من لصب لا يرعوى لملام نضو كأسين من هوى ومدام
عاد من لوعة الصبابة بالكا س وخلى الملام للوّام
يا نديمىّ لا تناما عن الرا ح ولا ترقبا سفور الظلام
هاجنى للصبوح نقر النواقيـ س ونجوى حمامة وحمام
فاصبحانى قبل الصبوح مداماً قهوة مزة بماء غمام
وألمّا على المنازل بالقفـ ص فنوحا نياحة المستهام

وهو يقول فى دير عمر مريونان — وإن كانت قد نسبت إلى أبى نواس فى ديوانه ما عدا البيت الرابع منها .

آذنك الناقوس بالفجر وغرد الراهب فى « العمر »
واطردت عيناك فى روضة تضحك عن حُمر وعن صُفر
وحنّ مخمور إلى خمرة وجاءت الكاس على قدر
فارغب عن النوم إلى شربها ترغب عن الموت إلى النشر

ولما قال الحسين بن الضحاك قصيدته الآتية فى دير سرجس

أخوىّ حىّ (١) على الصبوح صباحاً
هُبّا ولا تعدا الصباح رواحا

(١) حى : كلمة يدعى بها يقال : حى على الصلاة أى هلموا .

هذا الشّميط (١) كأنــه متحــير
في الأفق سُد طريقه فألاحا(٢)

ما تأمران بقهوة قروية قرنت إلى درك النجاح نجاحا
مهما أقام على الصبوح مساعد وعلى الغبوق فلن أريد براحا
عودا لعادتنا صبيحة أمسنا فالعود أحمد مغتدى ومراحا
هل تعذران بدير سرجس صاحباً بالصحو أو تريان ذاك جُناحا؟
إني أعيذكما بألفــة بيننا أن تشربا بقرى الفرات قراحا
عجت قواقزنا(٣) وقدّس قسّنا هزجاً وأصخبنا الدجاجُ صياحا
للجاشرية(٤) فضلها فتعجلا إن كنتما تريان ذاك صلاحا
يا ربّ ملتبس الجفون بنومة نبهته بالراح حين أراحا (٥)
فكأن ريّا الكاس حين ندبته للكاس أنهض في حشاه جناحا

أنشدها لأبي نواس ذات يوم عند باب أم جعفر من الجانب الغربي فلقيه أبو نواس بعد أيام في ذلك الموضع فأنشده :

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا وأملّه ديك الصباح صياحا
أوفى على شرف الجدار بسدفة غرداً يصفق بالجناح جناحا

---

(١) الشميط : الصبح .
(٢) ألاح : أومض أو تلألأ .
(٣) القواقز : جمع قاقوزة وهي القدح .
(٤) الجاشرية : شرب يكون مع الصبح .
(٥) أراح : صار ذا راحة .

فغضب الحسين وسب أبا نواس فقال له أبو نواس : دع عنك هذا فوالله لا قلت فى الخمر شيئاً أبداً وأنا حى إلا نسب إلىّ .

ويبدو أن الديارات كان لما تحفل به من الكروم التى تفيض عناقيدها عن الحاجة إليها ولما فيها من أقبية وطيب هواء — يعنى من فيها بتعتيق الخمر لتباع إلى راغبيها فتكون مصدراً للربح وتوفير المال ليعيش عليه من يقيمون فيها من الرهبان .

الغناء

بلغ الغناء فى العصر العباسى من المنزلة ما جعل الخلفاء يتعلمون أصوله وقواعده ويلحنون الشعر ليتغنى به المغنون والقيان وكانت مجالسهم لا تخلو منه . وللمغنين عندهم مراتب عالية وكانوا يمنحونهم الأموال الوفيرة فإن كمال لذاتهم وتمام أنسهم لا يكون إلا بالعزف والغناء . وبعد أن كانوا إلى عهد الرشيد يتغنون بشعر القدامى غالباً صاروا يتغنون بشعر من اصطفاهم الخلفاء والأمراء لأنه يصف أحوالهم ويمس حياتهم التى يتعشقونها فى صميمها ومالوا إلى أن يكون قولهم شعراً رقيقاً سهلا خفيفاً على الأسماع قصير الفقرات وكانوا يقترحون على الشعراء أن يقولوا فى الغرض الذى يرمون إليه ليلقى على المطربين بعد أن يلحنه الخبيرون وإن لهذه الألحان عند أصحابها لدفاتر تعرض على من شاء ليتخير منها ما يريد أن يلقى على جواريه . وكانت الجارية التى تجمع إلى جمالها حسن الصنعة وحلاوة الصوت تظفر من الرضا والإعجاب والتكريم بما لا يدانيها فيه غيرها .

ومن أسباب شهرة الحسين الخليع أن اقترح عليه صالح بن الرشيد عمل شعر يغنى فيه ففعل ووفق فوجدوا فيه طلبتهم

يقترحون عليه وكان هو رقيق الحس يفهم باللحظ ما يراد من القول لأنه كان يشارك أيضاً فيما يفعلون وما يحسون .

وكثير من شعر الحسين لحنوه حتى ما كان فى الرثاء . والكثرة الغالبة فى شعره تصلح أن تكون ألحاناً رقيقة وأنغاماً عذبة. وهنا أسوق قصة أوردها ابن أبى طاهر فى كتاب بغداد وأبو الفرج فى الأغانى لما فيها من طرافة ولأنها مصداق ما أقول :

يذكر عمرو بن بانة أنهم كانوا عند صالح بن الرشيد فقال صالح لعمرو : لست تطرح على جوارى وغلمانى ما أستجيده . فقال له عمرو : ابعث إلى منزلى فجىء بالدفاتر واختر منها ما شئت حتى ألقيه عليهم فبعث إلى منزله فجىء إليه بدفاتر الغناء فأخذ منها دفتراً ليتخير مما فيه فمر شعر الحسين بن الضحاك يرثى الأمين ويهجو المأمون وهو :

أطل حزنا وابك الإمام محمدا   بحزن وإن خفت الحسام المهندا

فقال له صالح : أنت تعلم أن المأمون يجىء إلىّ فى كل ساعة فإذا قرأ هذا ، ما تراه يكون فاعلا ؟ ثم دعا بسكين فجعل يحكه. وصعد المأمون من الدرجة ورمى صالح الدفتر فقال المأمون: يا غلام . الدفتر . فأتى به فنظر فيه ووقف على الحك فقال : إن قلت لكم ما كنتم فيه تصدقونى ؟ قالوا : نعم . قال : ينبغى أن يكون أخى قال لك : ابعث فجىء بدفاترك ليتخير

ما تطرح على جواريه فوقف على هذا الشعر فكره أن أراه فحكه قلنا : كذا كان . فقال : غنه يا عمرو . فقال : يا أمير المؤمنين الشعر لحسين بن الضحاك والغناء لسعيد بن جابر — وسعيد كان نديم الحسين وصديقه — فقال : وما يكون ؟ غنه . فغنيته فقال : اردده . فرددته ثلاث مرات فأمر لى بمال كثير وقال : حتى تعلم أنه لم يضرك عندى » .

وهذه أبيات لحنوها فى عهدهم وإنها لجديرة بالتلحين والغناء وهى مطلع قصيدة هنأ بها الواثق بالخلافة فاتصلت أيامه بعد ذلك ولم يزل من ندماء الواثق :

أكاتم وجدى فما ينـــكتم ... بمن لو شكوت إليه رحم
وإنى على حسن ظنى به ... لأحذر إن بحت أن يحتشم
ولى عند لحظته روعة ... تحقق مـــا ظنـــه المتهم
وقـــد علم الناس أنى له ... محب وأحسبه قـــد عـــلم
وإنى لمغض على لوعـــة ... من الشوق فى كبدى تضطرم
عشية ودعت عن مقـــلة ... سفوح وزفرة قلب سدم (١)
فمـــا كان عند النوى مسعد ... سوى العـــين تمزج دمعاً بدم
سيذكر من بـــان أوطانه ... ويبـــكى المقيمين من لم يقم

---

(١) السدم : الحزين النادم .

الغزل

كان شعراء الغزل فى العصر العباسى — وما أكثرهم — لا يقتصرون على إنسان واحد يؤثرونه بالحب ويفيضون فيه القول ولم تلازم حبهم الروحية التى تصون المحبوب من العبث والمجون وإنما كان دأبهم تلمس الجمال فى كل موطن والتطلع إلى الحسن أينما كان ولا يريدون إلا أن يستمتعوا به ويرتشفوه ففى أحشائهم تضطرم نار الشهوات وفى نفوسهم تلتهب حرارة الدماء وفورة النزوات وهم يتحدثون فى فخار بما قضوا من وطر ويشكون فى حسرة مما كابدوا من ألم إذا أفلتت الفرصة من أيديهم أو امتنعت عليهم مصادر اللذات . وليس هذا الذى يحدث بينهم بعجيب فإنما هى جوار وغلمان أعدهم تجار ذوو مهارة ودراية لا يرجون من إعدادهم إلا المكسب الوفير والربح الجزيل فتداولتهم أيد كثيرة وتقلبوا فى منازل متباينة ونقدتهم أكف حساسة وأعين خبيرة وكان للخمر وما تبعثه من نشوة وللغناء وما ينشره من جو حالم وللتملك وما تحمل معانيه من غلبة وسطوة أكبر الأثر فى انهيار الحصون وتسليم القياد . فليس غريباً إذن أن يكون غزل الشعراء منبئاً عن الاستجابة لهدير الفحول لأنه الصورة الصادقة

لحقيقة الواقع فى تلك الحياة .

والحسين الخليع كان يهيم بالجمال هيام أهل عصره ويتحدث عنه حديثهم ويستمتع به كما يستمتعون . قال له قائل أى شىء كان خبرك أمس ؟ فقال اسمعه شعراً :

يا حبـــذا الزورة والزائره زائرة زارت على غفـــلة
خديعـــة الساحـــر للساحره فلم أزل أخدعها ليلـــتى
وأنعمت دارت بها الدائره حتى إذا أذعنت بالرضا
وباتت الجوزاء بى ساهره بت إلى الصبح بها ساهراً

. . . .

ويبدو أن الجوارى المغنيات كن يألفن المنازل ولا يتورعن من دخول البيوت ولعلهن كن يقصدن مشهورى الشعراء ليأخذن من شعرهم ما يتغنين به .

أو لعلهن كن يخشين من الهجاء الذى يؤدى بهن إلى كساد الحال ، فالحسين نفسه هجا مغنية فهربت وانقطع خبرها . وهو قد يثور حيناً ولعل ثورته للحرمان ويحاول السلو فلا يستطيع وينذر الحبيبة بألا يغرها صفحه وعلى الرغم مما فى هذه الأبيات التى سنرويها من مظهر الحرارة وتأجج العاطفة وادعاء الإخلاص فإنها تستدعى فى أذهاننا شعراً آخر لعلها تقليد له وتشبيب بما ليس له حقيقة :

كأنى إذا فارقت شخصك ساعة ... لفقدك بين العالمين غريب
وقد رمت أسباب السلو فخانني ... ضمير عليه من هواك رقيب
فمالى إلى ما تشتهين مسارع ... وفعلك مما لا أحب قريب
أغرك صفحي عن ذنوب كثيرة ... وغضى على أشياء منك تريب
كأن لم يكن فى الناس قبلى متيم ... ولم يك فى الدنيا سواك حبيب
إلى الله أشكو إذ ذكرت فلم يكن ... لشكواى من عطف الحبيب نصيب

ألا تذكر هذه الأبيات بقول امرئ القيس

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
أغرك منى أن حبك قاتلى ... وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

ولكن الحسين يدعى الوفاء وأنه مذ عرف محبوبه لا يناجى غيره والحبيب يتجنى عليه ذنوباً لم يرتكبها :

بنفسى حبيب لا يمل التعتبا ... إذا زدته فى العذر زاد تغضبا
يطيل ضرارى بامتحان صبابتى ... وقد علم المكنون منها المغيبا
فلست أناجى غيره مذ عرفته ... وأنظر إلا خائفاً مترقبا
أيا من تجنى الذنب أعلم أنه ... على ثقة أن لست بالغيب مذنبا
أما لخضوعى من ضميرك شافع ... من السقم قد يشفى الملح المعذبا

يخيل إلى أن كل شعر يتغزل فيه الحسين بن الضحاك على طريقة ذكر الوفاء والتعجب من القلب الذى يقيم للغادر على العهد حتى يكاد يقتله الوجد ، وادعاء أنه لم يطرف له جفن

٣٣
إلا وذكر الحبيب خاطر بفؤاده إنما هو شعر قاله فى عهده الأول قبل أن يندمج فى مفاتن بغداد سواء كان ما قاله صادقاً فيه أم تقليداً لما كان يحفظه إذ ذاك .

الخمر

يقول الصولى فى كتاب أشعار أولاد الخلفاء : سمعت بعض العلماء بالشعر يقول : أول الشعراء المتقدمين فى صفة الخمر الأعشى ثم الأخطل ثم أبو نواس ثم الحسين بن الضحاك ثم عبد الله بن المعتز . وفى ديوان أبى نواس المخطوط رواية الصولى يقول الصولى أيضاً : ولو يعلق بكلام أبى نواس فى الخمر والمجون كلام أو شابهه مشابهة تخفى لكان شعر الحسين بن الضحاك . أما أبو الفرج فى أغانيه فينصفه حيث يقول : كان أبو نواس يأخذ معانيه فى الخمر فيغير عليها ، وإذا شاع له شعر نادر فى هذا المعنى نسبه الناس إلى أبى نواس وله معان فى صفتها كان سابقاً إليها فاستعارها أبو نواس .

والحق أن هناك معانى سبق إليها الخليع وتبعه الشعراء من بعده . فقد وصفوا حبب الخمر وشبهوه بالدر وتكلموا عن مزجها بالماء وتفاعله معهاوتصاعد الحبب على سطح الكاس ولكن الحسين رأى مرة فى هذا الحبب استدارات كرءوس الواوات تجر وراءها ذيولاً كذيول الواوات ولكن الاستدارة وما يصحبها من ذيول لا تستقيم ولا تتصل وإنما هى ككتابة الأعسر أو العسراء حيث

لا يحسنان – فى رأيهم – استقامة الحروف واتصالها فيقول :

يحكى تطوقها بالكأس من ذهب   طوقاً أطافت به واوات عسراء

فيأخذ أبو نواس المعنى فيقول :

كتب المزاج على مقدم تاجها   سطرين مثل كتابة العسراء

ويقول أبو نواس عن الحبب أيضاً :

خلـته فى جنبات الـ   كأس واوات صغـارا

ويرى الخليع مرة أخرى أن هذا الذى يجلل الكأس بعد المزج بالماء شبيه بجلد الحية الرقشاء فيقول :

كأن تأليف ما حاك المزاج لها   سلخ تجللها عن ظهر رقشاء

فيأخذ أبو نواس المعنى والصورة فيقول :

كأن مازجها بالماء طوقها   منزوع جلدة ثعبان وأفعاء

ويشبه الحسين الخمر بدمعة العين المرهاء أى الخالية من الكحل حتى تكون كاملة الصفاء فيقول :

فضت خواتمها فى نعت واصفها   عن مثل رقراقة فى جفن مرهاء

فيغير عليه أبو نواس ويقول :

أتى بها قهوة كالمسك صافية   كدمعة منحتها الخدّ مرهاءُ

والحسين يرى أن الشارب والخمر كالقمر يرتشف من بعض نجوم الفلك :

كأنمـا نصب كأسه قمر   يكرع فى بعض أنجم الفلك

فيغير أبو نواس على المعنى ويبدع فى إبرازه :

إذا عب فيها شارب القوم خلته　　يقبل فى داج من الليل كوكبا

وفى قصيدة الحسين بن الضحاك الهمزية التى مطلعها :

بدلت من نفحات الورد بالآء　　ومن صبوحك در الإبل والشاء

والتى هى أطول ما عرف له من قصائد قصرها على وصف الخمر وعارضه أبو نواس لما أن سمعها بقصيدته :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء　　وداونى بالتى كانت هى الداء

وعارضها ابن المعتز بقصيدته :

أمكنت عاذلتى من صمت أباء　　ما زاده التهى شيئاً غير إغراء

يتتبع الحسين الخليع نشأة الخمر حيث أودعت عروق كرومها التى تخير أجود أنواعها النعمان الأكبر فى أرض سهلة لينة :

راح الفرات عليها فى جداوله　　وباكرتها سحابات بأنواء

فاستنفض القطر ما وشى المصيف لها　　واستبدلت جُدداً من بعــد إفضاء

تنشى فواصل(١) كالآذان منشأة　　مثل الجمان عقوداً أى إنشاء

فلما استوى ثمرها عناقيد دهماء بين أوراق خضراء انطلق إليها جماعات شعث لوحتهم الشمس فى سراويلهم الصغيرة

---

(١) الفواصل: جمع فاصلة وهى الخرزة تفصل بين الخرزتين .

الداكنة يتخيرون ما حقه أن يجنى ويقطف ثم يهال ماجنوه فى خابيات واسعة ليستخلص منه أطيب عصيره ثم تدفن قدور العصير فى مكان لا بارد ولا حميم :

حتى إذا أنضح الوسمى صفحته قطراً وأعقبه قـــرا بأنداء
صينت عن الشمس فى قيطون(١) محتنك
من اليهود لأمّ الراح غداء
ما زال يهملها كالمستخف بها عصر الشباب كناس غير نساء
يطرى سواها إذا سيمت مدافعة عنها ويوسعها من كل إزراء
يسومها البيع أحياناً فيمنعه أن قد يؤملها يوماً لإثراء
حتى إذا الدهر أبقى من سلالتها جزء الحياة وقد ألوى بأجزاء
دبت إليه من الأحداث باسلة أبكت عوابد من أحبار تيماء
فمات والقلب مشغول بحظوتها لم يشف من شجنيه علة الداء
حتى إذا أسندت للشرب واحتضرت
عند الشروق لبسامين أكفاء
فضت خواتمها فى نعت واصفها عن مثل رقراقة فى جفن مرهاء

وهى فى صفاتها لا تكاد تراها العين إلا وهماً وتتسلل أفاعيلها :

تمازج الروح فى أخفى مداخله كما تمازج أنوار بأضواء

(١) القيطون : مثل المخدع .

لا يدرك الحس منها حين تبعثها   إلا التنسم أو لدغاً بأحشاء

وأنها ريحانة النفوس التى تهواها فإذا مزجت بالماء تراقصت وهاج فى قعرها الحبب متصاعداً وحينئذ :

يحكى تطوقها بالكأس من ذهب   طوقاً أطافت به واوات عسراء

وأصبح من تفاعلها لها عرش على الماء لكنه :

عرش بلا طنب من فوقه زبد   قد جل عن صفة فى حسن لألأ

فلا يستطيع النظر أن يتأمل سنا أنوارها إلا إذا كانت له لحظات كلحظات الحولاء وتراها :

كأن تأليف ما حاك المزاج لها   سلخ تجللها عن ظهر رقشاء

لا شيء أحسن منها فى تصرفها   من كف منتطق الأعطاف وشاء

فإذا سنحت لك تحت جنح الليل أشرقت فى جنبات نفسك ، وهى فى رأيه :

تلك التى وسمتنى غير محتشم   وسم المجون وسمتنى بأسماء

لا أتبع اللهو فيها غير مترعة   منها تفنن لى فى كل سراء

ما أطيب العيش لولا ذكر واحدة   فيها مفارقة بين الأحباء

هذا النعيم ولا عيش تكون به   هند برابية من بعد أسماء

وكيف لا يعنى الحسين بالخمر وقد كانت سبيله إلى نيل أوطاره وبلوغ مآربه .

وإنه ليتحساها حتى يوشك الليل أن ينقضى فيهوّم تهويمة

المنتشى فيسند رأسه على كفه وقد فعلت فيه ما يريدها أن تفعله :

ما زلت أشربها والليل معتكر حتى تضاحك فى أعجازه القمر
ثم انثنيت على كفى وقد أخذت منى مآخذ ما فى دونها وطر

وإنه ليحيي ساقيه ويلح عليه أن يحيف عليه فى الشرب فقد خبر الحياة ورأى أن الأشقياء هم من عدمو الكؤوس :

يا مدير الكأس حييـ ـت عـلى الكاس مديّا
سأقـول الدهـر أحسـ ـنت وإن كنت مسيّا
لست أستعفيك من حيـ ـفك فى السقى عليـّا
قد حلبت الدهر طور ين خليـاً وشجيّا
فأرى مَنْ عَدم الصبـ ـوة والكاس شقيـّا

الهجاء

يذكر أبو الفرج وغيره أن الحسين بن الضحاك هاجى مسلم بن الوليد فانتصف منه .

وعلى الرغم مما قرأته من مصادر مخطوطة ومطبوعة لم أجد شعراً للحسين يهجو به مسلم بن الوليد . وديوان مسلم خال من هجاء الحسين بن الضحاك . حقيقة أن مسلم بن الوليد عاش إلى سنة ٢٠٠ وأنه كان من فحول الشعراء وأنه اجتمع فى مجالس مع الحسين وقد يحدث بينهما من الاحتكاك والملاحاة والتنافس ما يدعو إلى الهجاء ولكننا لم نعثر عليه .

والهجاء الذى عثرنا عليه فى غير مسلم يبدو عليه الفتور والركاكة ولعل الحسين لم يكن يقصد إليه بطبعه وإنما يكره على قوله إكراهاً . وسترى فى نوادره وأخباره هجاء طلب منه أن ينظمه، وإنى لأذكر بعضاً آخر مما أثر عنه من هجاء .

كان محمد بن الحارث بن بسخنر لا يرى الصبوح ولا يؤثر على الغبوق شيئاً ويحتج بأن من خدم الخلفاء كان اصطباحه استخفافاً بالخدمة لأنه لا يأمن أن يدعى على غفلة ، أما الغبوق فإنه يؤمنه من ذلك . وكان المعتصم يحب

الصبوح فكان يلقب ابن بسخنر الغبوقى فقال فيه حسين بن الضحاك وفى حاتم الريش الضراط وكان من المضحكين :

حب أبي جعفر للغبوق كقبحك يا حاتم مقبلا
فلا ذاك يعذر فى فعله وحقك فى الناس أن تقتلا
وأشبه شيء بما اختاره ضراطك دون الحلا فى الملا

فانظر إلى قوله « وحقك فى الناس أن تقتلا » وانظر إلى الشطر الأخير وستجدهما من سقط الكلام تعبيراً وتركيباً ولكنه قد يُكون بالنسبة إلى عصرهم نوعاً مقذعاً فى الهجاء .

والهجاء القوى هو الذى قاله فى العباس بن المأمون وذلك فى أيام خلافة المعتصم :

خل اللعين وما اكتسب لا زال منقطع السبب
يا عُرة الثقلين لا ديناً رعيت ولا حسب
حسدُ الإمام مكانه جهلا حذاك(١) على العطب
وأبوك قدمه لما تخير وانتخب
ما تستطيع سوى التنفس والتجرع للكرب
ما زلت عند أبيك منتقص المروءة والأدب

(١) حذاك على العطب : جعلك محاذياً له يريد أنه قادك إليه وأوقعك فيه .

الشاعر

ألا إنما الدنيا وصال حبيب وأخذك من مشمولة بنصيب
وعيشك بين المسمعات ممتعاً بفنين من عزف وشدو مصيب
ولم أر في الدنيا كخلوة عاشق وبذلة معشوق ونوم رقيب
وعدّيَ ساعات النهار ورقبتي إلى الشمس لما آذنت بمغيب

تلك صورة صادقة للحياة التي عاشها الحسين بن الضحاك الخليع دارت في خلده وجرت على لسانه نغماً عذباً وشعراً رقيقاً فقد استمتع بوصال من هفا إليه قلبه ونهل وعبّ من رحيق بنت الكروم وظفر عند الخلفاء والأمراء بالحظوة والقرب فاستمع إلى أنات الأوتار ونفثات المزمار بين جو من سحر الغناء وبهجة الطرب وقد وهبه الله من طول العمر وفسحة الأجل ما جعله يتذوق لذائذ الدنيا ومتع الحياة .

وهو أبو عليّ الحسين بن الضحاك بن ياسر الخليع الأشقر باهلي بالولاء وقيل بالنسب من شعراء الدولة العباسية المبرزين . وإنه ليحدثنا عن نفسه كما يروى — صاحب الأغاني — فيقول : « كنت أنا وأبو نواس تربين نشأنا في مكان واحد وتأدبنا بالبصرة وكنا نحضر مجالس الأدباء متصاحبين ثم

خرج قبلي عن البصرة وأقام مدة واتصل بي ما آل إليه أمره وبلغني إيثار السلطان وخاصته له فخرجت عن البصرة إلى بغداد ولقيت الناس ومدحتهم وأخذت جوائزهم وعددت في الشعراء وهذا كله في أيام الرشيد إلا أني لم أصل إليه واتصلت بابنه صالح فكنت في خدمته فغُنّي يوماً بهذا الصوت :

أألن زُمّ أجمال وفارق جيرة وصاح غراب البين أنت حزين؟

فقال لي صالح : قل أنت في هذا المعنى شيئاً فقلت :

أألن دب حساد ومل حبيب وأورق عود الهجر أنت جنيب (١)
ليبلغ بنا هجر الحبيب مرامه هل الحب إلا عبرة ونحيب ؟
كأنك لم تسمع بفرقة ألفــة وغيبة وصل لا تراه يؤوب

فأمر أن يغنى فيه . واتصلت بمحمد ابن زبيدة في أيام أبيه وخدمته ثم اتصلت خدمتي له في أيام خلافته » .

ثم لما قتل الأمين أكثر من رثائه والبكاء عليه وبالغ في ذلك مما جعل المأمون يسرها له في نفسه ويحرمه من عطفه وما زال يوسط لديه الكبراء حتى رضي عنه وإن كان ذلك على بعد الدار ومنع الاتصال . واتصلت أسبابه بالخليفة المعتصم وبنيه فكان ينادمهم ويجالسهم أمراء وخلفاء وتوالت عليه المنح والعطايا وتردد شعره في مجالسهم وكان آخر شعر

(١) الجنيب : من يشكو جنبه .

قاله فى خلافة المنتصر المتوفى سنة ٢٤٨ هـ وكان المنتصر خرج ظهراً والناس وراءه :

ألا ليت شعرى أبـــدر بدا   نهـــاراً أم الملك المنتصر
إمـــام تضمن أثوابـــه   على سرجـــه قمراً من بشر
حمى الله دولـــة سلطانه   بجنـــد القضاء وجند القدر
فلا زال ما بقيت مـــدةٌ   يروح بها الدهرُ أو يبتكر

ثم توقفت ملكته الشعرية لبلوغه من الكبر عتيًّا فلم يذكر له شيء فى خلافة المستعين ولعل أيامه الباقية بعد المنتصر كانت ضعفاً وهزالا حتى توفى سنة ٢٥٠ فى خلافة المستعين . ولقد نبغ فى أيام حظوته الثانية بعد خلافة المأمون شعراء أكثروا من مدائح الخلفاء والعظماء كأبى تمام (١٩٠ — ٢٣٢) وعلى ابن الجهم المتوفى سنة ٢٤٩ هـ والبحترى (٢٠٥ — ٢٨٤). ويبدو أن الحسين أغناه سيب الخلفاء وولاة العهد والأمراء عن الاستجداء ومدح من هم أقل من ذلك شأناً بل لعل ملازمته الخلفاء والأمراء صرفته عن أن ينظر إلى من هم دونهم مقاماً . وقد تكون عزة نفسه هى التى جعلته يشعر أنه فى مستوى أولئك الممدوحين وليس هناك ما يدعوه إلى أن يطامن من كبريائه ما دام الله قد وهبه الحظوة عند أمراء المؤمنين . قال الحسين بن الضحاك : « ضربنى الرشيد فى خلافته

لصحبتى ولده ثم ضربنى الأمين لممايلة ابنه عبد الله ثم ضربنى المأمون لميلى إلى محمد ثم ضربنى المعتصم لمودة كانت بينى وبين العباس بن المأمون ثم ضربنى الواثق لشىء بلغه من ذهابى إلى المتوكل وكل ذلك يجرى مجرى الولع بى والتحذير لى ثم أحضرنى المتوكل وأمر شفيعاً بالولع بى فتغاضب المتوكل على فقلت له : يا أمير المؤمنين إن كنت تريد أن تضربنى كما ضربنى أباؤك فاعلم أن آخر ضرب ضربته بسببك . فضحك وقال : بل أحسن إليك يا حسين وأصونك وأكرمك » .

سنه

أما وفاته فهو كغيره من المشهورين السابقين عرف تاريخها فقد كانت وفاته فى خلافة المستعين سنة ٢٥٠ ﻫ وقيل فى سنة ٢٥١ ولكنه كغيره أيضاً من السابقين لم تعرف سنته التى ولد فيها . وبين ما ذكره الذاكرون وما يستنتج من رواية الراوين فرق بيّن وخلاف كبير فالكامل لابن الأثير وعقد الجمان وتاريخ بغداد ومن نقل عنه تذكر أنه ولد سنة ١٦٢ ﻫ والأغانى وبعض المصادر الأخرى تذكر أنه عمّر عمراً طويلا حتى قارب المائة السنة ومعنى هذا أنه ولد بين سنتى ١٥٠ و ١٥٥ ويؤيد القول الأخير ما رواه أبو الفرج من

أن الحسين قال : « لا أذكر السنة التى ولدت فيها ولكنى أذكر موت شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ » ومعنى هذا أنه ـ ليذكر موت شعبة ـ ولد بين سنتى ١٥٠ و ١٥٥ على أقل تقدير . ويؤيده أيضاً ما سبق أن ذكرناه من أنه كان وأبو نواس تربين ؛ مع العلم أن أبا نواس تختلف الروايات فى عام ولادته : ١٣٦ و ١٣٧ و ١٤١ و ١٤٥ فإذا أخذنا بآخر هذه الأقوال علمنا أن الحسين عاش مائة عام وخمسة وإذا أخذنا بأولها علمنا أن الحسين عاش مائة عام وخمسة عشر. ولعل خير ما نستخلصه أنه ولد بين سنتى ١٥٠ و ١٥٥ وأنه حضر مع أبى نواس مجالس الأدباء مع اختلاف بينهما فى السن وإن يكن غير كبير ونأخذ هذا من شعره فهو تسجيل منه وتاريخ فقد أمره المتوكل بأن ينادمه ويلازمه فلم يُطق ذلك لكبر سنه فقال للمتوكل بعض من حضر عنده : هو يطيق الذهاب إلى القرى والمواخير والسكر فيها ويعجز عن خدمتك ، فبلغه ذلك فدفع إلى أحمد بن حمدون بالأبيات الآتية وسأله إيصالها فأوصلها إلى المتوكل وشيعها بكلام يعذره وقال : لو أطاق خدمة أمير المؤمنين لكان أسعد بها فقال المتوكل: صدقت وأمر له بعشرين ألف درهم:

أما فى ثمانين وفيتها عذير وإن أنا لم أعتذر

فكيف وقـد جزتها صاعداً   مع الصاعدين بتسع أخـر
وقـد رفع الله أقلامـه   عن ابن ثمانين دون البشر(١)
سوى من أصرّ عـلى فتنة   وألحد فى دينه أو كفـر
وإنى لمن أسراء الإلـه   فى الأرض نصب صروف القدر
فإن يقض لى عمـلا صالحاً   أثابَ وإن يقض شراً غفر
فـلا تلح فى كبر هـدنى   فلا ذنب لى أن بلغت الكبر
هو الشيب حل بعقب الشباب   فأعقبنى خوراً من أشر
وقد بسط الله لى عـذره   فمن ذا يلوم إذا ما عـذر
وإنى لفى كنف مغـدق   وعـز بنصر أبى المنتصر
يبارى الرياح بفضل السما   ح حتى تبلد أو تنحسر
له أكد الوحى ميراثـه   ومن ذا يخالف وحى السور
وما لاحسـود وأشياعـه   ومن كذب الحق إلا الحجر

فلو كانت ولادته سنة ١٦٢ لكان عمره عند مقتل المتوكل (٢٠٦ — ٢٤٧) خمسة وثمانين عاماً وهذا لا يتفق مع اعتذاره فى شعره بأن عمره تسعة وثمانون . ولا يقال إن ضرورة الشعر ألجأته إلى اختيار لفظة تسع فالوزن يستقيم إذا قال : بخمس

(١) قال ياقوت فى معجم الأدباء : الأصل فى قول الحسين هو ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا بلغ العبد ثمانين سنة فإنه أسير الله فى الأرض تكتب له الحسنات وتمحى عنه السيئات »

بست . بسبع فالذى يفهم من شعره السابق أنه ولد على الأقل فى سنة ١٥٦ إذا افترضنا قوله فى السنة التى قتل فيها المتوكل ٢٤٧ . وفى شعر آخر أراد أن يعفيه المتوكل من خدمته حينما كانت سن المتوكل ثلاثين عاماً ، حوالى سنة ٢٣٦ ، فكان عذره أن عمره ستة وثمانون عاماً :

أسلفت أسلافك فيما مضى ... من خــدمتى إحدى وستينا
كنت ابن عشرين وخمس فقد ... وفيت بضعــاً وثمانينا
إنى لمعروف بضعف القوى ... وإن تجلــدت أحايينا
وإن تخملت على كبرتى ... خــدمة أبنــاء الثلاثينا

فالذى يؤخذ من هذا الشعر أن الحسين ولد على الأكثر حوالى سنة ١٥٠ هـ .

مجموع شعره

على الرغم من شهرة الحسين وعلو منزلته وإبداعه فى شعره لا يوجد له ديوان مجموع وقد يكون منزوياً فى بعض المكتبات الخاصة شأنه فى ذلك شأن بعض المشهورين الذين اختفت دواوينهم كصالح بن عبد القدوس وسلم الخاسر وعلى بن جبلة ودعبل الخزاعى .. . إلخ من سبقوه أو عاصروه على أن صاحب الفهرست يذكر أن شعر الحسين بن الضحاك كان فى مائة

وخمسين ورقة وهذا مما يقنعنا بأن شعره جمع فى ديوان وهناك كثير من الكتب تشير إلى قصائد له على أنها موجودة بين الناس ولا تذكرها اعتماداً على شهرتها أو تذكر بعضها أو مطالعها وقد نعثر عليها وقد لا نظفر بها يضاف إلى ذلك أن بعض شعره قد نسب إلى غيره أو حفظ دون أن ينسب إلى إنسان بخصوصه . يذكر أبو الفرج أن أبا نواس كان يأخذ معانى الحسين بن الضحاك فى الخمر فيغير عليها وإذا شاع له شعر نادر فى هذا المعنى نسبه الناس إلى أبى نواس وله معان فى صفتها أبدع فيها وسبق إليها فاستعارها أبو نواس » . وفى ديوان أبى نواس رواية الصولى : « فليس يرون شعراً لأحد فى المذكر إلا نحلوه أبا نواس وكذا يفعلون فى الخمر » وفى أخبار أبى نواس لابن منظور : « قال أبو عبد الله أحمد بن صالح ابن أبى نصر : كان أبو بحر عبد الرحمن بن أبى الهداهد شاعراً مجيداً وكان لا يكاد يقول شيئاً إلا نسب لأبى نواس وكذلك الحسين بن الضحاك وقد غلب على كثير من شعرهما » وابن المعتز فى طبقات الشعراء يذكر شعراً فى المجون لوالبة ابن الحباب ثم يعقب عليه بقوله : « وهذا الشعر مما ينحله العامة أبا نواس وذلك غلط لأن العامة الحمقى قد لهجت بأن تنسب كل شعر فى المجون إلى أبى نواس » وفى موضع

آخر يذكر شعراً للحسين ويعقب عليه بقوله : « وقد نسبت العوام هذا إلى أبي نواس وذلك منحول إنما هو للحسين بن الضحاك » .

وإذا علمنا أن أكثر شعر الحسين هو فى الخمر والمجون أيقنا أن بعضه قد نحله الناس لأبي نواس بل إن ابن المعتز — مع سابق قوله — نسب لأبي نواس شعراً هو للحسين الخليع وذلك فى كتابه فصول التماثيل ، ونسب الثعالبي — فى كتابه منتخبات الكتابة — لسعيد بن حميد شعراً هو للحسين بن الضحاك . . . إلخ .

وإذا قارنا بين ما ذكره صاحب الفهرست من أن مجموع شعر الحسين مائة وخمسون ورقة أى من ٢٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ بيت من الشعر وبين هذا العمر الطويل الذى عاشه نجده مقلا . وفى مجموع أشعاره التى عثرت عليها فى حوالى سبعين مصدراً بين مطبوع ومخطوط نجد له كثيراً من المقطعات الصغيرة التى لا تبلغ أن تكون قصائد ولعل هذا وذاك يرجع إلى أنه لم يكن مكثراً من المديح كما لم يكن وقاعاً فى أعراض الناس ولعله يرجع أيضاً إلى أنه كان شاعر اللهو والمجون والغناء الخاصة بالخلفاء والأمراء ولعله فوق هذا وذاك قد انقطع عن الشعر أيام خلافة المأمون وهى فترة طويلة درات عشرين

عاماً فلا لهو فى مجالس ولامجون فى مجتمعات وقد تكون خشيته من المأمون جعلته يتجنب مواطن اللهو والخلاعة حتى لا يأخذه المأمون بذلك وهو يعلم أنه عليه غاضب وله مقص ومجانب ، فلما عادت له الأيام بعد وفاة المأمون كان عرامه قد هدأ وتدفقه قد تقاصر فأمسى شعره نتفاً ومقتطفات فى مجالس الخلفاء الخاصة التى لا تحتاج إلى تطويل . وهناك كتب كانت مظنة وجود شعر للحسين ولكنها خلت منه أو خلت من نسبة شعر إليه وهى حماسة أبى تمام وحماسته الصغرى وحماسة البحترى والبيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد والشعر والشعراء لابن قتيبة . فأما أبو تمام فقد مات قبل الحسين وأما الجاحظ فقد مات بعده بخمسة أعوام والباقون عاصروه وعاشوا بعده مدداً تتراوح بين ٢٧ و ٥٠ عاماً على أنهم جميعاً كانوا يختارون من شعر السابقين ويحجمون عن تدوين شعر المحدثين فضلا عن المعاصرين . ولم أجد فى شعر الحسين الذى عثرت عليه فى جميع المصادر ذكراً للبرامكة بخير أو شر أو ذكراً للخليفة هرون الرشيد وهذا ما يدعونا إلى أن نقرر أن قدوم الحسين إلى بغداد كان فى أواخر أيام الرشيد وهذا ما يجعلنا أيضاً نعجب من شاعرية الحسين التى لم تلمع حتى سن الأربعين تقريباً وتحلق مع أمثاله من المجيدين

الذين سبقوه إلى هرون كسلم الخاسر المتوفى سنة ١٨٦ والعباس ابن الأحنف المتوفى سنة ١٩٣ وأبى نواس المتوفى سنة ١٩٥ وأشجع السلمى المتوفى سنة ٢٠٠ ومسلم بن الوليد المتوفى سنة ٢٠٠ وأبى العتاهية المتوفى سنة ٢١١ . وقد يكون اللهو والخلاعة والخمر والمجون شغله عن المدح أو كانت — كما يرى معالى الدكتور طه حسين باشا — سبباً فى انصراف هرون عنه وحرمانه من غشيان مجلسه لما كان يتحلى به الرشيد من الوقار والتورع . وما نحسب أن شاعراً ذا خطر عاصر البرامكة أو هرون ولم يجر على لسانه شيء من ذكرهم مدحاً أو هجاء أو رثاء وقد يكون فيما لم نعثر عليه من شعر الحسين شيء من ذلك الذى يتناول الناس ذماً وثناء جرى فى البرامكة وهرون .

تقدير الحسين بن الضحاك

التقى أبو نواس وحسين بن الضحاك فقال أبو نواس أنت أشعر أهل زمانك فى الغزل قال : وفى أى ذلك ؟ فقال : ألا تعلم يا حسين ؟ قال : لا . قال : فى قولك :

وابأبى مفحم لعـــزته ... قلت له إذ خلـــوت مكتتما
تحب بالله من يخصك بالو ... د فمـــا قال لا ولا نعما
ثم تولى بمقلـــتى خجـــل ... أراد رجع الجواب فاحتشما

فكنت كالمبتغى بحيلته   برءاً من السقم فابتدا سقما

ومفحم أو مقحم غلام كان لابن شغوف .

ويروى ابن المعتز فى طبقاته وأبو الفرج فى أغانيه أن على ابن محمد النوفلى قال : قال لى محمد بن عباد : قال لى المأمون وقد قدمت من البصرة : كيف ظريف شعرائكم وواحد مصركم ؟ قلت : ما أعرفه . قال : ذاك الحسين بن الضحاك أشعر شعرائكم وأظرف ظرفائكم أليس هو الذى يقول :

أجرنى فإنى قد ظمئت إلى الوعد   متى تنجز الوعد المؤكد بالعهد

أعيذك من صد الملوك وقد ترى   تقطع أنفاسى عليك من الوجد

فما لى شفيع عند حسنك غيره   ولا سبب إلا التمسك بالود

أيبخل فرد الحسن فرد صفاته   علىّ وقد أفردته بهوى فرد

رأى الله عبد الله خير عباده   فملكه والله أعلم بالعبد

ألا إنما المأمون للناس عصمة   مميزة بين الضلالة والرشد

قال : ثم قال لى المأمون : ما قال فىّ أحد من شعراء زماننا بيتاً أبلغ من بيته :

رأى الله عبد الله خير عباده   فملكه والله أعلم بالعبد

فاكتب إليه فاستقدمه وكان حسين عليلا وكان يخاف بوادر المأمون لما فرط منه فقلت للمأمون : إنه عليل يا أمير المؤمنين علته تمنعه من الحركة والسفر . قال : فخذ كتاباً

إلى عامل خراجكم بالبصرة حتى يعطيه ثلاثين ألف درهم فأخذت الكتاب بذلك وأنفذته إليه فقبض المال .

وفى شرح المقامات والأغانى : قال على ابن الجهم دخلت يوماً على المتوكل وهو جالس فى صحن « خلده » وفى يده غصن آس وهو يتمثل بهذا الشعر :

بالشط لى سكن أفديه من سكن
أهدى من الآس لى غصنين فى غصن
فقلت إذ نظما إلفين والتبسـا سقياً ورعياً لفأل منكما حسن
فالآس لا شك آس من تشوقنا شاف وآس لنا يبقى على الزمن
أبشرتمانى بأسباب ستجمعنا إن شاء ربى ومهما يقضه يكن

فلما فرغ من إنشادها قال لى – وكدت أنشق حسداً – : لمن هذا الشعر يا على ؟ فقلت : للحسين بن الضحاك يا سيدى فقال لى : هو عندى أشعر أهل زماننا وأملحهم مذهباً وأظرفهم نمطاً . فقلت وقد زاد غيظى : فى الغزل يا مولاى . قال : وفى غيره وإن رغم أنفك ومت حسداً .

وفى الأغانى أن أبا العباس محمد بن يزيد الأزدى قال : حسين بن الضحاك أشعر المحدثين حيث يقول :

أى ديباجة حسن هيجت لوعة حزنى
إذ رمانى القمر الـزا هر عن فترة جفـن

بأبى شمس نهــار برزت فى يوم دجــن
قــربتنى بالمنى حتـ ى إذا ما أخلفتــنى
تركــتنى بين ميعـــ اد وخـــلف وتجنى
ما أرانى لى من الصبـــ وة إلا حسن ظنى
إنمـــا دامت على الغد ر لمـــا تعرف منى
أستعيـــذ الله من إعـ راض من أعرض عنى

وفى الأغانى أن أبا العباس ثعلب أنشد للحسين بن الضحاك :

لا وحبيـــك لا أصا فح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استرا ح وإن كان موجعـــا
كبدى فى هواك أسـ قم من أن تقطعا
لم تدع سورة الضنى فىّ للسقـــم موضعاً

ثم قال ثعلب : ما بقى من يحسن أن يقول مثل هذا .

وقد رويت هذه الأبيات فى مصارع العشاق منسوبة لأعرابى وفى زهر الآداب منسوبة إلى محمد بن يزيد الأموى .

وقال ابن الرومى الشاعر : حسين بن الضحاك أغزل الناس وأظرفهم . فقيل له : حين يقول ماذا ؟ فقال حين يقول :

يا مستعـــير سوالف الخشف اسمـــع لحلفة صادق الحلف
إن لم أصبح ليلى : وياحربى من وجنتيك وفترة الطرف

فجحدت ربى فضل نعمته   وعبدته أبداً على حرف

وسُمع الرياشى ينشد هذين البيتين ويستحسنهما جداً ويستظرفهما وهما :

إذا ما الماء أمكننى   وصفو سلافة العنب
صببت الفضة البيضاء   فوق قراضة الذهب

فقيل له : من يقولها يا أبا الفضل : قال : أرق الناس طبعاً وأكثرهم ملحاً وأكملهم ظرفاً حسين بن الضحاك .

ويكفى أن ابن المعتز قال عنه فى طبقات الشعراء : « جيد المدح جيد الغزل جيد الهجو كثير المجون صاحب جد وهزل وهو عندهم فى بحار أبى نواس بل هو أنقى شعراً وأقل تخليطاً منه » ، وأن أبا الفرج قال عنه فى أغانيه : « شاعر أديب ظريف مطبوع حسن التصرف فى الشعر حلو المذهب لشعره قبول ورونق صاف » .

ولحضرة صاحب المعالى الدكتور طه حسين باشا فصل ممتع فى دراسة الحسين بن الضحاك دوّنه فى كتابه حديث الأربعاء أقتطف منه ما يلى :

« شاعر ظريف شديد الظرف ربما انقطع نظيره فى شعراء العصر العباسى كله وهو مع ظرفه وإسرافه فى المجون قليل الفحش فى اللفظ غير متهالك على القول الآثم والألفاظ

المنكرة . . . . وهو على ظرفه ورقة حاشيته وحرصه على نقاء اللفظ وطهره شاعر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . . .

كان أبو نواس كالحسين ماجناً شارباً وصافاً للخمر محبا للغلمان ولكنه كان من جهة مستهتراً متهتكاً يتمدح بالاستهتار والتهتك متسفلا فى شعره لا يتكلف الإجادة اللفظية والمعنوية فى كل وقت . كان يتكلف الإجادة إذا تحدث إلى الخلفاء والأمراء وأشراف الناس ، وكان يرسل نفسه على سجيتها إذا تحدث إلى الشعراء والأدباء وأوساط الناس ولكنه كان يتحدث إلى الدهماء وإلى طبقات من الرقيق وغلمان الحانات والأديرة فكان يتبسط إذا تحدث إلى هؤلاء وكان كثيراً ما يقول الشعر وهو سكران فلم يكن يستطيع الحرص على الإجادة اللفظية ثم كان أبو نواس ساخراً شديد السخر فكان يتعمد الإساءة إلى أهل اللغة وأصحاب النحو فيحرف عليهم قواعدهم ويسخر من أصولهم وهو مع ذلك لا يتجاوز اللغة ولا وجهة الصواب فيها . أما الحسين فكان طول حياته متصلا بالأمراء والخلفاء والوزراء والكتاب مقصوراً عليهم لا يكاد ينظم الشعر إلا لهم أو بمحضر منهم فكان بمعزل عما كان يضطر إليه أبو نواس من التحدث إلى العامة ودهماء الناس وسفلة الرقيق وكان الحسين بحكم منزلته من القصور مضطرا إلى أن يصطنع

هذه اللغة المختارة النقية التي تصلح للأرستقراطية فقل الفحش جداً في شعره وغلبت المتانة والرصانة على ألفاظه وأساليبه وغلبت الجودة معانيه ثم لم يكن الحسين يتخذ السخرية مذهباً ولم يكن يعنيه أن يغيظ أهل الدين ورجال الصلاح ولم يكن يعنيه أن يغيظ أئمة اللغة وأصحاب النحو فكان في شعره هدوء واطمئنان خلا منهما شعر أبي نواس ولم يكن أقل من أبي نواس صدقاً ولا استرسالا مع الطبيعة والسجية لذلك لا نجد في شعره هذا الاحتشام المتكلف الذي يصطنعه المنافقون من الفساق وإنما كان الرجل فاسقاً لا يجرد فسقه ولا يظهره للناس عارياً كأبي نواس كما أنه لم يكن يحليه ولا يزينه فيخلع عليه أثواب الورع والدين . كذلك كان الحسين وله إلى هذا كله ميزة ربما لم يعظم منها حظ أبي نواس وهي مفهومة جداً . كان يعاشر الأمراء والخلفاء وكان ينشئ لهم الشعر ليتغنى لهم فيه المغنون وقد أكثر من ذلك حتى أثر في شعره وأصبح شعره كله موسيقياً وقل أن تجد للحسين شعراً لم يتغن فيه المغنون وقل أن تجد له شعراً لا يصلح للغناء لا لجودة لفظه ومعناه فحسب بل لهما ولهذا التنسيق الموسيقي الذي لا تكاد تجده عند غيره ومن هنا آثر أو كاد يؤثر دائماً القصار من بحور الشعر . ومن هنا اجتهد في أن يضيف إلى هذه الأوزان

الشعرية العروضية أوزاناً أخرى موسيقية فانظر إلى هذا البيت فهو يمثل ما أريد تمثيلا صحيحاً :

قد غاب ــ لا آب ــ من يراقبنا ونام ــ لا قام ــ سامر الخدم

فانظر إلى قوله : قد غاب لا آب ، وإلى قوله : نام لا قام ، تجد إلى جودة المعنى وظهور حرص الشاعر على لذته هذا النغم الموسيقى الذى زاوج بين غاب وآب وبين نام وقام. وهذا النحو من الموسيقى كثير فى شعر الحسين . وجملة القول فى شخصية هذا الشاعر أنه كان كأبى نواس ولكنه أنقى من أبى نواس لفظاً وأعف منه لساناً وأحرص منه على اختيار المتين من الكلام ولم يكن يعدل أبا نواس ، فى خفة الروح وحلاوة المجون ولم يكن يبلغ أبا نواس فى الاستهتار والتهتك . ولم يكن أقل من أبى نواس حرارة فى العاطفة وصدقاً فى اللهجة ولكنه كان يمتاز بشىء من الرجولة والوفاء لم يكن لأبى نواس منه حظ عظيم . . . . »

شعره وشخصيته

لا نريد أن نعرض لشعر الحسين من ناحية علم البلاغة ومدى انطباقها عليه فهذا النوع من الدراسة العلمية فيه إفساد للكلام البليغ وتمزيق للأوصال المتشابكة فى انسجام. فالأزهار جميلة بمنظرها وتضوع رائحتها فإذا وضعت تحت التحليل العلمى فقدت على الأقل ما يكسوها من منظر جميل . والكلام البليغ يكفى أن يشتمل على الألفاظ الرقيقة والتراكيب السليمة والمعانى البديعة مع الانسجام بين هذه الأجزاء وتلك الألوان . وفى الأذواق — وإن اختلفت — قدر مشترك فى الإحساس بالجمال أو أن فى الجمال الحق جاذبية قوية تمسك فى أسرها جميع الأذواق . وقد وضعوا مثلا مقاييس للجمال ومع ذلك فإنها إذا توافرت قد ينقصها شىء يقلل من قدرها . وقد لا تجتمع المقاييس ومع ذلك فإنها تستولى على الألباب بما يسرى فيها من روح الانسجام .

ومن الممكن أن أقول لك إن الخليع كان حسن التشبيهات وأورد لك أمثلة وأقول إنه كان لطيف الكناية وأسوق إليك أدلة أو أقول إنه كان يدخل على أسلوبه المحسنات اللفظية

وأذكر على ذلك شواهد . ولكنى لا أحب أن آتى بشىء من هذا وإنما أعرض لك شعره ومناسباته لتحس مقدار خفته على لسانك وتطريبه فى أذنك وتسلله إلىٰ قلبك وستحكم بأنه شعر يستحق التقدير وشاعر يستحق الإعجاب فلندعه طاقات من الزهر بعيدة عن التحليل العلمى الجاف .

وإذا لم أحلل شعره فإنى أرسم لك صورة منه عنه منتزعة من واقع حياته . فهو شخصية لم ينلها من السوء ما نال أبا نواس على يد والبة بن الحباب فلم يتحدث الرواة عنه بما كان يلصق بأبى نواس بل بما كان يذكره أبو نواس عن نفسه فى غير حياء وإذا كان قد نشأ أبو نواس وشاعرنا تربين فى البصرة يحضران مجالس العلم فإن والبة اتصل بأبى نواس فى الكوفة أو الأهواز وأبو نواس لطمته الغربة صغيراً . لهذا نعجب حينما نعلم أن ابن المعتز فى ترجمته للحسين يقحم قوله : « وهو غلام أستاذه والبة بن الحباب » فلعل ابن المعتز حُدِّثَ بأنهما نشآ معاً فحسب أن الخليع تتلمذ على والبة كما تتلمذ عليه أبو نواس وعلى كل حال فإنه لم يذكر ذلك أحد غير ابن المعتز ولعلها مقحمة على كتابه من المعلقين .
والحسين شخصية محبوبة يدلنا على هذا امتداد اتصاله بالخلفاء والأمراء زمناً يقرب من ستين عاماً ويحرص كل واحد منهم

على أن يجعله نديمه . وهو بعيد عن التلون والرياء صادق الوفاء وقد كشف عن هذا الجانب الممدوح من خلقه إخلاصه للأمين وما كاد يجره عليه وفاؤه من البلاء ، وهو مع ذلك مرح متسامح يضربه الخلفاء على سبيل الولع به فيتحدث عن ذلك ولا يضيق به . وإن جسمه لمتين التركيب فقد قال له الأمين أنت أضلع القوم أى أشدهم وأقواهم أضلاعاً وهو صبور قادر على احتمال الحدود المرسومة فى القصور والخضوع لها لا ينشد الحرية المطلقة بعكس أبى نواس الذى كان يهرب من الخلفاء ويقول : « إنما يصبر على مجالسة هؤلاء الفحول المنقطعون الذين لا ينبعثون ولا ينطقون إلا بأمرهم والله لكأنى على النار إذا دخلت عليهم حتى أنصرف إلى إخوانى ومن أشاربه لأنى إذا كنت عندهم فلا أملك من أمرى شيئاً » وكان فى الحسين نوع من الترفع عن مديح الناس لا يلجأ إلى ذلك إلا إذا اضطرته ظروف الحياة وما دام العيش الرغد مكفولا والمكان الطيب ميسراً فلا أرب له فى جمع الأموال .

يسر وأترابه وشاعريه الحسين

نشأ الخليع فى البصرة موطن العلم والنحو واللغة حيث الجد والتوقر والبعد عن اللهو والمجون . وكانت تلك هى المدرسة الأولى التى كوّن الحسين فيها نفسه ولم يكن من بسطة الرزق ورخاء العيش بحيث يمتع نفسه ويرفه عنها وليس هناك من الشعر إلا مدح الزعماء الذين تسيطر عليهم مظاهر البداوة وليس من مطلب إلا أمثال الجبة التى يطلبها من مويس بن عمران ، فكمنت فى أعماق الحسين رغبات الشباب لا تجد لها انطلاقاً ولا متنفساً فلما بلغه ما ظفر به أبو نواس فى بغداد ارتحل إليها لعل الحظ يبتسم له والحياة تتفتح أمامه ولم يكن له من ألوان الشعر إلا المدح وطلب الجوائز حتى دخل بلاط صالح بن هرون الرشيد فدخل بذلك فى دنيا الجمال والخيال والفتنة والسحر وقفزت شياطين شعره تتراقص مبهورة أمام ما تحويه هذه القصور من ألوان النعيم وما تجمع فيها من مفاتن تتعطش إليها فورات الشباب .

أطيب الغذاء بين أبدع المناظر وأمتع الشراب يطوف به سقاة كأنهم ولدان مخلدون وألوان من الموسيقى وأنواع من الغناء يهز أوتار القلوب ويطلق حبيس الرغبات . هذا صالح

ابن الرشيد شباب وجمال وأخوه أبو عيسى وغلمانه إشراق ووضاءة وبين ذلك كله تشجيع على الوصف ودفع إلى الغزل وتسامح عند العربدة وتغاض عن النظرات المنهومة، وفى هذا الجو المشرق المتضوع تفتحت مفاتن يسر غلام أبي عيسى زهرة ناضرة جذبت إليها الأنظار وحامت حولها الفراشات فوقع فى هواه صالح والخليع .

وكانت للحسين حظوة فى هذه المجتمعات لفتت إليه الأنظار وله شعر يتغنى به المغنون وعبث فى مجالس الشراب وظرف مقبول ، وأخذت نظراته تزداد فضولا على وجه يسر ، ويسر يلحظ ما فى هذه النظرات من معان فيقابلها بالحذر والحيطة وإن كان يجد من نفسه إعجاباً بالحسين ومجالسه .

كان الحسين يوماً فى جماعة وقد جاءه يسر فجلس عنده وأخذوا يتحدثون ملياً ثم غازله الحسين فقال له يسر : إياك والتعرض لى واربح نفسك فقال الحسين :

أيها النفاث فى العقـــد أنا مطوى على الكمد
إنما زخرفت لى خدعاً قدحت فى الروح والجسد
هات يا خـــداع واحدة من كثير قلته وقدى[1]
ليت شعرى بعد حلفك لى بوفاء العهد بعـــد غـــد

(١) قدى : حسبي أى كفانى .

ما الـــذى بالله صيّرَهُ بعد قرب فى مدى الأبد
ما لأنس كان مبتـــذلا منك لى بالأمس لم يعـــد
إيه قل لى غـــير محتشم هل دهانى فيك من أحد
حبـــذا والكاس دائرة لهـــونا والصيد بالطرد
وحديث فى القلوب له أخذٌ يصدعن فى الكبد
يوم تعطيني وتأخـــذها دون ندمانى يداً بيــد
فإذا ألويت هيجنى تلع من ظبيـــة البـــلد
وإذا أصغيت ذكرنى نشـــر كافور على بــــرد
ذاك يوم كان حاسدنا فيه معذوراً على الحسد

وفى اجتماع للحسين مع يسر فى منزل صالح جعل الحسين يشكو إليه ما به فلا يسمع يسر له ويكذبه ثم سكن نفاره وضحك إليه وتحدثا ساعة فأنشد حسين قوله فى ذلك :

سائل بطيفك عن ليلى وعن سهرى وعن تتابع أنفاسى وعن فكرى
لم يخل قلبى من ذكراك إذ نظرت عينى إليك على صحوى ولا سكرى
سقياليوم سرورى إذ تنازعنى صفو المدامة بين الأنس والخفر
وفضل كأسك يأتينى فأشربه جهراً وتشرب كأسى غير مستتر
وكيف أشمله لثمى وألزمـــه نحرى وترفعه كفى إلى بصرى
فليت مدةَ يومى إذ مضى سلفاً كانت ومدةَ أيامى على قدر
حتى إذا ما انطوت عنا بشاشته صرنا جميعاً كذا جارين فى الحفر

وهكذا وصل الحسين إلى أن يأخذ له مكاناً فى قلب يسر إلا أن العاطفة جعلته يترنم بالشعر فيه وتلقفه المغنون، فما يعنيهم إلا ما يطرب ولا يعنى الأمراء والكبراء إلا أن يسمعوا ويستمتعوا، فلامه يسر على أن قال فيه شعراً غنى فيه عمرو بن بانة أحد الحذاق المشهورين إذ ذاك فقال الحسين — وقد غنى فيه عمرو بن بانة أيضاً — :

فدّيت من قال لى على خفره   وغض من جفنه على حوره
سمّع بى شعرك المليح فما   ينفك شاد به على وتره
حسبك بعض الذى أذعت ولا   حسب لصب لم يقض من وطره
فقلت يا مستعير سالفة الخشف   وحسن الفتور من نظره
لا تنكرن الحنين من طرب   عاود فيك الصبا على كبره

وما زال الحسين فى غرامه وإعجابه والتحدث بذلك فى شعره، وما زال يسر فى مواصلة وإقبال ومنع ودلال حتى كان يوم عابثه الحسين على سكر فأخذ يسر قنينة فضرب بها رأس الحسين فشجه فجفا يسراً واطرحه وأبغضه ولم يعرض له بعدها فرآه يسر بعد ذلك فى مجلس مولاه فعبث بالحسين وغازله وهو معرض عنه فلما أكثر ذلك قال الحسين :

هويتكم جهدى وزدت على الجهد   ولم أر فيكم من يقيم على العهد
فإن أمس فيكم زاهداً بعد رغبة   فبعد اختيار كان فى وصلكم زهدى
لعمرى لقد أغضيت فيكم على التى
تجرعنى المكروه من غصص الحقد

تأنيتكم بقيا الصديق لتقصدوا وتأبون إلا أن تجوروا عن القصد
تعزوا بيأس عن هواى فإننى
إذا انصرفت نفسى فهيهات من ردى
أبى القلب إلا نبوة عن جميعكم كنبوتكم عنى فى السحق والبعد
أرى الغدر ضداً للوفاء وإننى لأعلم أن الضد ينبو عن الضد

وما دام الأمر إعجاباً بالجمال وتغنياً بالمفاتن وعشقاً للحسن والوضاءة فإن فى كل مجلس مندوحة وفى كل مكان فتنة آخذة وزهرات متفتحة ناضرة فالحسين يجد غلاماً خادماً عند أبى كامل المهندس فيستحسنه ويعجبه فيقول له بعض أصحابه :

أتحبه ؟ قال : نعم والله . قال : فأعلمه . قال : هو أعلم بحبى له منى به ثم قال :

عالمٌ بحبيه مطرق من التيه
يوسف الجمال وفر عونُ فى تعديه
لا وحقِّ ما أنا من عطفه أرجيه
ما الحياة نافعة لى على تأبيه
النعيم يشغله والجمال يطغيه
فهو غير مكترث للذى ألاقيه
تائهٌ تزهده فىَّ رغبتى فيه

الخليع والمخلوع

سألونا أن كيف نحن فقلنا   من هوى نجمه فكيف يكون
نحن قوم أصابنا حدث الدهـــــر   فظلنا لريبه نسـتكين
نتمنى من الأمـــين إياباً   لهف نفسى وأين منى الأمين

لا نجد عاطفة صادقة ولوعة مشبوبة فى رثاء شاعر لخليفة كما نجدها فى مراثى الحسين بن الضحاك الخليع للخليفة محمد الأمين المخلوع يرسلها زفرات حارة وأنات مكلومة لا يحاول كتمانها أو تخفيفها ولا يكتفى فى ذكرها على المصاب بل يقرنها بالنقمة والسخط على من أصاب مع إدبار الدنيا عمن لهج به اللسان وتفطر لمصرعه الفؤاد هذا إلى فقدان الأمل فى عودة الصولة ورجوع الدولة ، فى حين أن المأمون قد دان له الأمر وأتته الخلافة منقادة وقد تكون شدة وقع المصاب وزوال النعيم وبعد المأمون عن عاصمة الخلافة هى التى أفقدت الحسين الحذر وشغلته عن المداراة والكتمان . ومن عادة أكثر الشعراء أن يعزّوا فى الراحل إن كان حبيباً إلى المستخلف ويهنئوا الخليفة بالإقبال والتأييد فكان الحسين غريباً فى أمر وفائه وعجيباً شأن إخلاصه ولقد اشتهر ذلك عنه حتى تحدث الرواة بأن

لحسين بن الضحاك فى محمد الأمين مراثى كثيرة جياداً وكان كثير التعلق به والموالاة له لكثرة إفضاله عليه وميله إليه وتقديمه إياه وبلغ من جزعه عليه أنه خولط فكان ينكر قتله لما بلغه ويدفعه ويقول : إنه مستتر وإنه قد وقف على تفرق دعاته فى الأمصار يدعون إلى مراجعة أمره والوفاء ببيعته ضنًّا به وشفقة عليه .

وتحدث الرواة أن الحسين قد أسرف فى مراثى الأمين وذم المأمون فلهذا حجبه عنه ولم يسمع مديحه مدة فلما سعى له الساعون وقالوا له : أين فضل إحسان أمير المؤمنين وسعة حلمه وعادته فى العفو أمر بإحضاره وقال له : أخبرنى هل رأيت يوم قتل أخى هاشمية قتلت وهتكت ؟ قال : لا . قال : فما قولك :

ومما شجا قلبي ويسكب عبرتى محارم من آل الرسول استحلت
ومهتوكة بالخلد[1] عنها سجوفها كعاب كقرن الشمس حين تبدت
إذا خفرتها روعة من منازع لها المرط عادت بالخشوع ورنت
وسرب ظباء من ذؤابة هاشم هتفن بدعوى خير حى وميت
أردّ يداً منى إذا ما ذكرته على كبد حرى وقلب مفتت
فلا بات ليل الشامتين بغبطة ولا بلغت آمالهم ما تمنت

(١) الخلد : من قصور الخلفاء العباسيين .

فقال : يا أمير المؤمنين لوعة غلبتني وروعة فاجأتني ونعمة استلبتها بعد أن غمرتني وإحسان شكرته فأنطقني وسيد فقدته فأقلقني فإن عاقبت فبحقك وإن غفرت فبفضلك. فدمعت عين المأمون وقال : قد عفوت عنك وأمرت بإدرار رزقك عليك وعطائك ما فاتك متمماً وجعلت عقوبة ذنبك امتناعي من استخدامك . ويحق للمأمون أن يغضب عليه ويحرمه من رضاه والحظوة لديه ويسد دونه أبوابه فلقد أكثر من الدعاء على المأمون بالهلاك وتمنى أن يزول ملكه ويصبح طريداً مشرداً .

يا خير أسرته وإن زعموا ... إني عليك لمثبت(١) أسف
الله يعلم أن لي كبداً ... حرّى عليك ومقلة تكف
ولئن شجيت لما رزئت به ... إني لأضمر فوق ما أصف
هلا بقيت لسد فاقتنا ... أبداً وكان لغيرك التلف
قد كان فيك لمن مضى خلف ... ولسوف يعوز بعدك الخلف
لا بات رهطك بعد هفوتهم ... إني لرهطك بعدها شنف(٢)
هتكوا لحرمتك التي هتكت ... حرم الرسول ودونها السجف
... ...

---

(١) المثبت يقال طعنه فأثبت فيه الرمح أى أنفذه فهو مثبت .

(٢) شنف فلاناً وشنف لفلان أبغضه فهو شنف .

تركوا حريم أبيهمو نفـــلا   والمحصنات صوارخ هتف
أبدت مخلخلها على دهش   أبكارهن ورنت النصف
سلبت معاجرهن واجتليت   ذات النقاب ونوزع الشنف
فكأنهن خـلال منتهب   درّ تكشف دونه الصـدف
ملك تخون مـلكه قـدر   فوهى وصرف الدهر مختلف
هيهات بعدك أن يدوم لنـا   عز وأن يبقى لنا شرف
... ...

ولا يريد أن يتم شيء ما دام الأمين قد طواه الموت ويدعو أن يبدد الله شمل الملك وألا يهنأ المأمون بما ملك .

أعيني جودا وابكيا لى محمداً   ولا تذخرا دمعاً عليه وأسعدا
فلا تمّت الأشياء بعـد محمد   ولا زال شمل الملك فيها مبددا
ولا فرح المأمون بالملك بعده   ولا زال فى الدنيا طريداً مشردا

إن وفاء الحسين للأمين دليل على مَعدنه الصافى ونفسيته العالية التى تقدر لأهل الفضل فضلهم وللمحسنين إحسانهم فالأمين هو الذى رفعه وقرّبه وكانت له عليه اليد الطولى ، وما أغدقه عليه وهو خليفة جعل أموره تجرى فى غير عسر أيام حرمانه فى عهد المأمون . ومن طريف ما يقصه الحسين ذلك الحديث الذى يصور مقدار حظوته وأنه موضع الأسرار التى تجرى بين « الحريم » قال الحسين : دعانى الأمين

يوماً فقال لى : يا حسين إن جليس الرجل عشيره وثقته وموضع سره وأمنه وإن جاريتى فلانة أحسن الناس وجهاً وغناء وهى منى بمحل نفسى وقد كدرت علىّ صفوها ونغصت علىّ النعمة فيها بعجبها بنفسها وتجنيها علىّ وإدلالها بما تعلم من حبى إياها وإلى محضرها ومحضر صاحبة لها ليست منها فى شيء لتغنى معها فإذا غنت وأومأت لك إليها — على أن أمرها أبين من أن يخفى عليك — فلا تستحسن الغناء ولا تشرب عليه ، وإذا غنت الأخرى فاشرب واطرب واستحسن واشقق ثيابك وعلىّ مكان كل ثوب مائة ثوب . فقلت السمع والطاعة فجلس فى حجرة الخلوة وأحضرنى وسقانى وخلع علىّ وغنت المحسنة وقد أخذ الشراب منى فما تمالكت أن استحسنت وطربت وشربت فأومأ إلىّ وقطب فى وجهى ثم غنت الأخرى فجعلت أتكلف ما أقوله وأفعله ثم غنت المحسنة ثانية فأتت بما لم أسمع مثله قط حسناً فما ملكت نفسى أن صحت وشربت وطربت وهو ينظر إلىّ ويعض شفتيه غيظاً وقد زال عقلى فما أفكر فيه حتى فعلت ذلك مراراً وكلما ازداد شربى ذهب عقلى وزدت مما يكره فغضب فأمضنى وأمر بجر رجلى من بين يديه وصرفى فجررت وصرفت فأمر بأن أحجب وجاءنى الناس يتوجعون لى ويسألوننى عن قصتى

فأقول لهم : حمل عليّ النبيذ فأسأت أدبي فقومني أمير المؤمنين بصرفي وعاقبني بمنعي من الوصول إليه . ومضى لما أنا فيه شهر ثم جاءتني البشارة أنه قد رضي عني وأمر بإحضاري فحضرت وأنا خائف فلما وصلت أعطاني الأمين يده فقبلتها وضحك وقام وقال لي : اتبعني ودخل إلى تلك الحجرة بعينها ولم يحضر غيري وغنت المحسنة التي نالني من أجلها ما نالني فسكت فقال لي : قل ما شئت ولا تخف فشربت واستحسنت ثم قال لي : يا حسين لقد خار الله لك بخلافي ، وجرى القدر بما تحب فيه . إن هذه الجارية عادت إلى الحال التي أريد منها ورضيت كل أفعالها فأذكرتني بك وسألتني الرضا عنك والاختصاص لك وقد فعلتُ ووصلتك بعشرة آلاف دينار ووصلتك هي بدون ذلك والله لو كنت فعلت ما قلت لك حتى تعود إلى مثل هذه الحال ثم تحقد عليك فتسألني ألا تصل إليّ لأجبتها . فدعوت له وشكرته وحمدت الله على توفيقه وزدت في الاستحسان والسرور إلى أن سكرت وانصرفت وقد حمل معي المال فما كان يمضي أسبوع إلا وصلاتها وألطافها تصل إلي من الجوهر والثياب والمال بغير علم الأمين وما جالسته مجلساً بعد ذلك إلا سألته أن يصلني فكل شيء

أنفقه بعده إلى هذه الغاية فمن فضل مالها وما ذخرت من صلاتها » .

لهذا لم يكن عجيباً على الحسين أن يقول : كنت عازماً على أن أرثى الأمين بلسانى كله وأشفى لوعتى فلقينى أبو العتاهية فقال لى : يا حسين أنا إليك مائل ولك محب وقد علمت مكانك من الأمين وإنه لحقيق بأن ترثيه إلا أنك قد أطلقت لسانك من التلهف عليه والتوجع له بما صار هجاء لغيره وثلباً وتحريضاً عليه وهذا المأمون منصب على العراق قد أقبل عليك فأبق على نفسك يا ويحك واكفف غرب لسانك واطو ما انتشر عنك وتلاف ما فرط منك فعلمت أنه قد نصحنى فجزيته الخير وقطعت القول فنجوت برأيه وما كدت أنجو » .

المأمون

رأينا أن الحسين بالغ فى رثاء الأمين كما بالغ فى السخط على المأمون وما كان يتمناه له من الهلاك أو التشريد فلم تطب نفس المأمون أن يجعله يغشى مجالسه وكان المأمون إلى جانب هذا رجل علم وجد لا يميل إلى اللهو كل الميل ولا يعقد له مجالس كما كان يعقدها إخوته ، فليست الرغبة فى أمثال الخليع بملحة ولا قوية . وبعد أن ثاب الحسين إلى رشده ووازن بين ما قال وبين قيمة الحياة جعل يرسل إلى المأمون من المديح ما قرأت بعضه ولكن المأمون لم يفتح له أبوابه مع إعجابه بما ينقل إليه ويقول : هذه بتلك .

وإنا لنجد فى مدح الحسين للمأمون على قلته تهالكاً منشؤه ضعف العاطفة وفتور الحرارة ولم يقم الحسين فى بغداد بل انحدر إلى البصرة فأقام بها فى انتظار أن يعفو المأمون عما كان منه وما قال . وكان أول من سعى إلى نفع الحسين هو صالح بن الرشيد فهو أخو المأمون من ناحية وهو صاحب المجالس الأولى مع الخليع ولعله يريد أن يكون الخليع فى بغداد قريباً منه حتى لا ينقطع لهوه أو ينتقص

سروره فدخل يوماً على المأمون ومعه بيتان للحسين بن الضحاك فقال : يا أمير المؤمنين أحب أن تسمع منى بيتين فقال : أنشدهما فأنشده :

حمدنا الله شكراً إذ حبانا بنصرك يا أمير المؤمنينا
فأنت خليفة الرحمن حقًّا جمعت سماحة وجمعت دينا

فقال : لمن هذان البيتان يا صالح؟ فقال : لعبدك يا أمير المؤمنين الحسين بن الضحاك . قال : قد أحسن . فقال : وله يا أمير المؤمنين أجود من هذا فقال : وما هو فأنشده قولـه :

أيبخل فرد الحسن فرد صفاته ... ...
رأى الله عبد الله خير عباده فملكه والله أعلم بالعبد

فأطرق ساعة ثم قال : « ما تطيب نفسى له بخير بعد ما قال فى أخى محمد وقال . » . وضاقت الحال بالحسين فكان يذهب إلى بغداد لعله يجد طريقاً إلى رضا المأمون . ولكن ما بال هذا الشعر قد كسدت سوقه وأصبحت بغداد دار غربة واستكانة بعد أن كانت دار عز ورفعة فيقول :

كم لك لما احتمل القطين من زفرة يتبعها الأنين
وعبرة تحدرها الشئون إنى ببغداد لمستكين
حظ الغريب الشوق والشجون يا لائمى لكل يوم هون

إليــك عنى إننى مفتــون   الشــعر منى كاسد ودون
وحان من تحريكه تسكين   قد ركبت أربابهــا الديون
بضاعة أكســدها المأمون   إمام عــدل للتقى أمــين

ولولا بقية إفضال الأمين على الحسين لصارت حاله عبرة بعد أن قطع المأمون ما كان له من مال مرتب يتقاضاه من بيت المال . لهذا كان إلحاح الخليع مستمراً فى أن يُغادَ له ما كان ، فلجأ إلى المقربين من المأمون يرجوهم ويمدحهم ويستنهض هممهم لعلهم يصلحون له ما فسد ويفتحون الأبواب فلاذ بالحسن بن سهل — وهو أبو بوران التى تزوجها المأمون — وطمع أن يصلحه له فقال يمدحه :

أرى الآمال غــير معرجات   على أحدسوى الحسن بن سهل
يبارى يومه غــدُه سماحاً   كلا اليومين بان بكل فضل
أرى حسناً تقــدم مستبداً   ببعــد من رياسته وقبــل
فإن حضرتك مشكلة بشك   شفاك بحكمة وخطاب فصل
سليل مرازب برعوا حلوماً   وراع صغيرهم بسداد كهل
ملوك إن جريت بهم أبروا   وعــزوا أن توازنهم بعدل
ليهنك أن ما أرجأت رشد   وما أمضيت من قول وفعل
وأنك مؤثر للحــق فــيما   أراك الله من قــطع ووصل
وأنك للجميع حيــا ربيع   يصوب على قرارة كل محل

فاستحسنها الحسن بن سهل ودعا بالحسين فقربه وآنسه ووصله وخلع عليه ووعده إصلاح المأمون له — فلم يمكنه ذلك لسوء رأى المأمون فيه ولما عاجل الحسن من العلة سنة ٢٠٣ هـ تقريباً . فلما أعيت الحسين بن الضحاك الحيلة فى رضا المأمون عنه رمى بأمره إلى عمرو بن مسعدة وكتب إليه :

أنت طودى من بين هذى الهضاب
وشهابى من دون كل شهاب
أنت ياعمرو قوّتى وحيـاتى ولسانى وأنت ظفرى ونابى
أترانى أنسى أياديك البيض إذا اسود نائـل الأصحاب
أين عطف الكرام فى مأقط الحـاجة يحمون حوزة الآداب
أين أخلاقك الرضية حالت فىّ أم أين رقـة الكتاب
إن عطف الأديب فى بلد الغر بة جود على ذوى الألبـاب
أنا فى ذمـة السحاب وأظما إن هذا لوصمة فى السحاب
قم إلى سيد الـبرية عنى قومة تستجر حسن خطاب
فلعـل الإلـه يطفئ عنى بك ناراً علىّ ذات التهـاب

فلم يزل عمرو يلطف للمأمون حتى رقق قلبه عليه ثم وصل بعد ذلك إلى أن عاد إليه ما كان مفروضاً له من عطاء وإن كان قد جعل عقوبة ذنبه امتناعه من استخدامه .

إنها أعوام عجاف أتت على الحسين تتجاوز الستة ثم ابتعاد عن حياة اللهو التى كان يتعشقها ويهواها ثم خوف مع ذلك من أن يبدو للمأمون أمر وأن تبدر منه بادرة فخفت الصوت المرح إلى حين وتوقف البلبل عن التغريد فى انتظار ما تأتى به الأيام وهو حريص على السلامة راغب فى الدعة قانع بالسكون ويكفيه عودة العطاء ويحمد الله على أنه لم تطح رأسه السيوف . والذى نلحظه عليه فى هذه الفترة الطويلة من حكم المأمون أنه لم يتتبع الممدوحين وما أكثرهم فهو كما قدمنا ليس بالنهم ولا بالجامع للأموال وقد يكون فيما تلمسه المأمون من أسباب قتل بها على بن جبلة العكوك الشاعر ـ مادح أبى دلف ـ تحذير وتعليم .

المعتصم

عادت البسمة إلى حياة الحسين وأقبلت الدنيا عليه بعد إدبار يوم أن مات المأمون وتولى أخوه المعتصم الخلافة فقد سأل عن الحسين بن الضحاك فأخبروه بإقامته بالبصرة لانحراف المأمون عنه فأمر بمكاتبته بالقدوم عليه فقدم يدفعه الأمل إلى أن تعود له المكانة عند الخليفة كما كانت أيام الأمين فأعد نفسه واعتصر ذهنه واستلهم شاعريته حتى يقابل تلك الموقعة الفاصلة . والواقع أن الحسين لم تعرف له مطولات فى المديح وإبداع فيه قبل المعتصم ، ذلك أن السؤال عنه والكتابة إليه بالحضور وطول الجفوة فى عهد المأمون كانت خير ملهم للمديح اعترافاً بالجميل وتقديراً للإحسان، فلما دخل على المعتصم استأذن فى الإنشاد فأنشده :

هلا رحمت تلدد[1] المشتاق ومننت قبــل فراقه بتلاق
إن الرقيب ليستريب تنفس الصـ ـعدا[2] إليك وظاهر الإقلاق

---

(١) التلدد : التحير .

(٢) الصعداء : التنفس الطويل من هم أو تعب .

ولئن أربت[1] لقد نظرت بمقلة عبرى عليك سخينة الآماق
نفسى الفداء لخائف مترقب جعل الوداع إشارة بعناق
إذ لا جواب لمفحم متحـــير إلا الدموع تصان بالإطراق

* * *

خـــير الوفود مبشر بخلافة خصت ببهجتها أبا إسحق
وافته فى الشهر الحرام سليمة من كل مشكلة وكل شقاق
أعطته صفقتها الضمائر طاعة قبل الأكف بأوكد الميثاق
سكن الأنامُ إلى إمام سلامة عف الضمير مهذب الأخلاق
فحمى رعيته ودافع دونها وأجار مملقها من الإملاق
قل للألى صرفوا الوجوه عن الهدى متعسفـــين تعسف المراق
إنى أحذركم بوادر ضيغم درب بحطم موائل الأعناق
متأهب لا يستفـــز جنانه زجل الرعود ولامع الإبراق
لم يُبق من متعرمـــين توثبـــوا بالشام غـــير جماجم أفلاق
من بين منجدل تمج عروقه علق[2] الأخادع أو أسير وثاق
وثنى الخيول إلى معاقل قيصر تختال بين أحزة ورقاق[3]

---

(١) أراب الرجل : صار ذا ريبة .
(٢) العلق : الدم والأخادع : عروق فى العنق .
(٣) الأحزة : جمع حزيز وهو الغليظ من الأرض . والرقاق : المستوية اللينة من الأرض .

يحملن كل مشمر متغشم ليث هزبر أهرت الأشداق(١)
حتى إذا أم الحصون منازلا والموت بين ترائب وتراق
هرت(٢) بطارقها هرير ثعالب بدهت بزأر قساور طراق
ثم استكانت للحصار ملوكهم ذلا وناط حلوقهم بخناق(٣)
هربت وأسلمت الصليب عشية لم يبق غير حُشاشة الأرماق(٤)

فلما أتمها قال له المعتصم : ادن منى فدنا منه فملأ فمه جوهراً من جوهر كان بين يديه ثم أمره بأن يخرجه من فيه فأخرجه وأمر بأن ينظم ويدفع إليه ويخرج إلى الناس وهو فى يده ليعلموا موقعه من رأيه ويعرفوا فعله وأمر له لكل بيت بألف درهم وقال له : أنت تعلم يا حسين أن هذا أكثر ما مدحنى به مادح فى دولتنا . فقبّل الأرض بين يديه وشكره وحمل المال معه . وهكذا عادت مياه الحسين إلى مجاريها وأصبح من ندمان المعتصم يغشى مجالسه ويدخل داره ويعرف دخائل نفسه فيلتمس ما يرضيه ويصوغه شعراً يطربه فيأمر بأن يتغنى فيه .

(١) المتغشم : الغضوب ، وهرت الأشداق سعتها والأسود توصف بسعة أشداقها .
(٢) هرت : صوتت .
(٣) الخناق : ما يخنق به من حبل ونحوه .
(٤) الأرماق : جمع رمق وهو بقية الحياة

ولا تخلو مجالس الشراب من فلتات فقد جرى من الحسين شيء على النبيذ فقال المعتصم: والله لأؤدبنه وحجبه أياماً فكتب إليه يسترضيه :

غضب الإمام أشد من أدبه   وقد استجرت وعذت من غضبه
أصبحت معتصماً بمعتصم   أثنى الإلـه عليه فى كتبه
لا والذى لم يبق لى سببـاً   أرجو النجاة به سوى سببه
ما لى شفيـع غير حرمته   ولكل من أشفى[1] على عطبه

فلما قرئت عليه التفت إلى ابنه الواثق ثم قال : بمثل هذا الكلام يستعطف الكرام ما هو إلا أن سمعت أبيات الحسين هذه حتى أزالت ما فى نفسى عليه . فقال له الواثق : هو حقيق بأن يوهب له ذنبه ويتجاوز عنه . فرضى عنه وأمر بإحضاره .

ولما اختط المعتصم مدينته سر من رأى أقطع الناس فيها دوراً وقد مضى كيف أقطع الحسين فكانت له فيها دار مجاورة للخليفة وأصبحت هذه المدينة فى نظر الحسين أجمل من بغداد وأسر .

« سر من را » أسرّ من بغداد   فاله عن بعض ذكرها المعتاد
حبذا مسرح لها ليس يخلو   أبداً من طريدة وطـراد

(١) أشفى على الشيء قاربه ومنه أشفى المريض على الموت أى قاربه

ورياض كأنما نشر الزهـ ـر عليها محبّر الأبراد
واذكر المشرف المطل من التـ ـل على الصادرين والوراد
وإذا روّح الرعاء فلا تنس رواعى فراقد الأولاد

وانطلق لسان الحسين فى المديح وتلاحقت تهانيه للمعتصم فهو رجل حرب أكثر منه رجل لهو وشراب وجعل يذكر فتوحه فقد تغلب فى أنقرة وفتح عمورية ومعه قائده أبو الحسن الأفشينُ من بنى كاوس وتغلب على توفيل ملك الروم وهزم الأفشينُ بابكاً الخرمى المخرب صاحب المذهب الذى يدين بما يريد ويشتهى وجاء به أسيراً بعد أن استسلم فيقول الحسين :

لم تبق من « أنقرة » نقـرة واجتحت عمورية الكبرى
إن يشك « توفيل » بتاريخه فحق أن يعذر بالشكوى
تفنى بنو العيص[1] وأيامهم وذكر أيامك لا يفنى
يا رب قد أملكت من بابك فاجعل لتوفيلهم العقبى

وهو فى شعره الآتى أوضح فى عرض الحوادث ، وإذا مدح الأفشين فإنما يجعله ذريعة لمدح المعتصم لا ينساه ولا يغفله :

أثبت المعصوم عـزًّا لأبى حسن أثبت من ركن إضم
كل مجـد دون ما أثلـه لبنى كاوس أملاك العجم
إنمـا الأفشين سيف سله قدر الله بكف المعتصم

(١) العيص : من ذرية نوح ينسب إليه الروم .

لم يدع « بالبذ » من ساكنه غير أمثال كأمثال « إرم »
ثم أهــدى سلما « بابكه » رهن حجلين نجيـا للندم
وقرا « توفيل » طعناً صادقاً فض جمعيــه جميعاً وهــزم
قتــل الأكثر منهــم ونجا من نجا لحماً على ظهر وضم (١)

وإذا عرض له ما يجعله يغادر « سر من رأى » إلى بغداد ، يتشوق إليها ويسخط على بغداد تلك التي كانت من قبل حبيبة إليه ويرى أن المعتصم خير عباد الله قد ألهمه الله إلى أن يصطفى سر من رأى والمصيف على غيرهما من البلاد :

على سر من را والمصيف تحية مجللــة من مغرم بهواهما
ألا هل لمشتاق ببغداد رجعــة تقرب من ظليهما وذراهما (٢)
محلان لقى الله خــير عباده عزيمة رشد فيهما فاصطفاهما
وقولا لبغــداد إذا ما تنسمت على أهل بغداد جُعلت فداهما
أفي بعض يوم شفّ عينيّ بالقذا حرورك حتى رابني ناظراهما؟

---

(١) يقال تركهم لحما على وضم أى أوقع بهم .
(٢) الذرى : فناء الدار ونواحيها .

الواثق

أعجب الواثق وهو ولى للعهد بالحسين الخليع وجعله قريباً منه وأثيراً عنده وكان يتوسط لدى والده المعتصم إذا غضب على الحسين . وأدى الحسين المنادمة على وجهها المطلوب يحث الواثق على الشراب ويغريه به إذا لم يكن نشيطاً له. دخل الحسين على الواثق فى خلافة والده المعتصم فى يوم طيب فحثه على الصبوح فلم ينشط له فقال : اسمع ما قلت : قال : هات فأنشده :

حثت صبوحى فكاهة اللاهى ... وطاب يومى لقــرب أشباهى
فاستثر اللهو من مكامنه ... من قبل يوم منغص ناهى
بابنة كرم من كف منتطق ... مؤتـــزر بالمجون تيـّـاه
يسقيك من طرفه ومن يـــده ... سقى لطيف مجرب داهى
كأساً فكأساً كأن شاربهـــا ... حيران بين الذكور والساهى

فنشط الواثق وقال : إن فرصة العيش لحقيقة أن تنتهز واصطبح ووصل الحسين .

ولما بويع الواثق بالخلافة بعد موت أبيه دخل الحسين عليه معزياً ومهنئاً فجمع بينهما وأبدع فى التخلص من دموعه إلى اطمئنانه بالمستقبل .

ألم يرع الإسلام موت نصيره بلى حق أن يرتاع من مات ناصره
سيسليك عما فات دولة مفضل أوائلـه محمودة وأواخـره
ثنى الله عطفيه وألف شخصه على البر مذ شدت عليه مآزره
يصب ببذل المال حتى كأنما يرى بذله للمال نهباً يبـادره
وما قدم الرحمن إلا مقـدماً مـوارده محمـودة ومصادره

فقال الواثق إن كان الحسين لينطق عن حسن طوية ويمدح بخلوص نية . ثم أمر بأن يعطى لكل بيت قاله من هذه القصيدة ألف درهم وأعجبته الأبيات حتى أمر فصنعت فيها عدة ألحان ثم استخلصه نديماً مقيماً وصيره شاعر اللهو المقصور عليه والملازم لداره المتهيىء لأن يطلبه فى أى ساعة من ساعات الليل والنهار وأفردت له حجرة خاصة فى القصر لينام فيها . وإن سنه التى جاوزت السبعين تجعله عاجزاً عن الفساد أو لا تتطلع إليه ذوات الشباب ويجدون فى تصابيه الذى لا يضر مرحاً حبيباً إليهم مرغوباً فيه عندهم . يذكر الحسين أنه كانت له نوبة فى دار الواثق يحضرها ، جلس الواثق أو لم يجلس ، فبينا هو نائم ذات ليلة فى حجرته إذ جاءه خادم من خدم الحرم فقال : قم فإن أمير المؤمنين يدعوك ، فقال له : وما الخبر ؟ قال : كان نائماً وإلى جنبه حظية له فقام وهو يظنها نائمة فألم بجارية له أخرى ولم تكن ليلة نوبتها وعاد إلى

فراشه فغضبت حظيته وتركته حتى نام ثم قامت ودخلت حجرتها فانتبه وهو يظن أنها عنده فلم يجدها فقال : ويحكم أين هى فأخبروه أنها قامت غضبى ومضت إلى حجرتها . وهذا هو الذى جعله يدعوك . فقال الحسين فى طريقه :

غضبت أن زرت أخرى خلسة فلهـا العتبى لدينـا والرضا
يا فدتك النفس كانت هفوة فاغفريها واصفحى عما مضى
واتركى العذل على من قاله وانسبى جورى إلى حكم القضا
فلقـد نبهتنى من رقـدتى وعلى قلبى كنيران الغضا

فلما جاءه خبـره الواثق القصة وقال له : قل فى هذا شيئاً ففكر هنيهة كأنه يقول شعراً ثم أنشده الأبيات ، فقال : أحسنت وحياتى أعدها يا حسين فأعادها عليه حتى حفظها وأمر له بخمسمائة دينار وقام فمضى إلى الجارية وخرج الحسين إلى حجرته .

والذى نلحظه فى أخبار الواثق أنه كان يعجب بالشعر وأنه كان دائماً يطلب من الحسين أن يقول شعراً يناسب ما هم فيه أو يسأله هل عمل فى حال سبقت أو مجلس مضى لهم شعراً وكان الحسين يهيىء نفسه لمثل هذه المفاجآت التى تعود وقوعها ويستعد لها ولعله أصبح سريع الهاجس فى مثل هذه الموضوعات التى يراد أن يقول فيها لكثرة ما مارس ألوانها

وجال فى ميدانها وإنى لأورد بعضاً مما روى تأييداً لما أقول .
قال الواثق للحسين بن الضحاك : قل الساعة أبياتاً ملاحاً حتى أهب لك شيئاً مليحاً فقال : فى أى معنى يا أمير المؤمنين فقال : امدد طرفك وقل فيما شئت مما ترى بين يديك وصفه فالتفت فإذا ببساط زهره قد تفتحت أنواره وأشرق فى نور الصبح. فارتج على الحسين ساعة حتى خجل وضاق ذرعاً فقال له الواثق : مالك ويحك ألست ترى نور صباح ونور أقاح .
فانفتح القول على الحسين فقال :

ألست ترى الصبح قد أسفرا ومبتكر الغيث قد أمطرا
وأسفرت الأرض عن حلة تضاحك بالأحمر الأصفرا
ووافاك نيسان فى ورده وحثك فى الشرب كى تسكرا
وتعمل كأسين فى فتية تطارد بالأصغر الأكبرا
يحث كئوسهم مخطف تجاذب أردافه المئزرا
ترجل بالبان حتى إذا أدار غدائره وفرا
وفضض فى الجلنار البهار والأبنوسة والعبهرا
فلما تمازج ما شذرت مقاريض أطرافه شذرا
فكل ينافس فى بره ليفعل فى ذاته المنكرا

فضحك الواثق وقال : سنستعمل كل ما قلت يا حسين إلا الفسق الذى ذكرته فلا ولا كرامة ، ثم أمر بإحضار الطعام فأكل وأكلوا معه ثم قال : قوموا بنا إلى حانة الشط فقاموا إليها فشرب

وطرب وما ترك يومئذ أحداً من الجلساء والمغنين والحشم إلا أمر له بصلة وكانت من الأيام التى سارت أخبارها وذكرت فى الآفاق فلما كان من الغد غدا إليه الحسين فقال له الواثق أنشدنى يا حسين شيئاً إن كنت قلته فى يومنا الماضى فقد كان حسناً فأنشده :

يا حانة الشط قد أكرمت مثوانا   عودى بيوم سرور كالذى كانا
لا تفقدينا دعابات الإمام ولا   طيب البطالة إسراراً وإعلانا
ولا تخالعنا فى غير فاحشـــة   إذا يطربنا الطنبور أحيانا
وهاج زمر زنام بين ذاك لنـــا   شجواً فأهدى لنا روحاً وريحانا
وسلسل الرطل عمرو ثم عم به   السقيا فألحق أولانا بأخرانا
سقيـــاً لشكلك من شكل خصصت به
دون الدساكر من لذات دنيـــانا
حفت رياضك جنات مجاورة   فى كل مخترق نهرا وبستانا
لا زلت آهلة الأوطان عامرة   بأكرم الناس أعراقاً وأغصاناً

فأمر له الواثق بصلة سنية مجددة واستحسن الصوت وأمر فغنى فى عدة أبيات منها . وكان الواثق يتحظى جارية له فماتت فجزع عليها وترك الشرب أياماً ثم سلاها وعاد إلى حاله فدعا الحسين ليلة فقال له : يا حسين رأيت فلانة فى النوم فليت نومى كان طال قليلا لأتمتع بلقائها فقل فى هذا شيئاً

فقال الحسين :

ليت عين الدهر عنا غفلت   ورقيب الليـــل عنا رقـــدا
وأقـــام النـــومُ فى مدتـــه   كالـــذى كان وكنـــا أبدا
بأبى زور تلفت لـــه   فتنفست إليـــه الصعـــدا
بينما أضحك مسروراً به   إذ تقطعت عليه كمدا

فقال له الواثق : أحسنت ولكنك وصفت رقيب الليل فشكوته ولا ذنب لليل وإنما رأيت الرؤيا نهاراً ثم عاذ الواثق إلى منامه فرقد .

ولقد كانت إنعامات الواثق على الخليع متواترة وأياديه مفضلة وإعجابه به عن فهم وتقدير وكان مديح الحسين له عن شعور صادق لا افتعال فيه ولا تكلف .

فمثلا قصيدة الحسين التى قالها وقد كانوا مع الواثق بالقاطول – وهو نهر كأنه مقطوع من دجلة – حينما خرج يتصيد والتى مطلعها :

سقى الله بالقاطول مسرح طرفكا   وخص بسقياه مناكب قصركا

نجد الحسين يبدع فيها ويسوق المديح كأنه لآلئ منظومة ومما قاله من مديحها :

خلقت أمين الله للخلق عصمة   وأمناً فكل فى ذراك وظلكا
وثقت بمن سماك بالغيب واثقاً   وثبت بالتأييد أركان ملككا

فأعطاك معطيك الخلافة شكرها وأسعد بالتقوى سريرة قلبكا
وزادك من أعمارنا – غير منة عليك بها أضعاف أضعاف عمركا
ولا زالت الأقدار فى كل حالة عداة لمن عاداك سلما لسلمكا
إذا كنت من جدواك فى كل نعمة
فلا كنت إن لم أفن عمرى بشكركا

فطرب الواثق فضرب الأرض بمخصرة كانت فى يده وقال : لله درك يا حسين ما أقرب قلبك من لسانك فقال : يا أمير المؤمنين جودك ينطق المفحم بالشعر والجاحد بالشكر فقال له : لن تنصرف إلا مسروراً ثم أمر له بمال كثير .

وإنها لأبيات لا تحتاج جمالها إلى توضيح ولا سحرها إلى بيان فكلها سحر وكلها جمال .

المتوكل

كان الحسين يذهب إلى المتوكل فى خلافة أخيه الواثق فأبى الواثق عليه ذلك وضربه ولعاً به وتحذيراً له فلما تولى المتوكل الخلافة بعد أخيه حرص على أن يكون الحسين بين ندمانه ومجالسيه والحسين إذ ذاك قد خاض فى الثمانين من عمره وليس فيه إلا تصابى الشيوخ . وقد مرّ بك أن المتوكل قال لعلى ابن الجهم إن الحسين عندى أشعر أهل زماننا وأملحهم مذهباً وأظرفهم نمطاً . . .

ولكن شاعرنا كان يحس بشيخوخته ويعلم أنه كما يقول :

أصبحت من أسراء الله محتسباً فى الأرض بين قضاء الله والقدر
إن الثمانين إذ وفيت عدتها لم تبق باقية منى ولم تذر

وكان يتحسر على شبابه بعد أن تقارب خطوه ولم يبق فيه شىء مما يشفع له عند الحسان فيقول :

تذكر من عاداته ما تذكرا وأعول أيام الشباب فأكثرا
وما برحت عاداته مستقرة ولكن أجل الشيب عنها ووقرا
يهم ويستحيى تقارب خطوه فيتركهم النفس فى الصدر مضمرا
ولم يبق فيه إذ تأمل شخصه شفيع إلى الحسناء إلا تنكرا

ألا لا أرى فى العيش للمرء متعة　　إذا ما شباب المرء ولى وأدبرا

وتوالت أعوامه لكن الضعف لم يتركه فى متعته ولم يدعه فى لهوه فجعل يستعفى المتوكل من الخدمة وقد عرفت ما قاله فى أبياته :

أسلفت أسلافك فيما مضى　　من خـــدمتى إحدى وستينا

. . . .　　. . . . .

غير أن المتوكل حريص عليه ما يزال يأمره بمنادمته وملازمته وهو لا يطيق ذلك لكبر سنه فيتخلف مكرهاً ، وإن فى مجلس الخليفة من لا يمسك اللسان ولا يعذر الضعيف فيقول للخليفة ما سبق أن قدمته لك : « هو يطيق الذهاب إلى القرى والمواخير والسكر فيها ويعجز عن خدمتك » فيبعث الحسين بما قدمناه من شعره الذى مطلعه :

أمـــا فى ثمانـــين وفيتها　　عذير وإن أنا لم أعتذر

. . . .　　. . . . .

ثم انتهت أيام المتوكل بمصرعه على يد من أوعز إليهم ابنه محمد المنتصر الذى تولى الخلافة من بعده . وشاعرنا يريد أن تنتهى أيامه فى رخاء أليست سنه بضعاً وتسعين سنة ، فيتحامل إلى دار الخلافة مهنئاً :

تجددت الدنيا بملك محمد　　فأهلا وسهلا بالزمان المجدد

هي الدولة الغراء راحت وبكرت مشهرة بالرشد في كل مشهد
لعمري لقد شدت عرا الدين بيعة أعز بها الرحمن كل موحد
هنتك أمير المؤمنين خلافة جمعت بها أهواء أمة أحمد

فأظهر المنتصر إكرامه والسرور به وقال له : إن في بقائك بهاء للملك وقد ضعفت عن الحركة فكاتبني بحاجاتك ولا تحمل على نفسك بكثرة الحركة ووصله بثلاثة آلاف دينار ليقضي بها ديناً بلغه أنه عليه .

وعجيب أن تظل في شاعرية الخليع قوة وإبداع مع إشرافه على نهاية العقد العاشر من حياته ، على أنه لم يشأ أن يخفت صوته فكان آخر شعر قاله هو ما قدمناه لك في موجز حياته :

ألا ليت شعري أبدر بدا نهاراً أم الملك المنتصر
. . . .

وانتهى المنتصر قبل أن يهنأ بالخلافة بعد ستة أشهر من ولايته قبل أن يطوى الموت الحسين الخليع وإن كان قد خفت صوته واحتبس لسانه ثم سكنت حركته وانطلقت روحه من جسده سنة ٢٥٠ ه .

نوادره وأخباره

قد مر بك فى جميع الفصول التى مضت أخبار ونوادر للحسين بن الضحاك . وإذا ذكرنا هنا أخباراً ونوادر أخر فإنما ذلك لنستوفى جوانب الشاعر وقد يجد فيها القارئ تصديقاً لما قلناه وقد يرى فيه رأياً آخر يتلمسه فيما رويناه . وإنى لأقتبس من أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد قوله :

« بعض النوادر والأخبار يراد لذاته ويحسن السكوت عليه إذا رويت كل نادرة منه على حدة . ومن النوادر الفكاهة والنوادر التى تشتمل على خبر من أخبار المعرفة العامة أو جواب مسكت أو نكتة من البلاغة . وليس بالضرورى أن تكون النوادر والأخبار التى تساق فى معرض التراجم والسير من هذا القبيل بل يكفى أن تكون النادرة مشتملة على عادة من عادات المترجم له أوسمة من سماته لتستحق الإثبات والمراجعة » . ولما كانت الكتب تورد الشعر وتقلل من الأخبار فإن الأغانى كان العدة فى أغلب ما مر من نوادر وقصص وما يقدم من أخبار لعنايته بأمثال هذه الموضوعات .

* * *

شرب الحسين بن الضحاك يوماً عند إبراهيم بن المهدى فجرت بينهما ملاحاة فى أمر الدين والمذهب فدعا له إبراهيم بنطع وسيف وقد أخذ منه الشراب فانصرف وهو غضبان فكتب إليه إبراهيم يعتذر إليه ويسأله أن يجيئه فكتب إليه الحسين :

نديمى غـير منسوب إلى شىء من الحيف
سقانى مثل ما يشر ب فعل الضيف بالضيف
فلما دارت الكأس دعـا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الخمر مع التنين فى الصيف

ولم يعد إلى منادمته مدة ثم إن إبراهيم تحمل عليه ووصله وأرضاه . وكان المأمون يضاحك إبراهيم بن المهدى بهذه الأبيات ويولع بها .

* * *

وكان يوماً عند صالح بن الرشيد فجرى بينهما كلام على النبيذ وقد أخذ الشراب من الحسين مأخذاً قوياً فرد على صالح رداً أنكره وتأوله على غير ما أراده الحسين فهاجره فكتب إلى صالح :

يا ابن الإمام تركتنى هملا أبكى الحياة وأندب الأملا
ما بال عينك حين تلحظنى ما إن تقل جفونها ثقـلا
لو كان لى ذنب لبحت به كى لا يقال هجرتنى مللا

إن كنت أعرف زلة سلفت فرأيت ميتة واحدى عجلا[1]

فكتب صالح إليه : قد تلافى لسانك بشعرك ما جناه فى وقت سكرك وقد رضيت عنك رضاً صحيحاً فصر إلىّ على أتم نشاطك وأكمل بساطك فعاد إلى خدمته وما سكر بعدها عنده .

* * *

ومزح أحد أبناء الرشيد معه مزاحاً أغضب الحسين فجاوبه جواباً غضب منه ابن الرشيد أيضاً فمضى إليه الحسين من غد فاعتذر إليه وتنصل وحلف فأظهر له قبولا لعذره ورأى الحسين ثقلا فى طرفه وانقباضاً عما كان يعهده منه فقال فى ذلك :

لا تعجبن لملّة صرفت وجه الأمير فإنه بشر
وإذا نبا بك فى سريرته عقد الضمير نبا بك البصر

* * *

وكان يهوى جارية لأم جعفر وكانت من أجمل الجوارى وكانت تخرج إليه إذا جاء فتقول له : ما قلت فينا ؟ أنشدنا منه شيئاً فيخرج إليها الصحيفة فتقول له : اقرأ معى فيقرأ معها حتى تحفظه ثم تدخل وتأخذ الصحيفة ، فشكا ذلك

---

(١) المعنى أنه يدعو على ولده الواحد بالموت عاجلا إذا كان يعرف له زلة أو غلطة سابقة .

إلى عاصم الغسانى وكان مكيناً عند أم جعفر وسأله أن يستوهبها له فاستوهبها فأبت عليه أم جعفر فوجه إلى الخليع بألف دينار وقال : خذ هذا الألف فقد جهدت الجهد كله فيها فلم تمكنى حيلة فقال الحسين فى ذلك :

رمتك غداة السبت شمس من الخلد(١) · بسهم الهوى عمداً وموتك فى العمد

مؤزرة السربال مهضومة الحشا · غلامية التقطيع شاطرة القد

محنأة الأطراف رؤد شبابهـا · معقربة الصدغين كاذبة الوعد

أقول ونفسى بين شوق وزفرة · وقد شخصت عينى ودمعى على الخد

أجيزى على من قد تركت فؤاده · بلحظته بين التأسف والجهد

فقالت عذاب بالهوى مع قربكم · وموت إذا أقرحت قلبك بالبعد

لقد فطنت للجور فطنة عاصم · لصنع الأيادى الغر فى طلب الحمد

سأشكوك فى الأشعار غير مقصر · إلى عاصم ذى المكرمات وذى المجد

لعل فتى غسان يجمع بيننـا · فيأمن قلبى منكم روعة الصد

* * *

غنى بعض المغنين فى مجلس الأمين — ولعل ذلك كان قبل اتصال الحسين به — بشعر للحسين فأمر بإحضاره فأحضر وقد كان الأمين شرب أرطالا فلما مثل بين يديه أمر فسقى

(١) الخلد : قصر للمنصور العباسى على شاطىء دجلة توارثه أبناؤه من بعده .

الحسين ثلاثة أرطال فلم يستوفها حتى غلبه السكر وقذف فأمر الأمين بحمله إلى منزله فحمل فلما أفاق كتب إليه :

إذا كنت فى عصبة من المعشر الأخيب
ولم يك لى مسعد نديم سوى جعدب
فأشرب من رملة وأسهر من قطرب[1]
ولما حبانى الزما ن من حيث لم أحسب
ونادمت بدر السما ء فى فلك الكوكب
أبت لى غضوضيتى[2] ولؤم من المنصب
فأسكرنى مسرعاً قوى من المشرب
كذا النذل ينبو به منادمة المنجب

فرده الأمين إلى منادمته وأحسن جائزته وصلته .

* * *

وكان الواثق يميل إلى الفتح بن خاقان ويأنس به وهو يومئذ غلام فاعتل الفتح فى أيام الواثق علة صعبة ثم أفاق وعوفى فعزم الواثق على الصبوح فقال للخليع : يا حسين اكتب بأبيات عنى إلى الفتح تدعوه إلى الصبوح فكتب إليه :

لما اصطبحت وعين اللهو ترمقنى قد لاح لى باكراً فى ثوب بذلته

---

(١) أشرب من رمل وأسهر من قطرب مثلان عربيان .

(٢) المراد بالغضوضية هنا الطيش والنزق وهما من لوازم الشباب .

ناديت فتحاً و بشرت المدام به   لما تخلص من مكروه علته
ذب الفتى عن حريم الراح مكرمة   إذا رآه امرؤ ضداً لنحلته
فاعجل إلينا وعجل بالسرور لنا   وخالس الدهر فى أوقات غفلته

فلما قرأها الفتح صار إليه فاصطبح معه .

* * *

وكان فى مجلس مع جماعة وهم على نبيذ فعبث بالمغنية التى تغنيهم فصاحت عليه واستخفت به فأنشأ يقول :

لها فى وجهها عُكن   وثلثا وجهها ذقن
وأسنان كريش البـ   ط بين أصولها عفن

فضحكوا و بكت المغنية بكاء حاراً ولم ينتفعوا بها بقية يومهم. وشاع هذان البيتان فكسدت من أجلهما وكانت إذا حضرت فى موضع أنشدوا البيتين فتجن . ثم هربت من « سر من رأى » فما عرف لها بعد ذلك خبر .

* * *

ودخل على الواثق ذات يوم وفى السماء قليل من الغيم فقال الواثق للحسين ما الرأى عندك فى هذا اليوم ؟ فقال يا أمير المؤمنين ، ما حكم به وأشار إليه قبلى أحمد بن يوسف فإنه أشار بصواب لا يرد وجعله فى شعر لا يعارض فقال الواثق وما قال ؟ قال الحسين : إن أحمد بن يوسف قال :

أرى غيماً تؤلفه جنوب   وأحسبه سيأتينـــا بهطل
فعين الرأى أن تدعو برطل   فتشربه وتدعو لى برطل

فقال الواثق : أصبتما ، ودعا بالطعام وبالشراب والمغنين والجلساء واصطبحوا .

* * *

كتب الحسن بن رجاء إلى الحسين بن الضحاك فى يوم شك — وهو اليوم الذى يكون بعد التاسع والعشرين من شهر شعبان وتغيم السماء فلا يعرف إن كان ما بعده تمام الثلاثين أو هو أول رمضان — وقد أمر الواثق بالإفطار فى هذا اليوم وكان ما كتبه ابن رجاء هو قوله

هززتك للصبوح وقد نهانا   أمير المؤمنين عن الصيام
وعندى من قيان القصر عشر   تطيب بهن عاتقة المدام

فوصلت رقعة الحسن بن رجاء إلى الحسين الخليع وقد سبقه إليه محمد بن الحارث بن بسخنر ووجه إليه بغلام جميل ومعه ثلاثة من الغلمان حسان الوجوه ، ومعهم رقعة قد كتبها ابن بسخنر كما تكتب المناشير وختمها فى أسفلها وكتب فيها يقول :

سر على اسم الله يا أشـ   ـكل من غصن بلجـــين
فى ثلاث من بنى الرو   م إلى دار الحســـين
فاشخص الـــكهل إلى مو   لاك يا قـــرة عيـــنى

أره العنف إذا استعصى وطالبه بدين
ودع اللفظ وخاطبه بغمز الحاجبين
واحذر الرجعة من وجهك فى خفى حنين

فمضى الحسين معهم وكتب إلى الحسن بن رجاء جواب رقعته :

دعوت إلى مماحكة الصيام وإعمال الملاهى والمدام
ولو سبق الرسول لكان سعيي إليك ينوب عن طول الكلام
وما شوقى إليك بدون شوقى إلى ثمر التصابى والغرام
ولكن حل فى نفر عسوفٌ بمنشور محل المستهام
حسينٍ فاستباح له حريماً بطرف باعث سبب الحمام
وأظهر نخوة وسطا وأبدى فظاظته بتركٍ للسلام
وأزعجنى بألفاظ غلاظ وقد أعطيته طرفى زمامى
ولو خالفته لم يخش قتلى وقنعنى سريعاً بالحسام

* * *

وكان له صديق يتعشق جارية مغنية فزاحمه فيها غلام كان وهو أمرد حسن الوجه فلما خرجت لحيته جعل ينتف ما يخرج منها ومالت المغنية إليه لشبابه فشكا ذلك إلى الحسين بن الضحاك وسأله أن يقول فيها شعراً فقال :

خل الذى عنك لا تسطيع تدفعه
يا من يصارع من لا شك يصرعه

جاءت طرائق شَعرٍ أنت ناتفها ... فكيف تصنع لو قد جاء أجمعه
الله أكبر لا انفك من عجب ... أأنت تحصد ماذو العرش يزرعه
تبًّا اسعيك بل تبًّا لأمك إذ ... ترعى حمًى خالق الأحماء يمنعه

وقال فيه أيضاً :

تكلتك أمك يابن يوسف ... حتام ويحك أنت تنتف
لو قد أتى الصيف الـذى ... فيه رؤوس النـاس تكشف
فكشفت عن خديـك لى ... لكشفت عن مثل المفوّف(١)
أو مثل زرع ناله الـ ... يرقان أو نـكباء حرجف(٢)
فغـدا عليه الـزارعو ... ن ليحصدوه وقـد تقصف
فظللت تـأسف كالألى ... أسفوا ولم يغن التأسف

* * *

وحدث الحسين بن الضحاك قال : كان يألفنى إنسان من الجنود عجيب الخلقة والزى والشكل غليظ جلف جاف فكنت أحتمل ذلك كله له ويكون حظى التعجب به وكان يأتينى بكتب من عشيقة له ما رأيت كتباً أحلى منها ولا أظرف ولا أبلغ ولا أشكل من معانيها ويسألنى أن أجيب عنها فأجهد نفسى فى الجوابات وأصرف عنايتى إليها على علمى بأن هذا الجندى

---

(١) البرد المفوف هو الذى فيه خطوط .

(٢) اليرقان : آفة للزرع والنكباء الحرجف : الريح الباردة .

بجهله لا يميز بين الخطأ والصواب ولا يفرق بين الابتداء والجواب فلما طال ذلك على حسدته وتنبهت إلى إفساد حاله عندها فسألته عن اسمها فقال : « بصبص » . فكتبت إليها بالنيابة عنه فى جواب كتاب منها جاءنى به :

أرقصنى حبك يا بصبص والحب يا سيدتى يرقص
أرمصت أجفانى بطول البكا فما لأجفانك لا ترمص[١]
وا بأبى وجهك ذاك الذى كأنه من حسنه عصعص[٢]

فجاءنى بعد ذلك فقال لى : يا أبا على ، جعلنى الله فداءك ما كان ذنبى إليك وما أردت بما صنعت بى؟ فقلت له : وما ذاك عافاك الله ؟ فقال : ما هو والله إلا أن وصل ذلك الكتاب إليها حتى بعثت إلىّ : إنى مشتاقة إليك والكتاب لا ينوب عن الرؤية فتعال إلى الروشن الذى بالقرب من بابنا فقف بحياله حتى أراك ، فتزينت بأحسن ما قدرت عليه وصرت إلى الموضع . فبينا أنا واقف أنتظر مكلما أو مشيراً إلىّ إذا شىء قد صب علىّ فملأنى من قرنى إلى قدمى وأفسد ثيابى وسرجى وصيرنى وجميع ما علىّ ودابتى فى نهاية السواد والنتن والقذر وإذا به ماء قد خلط ببول وسواد سرجين فانصرفت بخزى وكان ما مر بى من

---

(١) الرمص : وسخ أبيض فى مجرى الدمع من العين .

(٢) العصعص : عظم الذنب .

الصبيان وسائر من مررت به من الضحك والطنز والصياح بى أغلظ مما مر بى ، ولحقنى من أهلى ومن فى منزلى شر من ذلك وأوجع . وأعظم من ذلك أن رسلها انقطعت عنى جملة . قال الحسين : فجعلت أعتذر إليه وأقول له : إن الآفة أنها لم تفهم معنى الشعر لجودته وفصاحته . وأنا أحمد الله على ما ناله وأسر الشماتة به .

تلاحى الحسين ومخارق فى أبى العتاهية وأبى نواس أيهما أشعر فاتفقا على اختيار شعر من شعريهما يتخايران فيه فاختار الحسين ابن الضحاك شيئاً من شعر أبى نواس جيداً قوياً لمعرفته بذلك واختار مخارق شيئاً من شعر أبى العتاهية ضعيفاً غزلا كان يغنى فيه لا لشىء عرفه منه إلا أنه استملحه وغنى فيه فخاير به لقلة علمه ولما كان بينه وبين أبى العتاهية من المودة وتراهنا على مال وتحاكما إلى من يرتضيه الواثق بالله ويختاره لهما فاختار الواثق لذلك أبا محلم وبعث فأحضره وتحاكما إليه بالشعرين فحكم لحسين بن الضحاك فتلكأ مخارق وقال : لم أحسن الاختيار للشعر ، وحسين أعلم منى بذلك وإن لأبى العتاهية خيراً مما اخترت وقد اختار الحسين أجود ما قدر عليه لأبى نواس لأنه أعلم منى بالشعر ولكنا نتخاير بالشاعرين فتحاكما فحكم لأبى نواس فأمر الواثق بدفع الرهان إلى الحسين .

* * *

خربت بغداد أيام حصارها فى الحروب بين جيوش طاهر بن الحسين وجيوش الأمين ففارقها من كان فيها فقال الخليع :

أتسرع الرحلة إغذاذاً عن جانبي بغداد أم ماذا
أما ترى الفتنة قد ألفت إلى أولى الفتنة شذاذا
وانتقضت بغـــداد عمرانها عن رأى لا ذاك ولا هذا
هدماً وحرقاً قد أباد اهلها عقوبة لاذت بمن لاذا
ما أحشن الحالات إن لم تعد بغداذ فى القلة بغداذا

* * *

وكان خزيمة بن خازم من القواد فى الحروب بين الأمين وجيوش المأمون وكان له يد فى قطع الجسر وإنهاء الحرب فى قصة طويلة راجعها فى الطبرى وكتب التاريخ فقال الحسين :

علينا جميعـــاً من خزيمة منة بها أخمد الرحمن ثائرة الحرب
تولى أمور المسلمين بنفسه فذب وحامى عنهم أشرف الذب
ولولا أبو العباس ماانفك دهرنا يبيت على عتب ويغدو على عتب
خزيمة لم ينكر له مثل هذه إذا اضطربت شرق البلاد مع الغرب
أناخ بجسرىْ دجلة القطع والقنا شوارع والأرواح فى راحة العضب
وأم المـــنايا بالمنـــايا مجيـــلة
تفجع عن خطب وتضحك عن خطب

فكانت كنار باكرتها سحابة
فأطفأت اللهب الملفف باللهب
وما قتل نفس فى نفوس كثيرة
إذا صارت الدنيا إلى الأمن والخصب
بلاء أبي العباس غير مكفر
إذا فزع الكرب المقيم إلى الكرب

* * *

خرج أبو نواس ومسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك والعباس بن الأحنف إلى متنزه ومعهم يحيى بن المعلى الطائى فأدركتهم صلاة المغرب فقدموا يحيى للصلاة فأرتج عليه فى سورة قل هو الله أحد فتعاطوا القول فيه فقال أبو نواس :

أكثر يحيى غلطا فى قل هو الله أحد

فقال مسلم بن الوليد :

قام طويلا ساهيا حتى إذا أعيا سجد

فقال العباس بن الأحنف :

يزحر فى محرابه زحير حبلى بولد

فقال الحسين بن الضحاك

كأنما لسانه شد بحبل من مسد

* * *

سأل المعتصم عن ندماء صالح بن الرشيد وهم أبو الواسع وقنينة والحسين بن الضحاك وحاتم الريش وكثير بن إسماعيل فأدخلوا عليه فكتب كثير بين عينيه « سيدى هب لى شيئاً » فلما رآه المعتصم قال : ما هذا على جبينك ؟ فقال أحد الندماء : يا سيدى تطايب بأن كتب على جبينه « سيدى هب لى شيئاً » فلم يستطب المعتصم ذلك ولا استملحه ودعا من غد بالندماء ولم يدع بكثير بن إسماعيل ففزع كثير إلى الحسين بن الضحاك فقال له الحسين : إنى لم أحلل من أنسه بعد بالمحل الموجب أن أشفع إليه فيك ولكنى أقول لك بيتين من شعر وادفعهما إلى حمدون بن إسماعيل يوصلهما فإن ذلك أبلغ . فقبل كثير ، وقال حسين على لسان كثير :

قل لدنيا أصبحت تلعب بى ... سلط الله عليك الآخـــره
إن أكن أبرد من قنينة ... ومن الريش فأمى فاجره

فأخذهما كثير وعرّف حمدون أنهما له وسأله إيصالهما ففعل فضحك المعتصم وأمر لكثير بمال واستحضره وألحقه بأصحابه .

* * *

اجتمع على بن يحيى والحسين بن الضحاك وأبو شهاب الشاعر فتذاكروا الدواب واتصل الحديث إلى أن تلاحى حسين وأبو شهاب فى دابتيهما وتراهنا على المسابقة بهما فتسابقا فسبقه

أبو شهاب فقال حسين فى ذلك :

كلوا واشربوا هنئتمو وتمتعوا   وعيشوا وذموا الكودنين(١) جميعا
فأقسم ما كان الذى نال منهما   مدى السبق إذ جد الجراء سريعا

فقال أبو شهاب يجيبه

أيا شاعر الخصيان حاولت خطة   سبقت إليها وانكفأت سريعا
تحاول سبقى بالقريض سفاهة   لقد رمت — جهلا — من حماى منيعا

فكان ذلك سبب التباعد بينهما وكانوا إذا أرادوا العبث بالحسين يقولون له : أيا شاعر الخصيان فيغضب ويشتمهم .

* * *

فى كتاب مجالس ابن خنزابة عنوان « مجلس محمد بن زياد الأعرابى مع الحسين بن الضحاك بحضرة الواثق بالله وفيه أن ابن الأعرابى دخل على الواثق بالله فقرأ على الفتح بن خاقان شعر طرفة فقال :

. . . .

أشجاك الربع أم قدمه   أم رماد دارس حممه

إلى أن بلغ :

تذكرون إذ نقاتلكم   إذ لا يضر معدماً عدمه

فقال ابن الأعرابى : زد فيها ألفاً حتى تصير أتذكرون

---

(١) الكودن : الفرس الهجين .

فقال له الحسين بن الضحاك وهو نديم أمير المؤمنين وكان معه محمد بن عمر الرومى : قد خزم مرة بقوله : إذ لا يضر معدماً عدمه ويخزم بألف أخرى فى أوله ؟

والخزم هو زيادة حرف أو أكثر على أول شطر البيت من الشعر

فقال له ابن الأعرابى : العرب تخزم أول الشعر إذا احتاجت أن تصله بما قبله : تخزمه بالحرف والحرفين وأنشدهم شعراً لامرئ القيس :

فلعمرك ما سعد بخلة آثم ولا تأتأ يوم الحفاظ ولا حصر

فخزم بالفاء . وأنشدهم لغيره . . . فأعجب ذلك أمير المؤمنين وقالوا جميعاً هو أعلم بذلك منا يا أمير المؤمنين فجزاه خيراً وأمر له بعشرة آلاف درهم » .

وهذه القصة تبين لنا مقدار إدراك الحسين للشعر وعلمه بأوزان بحوره وأسماء زحافاتها وعللها وتبين منزلته بأنه نديم أمير المؤمنين .

* * *

وإذا ختمنا أخبار الحسين ونوادره فإنا لا نجد فى جميع هذه الأخبار والنوادر ذكراً لسبب تلقيبه الخليع ؛ فإن كان صاحب خلاعة فإن أبا نواس كان أكثر منه خلاعة ومجوناً . ويخيل إلىّ أنه

لقب بذلك لقوله :

أنـــا الخليع فقوموا إلى شراب الخليـــع

فالأدباء فى ذلك العصر وفى كل عصر قد يلقبون الشاعر أخذاً من لفظ يجرى فى شعره كما لقبوا مثلا مسلم بن الوليد بصريع الغوانى بقوله :

هل العيش إلا أن تروح مع الصبا
وتغدو صريع الكاس والأعين النجل

أو لقوله :

صريع الغوانى راقهن ورقنه لدن شب حتى ابيض سود الذوائب

بعض شعره

يقول أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد: « تتلخص أغراض المنتخبات الشعرية فى ثلاثة : أحدها أن نختار للشاعر ما ينبئ عن حاله وله فائدة فى التعريف بحقيقته النفسية أو بحقيقة عصره وسيرة حياته . وثانيها أن نختار له الحسن من شعره وإن لم ينبئ عن شيء من سيرته وخلقه. وثالثها أن نختار له ما هو حسن مستجاد من الوجهة الفنية سواء نظرنا إليه أو نظرنا إلى الحسن المستجاد من أقوال جميع الشعراء فهو فن حسن فى الشعر عامة وليس حسنه بمقصور على ما قاله الشاعر المختار له على التخصيص » وقد حاولت أن أوفق فيما اخترته هنا بين جميع هذه الأغراض كما حاول أستاذنا هناك فى كتابه « شاعر الغزل » .

هل لك فى الصبوح

أما ناجاك بالنظر الصحيح وأنّ إليك من قلب قريح
فليتك حين تهجره ضراراً تمن عليه بالقتل المريح
بحسنك كان أول حسن ظنى أما ينهاك حسنك عن قبيح
وما تنفك متهماً لنصحى بنفسى نفس متهم النصيح

أحب النوء من نخلات «بارى»   وجوسقها المشيد بالصفيح
ويعجبنى تناوح أيكتيها   إلىّ بريح جوذان وشيح
ولن أنسى مصارع لاسكارى   ونادبة الحمام على الطلوح
وكأساً فى يمين عقيد ملك   تزين صفاته غرر المديح
صريح مدامة هويت صريحاً   وهل تزرى الصريحة بالصريح
ألا يا عمرو هل لك فى الصبوح   هلم إلى صفية كل روح
فقام على تخاذل مقلتيه   وسلسلها كأوداج الذبيح
وأتبـع سكرة سلفت بأخرى   وخلى الصحو للكزّ الشحيح

أطيب الطيبات

أطيب الطيبات أمر ونهى   لا يردان فى الأمور الجسام
وامتطاء الخيول فى كنف الأم   ن بغير الإقدام والإحجام
وسماع الصهيل فى لجب المو   كب تحت اللواء والأعلام

الغرماء

غزال ما اجتلاه الطرف إلا   تحيرنى ملاحة وجنتيه
خذوا بدمى محاسنه وخصوا   مقبـله وبرد ثنيتيـه

لو رأى ما بك

إن من أطول ليل أمدا   ليل مشتاق تصابى فكتم

رب فظ القلب لا لين له   لو رأى ما بك منه لرحم

روحان ممتزجان

إن من لا أرى وليس يرانى   نصب عينى ممثل بالأمانى
بأبى مَن ضميره وضميرى   أبداً بالغيب ينتجيــان
نحن شخصان إن نظرت وروحا   ن إذا ما اختبرت يمتزجان
فإذا ما هممت بالأمر أو هـ   ـمّ بشىء بدأته وبدانى
كان وفقا ما كان منه ومنى   فـكأنى حكيته وحـكانى
خطرات الجفون منا سواء   وســواء تحرك الأبــدان

أشكو لترحمنى

يا خــلىّ الذرع من شجنى   إنمــا أشكو لترحمــنى
منعك الميسور ييئسنى   وقليل اليــأس يقتلــنى

الرضا باعتذار الطيف

سقيا لزور من طيف محتجب   عاتبته فى المنــام فاعتذرا
فزال حقد الضمير عن سكن   يسخطنى رائحــاً ومبتكرا
رضيت من عذر من أقام على الذ   نب بطيفٍ ألمّ معتــذرا

معانى اتصال الخدود

صل بخدىَ خديك تلق عجيبا من معان يحار فيها الضمير
فبخديك للربيع رياض وبخدىّ للدموع غدير

قنوع المحب

وماذا يفيدك طيف الخيا ل والهجر حظك ممن تحب
غناء قليل ولكننى تمنيته بقنوع المحب

الصيد بالخال

يا صائد الطير كم ذا باللحظ تضنى وتصبى
نصبت نقطة خال فصدت طائر قلبى

فضة على ذهب

إذا ما الماء أمكننى وصفو سلافة العنب
صببت الفضة البيضا ء فوق قراضة الذهب

فى غلام اسمه رزق كان لعلويه المغنّى

يا ليت رزقاً كان من رزقى يا ليته حظى من الخلق
يا شادنا ملكته رقى فلست أرجو راحة العتق

عدمتك من قلب

تراك على الأيام تنجو مسلما؟ ولست ترى من غدرة أبداً بدّا
ألست الذى آليت بالله جاهداً يميناً وخنت الله موثقه عمدا
ألا فى سبيل الله ود بذلته لمن خانني ودى ولم يرع لى عهدا
أباح حمى الميثاق والله بيننا فلم يبق للميثاق قبلا ولا بعدا
فلهفى لا تجزى بما أنت أهله وإن كنت قد أشرقتنى بدمى حقدا
عدمتك من قلب أقام لغادر على العهد حتى كاد يقتلنى وجدا

كلفنى فلم أطق

وأحور محسود على حسن وجهه يزيد تماما حين يبدو على البدر
دعانى بعينيه فلما أجبتـــه رمانى بأسباب القطيعة والهجر
وكلفنى صبراً عليه فلم أطق كما لم يطق موسى اصطبارا على الخضر
شكوت الهوى يوما إليه فقال لى مسيلمة الكذاب جاء من القبر

كان التسليم وداعا

بأبى من وددته فافـــترقنا وقضى الله بعد ذاك اجتماعا
فافترقنا حولا فلما اجتمعنا كان تسليمه علىّ وداعا

المعشوق

بعضى بنار الهجر مات حريقا   والبعض أضحى بالدموع غريقا
لم يشك عشقاً عاشق فسمعته   إلا ظننتك ذلك المعشوقا

تخبرنى عيناه

ومسترق للحظ لم يظهر الجوى   يريد يناجينى فيمنعه الخجل
شكوت بطرفى ماأقاسى من الهوى   إليه فأوما بالسلام على وجل
تخبرنى عيناه عما بقلبه   وقدمات من وجد وليس له حيل
فعين إلى وجه الرقيب لخوفه   وعين إلى وجه الحبيب إذا غفل

إلى كم

ألا أيها الشادن الأكحل   إلى كم تقول ولا تفعل
إلى كم تجود بما لا نريـ   ـد منك وتمنـــع ما نسأل

تهنئة الأمين بظفر جيشه

أمين الله ثق باللــــه تعط العزّ والنصره
كل الأمر إلى الله   كلاك الله ذو القدره
لنا النصر بإذن اللــــه والــكرة والفره
وللمــراق أعدائـــك يوم السوء والدبره

وكأس تورد الموت　　كريه طعمهـــا مُره
ســقونا وسقيناهم　　فكانت بهم الحرّه
كذاك الحرب أحياناً　　علينا ولنا مـــره

وصف للصيد ومديح للواثق

تحين للدراج فى جنباتـــه　　وللغر آجال قدرن بكفكا
حتوفاً إذا وجهتهن قواضباً　　عجالا إذا أغريتهن بزجركا
أبحت حماماً مصعداً ومصوباً　　وما رمت فى حاليك مجلس لهوكا
تصرف فيه بين ناى ومسمع　　ومشمولة من كف ظبى لسقيكا
قضيت لبانات وأنت مخيم　　مريح وإن شطت مسافة عزمكا
وما نال طيب العيش إلا مودع　　وماطاب عيش نال مجهود كدكا

مديح للواثق ووصف

إلى خـــازن الله فى خلقه　　سراج النهار وبـــدر الظلم
ركبنا غرابيب زفـــافـــة　　بدجلة فى موجها الملتـــطم
إذا ما قصـــدنا لقاطولها　　ودهم قراقـــيرها تصطدم
سكنّا إلى خـــير مسكونة　　تيممها راغب من أمم
كأن بهـــا نشـــر كافورة　　لـــبرد نداها وطيب النسم
كظهر الأديم إذا ما السحـــاب صاب على متنها وانسجم

مـــبرأة من وحول الشتاء إذا ما طمى وحله وارتكم
فما إن يـــزال بهـــا راجل يمرّ الهوينا ولا يلتـــطم
ويمشى على رسله آمنـــاً سليم الشراك نـــقى القـــدم
وللنون والضب فى بطنها مراتع مســـكونة والنعم
غدوت على الوحش مغترة رواتع فى نَورها المنتـــظم
ورحت عليهـــا وأسرابها تحوم بأكنافهـــا تبتسم

* * *

يضيق الفضاء به إن غـــدا بطودى أعاريبه والعجم
ترى النصـــر يقـــدم راياته إذا ما خفقن أمام العـــلم
وفى الله دوخ أعـــــداءه وجرد فيهم سيوف النقم
وفى الله يكظم من غيظـــه وفى الله يصفح عمن جـــرم
رأى شيم الجـــود محمودة وما شـــيم الجود إلا قسم
فراح على « نعم » واعتـــدى كأن ليس يحسن إلا « نعم »

الترنم بمدائحه

سيبقى فيك ما يهدى لسانى إذا فنيت هدايا المهـــرجان
قصائد تمـــلأ الآفاق ممـــا أحل الله من بســـط اللسان
بها ينفى الكرى السارون عنهم ويلهو الشرب عن وتر القيان

راحة من قنع

نشبى وما جمعت من صفــد وحويت من سبد ومن لبــد
همم تقاذفت الهمــوم بها فنزعت من بــلد إلى بلد
يا رَوْح من حسمت قناعته سبب المطامع من غد وغد
من لم يــكن لله متهمــاً لم يمس محتاجــاً إلى أحد

السـاقى والخمر

قمــر يحمــل شمســاً من رحيــق الخسروان

المحاسن وأثرها

لقد ملأت عينى بحسن محاسن ملأن فؤادى لوعة وهمــوما

حكم وتجاريب

حسبك من جهدك ماقضى الوطرْ من خاف أسرى ولياليه الحذر

* * *

وشــباب المرء عــارية تقتضى يوماً فــترتجع

* * *

وجدت ألذّ العيش فيما بلوته ترقب مشتاق زيارة شائق

* * *

إذا شئت أن تلقى خليلا مُعبساً وجداه فى الماضين كعب وحاتم (١)
فحاوله عما فى يـــديه فإنمـــا تكشف أخلاق الرجال الدراهم

رثاء الأمين

أعزى يا محمد عنـــك نفسى معاذ الله والأيدى الجســـام
فهـــلا مات قوم لم يموتوا ودوفع عنـــك لى يوم الحمام
كأن الموت صادف منك غنما أو استشفى بقربك من سقام

وفى رثائه أيضاً

إذا ذكر الأمين نعى الأمينا وإن رقد الخلى حمى الجفونا
وما برحت منازل بين بصرى « وكلواذا » تهيج لى الشجونا
عراص الملك خاوية تهـــادى بها الأرواح تنسجها فنونا
تخوّن عرش ساكنها زمانٌ تلعّــب بالقرون الأولينا
فشتت شملهم بعد اجتماع وكنت بحسن ألفتهم ضنينا
فلم أر بعدهم حسناً سواهم ولم ترهم عيـــون الناظرينا
فوا أسفا وإن شمت الأعادى وآه على أمـــير المؤمنينـــا
أضل العرف بعـــدك متبعوه ورَفُه عن مطايـــا الراغبينا

---

(١) كعب هو كعب بن مامة وحاتم هو حاتم الطائى وهما من الكرماء الأجواد .

وكنّ إلى جنابك كل يوم   يرحن على السعود ويغتدينا
هو الجبل الذى هوت المعالى   لهــدته وريع الصالحونا
ستندب بعدك الدنيــا جواراً   وتندب بعــدك الدين المصونا
فقد ذهبت بشاشة كل شىء   وعاد الدين مطرحاً مهينــا
تعقد عزّ مُتصل بكســرى   وملتــه وذل المســلمونا

وفيه أيضا

أسفاً عليك سلاك أقرب قربة   منى وأحزانى عليــك تزيد

لوعة على أبى نواس

كابرنيك الزمان يا حسن   فخاب سهمى وأفلح الزمن
ليتك إذ لم تكن بقيت لنــا   لم تبق روح يحوطها بــدن

العظة بمقتل المتوكل والفتح بن خاقان

يا نائم الليل فى جثمان يقظان   ما بال عينك لا تبكى بتهتان
إن الليالى لم تحسن إلى أحد   إلا أساءت إليه بعد إحسان
أما رأيت خطوب الدهر ما فعلت   بالهاشمى وبالفتح بن خاقان

على مقبرة وامرأة تبكى

قال أبو العتاهية :

أما تنفــك باكية بعــين غزير دمعها كمد حشــاها

فقال الحسين :

تنادى حفرة أعيت جواباً فقد ولهت وصم بها صداها

الشــغل الأكبر

يا من شَغلتُ بهجره ووصاله همم المنى ونسيت يوم معادى
والله ما التقت الجفون بنظرة إلا وذكرك خاطر بفؤادى

التفاح والخمر

الراح تفاح جرى ذائبــاً كذلك التفاح راح جمــد
فاشرب على جامده ذوبــه ولاتدع لــذة يوم لغــد

تأديب

أتانى عنــك ما ليس على مكروهه صــبر
فأغضيت على عمــد وقد يغضى الفتى الحر
وأدبتــك بالهــجر فما أدبك الهجــر

ولا ردك عما كان منك النصح والزجر
فلما اضطرنى المكروه واشتد بى الأمر
تناولتك من ضرى بما ليس له قدر
فحركت جناح الذل لما مسك الضر
إذا لم يصلح الخير امرءًا أصلحه الشر

الأباريق والشاربون

كأن أباريق المدام لديهمو ظباء بأعلى الرقمتين قيام
وقد شربوا حتى كأن رقابهم من اللين لم تخلق لهن عظام

ضيعة

أتبعت سكراً بسكر وابتعت خمراً بعمر

فى عينه الجواب

أما تقرأ فى عينىّ عنوان الذى عندى

حال جسمى

لشتان إشفاقى عليك. وقسوة أطلت بها شجو الفؤاد على العمد
وماحلت للهجران عن حال صبوة إليك ولكن حال جسمى عن العهد

ما يليق بالقبيح القطوب

« سابور » ويحــك ما أخســـــك بل أخصّك بالعيــوب
وجـــــه قبيــح فى التبســـــم كيف يحسن فى القطوب

أحن إلى شهر المحرم

بنفسى حبيب أمّ مكة مكرهاً   يعالج مستوراً من الحزن والألم
كلانا وحيد لا يسر بمؤنس
من الناس حتى تنقضى الأشهر الحرم
أحن إلى شهر المحرم ليتــه   غداة غدقد كانأو بان وانصرم
ألام على شغلى بمن أنا شغله
إذا طاف أو أفضى إلى الركن فاستلم
سترنا بظهر الغيب ما كان بيننا   ونحفظ عهدينا على رغم من كتم

يا ليت ظنى كاذب

بحرمة السكر وما كانـــا   عزمت أن تقتل إنســـانا
أخاف أن تهجرنى صاحيا   بعد سرورى بلك سكرانا
إنّ بقـــلبى روعة كلمـــا   أضمر لى قلبك هجـــرانا
يا ليت ظنى أبدا كاذب   فإنه يصـــدق أحيـــانا

حب مغن فارسي

«وروى لابن يسير»

وصوت لبني الأحرار أهل السيرة الحسني
شجي يأكل الأوتار حتى كلها يفنى ؟؟
فما أدرى اليد اليسرى به أشقى أم اليمنى
وما أفهم ما يعنى مغنينا إذا غنى
سوى أنى من حبي له أستحسن المغنى

ما يضيعه اللهو

محب نال مكتتما مناه وأسعده الحبيب على هواه
أضاع اللهو أنفس ما يعانى وما عذر المضيع لما عناه
فأصبح لا يلام بما جناه من التقصير إنسان سواه
أسر ندامة الكسعى لما رأت عيناه ما فعلت يداه


مجلة الأولاد في جميع البلاد
تصدر كل يوم خميس
مغامرات
قصص
ثقافة
تسلية
رئيس التحرير
محمد سعيد العريان
تصدرها دار المعارف بمصر
تطلب من باعة الصحف والمكتبات



ابنتي تحب بيبسي كولا

حسن عبد السلام

اقرأ

نَحنُ المُعَمَّرُونَ

دار المعارف بمصر

نَحنُ المُعَمَّرُونَ

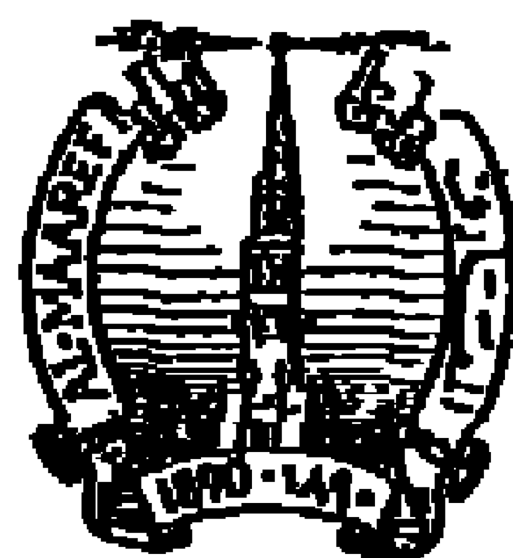
حسن عبد السلام

نحن المعمرون

اقرأ ١١٠

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١١٠ — مارس سنة ١٩٥٢



تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد ، حدثنى أبى فقال* :

يا بنى ، اليوم وقد بلغت من العمر مائة عام ، أريد أن أقرأ عليك مذكراتى وما دونته عن نفسى فى خلال الخمسين عاماً الأخيرة من حياتى ، فإن وجدت فيها ما ينفع الناس ويفيدهم فى شئون حياتهم فاعمل على نشرها بينهم بكل ما فى وسعك من طرق ووسائل ، لأنى أحب أن يسعد غيرى من الناس بما سعدت به من صحة كاملة وعيش رغيد فى معظم سنى حياتى ، بالرغم مما حل بى من كوارث الدهر ومحن الأيام .

وقد تذكر يا بنى ، ما حدثتك به فى ليلة عيد الميلاد

* هذا الكتاب من مذكرات معمر عاش مائة عام .
جمعها ونشرها الأستاذ حسن عبد السلام .

التى أقامتها لى شقيقتك الكبرى عندما بلغت الثمانين ، وهو ما شعرت به وقتئذ من أن العمر سيمتد بى إلى أن أبلغ المائة عام ، ومع أنى أعلم أن الأعمار بيد الله ، فإنى أشعر اليوم ما شعرت به عندما كنت فى سن الثمانين ، وهو أن العمر سيمتد بى عشرين سنة أخرى على الأقل ، وثمة إحساس فى قرارة نفسى يجعلنى أعتقد بأنى قد وضعت أناملى على مفتاح الصحة والسعادة اللتين يتمتع بهما غيرى من المعمرين ، وأنه فى وسع المرء أن يحيا حياة رغيدة خالية من الشقاء والأمراض إلى ما بعد المائة ، إذا اتبع فى معيشته نفس الوسائل والأساليب التى نعيش عليها نحن المعمرون ، وقطع مراحل الحياة فى خطى متزنة مقرونة باستخدام الأساليب الصحيحة وطرق المعيشة الصحية ، مما سأحدثك به بعد حين .

ولا يذهب بك الظن أن مهنتى كان لها الفضل فى بلوغى هذه السن ومحافظتى على صحتى وقواى على أتم ما يكون ، فأنت تعلم جيداً أن عدداً لا يستهان به من الأطباء يموتون ولما يبلغوا سن السبعين ، وغالباً ما يصابون بالعلل

والأمراض التى يصاب بها غيرهم من الأفراد ، كما أن الكوارث الشديدة التى حلت بى لم تؤثر فى صحتى ولم تغير من مجرى حياتى إلا قليلا .

تطعيم الغدد :

ولا تطمع يا بنى ، أن أنبئك فى حديثى هذا شيئاً عن عجائب الطب الحديث فى إطالة العمر باستعمال نوع خاص من المفرزات والهرمونات التى تستخلص من بعض الحيوانات الفتية ويحقن بها جسم الشيخ المسن لإعادة الشباب إليه ، أو إعطائه أكسيراً حيوياً جديداً لإطالة الحياة ، أو بعض العقاقير والمقويات التى تجدد الصحة وتبعث القوة والنشاط فى الجسم ، إذا ظننت ذلك فعليك أن تطرح هذه المذكرات جانباً ، لأنك لن تجد فيها ضالتك المنشودة .

ومع أنى مارست مهنة الطب ما ينيف على نصف قرن ، فإنى أعتقد أن هذه الوسائل وإن كانت فائدتها محققة ، فإن أثرها مؤقت يزول بعد مضى شىء من الوقت ، قصيراً كان أم طويلا ، وغالباً ما يكون لها تأثير رجعى يؤدى فى النهاية

إلى تقصير الأجل بدلا من إطالته ، وإضعاف الجسم بدلا من إكسابه الصحة والقوة والنشاط .

ولقد نجحت عمليات تطعيم الغدد وحقن مستخلصاتها فى جسم الإنسان أيما نجاح فى كثير من الحالات ، غير أن هذه الطريقة أشبه ما يكون بجنة الشوك ، وهى إن كانت تمكن الفرد من الاستمتاع بملاذ الحياة عدداً من السنين ، فإنها غالباً ما تؤدى إلى كثير من الأضرار الصحية التى يهون بجانبها كثير من متاعب الشيخوخة ومساوئها .

وإنى لأعلم ما يدور بخلدك الآن ، وهو أنى لم أكن فى يوم من الأيام من أعلام الطب أو مشاهير الأطباء ، وأن فنون التشخيص والعلاج والمداواة قد تغيرت كثيراً فى هذه السنين الأخيرة عما كانت عليه عندما كنت أزاول مهنتى ، بيد أنى أؤكد لك يا بنى أنى لم أستخدم فى معالجة مرضاى إلا قليلا مما درسته من علوم الطب ، وإنما كنت أعنى بالناحيتين الإنسانية والنفسية فى مباشرة العلاج والمداواة ، وكنت أعتمد على طريقتى الخاصة وما اكتسبته من الخبرة والمران الطويل فى معالجة المرضى والمصابين ، وكنت مخلصاً شديد الإخلاص فى

مهنى، لا يهمنى جمع المال ، ولكنى وجهت كل عنايتى للإرشاد الصحيح وإسداء النصح لمن يقع تحت يدى من المرضى وطالبى المشورة ، ولذا كان مرضاى يثقون بى أشد الثقة . وكانت لى عندهم أكبر منزلة .

فطريقتى ليس لها شأن بالطب القديم أو الحديث ، أو على وجه أصح تتفق مع كليهما ومع ما يجب أن يكون عليه فن العلاج والمداواة فى كل عصر وفى كل زمان .

العلم يضاعف عمرك :

سأحدثك إذن فى هذه المذكرات عن طريقتى الخاصة لإطالة العمر وتجنب ويلات المرض ، وعن الطرق الإيجابية للمعيشة الصحيحة وأبسط القضايا المتعلقة بالحياة ، وهذه الطرق والوسائل مستمدة من خبرتى وتجاربى فى مدة تربو على نصف قرن ، وتعتمد على التفكير الصحيح والمنطق السليم فى اتباع وسائل المعيشة الصحية المنظمة فى الأكل والشرب والنوم والسكن والعمل والرياضة واللعب والمعاشرة الجنسية وكل ما يتصل بمسائل الحياة .

ومع علمى بأن طول الحياة ميل وراثى ، فإنى أقرر لك أنه يتأثر بعوامل يستطيع المرء أن يبدّل فيها ويعدل ، فليس ثمة ما يمنع أن يفضى حسن تدبير البيئة وتهيئة الظروف التى تحيط بالإنسان إلى إطالة الحياة ، وليس أدل على صدق ما أقول أن مندل العالم البيولوجى المشهور استطاع بتجاربه التى أجراها على النباتات والأرانب والخنازير الهندية والجرذان أن يتحكم فى نسلها ، وأن يتنبأ بما سيكون عليه هذا النسل وما يتوالد منه من الصفات والمميزات جيلا بعد جيل ، بل استطاع أن يحدث التغييرات التى يريد إحداثها فى الأجيال المتعاقبة وذلك بإجراء عمليات الانتخاب وتهيئة الظروف والعوامل واختيار الأزواج الملائمة للحصول على هذه التغيرات .

فالوراثة إن هى إلا مجموع النظم والسنن الطبيعية التى يستطيع العلم الحديث أن يحدث فيها كثيراً من التغيير والتعديل ، والموت لا يعدو أن يكون نتيجة لازمة لمجموع الظروف والعوامل التى تحيط بالكائن الحى فى فترة حياته ، وليس ثمة ريب فى أنه إذا أمكن السيطرة على هذه العوامل لعدة أجيال متعاقبة ،

فإن مدى الحياة سيصبح قابلا للإطالة وخاضعاً لإرادة الإنسان إلى حد بعيد .

وأنت تعلم أن جدك رحمه الله ، مات قبل بلوغه سن الستين ، وماتت جدتك حول هذه السن أيضاً ، فلم أرث منهما تلك المزية الهامة العظيمة وهى قابلية التعمير ووراثة الاستعداد للعمر الطويل ، ولكنى تعلمت من خبرتى الطويلة واحتكاكى المستمر بعدد كبير من زبائنى ومرضاى ، كثيراً من صفات وعادات المعمرين ، فاتبعتها وواظبت على التمسك بها ، وأستطيع أن أجزم لك بكل ما أوتيت من علم ودراية وخبرة بأن غالبية الأفراد لا يموتون ، وإنما يقتلون أنفسهم باتباعهم العادات السيئة وأساليب الحياة الخاطئة ، وأن قابلية التعمير مردها إلى قدرة المرء على تكييف أمور معيشته بحيث تلائم عوامل البيئة المحيطة به ، وأنه فى ميسور كل امرئ أن يمد فى أمد حياته إلى أبعد حد مستطاع ، وأن يحيا عدداً طويلا من السنين بدون أن يصيبه شىء من المتاعب الصحية والأمراض ، إذا عقد العزم على اتباع قواعد المعيشة الصحيحة ووسائل الحياة الصحية المنظمة .

إن مدى الحياة لا تحده حدود ثابتة معينة ، فهو يتفاوت تفاوتاً بالغاً بين الناس ، ومرحلة الشيخوخة لا تسير فى طريق واحد عند جميع الأفراد، إذ تتدخل فى سيرهاعوامل عدة وتغيرات منوعة ، ومن المحقق أن معدل العمر يختلف إلى حد ما باختلاف الأجناس والشعوب ونوع المهنة التى يكسب منها المرء قوت يومه ، فبعض الطوائف التى يغلب على عملها النظام والسكون والهدوء ، مثل القساوسة ورجال الدين يمتازون عن غيرهم بطول العمر .

فطريقة المعيشة لها تأثير على طول العمر وعلى السن التى تبدأ عندها علامات الشيخوخة ، غير أن العلم والمعرفة يساعدان المرء على تكييف أمور معيشته بحيث تؤدى إلى إطالة العمر .

لقد كان معدل العمر فى الأمم المتحضرة فى أوائل هذا القرن ٤٦ عاماً فى المتوسط ، وبعد مضى نصف قرن تقريباً ارتفع المعدل إلى ٦١ عاماً ، بيد أن الزيادة الملاحظة ليس مردها إلى زيادة معرفة الناس بوسائل إطالة الحياة فحسب ، فقد يكون الجانب الأكبر منها سببه نقص نسبة الوفيات بين الأطفال، بسبب تحسن الوسائل الصحية فى المعيشة وفرض

القوانين التى تلزم الأهالى بتطعيم الأطفال ضد الأمراض .

وقد ذكرت لك آنفاً أن غالبية الأفراد لاتموت ميتة طبيعية ، ولكن الناس أنفسهم يقتلون ، وتدل الإحصاءات التى حصل عليها قسم الأبحاث بجامعة وسترن ريزرف الأمريكية على أن عددا قليلا من الناس يموت بكبر السن و بلوغ المرحلة الأخيرة من مراحل الشيخوخة ، فقد قام هذا المعهد بتشريح ما ينيف على عشرين ألف جثة فى زهاء عام و بعض عام ، فلم يجد بينها إلا نحو الثلاثين الذين ماتوا بالشيخوخة الحقة دون علة أخرى ، أما بقية الجثث فقد وجد بها علامات واضحة تثبت أن الموت قد حدث بسبب إصابة الجسم بأحد الأمراض التى أصبحت تصيب الناس من جراء اتباع وسائل المعيشة الخاطئة فى الأمم المتحضرة ، وذلك مثل البول السكرى وتضخم الكبد والتهاب الكلى والمرارة والزائدة الدودية والبدانة المفرطة وارتفاع ضغط الدم والسرطان وتصلب الشرايين وأمراض القلب والرئتين .

ومن الناس من يعيش إلى سن متأخرة من العمر ولكنه فى الحقيقة يعيش ميتاً ، فهو يقضى السنين الأخيرة من حياته

طريح الفراش أو فى صحة سيئة فلا يقدر على الاستمتاع بمباهج الحياة، ومثل هذا البعض ينطبق عليه القول بأنه يموت فى سن الخمسين أو الستين ويدفن فى سن السبعين أو الثمانين ، فالمقصود بإطالة الحياة أن تكون السنين الممتدة من عمر المرء مملوءة بأسباب الصحة والقوة والنشاط ، فلا فائدة من عشرين سنة يضيفها المرء إلى عمره إن لم تكن حافلة بالصحة زاخرة بوسائل البهجة والاستمتاع الكامل بما يجرى على مسرح الحياة .

واعلم يا بنى أن قابلية المرء للاحتفاظ بشبابه وصحته ليست مجرد مصادفة ، ولا هى بالقضاء والقدر ، بل أساسها فن وعلم ومعرفة ، وهى تعتمد على خطة حكيمة موضوعة وأساليب مرسومة وفلسفة يجب أن يسير المرء بموجبها منذ الصغر ، وستقرأ فى الصفحات الآتية شيئاً عن هذه الطرق والأساليب ، فإن اتبعتها استطعت أن تحيا فى عنفوان شبابك من شرخ الصبا إلى سن مديدة من العمر .

١

خريف الحياة

عندما يتجاوز المرء سن الخمسين ، يبدأ شعوره ببعض علامات الشيخوخة وكبر السن ، فيقل نشاطه ، ويحس بالتعب بسرعة عند بذل أي مجهود فكرى أو جثمانى . وتأخذ الغدد فى الضعف تدريجياً وينقص إفرازها للهرمونات ، ولذلك يميل إلى الهدوء والدعة والسكون ، ويزهد فى كثير من وسائل اللهو التى كان يمرح بها فى أيام شبابه ، وتتضاءل النزعات والأطماع والآمال الكبيرة التى كان يحلم بتحقيقها ، ويفقد لذة الحماس لكل شيء جديد .

وعندما يبلغ الستين من العمر تظهر عليه بوضوح علامات الضعف والاضمحلال ، وتفقد العضلات والعظام مرونتها ؛ فيحس بتصلبها وبعض آلام فيها عند محاولة أداء عمل جثمانى ، ويزيد خفقان القلب وتتصلب الشرايين ، فهذه القنوات والشعيرات الدموية التى قاومت ضغط الدم عشرات

السنين وتحملت ضربات القلب جميع ساعات الليل والنهار ، قد أضحت جامدة بعض الشيء بعد أن كانت مرنة كل المرونة ، فلا تستجيب لضربات القلب واندفاع الدم خلالها إلا في شيء من العسر.

وعند هذه السن يشحب الوجه ، وتتجعد البشرة ، ويزول بريق العينين وتظهر جيوب تحتهما ، ويتهدل الجلد عند الرقبة وحول الذقن ، وتصلع الرأس أو يشيب شعرها ، ويصيب بعض الأعضاء الحيوية شيء من الارتخاء ، ويسجل الوجه ما قاساه المرء في حياته من الحزن والقلق والحرمان والمتاعب النفسية . وقد يظن المرء أنه نسي أحزانه وتغلب على ميوله التي لم يصبه التوفيق في إشباعها ، ولكن الحقيقة أن الانفعالات النفسية المكبوتة تترك أثراً واضحاً على أسارير وجهه .

وقد يستطيع الشخص المتقدم في السن القيام ببعض الأعمال الجسدية التي اعتاد أن يؤديها قبل أن يدخل مرحلة الكهولة ، ولكنه يجد في ذلك كثيراً من الصعوبة ، فقد وهن عظمه واضمحلت قوته ، وهو يلهث عندما يصعد سلم منزله ، ويتعب بسرعة عند المشي ، ولا يستطيع الجري إذا أراد اللحاق بالترام أو الأتوبيس . وعندما يمارس بعض الأعمال

الفكرية يجد أن قدرته على آدائها أضعف كثيراً عما كانت عليه فى أيام الشباب ، ويلحقه الإعياء الشديد عند محاولة تركيز ذهنه فى شىء منها مدة طويلة .

ومن أشد ما يضايق المتقدم فى السن اضمحلال الذاكرة ، فمع أنه يظل حافظاً لذكرياته البعيدة ، ويستطيع أن يذكر بوضوح بعض الحوادث التى مرت به منذ سنوات ، فإنه يعجز عن تذكر الموضع الذى ترك فيه نظارته أو مسبحته ولم يمض على تركه لها لحظات قصيرة ، ويعجز عن تذكر أسماء أشد المقربين إليه عند مقابلته لهم ، ويعزم على إتيان عمل ما فى وقت معين ، فإذا حان الوقت خانته الذاكرة ، وقد يستدعى خادمه لأداء أمر من الأمور ، فإذا حضر الخادم نسى الشىء الذى استدعاه من أجله . وقد يتسلط عليه الوهم بأن الموت سيحل به فى سن مبكرة ، فيقضى معظم وقته داخل المنزل خوفاً من البرد والتيارات الهوائية والتعرض للحوادث ، ويشغل نفسه بصغائر الأمور ، فلا يفكر إلا فى نفسه طول الوقت ، ويصبح حقوداً سيىء الظن بمن حوله ، وقد تنهار قواه الجسدية والمعنوية ، فيضطر إلى قضاء بقية أيام حياته فى الفراش .

٢

من هم المعمرون

يعتقد كثير من الناس أن العمر الطويل مسألة وراثة فحسب ، حتى قيل فى ذلك أن من يرغب فى حياة طويلة فعليه أن يختار أبوين معمرين ، ويقول الأمريكيون بطريقتهم الفكاهية المألوفة فى هذا الشأن « إذا أردت أن تعمر طويلا فاعلن قبل ولادتك عن حاجتك إلى أبوين منحدرين من أسرتين اشتهرتا بالتعمير » ولهذه الأقوال نصيبها من الصحة ، فالذى يولد من أبوين معمرين يعمر مثلهما فى كثير من الحالات ، وثمة إحصاءات عدة يتبين منها أن الذين يدركون التسعين أو المائة من العمر هم أفراد انحدروا من قوم اشتهروا بالتعمير .

بيد أنه من الثابت أيضاً أن من يولد من والدين معمرين ليس الوحيد الذى يستطيع أن يعمر طويلا ، ومن الأمور الملاحظة أن الذين يعمرون طويلا لهم صفات معينة فى الأكل

ونظام المعيشة ، وهم فى العادة بعيدون عن المشاكل المعقدة فى الحياة ويكرهون الانغماس فى المسرات ، ولا يسرفون فى الأكل وتناول المكيفات والاستمتاع بالملاذ التى يقبل عليها غيرهم من الناس ، فأى امرىء يتبع من صغره نظام المعمرين وطريقة معيشتهم ، لا يلبث أن يعمر مثلهم . ومعنى ذلك أن من عنده استعداد وراثى للتعمير يعمر طويلا لأنه من السهل عليه (بحكم الوراثة) اتباع العادات التى تجعله يسير فى الحياة وفق نظام خاص ، .لا لأنه ولد من أبوين معمرين فحسب ، والدليل على ذلك أن بعض المعمرين الذين يولد لهم أولاد عدة ، قد يعمر فريق من هؤلاء الأبناء مثل أبويهم وقد يموت الفريق الآخر فى سن عادية أو مبكرة لأنهم لم يرثوا جميع الصفات والعادات التى تؤهلهم للحياة الطويلة .

كما أن ثمة إحصاءات أخرى تدل على أن النساء، مع ما يعانين من متاعب المنزل والأمومة ، وما يلاقين من مشقة فى الحمل والولادة والرضاعة ، غالباً ما يعمرون أكثر من الرجال ، وربما كان مرد ذلك إلى أنهن يعشن عيشة منظمة فى بيوتهن ، ولا يتعرضن للمشاكل المعقدة التى يواجهها الرجال فى معترك

الحياة ، كما أنهن لا يسرفن فى معيشتهن ، ولا ينغمسن فى بعض الملاذ التى يقبل عليها الرجال كالخمر وتناول المكيفات والسهر الطويل والاندفاع فى الاستمتاع الجنسى .

وثمة عناصر يلعب كل منها دوراً هاماً فى إطالة عمر الإنسان . فمن هذه العناصر ، كما قدمت لك ، أن يصيبك شيء من الحظ أو المصادفة فتولد من أبوين معمرين ، ومنها أن تجبرك ظروف الحياة على أن تحيا حياة هادئة منظمة كالتى يحياها القساوسة ورهبان الأديرة ، أو أن يضطرك العمل الذى تقوم به إلى الإقامة فى الريف أو فى جهة خلوية ساكنة فيها شيء من وسائل المتعة والتسلية ، أو يكون مورد رزقك متوسطاً فلا يغريك بالانغماس فى كثير من الملاذ وأنت فى سن الشباب ، وأن توفق فى زواجك وشئون أسرتك ، وتعيش فى جو ملؤه الصفاء والبشر والانشراح ، فلا تعترضك المشاكل التى تجعل الحياة المنزلية مملوءة بالمنغصات .

ومن الملاحظ أن غالبية المعمرين هم من أفراد الطبقة المتوسطة ، لأن الغنى يجد السبيل أمامه ممهداً للانغماس فى الشهوات ، وقد يسرف فى الأكل والشرب والسهر والتدخين

والاستمتاع بملاذ الحياة . والفقير على عكس ذلك لا يستطيع شراء اللحوم والبيض واللبن والدهن والفاكهة وغيرها من الأغذية الجيدة ، فيصاب بالأنيميا والضعف ، وتقل مناعة جسمه لمقاومة كثير من الأمراض التي تنشأ عن سوء التغذية ، كما أن الأعمال التي يكتسب منها الفقير قوت يومه غالباً ما تكون شاقة مجهدة ، وساعات العمل قد لا تكون مناسبة ، فتضطره إلى المكث مدة طويلة فى جو رطب أو بارد أو حار أو غير صحى مما يؤثر تدريجياً فى صحته .

ويمكن القول بأنه فى استطاعة أى امرىء أن يحيا إلى سن المائة أو التسعين على الأقل، وأن يحتفظ بجزء كبير من صحته وقواه الفكرية والجثمانية إلى تلك السن ، ولكن عدداً قليلا هم الذين يبلغون هذه السن وهم فى حالة صحية جيدة ، أما الأغلبية الساحقة من الأفراد فيموتون حول سن السبعين ، وقد تنهار قواهم الجسدية والفكرية قبل بلوغهم هذه السن .

وأرجو ألا تسىء فهمى يا بنى ، فإنى أعلم مثلك أن قابلية التعمير استعداد وراثى، ولكن ما أريد أن أوضحه لك فى هذا الصدد هو أن جميع من يرثون الاستعداد للتعمير لم

عادات خاصة معينة ، وطريقتهم فى المعيشة موحدة ، بالرغم من اختلافهم فى الجنس أو الدين أو المستوى الاجتماعى ، فمن يتبع عاداتهم ونظام معيشتهم فإنه بلا ريب سيعمر مثلهم، حتى لو كان أبواه من غير المعمرين . ويتناول هذا النظام الذى سأحدثك عنه تجنب المؤثرات السيئة التى تضر بالصحة، وعدم الإسراف فى الأكل وملاذ الحياة ، والبعد عن مشكلات الحياة العصرية المعقدة والأوساط المملوءة بالضجيج والاحتكاك الدائم والمنازعات .

٣
أرذل العمر

يرى فريق من الناس أنه أفضل للمرء أن يموت وهو محتفظ بكامل قواه وصحته ، بدلا من أن يبلغ من العمر أرذله ويضيف إلى عمره عدداً من السنين يحيا فى خلالها فى بؤس وضعف ووهن، بسبب ما يحل به من عوامل الهدم وويلات المرض . ولا يفتأ هذا الفريق يردد القول المعروف « إذا الشيخ قال أف فما مل الحياة وإنما الضعف ملا » ، فهؤلاء القوم يخشون الشيخوخة ويبرمون بها، ويخشون الضعف والوهن اللذين يلازمانها — ضعف الفكر والسمع والبصر وجميع الحواس ، وتصلب المفاصل والشرايين . ويرد على هذا الفريق بأنه فى استطاعة المرء أن يجعل من مرحلة الشيخوخة أيام راحة وهناء واستمتاع بمقدار لا يستهان به من مباهج الحياة ، بدلا من أن تكون فترة مرض وضعف وشقاء ، ووسيلة ذلك أن يدخر الفرد فى سنى شبابه جزءاً من قواه وصحته ؛ وذلك

بعدم الإسراف فى الأكل والشرب والسهر والتدخين ، وتجنب القلق والإجهاد وكثرة التفكير فى مشاكل الحياة ، وهو إذا فعل ذلك فلن تكون الفترة الأخيرة من حياته أرذل العمر ، مهما تأخرت هذه الفترة وامتد به الأجل .

الاعتدال : وليس المقصود بما تقدم أن يحيا المرء فى أيام شبابه حياة عسكرية صارمة ، خالية من وسائل المتعة واللهو ، أو يحرم نفسه من كثير من مباهج الحياة ، ولكن المراد أن يتبع الفرد فى حياته طرقاً خاصة من المعيشة الصحية المنظمة وأن يكون ملماً بالعوامل التى قد تؤدى إلى الضعف والانحطاط والشيخوخة المبكرة .

وقد قيل فى الأمثال « من عاش بالحكمة مات بالمرض » وهو قول صحيح إلى حد ما ، ويطلق على الشخص الذى يغالى فى اتباع طرق المعيشة الجدية الصارمة ولا يفتأ طول يومه يفكر فى كيفية تفادى المرض حتى يقع فى حبائله ، وقد يمتنع عن ممارسة كثير من وسائل المتعة متوهماً بأنها تتنافى مع أصول الحكمة ، أو يمتنع عن أكل اللحوم والمنتجات الحيوانية المفيدة معتقداً أنها ضارة بصحته .

وهناك فى الوقت نفسه الشخص المستهتر الذى لا يعير اهتماماً لما يسمع عن مضار الإسراف فى المعيشة ، فهو يأكل جميع ما يلذ له ، ولا يريد إلا أن يستمتع استمتاعاً تاماً بجميع ملاذ الحياة ، ومثل هذا الفرد تتضاءل حيويته إلى حد كبير جداً قبل بلوغه سن الخمسين . وقد يصيبه البول السكرى وتضخم الكبد والبدانة المفرطة وارتفاع ضغط الدم ، ونادراً ما يعيش إلى سن السبعين . والحقيقة أنه إذا زاد نشاط المرء فى خطى الحياة عن حد معتدل قصرت الحياة نفسها ، حتى لو كان هذا النشاط فى غرض نفعى ، أى أن طول عمر الفرد يتناسب عكسياً مع ما ينفقه من المجهود فى العمل والتفكير والأكل وفى جميع نواحى الحياة .

ولا يمنعك ما ذكرته لك من أن تلبى الدعوة لوليمة فاخرة ، وأن تشبع نفسك بما تصبو إليه من ألوان الطعام والشراب ، وأن تحظى بجانب كبير من المتعة ومسرات الحياة فى الأعياد والحفلات وبعض ليالى السمر ، فهذا يفيدك من حين إلى حين ، أما بقية أيام السنة فيجب أن تراعى فيها الاعتدال التام ومراعاة وسائل المعيشة الهادئة المنظمة .

٤

الطعام

من المسلم به أن المرء بعد سن الخمسين ، لا يحتاج إلى نفس المقدار من الطعام الذى كان يتناوله وهو فى مقتبل العمر ، لأن الطعام ليس إلا وقود يمد الجسم بالطاقة اللازمة للفكر والعمل ، ومن المعلوم أن المتقدم فى السن يميل عادة إلى الدعة والراحة والسكون ، فهو فى غير حاجة إلى كميات كبيرة من الغذاء .

فالصبية والفتيان فى حاجة إلى كميات مناسبة من الطعام لأنهم فى نمو مستمر ، والطعام يبنى الخلايا والأنسجة والعظام . ويستنفد البالغون الذين فى مقتبل العمر مقادير كبيرة من الطعام لتعويض ما يتهدم من أنسجتهم بسبب ما يؤدونه من الأعمال الجسدية والفكرية المستمرة ، أما المسنون فلا يبذلون من المجهود إلا قليلا ، وعملية الهدم والبناء فى أنسجتهم ضئيلة بطيئة ، فهم فى غير حاجة إلى كثير من الطعام .

فالمسن لا يحتاج فى غذائه اليومى إلا لمقدار صغير من المواد

النشوية والسكرية ، لأن هذه المواد تولد الطاقة فى الجسم ، وحيث أنه لا يقوم بقسط كبير من الحركة والأعمال الجسدية ، فكمية صغيرة من هذه المواد تكفى لإمداده بما يلزمه من الحرارة والطاقة . ومن أمثلة المواد النشوية الخبز والأرز والذرة والبطاطس والمكرونة ، والمواد السكرية مثل السكر والعسل والمربى والحلوى بأنواعها . وإذا كانت أعمال الشخص المسن تتطلب بذل مجهود جثمانى شاق ، كأن يكون عاملا فى الحقل أو بناء أو ما شابه ذلك ، فلا ضير عليه أن يأكل مقداراً زائداً من هذه الأطعمة النشوية والسكرية .

وليس المسن فى حاجة إلى مقدار كبير من البروتين كذلك ، لأن البروتينات تبنى ما تهدم من أنسجة الجسم أثناء الحركة وأداء الأعمال الجسدية والفكرية المتنوعة ، وحيث أن المتقدم فى السن لا يقوم إلا بقسط صغير من هذه الأعمال ، فحاجته إلى الأغذية البروتينية ليست كبيرة ، ومن أمثلة هذه الأغذية اللحوم والطيور والسمك والبيض والجبن .

والنوع الثالث من الأغذية التى يجب أن تتوافر فى غذاء الإنسان المواد الدهنية مثل الزبد والسمن والزيوت بأنواعها ،

وبديهى أن المسن لا يحتاج إلا إلى قليل من هذه المواد ، لأنها تولد مقداراً كبيراً من الطاقة فى الجسم .

ومن أهم الظروف التى تلائم إطالة العمر أن تكون تغذية المرء معتدلة وأن يكون الغذاء مشتملا على جميع العناصر الغذائية اللازمة لإحداث الاتزان الغذائى بالجسم .

وقد يمكث المرء أشهراً ، بل عدداً من السنين ، وهو لا يراقب غذاءه ويأكل ماتشتهيه نفسه بدون مراعاة لقواعد التغذية ، ولا يلاحظ أى خلل أو اضطراب صحى فى جسمه ، لأن عوامل الاضطراب التى تنشأ عن الإخلال بقواعد التغذية تسير سيراً بطيئاً جداً وبطريقة خفية متصلة ، فلا يشعر المرء بشيء منها فى أول الأمر ، ولكن بمرور الزمن تتجمع التأثيرات التى تنجم عن هذا الإخلال ، فتظهر فجأة وبوطأة شديدة بعد انقضاء عدد من السنين ، يصبح العلاج عندها من أعسر الأمور ، بسبب ما حدث من تغيرات مرضية تراكمت ثم ظهرت فى صورة مزمنة فى خلايا الجسم وأنسجته .

فإذا كانت التغذية صحيحة ، وكان المرء متبعاً لقواعد المعيشة الصحية من حيث النظافة الباطنية والتمتع بقسط حسن

من الراحة وعدم الانهماك بمشاغل الحياة ومارسة كل أمر فيها من أعمال وملذات فى شيء من الاعتدال ، فإن جسمه يظل نشطاً قوياً إلى ما بعد الثمانين ، وتبقى قوة احتماله لأعباء الحياة ، وقدرته على مقاومة التعب وأعراض الشيخوخة والمرض كما كانت عليه فى سن الخمسين .

أما لو كانت تغذية المرء غير صحيحة ، فإن الجسم يصاب على التدريج بسوء التغذية . وسوء التغذية قد ينجم عن نقص فى كمية الغذاء اللازمة لحاجة الجسم وعدم استكماله لجميع العناصر الأساسية فى الغذاء ، كما ينجم فى كثير من الحالات عن الإسراف فى الأكل وتناول الأطعمة الدسمة والمركزة والغنية بمادتها الغذائية بمقدار أكثر مما يحتاج إليه الجسم ، فيزيد العبء الملقى على الجهاز الهضمى ، وتضطرب المعدة ، وتتحمل الكلى وأعضاء الإفراز مجهوداً لا طاقة لها به فى التخلص من النفايات المتولدة عن هذا الإسراف ، وقد يختل التمثيل الغذائى فيصاب الجسم بالحموضة المزمنة ، مما يؤدى إلى إصابة المرء بالبول السكرى والروماتزم والتهاب الكلى والبدانة وتضخم الكبد وارتفاع ضغط الدم ، وذلك بالإضافة إلى ما يشعر به المسرف فى تناول

الطعام من الثقل والامتلاء والخمول وسرعة التعب وعدم القدرة على القيام بالجسم من الأعمال . فالمعدة بيت الداء ، والبطنة هي السبب في ما يصاب به كثير من الناس من العلل والأمراض. ومما يؤثر عن الحكماء ما قاله مرة طبيب حكيم : « إذا كان هناك أصحاب فضل علينا — نحن الأطباء — فهم الطهاة الذين يؤدون لنا أجل الخدمات عند ما يحشون بطون أسيادهم بما يتفننون فيه من ألوان الطعام »

والجدول التالى يبين الأضرار التى تنجم عن سوء التغذية من حيث زيادة مقدار الطعام أو نقصه عن الحد الذى يجب أن يكون عليه ، ومن حيث استيفائه لجميع العناصر الضرورية للتغذية.

بيد أن المسنين كثيراً ما يغمضون أعينهم عن هذه الحقائق وهم لا يجدون وسيلة لقتل الوقت غير الجلوس إلى مائدة الطعام ، فهم يأكلون فوق ما تحتاج إليه أجسامهم مما يؤدى إلى اضطراب الهضم وشتى المتاعب الصحية ، خاصة وأن عمليات الحياة عند المسن راكدة غير نشطة ، فلا يستطيع الجسم أن يتخلص من جميع النفايات التى تتخلف من هضم وتمثيل الغذاء .

ويستنتج مما تقدم أنه إذا تجاوز المرء سن الخمسين ، فعليه

سوء التغذية

الإسراف فى الأكل يؤدى إلى

- اضطراب الهضم
- البدانة
- الشعور بالثقل والخمول وسرعة التعب
- أمراض القلب والكبدوالكلى
- البول السكرى
- ارتفاع ضغط الدم
- تقصير العمر

نقص الطعام وعدم استكماله للعناصر الحيوية يؤدى إلى

- الهزال والضعف
- فقر الدم
- ضعف الشهية
- إضعاف مناعة الجسم ضد الإصابة بالأمراض ، الهبوط العصبى وسرعة التكدر والانفعال ، ضعف الطاقة الجنسيـــة والقـــدرة على الإخصاب ، وقد يؤدى إلى الإصابة بالنزلات الشعبية والدرن

ألا يسرف فى الأكل ، وأن يقلل من النشويات والأغذية البروتينية والدهنية المركزة ، وأن يعتمد فى غذائه على المأكولات غير المركزة مثل اللبن ومنتجاته والخضروات والفاكهة . والأفضل للمسن أن يتناول بعض وجبات خفيفة فى اليوم من أن يأكل وجبتين ثقيلتين . فيحسن أن يكون طعام الإفطار مثلا برتقالتين أو كمية حسنة من أية فاكهة ، وفى الساعة العاشرة يتناول المرء قدحاً من اللبن ، وفى وجبة الغداء يأكل شيئاً من اللحم أو السمك أو الطيور مع كمية حسنة من الخضراوات المطهية والطازجة ، وفى الساعة الرابعة يتناول عصير الفاكهة أو قدحاً من الشاى واللبن مع قليل من البسكوت ، وفى المساء يأخذ اللبن الزبادى أو الحليب مع شىء من الخبز والزبد والعسل .

ولا يظن المرء أنه سيضعف أو يصيبه الهزال إذا استمر على هذا النظام مدة طويلة ، لأن المهم ليس كمية الطعام وإنما جودته ومناسبته للجسم واستيفائه لجميع عناصر التغذية ، فكثير من الناس يأكلون كميات كبيرة من الطعام ويصابون باعتلال الصحة وسوء التغذية .

ولقد أثبت علماء الكيمياء الحيوية بالتجربة أن ملء المعدة

بالطعام لا يغنى عن الجوع بمعناه العلمى الحديث . وأن المرء قد يأكل كثيراً بدون أن يشبع حاجته إلى جميع العناصر الغذائية والأملاح المعدنية والفيتامينات. فالجوع بمعناه البيولوجى الصحيح هو عوز الجسم إلى تلك المواد الحيوية التى لا غنى للجسم عنها ، فهناك أكثر من خمسة عشر نوعاً للبروتينات والمركبات الزلالية المختلفة كل منها لازم لعملية خاصة من العمليات التى تحدث فى الجسم ، وهناك بضعة عشر عنصراً من العناصر المعدنية وبضعة عشر نوعاً من الفيتامينات كل منها أيضاً لازم للجسم ، ونقص أحدها من الغذاء مدة طويلة يعرض الجسم للإصابة بحالة من الحالات المرضية المتنوعة .

وأستطيع أن أؤكد لك أنك إذا اعتمدت فى غذائك على المأكولات الطبيعية الطازجة ، فإنك واجد فيها جميع ما تحتاج إليه من العناصر الغذائية اللازمة لصحة الجسم ، ومن هذه الأغذية الطبيعية اللبن ومنتجاته الطازجة كالزبد والجبن الطازج والقشدة واللبن الزبادى ، وكذلك الخبز الأسمر المصنوع من الحبوب بكامل أجزائها والبليلة ، والبيض والسمك والطيور واللحم بشرط أن تكون طريقة طهيها سريعة غير معقدة كالشى مثلا .

ومن المأكولات الجيدة أيضاً الخضروات الطازجة والمطهية طهياً سريعاً مبسطاً وجميع أنواع الفاكهة ، والعسل بنوعيه ، والجوز واللوز والتمر وسائر أنواع الياميش .

أما الأغذية المحنطة والمجففة والقديمة والتى أجرى فى إعدادها عمليات طويلة من الطهى أو التنقية والتكرير ، فأنصحك الابتعاد عنها ، ومن هذه الأغذية الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض النقى والسكر الأبيض المكرر والسمن وكل ما صنع منهما مثل الفطائر والحلوى ، وكذلك المكرونة والأرز الأبيض المصقول ، وكل ما قدح فى السمن أو أجريت عليه عمليات طويلة أو معقدة من الطهى والتنقية والتكرير ، لأن الغذاء يفقد بما يجرى عليه من هذه العمليات جزءاً مما أودعته الطبيعة فيه من عناصر غذائية مفيدة للجسم . ولقد أثبتت التجارب التى أجراها العلماء فى غضون الثلاثين سنة الأخيرة أن للغذاء تأثيراً كبيراً فى إطالة الحياة ، وفى هذه التجارب أتوا بعدد كبير من الخنازير الهندية والجرذان وقسموها إلى فريقين ، أعطى فريق منها أغذية طبيعية طازجة ، واقتصر فى تغذية الفريق الثانى على مأكولات مكررة وخالية من بعض عناصر التغذية ، فلوحظ أن الفريق الثانى

قصرت حياته جيلا بعد جيل ، وقد اختيرت الحيوانات المذكورة لأن غذاءها شبيه إلى حد ما بغذاء الإنسان ، ولأن مدى حياة كل منها قصير ، ففى الاستطاعة تتبع تأثير الغذاء فى إطالة العمر فى أجيال متعاقبة منها خلال فترة قصيرة ، بالقياس إلى مدى حياة الإنسان .

وليس المقصود مما تقدم أن يحرم المرء نفسه من التمتع بلذة الطعام ، والتنعم بما لذ وطاب من المأكولات المتنوعة ، ولكن المراد أن يكبح الإنسان جماح نفسه عند الأكل ، وألا يكون جشعاً فيلتهم جميع ما يعرض أمامه على مائدة الطعام ، ومن الميسور أن يوفق بين ما تشتهيه نفسه وما تتطلبه القواعد السليمة للتغذية ، وسيجد بشىء من التعود وضبط النفس أنه سينفر تدريجياً من الأغذية الضارة والمركزة ، ويزيد ميله للمأكولات الطبيعية الطازجة .

٥

الصوم

ومن الواجب على المتقدمين فى السن أن يصوموا يوماً على الأقل فى كل أسبوع ، ومن الواجب أن يصوموا أيضاً أسبوعاً أو أكثر مرتين على الأقل فى كل عام ، ومن لم يقدر على الصوم فعليه أن يتجنب المأكولات المركزة ،ويعيش على عصير الفاكهة فترة من الزمن من حين لآخر .

وفائدة الصوم أنه يريح الجهاز الهضمى ، ويتيح لأغشية الجسم فرصة تتخلص فيها مما يتجمع حولها من النفايات والمواد الحامضية والتوكسينات التى تتولد باستمرار فى الجسم ، كما أنه يعطى الأنسجة والأعضاء المصابة بشىء من التقيح أو الاحتقان أو الألتهاب مجالا للشفاء .

ومن المعلوم أن كل امرئ معرض للإصابة ببعض البؤرات الصديدية التى تتكون دخل الجسم وتلوثه بما تصبه من توكسينات فى مجرى الدم ، وهذه البؤرات قد يكون أثرها ضعيفاً فى مبدأ

الأمر ، فلا يحس المرء بنتائجها ويشعر كأنه فى كامل صحته ، غير أنه بمرور الزمن يتراكم الأثر الضار الذى ينجم عن وجود هذه البؤرات ، وفجأة يصاب الإنسان بمرض جسيم أو اختلال صحى يصعب الشفاء منه .

وخير طريقة لتجنب الإصابة بالبؤرات الصديدية هى الصوم من حين لآخر ، لأنه فى خلال فترة الصوم يتغذى الجسم بأنسجته الداخلية . فإن كان شىء من الاحتقان أو التقيح أو الالتهاب قد بدأ يصيب الأنسجة ، فإن أول ما يتهدم منها الخلايا المصابة ، فتتأكسد ويتخلص الجسم منها .

كما أن الصوم يذيب ما قد بدأ يتكون من الحصوات والرواسب الكلسية والزوائد اللحمية وأنواع البروز والنمو الخبيث ، بشرط أن يصوم المرء فى فترات غير متباعدة ، وألا يكون التقيح أو الالتهاب قد مضى على تكونه أشهر طويلة .

ويشيد مشاهير الأطباء فى أمم الغرب بفائدة الصوم أعظم إشادة ، وينصحون به لتجنب ويلات المرض وللشفاء منه فى كثير الحالات ، ويشيرون به بوجه خاص للمصابين بالديابيطس السكرى وتضخم الكبد والتهاب الكلى والبدانة وارتفاع ضغط

الدم وبعض الأمراض التى تنجم عن الإفراط فى الأكل وإصابة الجسم بشيء من الحموضة ، وبوجه عام للمحافظة على صحة الجسم وتجديد حيويته .

وإذا لم يقدر المرء على الصوم ، فلا أقل من ألا يقرب الأكل إلا وهو جائع . والمراد بالجوع هنا ليس مجرد الانفعال العكسى الذى يحس به الإنسان عند ما يحين الوقت المخصص لتناول إحدى الوجبات الثلاث ، أو عند رؤية الأكل معداً على المائدة ، أو عند ما يشم رائحة الطعام ، أو عند مشاهدة الألوان الجذابة من بعض المأكولات التى يمر بها فى الطريق ، فإن هذه العوامل الصناعية من شأنها أن تحدث تنبيهاً مؤقتاً يثير رغبة المرء إلى الأكل ، وهو ما نسميه بالجوع المؤقت أو الصورى ، أما الجوع الحقيقى فهو ما يستمر فترة من الوقت ويحس به الإنسان بدون تنبيه خارجى وبدون التعرض لأحد المؤثرات المتقدمة الذكر .

ويفسر العلماء حدوث الإحساس بالجوع بأنه عند ما يستنفد الجسم معظم المادة الغذائية المذابة فى مجرى الدم ، ويهبط معدل الجلوكوز به إلى نسبة معينة ، يبدأ الكبد فى إخراج بعض المخزون به من مادة الجليكوجن (النشا الحيوانى) ، وهذه المادة

الأخيرة تتحول بسرعة إلى جلوكوز يسير فى مجرى الدم إلى جميع الخلايا والأنسجة ، وفى الوقت نفسه تتهدم بعض الخلايا والأغشية لإمداد الجسم بالمادة البروتينية والأحماض الأمينية ، وقد يتحول جزء من دهن الجسم أيضاً إلى مادة كربوإيدراتية ، وهذه العمليات جميعها أو إحداها يصحبهاذلك الإحساس الخاص الذى نسميه بالجوع .

فالجوع تنبيه من الجسم بأنه قد بدأ يستنفد ما لديه من الغذاء الاحتياطى المدخر ، وواضح مما قدمت لك أنه بالإضافة إلى ما يدخره الجسم من الجليكوجن فى الكبد ، فإن ثمة رصيد عظيم من المادة الغذائية بالجسم ، ألا وهو جميع الأغشية والخلايا والأنسجة التى يتركب منها ، فهذه الأغشية والخلايا تصلح أن تكون غذاء يمثله الجسم فيولد منها ما شاء من الطاقة والحرارة اللازمتين لجميع أعمال الحياة . وهذا هو السبب فى أننا نستطيع أن نصوم بضعة أسابيع بل أشهر بدون أن يصيب الجسم ضرر بليغ ، الأمر الذى فعله غاندى ودى فاليرا وغيرهما ممن مارسوا الصوم مدة طويلة . أما الماء فلا غنى للجسم عنه ولا يستطيع المرء أن يعيش بدونه أكثر من بضعة عشر ساعة ، لأنه

لازم لإذابة جميع التوكسينات والمواد الحامضية والنفايات السامة التى تتراكم باستمرار فى سوائل الجسم ، فإن لم تطرد أولا بأول خارج الجسم (فى البول والعرق والبراز) فإنها تؤدى بعد ساعات قليلة إلى الموت .

ومن أعظم مآثر الدين الإسلامى أنه كثيراً ما يحض على الصوم ، ومع أنه يبيح للفرد أحياناً أن يتحرر من الالتزام بهذا الفرض ، على أن يكفر عن ذلك بإطعام المساكين ، فإنه يعود فيؤكد أن الصوم أنفع لنا ، كما جاء فى قوله تعالى « وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » . وقال عليه الصلاة والسلام «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » . وقال أيضاً : « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء » . وفى الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجوع من غير عوز ، وكان يقول جاهدوا أنفسكم بالجوع فإن الأجر فى ذلك كأجر المجاهد فى سبيل الله . وقال أيضاً أفضلكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولكم جوعاً ، وأبغضكم عند الله يوم القيامة كل نؤوم أكول شروب .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: « إياكم والبطنة فإنها ثقل فى الحياة ونتن فى الممات » . وجاء فى كتاب إحياء علوم الدين للغزالى بفصل آداب الطعام ما يلى : « ومن آداب الطعام ألا يمد الإنسان يده للطعام إلا وهو جائع ، فيكون الجوع أحد ما لا بد من تقديمه على الأكل . ثم ينبغى أن يرفع اليد قبل الشبع ، ومن فعل ذلك استغنى عن الطبيب »

ويحكى أن المقوقس ملك مصر أهدى للنبى (ص) جارية وطبيباً وبغلة ، أما الجارية وهى مارية القبطية فقد تزوجها النبى ، وأما البغلة فاتخذها ركوبة له ، وأما الطبيب فمكث مدة طويلة ، لم يقبل عليه أحد يشكو مرضاً ، فقال للنبى عليه السلام : مكثت مدة ولم يأتنى مريض ، فأجاب النبى بقوله المأثور : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » .

٦

التسمم الذاتى

يمكن القول بأن أشد عوامل الهدم والفناء فى جسم الإنسان عامل التسمم الذاتى (Anto-intoxication) ، ويحدث هذا التسمم عادة بإحدى العوامل الآتية :

(١) الإفراط فى أكل الأغذية البروتينية والدهنية المركزة مما يؤدى إلى تولد مواد حامضية تعمل على إنقاص قلوية الوسط السائل بالجسم .

(٢) تخمر بعض أجزاء الطعام فى الأمعاء وامتصاص الجسم لنواتج التخمر ، كما يحدث بسبب الإمساك وبقاء الكتلة البرازية مدة أطول مما يجب بداخل الإمعاء .

(٣) امتصاص الجسم لبعض الصديد والمفرزات السامة التى قد تتولد بداخل الجسم .

(٤) المعيشة فى هواء غير صحى ، مثل جو المدن الصناعية الكبيرة والعواصم المكتظة بالسكان .

وسأحدثك الآن عن كل من هذه العوامل الأربعة فى شىء من التفصيل .

أولا : الإفراط فى الأكل :

لا جدال فى أن الإفراط فى الأكل ، واتباع نظام غير صحى فى التغذية ، لمن أقوى العوامل التى تؤدى إلى تولد الحموضة وحدوث حالة التسمم الذاتى بالجسم ، لأن أسباب التسمم الأخرى قد تكون عارضة ولا تصيب المرء إلا فى فترات متباعدة ، فيكون لدى الجسم متسع من الوقت لمقاومتها ومعادلة تأثيرها ، أما النفايات والسموم التى تتولد عن هضم وتمثيل الطعام ، فتتراكم فوق بعضها البعض بسبب الأكل ثلاث مرات متوالية فى كل يوم من أيام حياة الإنسان ، والفترة بين وجبتين متتاليتين لاتكفى لكى يعادل الجسم فى خلالها جميع النفايات والمواد الحامضية التى تتخلف عن هضم الطعام ، وخاصة إذا كان من النوع المركز أو غير المستكمل لشروط التغذية .

والحقيقة أن أكثر الناس يأكلون فوق ما تحتاج إليه أجسامهم ، وعدد غير قليل منهم يجد المستقبل محدوداً أمامه عند مايبلغ سن الخمسين ، وتتلاشى الآمال الواسعة التى كان يحلم

بتحقيقها ، فلا يجد وسيلة لتعزية نفسه والتفريج عن آلامه المكبوتة إلا الطعام والشراب ، وحيث أنه فى تلك السن لا يؤدى المرء من الأعمال الجسدية ما يكفى لحرق الزائد عن حاجة جسمه من الطعام ، فإن اختلال الهضم وسوء تمثيل الغذاء يؤديان إلى تراكم النفايات والسموم بالجسم ، فيصاب بالحموضة وما يترتب عليها من متاعب صحية هو فى غنى عنها ، مثل البول السكرى وارتفاع ضغط الدم وتصلب الشرايين والروماتزم وترسب الدهن على الأنسجة والإحساس بالوهن والضعف والخمول ، ونحو ذلك من الأعراض التى يصاب المرء بها فى أعقاب الكهولة.

وإذا عاش الإنسان على أغذية بسيطة غير مركزة ، ومأكولات طبيعية طازجة ، فإنه لن يعانى أضرار التسمم الذى ينشأ عن اختلال الهضم وسوء تمثيل الطعام ، فاللبن ومنتجاته ، والخضراوات الطازجة أو المطهية بطريقة سريعة غير معقدة ، وجميع أنواع الفاكهة الطازجة لا تولد حموضة ألبتة ، لأن الرماد المتخلف عن تمثيلها يضيف إلى قلوية الجسم ، أما المواد البروتينية والدهنية المركزة ، وكذلك الحلوى والنشويات والوجبات الثقيلة الدسمة ، فإنها تخلف بعد هضمها نفايات حامضية قد

لا تقدر الأنسجة على التخلص منها ، فيؤدى الإسراف فى أكلها إلى تولد حالة من الحموضة المزمنة أو التسمم الذاتى فى الجسم .

ولقد سئل شيخ المعمرين « ميشيل أنجلو » مرة عن السر فى صحته الجيدة وتمتعه بنشاط غير عادى بعد أن تجاوز سن المائة ، فقال أن تقشفه فى الحياة واقتصاره فى الأكل على أبسط المأكولات كانا من أهم ما تتميز به حياته عن حياة غيره من الناس ، ومن كلامه فى ذلك ما يأتى : « رغم ثرائى الوفير وتوافر أسباب المتعة ووسائل الترف لى ، فقد حييت حياة خالية من الإسراف والتعقيد معظم أيام حياتى ، وكان غذائى المحبوب اللبن والجزر والتمر والخبز القديد ، فجنبت نفسى ويلات المرض ومتاعب الشيخوخة » .

والعجيب فى هذا الشأن أنك إذا أخذت المنتجات الطبيعية بدون أن تجرى عليها عمليات طويلة من التنقية والتكرير والتقشير والغسيل والطهى ، وأكلتها بكامل أجزائها ، فإنها لا تولد حموضة ألبتة . فالبطاطس مادة نشوية مركزة ، وإذا أجريت عليها عملية الشى وأكلتها بقشورها كانت غذاء صحياً كاملا .

وبالمثل إذا أكلت القمح بقشوره ، كما يحدث عند ما تأكل البليلة والخبز الأسمر المحضر من القمح بكامل نخالته ، فإنك تجنى منه أعظم فائدة، لأن قشور القمح غنية بالأملاح المعدنية القلوية والفيتامينات ، وغنيةٍ بالألياف السليولوزية الخشنة التى تحول دون الإمساك ، أما الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض النقى ، وكذلك الفطائر وأنواع الكعك والبسكوت وما إليها فتعد ضارة بالجسم ، لأنها تخلف بعد تمثيلها نفايات حامضية تنقص من قلوية الدم والسوائل التى تحيط بالأنسجة ، ولأنها تكاد تكون كاملة الهضم لا يتخلف منها ما يساعد الكتلة البرازية على تنبيه الحركة الدودية للأمعاء .

وعصير القصب لا يضر الجسم مهما كانت الكمية التى يتناولها المرء منه ، أما السكر الأبيض النقى وجميع أنواع الحلوى التى تصنع منه فضارة بالصحة ، لأنه فى عملية استخلاص السكر من العصير ، ينزع منه ما به من أملاح الكالسيوم والأملاح القلوية الأخرى ، وفقد هذا المركبات يؤدى إلى اضطراب عمليات التمثيل وتولد الحموضة بالجسم .

واللبن غذاء كامل الجودة ، وكذلك الزبدة الطازجة إلى حد

ما ، ولكنك عند ما تصهر الزبدة للحصول منها على السمن ، فإنها تفقد ما بها من الفيتامينات الحية الثمينة ، وينزع منها أيضاً الأملاح المعدنية القلوية والمادة البروتينية (وهى ما تكون المرتة التى تنزع من الزبدة عند صهرها) ، ولذلك كان السمن غذاء غير مستحب ، لأنه دهن خالص ، فهو يمد الجسم بكمية كبيرة من الطاقة الحرارية ليس إلا ، ولا يحتوى على العناصر الحيوية الممتازة التى توجد فى اللبن .

اللبن مضر : ومع أن اللبن عظيم الفائدة للجسم ، فليس معنى ذلك أن يفرط المرء فى تناوله ، فهما كان نوع الغذاء جيداً فإنه قد يؤدى إلى أشد الأضرار ، إذا تناوله المرء مع مأكولات أخرى غنية بالمادة الغذائية المركزة ، فاللبن من أفيد الأطعمة للجسم على أن تأخذه بدلا من الوجبة الغذائية لا فوقها ، وإذا أخذته مع وجبة من وجبات الغذاء فيجب أن تكون سائر المأكولات التى تتركب منها تلك الوجبة خفيفة غير مركزة ، كأن يكون معه شىء من الخضر أو الفاكهة .

وما ذكرته لك عن اللبن ينطبق على عدد غير قليل من الأطعمة الأخرى التى تسمع عنها أنها أفيد ما تكون للجسم .

فمن المعلوم مثلا أن البرتقال غذاء كامل الجودة ، ويعمد البعض إلى تناول خمس أو ست برتقالات عقب وجبة دسمة أو ثقيلة ، وهماً منه بأنه يساعد على الهضم ، ويصلح ما قد تسببه تلك الوجبة الثقيلة من امتلاء أو حموضة أو ضرر بالجسم ، وهو وهم باطل وجريمة لا تغتفر يرتكبها المرء ضد نفسه ، إذ يكفى الحمل الذى أثقلت به جسمك بتناولك غذاء ثقيلا أو مركزاً ، فلا يجوز أن تضيف إليه حملا آخر مهما كانت مزاياه الغذائية . فخمس برتقالات مفيدة جداً للجسم إذا تناولتها بدلا من وجبة الغذاء لا فوقها ، والعنب مفيد جداً إذا أخذته بدلا من طعام الإفطار لا معه ، وعصير القصب أو التمر أو أية فاكهة أخرى مفيدة إذا أخذت شيئاً منها بدلا من وجبة العشاء لا فوقها ، وهكذا . وإنك إذا فعلت ذلك أعطيت أنسجتك فرصة للتجديد والراحة ، وتخفف الحمل الملقى على المعدة والكبد والكلى والرئتين والبشرة فى التخلص من النفايات الضارة والتوكسينات التى تتخلف عن هضم وتمثيل الأغذية .

ثانياً : الإمساك

الإمساك هو العدو الأول للإنسان المتمدن ، وهو داء الطبقات الراقية والغنية من الشعوب المتحضرة ، ويقال إن الحبوب والأقراص وسائر الأدوية التى تباع فى الصيدليات لإزالة الإمساك ، أصبحت تعادل فى كمياتها مجموع الأدوية التى تستخدم فى جميع أغراض المداواة الأخرى .

وثمة عدد كبير من الحالات المرضية الخطيرة منشؤها الإمساك وعدم إطاعة المرء لقوانين الطبيعة فى التخلص من محتويات الأمعاء الغليظة فى الأوقات الملائمة . فالتهاب الزائدة الدودية والبول السكرى والمغص الكلوى والروماتزم الشديد يسبقها عادة فترات طويلة من الإمساك . ويترتب على بقاء الكتلة البرازية مدة طويلة فى الأمعاء أن يمتص الجسم منها بعض السموم والتوكسينات الضارة، فيضطرب الهضم ويتكدر الدم ويبطؤ عمل الفكر ويزول بريق العينين ويشوب الوجه شئ من الشحوب والذبول ، وتنبعث من الفم رائحة غير مقبولة .

ووظيفة الأمعاء ليست مقصورة على فصل النفايات والأجزاء غير الصالحة من الطعام وقذفها إلى الخارج ، بل من وظائفها هضم الطعام . فالمواد الكربويدراتية التى لم تهضم فى الفم أو المعدة ، يتم هضمها فى الأمعاء الدقاق ، وجميع المواد الدهنية من نباتية وحيوانية تهضم فى الأمعاء ، كما أن أغشية الأمعاء تعمل على امتصاص الجزء المهضوم من الطعام وتوصله إلى الدورة الدموية ، وهناك عدد من المفرزات تنصب باستمرار فى الأمعاء فتساعد على بعض عمليات التمثيل وتحويل الغذاء من صورة إلى أخرى ، أى أن الأمعاء ليست لفائف لتخزين الكتلة البرازية كما يجعل منها البعض ، بل هى معامل كيميائية يحدث بداخلها عدد من العمليات الحيوية الهامة للجسم ، وبقاء البراز مدة طويلة فيها يؤدى الى اضطراب هذه العمليات ، ويتسبب عنه أضرار شديدة لصحة الإنسان.

فالذى يريد أن يعمر طويلا ، عليه أن يتجنب الإمساك ، وذلك باتباع القواعد الصحيحة للتغذية ، وبأخذ قسط وافر من الحركة والرياضة ، واتباع الطريقة السليمة للجلوس عند التبرز .

وأستطيع أن أؤكد لك أن عامل التغذية هو أهم العوامل جميعها ، فالأغذية المركزة كالأرز والمكرونة والخبز المصنوع من الدقيق الأبيض النقى ، والفطائر والسكر والحلوى جميعها تسبب حدوث الإمساك ، أما الأغذية التى تساعد على تجنب الإمساك فهى حبوب القمح بقشورها واجنتها وجميع أجزاءها (بأن تؤكل على هيئة بليلة أو يصنع منها الخبز الأسمر الخشن) ، والفاكهة والخضراوات الطازجة والمطهية والجذور (رؤوس الفجل والجزر) ، واللبن الرائب والتمر والتين والزبيب . ويفضل أن تؤكل الفاكهة بقشورها كلما أمكن ذلك ، وكذلك الخضراوات ، لأن الأجزاء الخشنة والألياف السليولوزية تنبه الحركة الدودية للأمعاء وتساعد على قذف محتوياتها إلى الخارج .

فيجب أن تبدأ وجبة الإفطار فى الصباح بكمية من الفاكهة الطازجة أو كوب مملوء بالخشاف به كمية حسنة من التين والقراصيا والتمر والزبيب وتتبعها بمقدار من البليلة .

ويجب أن تشتمل وجبة الغداء على مقدار مناسب من السلاطة كالخس والجرجير والطماطم والفجل . وفى وجبة

العشاء تأكل مقداراً من اللبن الزبادى وكمية أخرى من الفاكهة ، وفى جميع هذه الوجبات يكون الخبز الذى تتناوله من النوع الأسمر المصنوع من الحبوب بجميع أجزائها .

وإذا كان من الضرورى تناول دواء مسهل فلا بأس من كمية من زيت الخروع من حين لحين ، وأفضل من ذلك حقنة شرجية دافئة . أما الحبوب والأقراص التى تؤخذ فى كل يوم لتجنب الإمساك فيجب الامتناع عنها كلية ، وكذلك أملاح الفواكه أو الأملاح الفوارة لأنها تحتوى على أملاح معدنية مسهلة .

والأشخاص الذين يؤدون أعمالهم جلوساً على مكاتبهم عرضة للإمساك أكثر من الذين يشتغلون بأعمال جسدية . والتمرينات الرياضية مفيدة جداً لتجنب الإمساك وخاصة ما يتطلب منها ثنى الوسط وحركة البطن . كما أن طريقة الجلوس عند التبرز لها دخل فى تجنب الإمساك ، والطريقة البدائية القديمة ، وهى القرفصاء ، أفضل من الجلوس على كرسى مرتفع .

ثالثاً : امتصاص الجسم لبعض المفرزات السامة .

قد يمتص الجسم أحياناً بعض التوكسينات والنفايات الضارة التى قد تتولد عن هضم وتمثيل بعض الأغذية ، والتى قد تنشأ عن هدم الأنسجة والخلايا بسبب الأعمال المستمرة التى يؤديها الإنسان فى حياته . وقد يمتص أيضاً شيئاً من القيح أو الصديد الذى تفرزه أنسجة مريضة أو ملتهبة فى باطن الجسم ، كاللثة المصابة بالبيوريا ، والقرحات والخراريج الباطنية ، والتوكسينات التى تتولد عن وجود بعض البؤرات الصديدية فى بعض أغشية الجسم . فإذا كان المرء قوياً وفى صحة جيدة ، فإن فى استطاعته أن يتخلص أولا بأول من هذه السموم ويمنع تراكمها فى الدم ، أما إذا كان معتلا أو متقدماً فى السن فإن عمليات الحياة فى جسمه تكون راكدة غير نشطة ، فلا يقوى على أكسدة النفايات الضارة والتخلص منها . كذلك إذا كانت الأعمال التى يقوم بها المرء فوق طاقته ، وكان دائم التفكير فى المشاغل والهموم المعقدة ، أو كان كثير الغضب والحزن والقلق ، فإن حيوية الجسم تهبط إلى حد كبير ، فلا

يقدر على معادلة التوكسينات التى قد تتولد فيه .

رابعاً : المعيشة فى هواء غير صحى ، مثل جو المدن الصناعية الكبيرة والعواصم المكتظة بالسكان .

ومن عوامل التسمم الذاتى غير ما تقدم ، أن الإنسان المتحضر غالباً ما يقضى حياته فى مدن مكتظة بالسكان ، وجوها ملوث بما تلفظه مداخن الأفران والمصانع من غاز الكربونيك ودقائق الغبار والسناج ، فتعمل هذه المواد على نقص نقاوة السائل الدموى ، ويقول الدكتور سالينى الطبيب بنيويورك أنه بعد تشريح جثة إنسان وفحص ما تراكم من السناج على أغشية رئتيه قرر ألا يكون سكنه داخل المدينة ، وألا يمكث دقيقة واحدة أكثر من الوقت اللازم لمزاولة مهنته ، وألا يحرق الفحم داخل حجرات منزله .

وإجمال القول أن أهم عوامل التسمم الذاتى فى الجسم هى الإفراط فى الأكل والإمساك وامتصاص الجسم لبعض المفرزات السامة والمعيشة فى هواء غير صحى .

٧
العمل

يغلب على الظن أن الإنسان المتمدن قد تغلب إلى حد ما على الميل الغريزى الفطرى الذى يوجد عند جميع الحيوانات ، وهو الميل إلى الخمول ، وحب القعود ، والابتعاد عن العمل .

فجميع الحيوانات — إذا استثنينا مملكتى النمل والنحل — تميل بطبيعتها إلى الراحة والسكون ، وتنفر من العمل . وهى إن كانت تجرى وتقفز وتلعب فى المراحل الأولى من حياتها ، فذلك لأن عمليات النضوج والنمو الطبيعية تتطلب الحركة واللعب ، ولأنها تريد فى صغرها أن تتدرب على الأعمال التى قد تحتاج إليها فى مستقبل حياتها ، مثل الصيد والافتراس وحماية نفسها من الطوارئ ومن الحيوانات الأخرى .

ولكنها بعد أن تكبر ويكتمل نموها تزهد فى الحركة وتنفر من العمل ، وقد تسعى إلى الحركة من وقت لآخر للحصول

على القوت والماء ، أو الحصول على شيء من الزاد لكي تطعم به صغارها ، ومتى أحست بالشبع والامتلاء ، عادت إلى ما كانت عليه من القعود ، وحب الراحة والسكون .

أما الإنسان ، فإن نضوج تفكيره جعل أطماعه بالغة فى الشدة ، وطموحه لا يقف عند حد ، ولذا كانت الأعمال التى يقوم بها متزايدة متشعبة ، ينوء تحت ثقلها جسمه الضعيف الصغير . فهو لا يعمل لمجرد كسب القوت أو الحصول على الحوائج الضرورية له ولأسرته ، وإنما يعمل ليل نهار فى سبيل تحقيق أطماعه والوصول إلى ما يحلم به الجاه والسطوة والنفوذ والسلطان .

الكسل يطيل العمر :

ويمكن القول بأن الإنسان المتمدن هو الحيوان الوحيد الذى لا يعرف الراحة التامة فى غير أوقات النوم ، فمهما حاول أن يبعد عن ذهنه جميع القضايا التى تتعلق بحياته وشئون معيشته ، فإن الأفكار لا تلبث أن تتألب عليه ، ومهما كان لديه من وسائل الراحة والهناء فإن الهموم تجد طريقها إليه .

فالاستجمام الكامل والراحة والاسترخاء لا يحصل عليها المتحضرون وسكان المدن الكبيرة وأفراد الهيئة الاجتماعية المتمدنة إلا فى أوقات نومهم .

والإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يورط نفسه فى صعوبات يتعذر عليه التغلب عليها ، ويضع نفسه فى مآزق لا قبل له بها ، فهو يأبى أن تكون حياته سهلة ميسرة ، ولا يريد إلا أن تكون طريقة معيشته عسيرة معقدة . وهو يدرك تماماً أن ما يصطلع القيام به من مهام الأمور يضنى جسمه ويذهب بصحته ، ولكنه يصرعلى تحقيق ما يجول فى ذهنه من المشروعات ، ويأبى طموحه وحبه للتقدم إلا أن يكون فى مقدمة المبرزين والمشهورين .

ونحن إذا تأملنا فى عالم الحيوان وجدنا أنه كلما كان الحيوان كسولاً وبطيئاً فى حركته طال عمره وامتدت حياته ، فأكسل الحيوانات وأبطأها السلحفاة ، وهى لذلك تعمر طويلا (من مائتى عام إلى ثلثمائة عام) ، والفيل حيوان كسول بطىء الحركة ولذا يعيش مدة طويلة (من مائة إلى مائتى عام) ، والبجعة تقف طول يومها ساكنة فى مكانها فى كسل

وارتخاء ، وهى لذلك من أطول الطيور تعميراً . أما أكثر الحيوانات نشاطاً وحركة فلا تعمر فى المعتاد إلا قليلا ، ومثل ذلك النمل والنحل والكلاب والجرذان .

ولا ريب أن العيش على وتيرة واحدة من العمل المتواصل والتوتر الشديد ضار بصحة الجسم والعقل إلى حد كبير ، والالتجاء إلى السكون الشامل كوسيلة لقضاء بعض أوقات الفراغ لمن أفضل الطرق التى تلهم القلب الرضا وتؤدى إلى إطالة الحياة . فعلى الذى يريد أن يعمر طويلا أن يكبح جماح نفسه لكى يقف بأطماعه عند حد معقول ، فلا يفنى جسمه فى سبيل تحقيق رغبات عسيرة ، وآمال واسعة غير محددة .

معنى الراحة :

وليس معنى الراحة مجرد الخمول ، فإن السأم والملل اللذين يولدهما عدم الانشغال بشيء البتة قد يؤديان إلى عكس ما يصبو إليه المرء من الاستمتاع بساعات الراحة والاستجمام .

ونحن لا نريد حياة خاملة لا متعة ولا خير فيها، مثل حياة

البجعة أو السلحفاة ، بل نريدها مملوءة بأسباب البهجة والانشراح ، مع شىء من النفع والفائدة .

ولا يعد الانقطاع عن العمل فترة من الوقت راحة إذا تألبت عليك خلالها هموم الحياة وانشغل ذهنك فيها بما ينتظرك من مشاكل واجب عليك حلها وتبعات ألقيت على عاتقك ، فالراحة الحقيقية أن توجه نفسك صوب ناحية بعيدة عن شئون العمل ومشاكل الأسرة ومسئوليات الحياة ، ومن المفيد أن يلجأ المرء فى بعض الأحيان إلى مكان بعيد عن مقر عمله وسكنه ، وأن تكون له أيام يستطيع فيها أن يغير ما يحيط به من المناظر وما يتناوله من المأكولات ، وأن يحصل خلالها على مزيد من المرح والنشوة والسرور ، وبهذا يتذوق لذة العيش وطعم الحياة .

ما هو العمل :

يمكن تعريف العمل بأنه نوع من النشاط الإجبارى ، أما اللعب فنشاط تطوعى يقوم به الشخص من تلقاء نفسه ، فيشعر عند القيام به بالانشراح واللذة والسرور .

فنهوض الطالب فى الصباح استعداداً للذهاب إلى المدرسة نوع من العمل ، لأنه يقوم به مرغماً . وعند الانتهاء من اليوم المدرسى يتلكأ فى العودة إلى منزله ، ، لأنه يخشى أن يطلب إليه الجلوس إلى مكتبه لأداء واجباته المدرسية .

وإذا طلبت إليه ترتيب درجه أو حقيبته التى يضع فيها كتبه كان ذلك عملا يتأفف منه ويحاول التملص من آدائه ، أما إذا كان مزمعاً الاشتراك فى رحلة مدرسية يميل إليها ، فإنه لا يجد غضاضة فى تحضير حقيبته ، ويجد لذة فى ترتيب محتوياتها من الأدوات والملابس ، وقد يحملها بنفسه ويسير بها مسافات بعيدة ، فلا يحس بالتعب الذى يشعر به عندما يحمل حقيبته المدرسية الصغيرة .

وهناك عدد من الناس كالتجار وأصحاب المصانع ورؤساء المصالح عملهم فى الحقيقة نوع من اللعب أو الهواية ، لأنهم يجدون لذة كبيرة فى الربح وجمع المال ، أو لأنهم يشعرون بالتيه والإعجاب بأنفسهم عندما يصدرون الأوامر إلى من يعمل تحت رئاستهم . غير أن هؤلاء أقلية صغيرة ، والأغلبية الساحقةمن الناس هم العمال والفلاحون والمأجورون الذين

يكلفون القيام بأعمال الحياة المتنوعة . وهم لا يجدون لذة فى عملهم اليومى ، ويرقبون بفارغ صبر ساعة الانتهاء من هذه الأعمال .

ومعظم الأعمال التى تقوم بها الجمهرة العظمى من الناس هى من النوع الآلى الذى يبعث على السآمة والضجر ، فهى تخلو عادة من التنويع والتجديد ، ولا يقدر المرء فيها على الابتكار أو إظهار التفوق والمهارة والقدرة على زيادة الكسب . والسعيد من كان عمله مريحاً غير مجهد للفكر أو الجسم ، وكان فى الوقت نفسه من النوع المحبوب إليه ؛ فلا يجد فى تأديته مشقة أو غضاضة على النفس ، ومن أمثلة ذلك الفنانون والشعراء والمؤلفون والموسيقيون والممثلون ، وكذلك أصحاب المتاجر والمصانع والأعمال الحرة ، بشرط أن تكون ساعات عملهم اليومى قصيرة ، ومشاكلهم غير معقدة .

أما العمل غير المحبوب للنفس ، والذى يقوم به المرء ضد إرادته ، أو يقضى فيه ساعات طويلة فى كل يوم ، فإنه يضنى الفكر والجسد ، ويؤدى إلى أسوأ النتائج للصحة ، وخاصة إذا كان شاقاً أو فى جو غير صحى .

٨
الراحة

وإن شئت أن تعمر مثلى ، فعليك أن تخصص جانباً من الوقت فى كل يوم تستريح خلاله من عناء الأعمال التى تؤديها فى ساعات النهار .

ولا تجدى الراحة كثيراً إذا جلس المرء فى مقعده ، وفكره مشغول بشتى المشكلات التى مرت عليه فى صباح يومه ، أو التى تتطلب منه حلا فى الغد ، بل عليه أن يسترخى استرخاء كاملا ، ويبعد عن ذهنه جميع ما يشغله من المهام والأفكار ، ويقول السير جيمس البحاثة الإنجليزى المعروف « إن عامل الإجهاد الفكرى له نصيب من الإصابة بالشيخوخة المبكرة أوفى من نصيب أى عامل آخر » . فالراحة والاستجمام خير ما يستعان بهما لتجنب الشيخوخة المبكرة ، وعلى من يريد أن يتمتع بقسط كبير من الصحة فى سنين كهولته أن يدخر نشاطه فى كل ما يباشره من الأعمال ، وأن يتجنب الإجهاد

الجسدى والفكرى ، وأن يقسم يومه إلى فترات مناسبة من النشاط والراحة . ومن الضرورى أن تسيطر على نزعاتك بعض الشيء إن كنت من النوع المجد أو الطموح ، وأن تعود نفسك الشعور باللذة والاستمتاع بمباهج الحياة . وليس أدل على أن الإجهاد له أثره الواضح فى تقصير العمر من أن الحيوانات البرية التى تعيش على الفطرة تعمر أطول من الحيوانات التى يسخرها الإنسان فى بعض الأعمال الشاقة ، كما أن أفراد الشعوب الراقية الذين يتميزون بالنشاط والميل إلى الكد والطموح أقل قابلية للتعمير من أفراد القبائل البدائية الذين يقضون معظم أيام حياتهم فى دعة وراحة وسكون .

والحقيقة أن الراحة والاسترخاء فن ، وقليل هم الذين يعرفون طريقة ممارستهما والاستمتاع بوقت الراحة إلى أقصى حد. ويمكن القول بأن من خير الوسائل لتمضية وقت الراحة أن يكون للمرء هوية محبوبة إليه ، كقراءة سهلة مشوقة ، أو لعبة لطيفة غير مجهدة ، أو مسامرة مسلية مع بعض الخلان والأصدقاء ، أو قضاء بعض الوقت فى المقهى أو النادى أو السينما ، ونحو ذلك . وقد قيل فى الأمثال « من لم يعرف كيف يلهو لم

يعرف كيف يجد » ، ومن لا يستمتع بوقت راحته لا يعرف طعماً للحياة ولا لذة فى العمل .

وعلى المرء أن يخصص يوماً على الأقل من كل أسبوع للاستجمام والراحة الكاملة ، ومن المفيد كثيراً أن يعمل فى هذا اليوم على تغيير ما تعود عليه من المناظر والطعام الذى يأكله والروتين الذى يسير عليه فى حياته اليومية فإن ذلك باعث على السرور ومجدد للقوة والنشاط ، كما يجب أن يخصص شهراً على الأقل من كل عام للاستجمام الكامل ، بشرط ألا يسرف فى خلاله فى الأكل أو السهر أو التدخين أو ما شابه ذلك من أسباب التمتع بملاذ الحياة .

ولا تنس أن وقت الراحة منبع لكثير من الأعمال الجليلة التى قام بها الإنسان فى التاريخ ، فالمصور والمؤلف والشاعر والمخترع والمكتشف والفنان جميعهم من النوع الذى يميل إلى كثير من الراحة والدعة إن لم يكن الكسل والخمول ، بيد أن فترة الراحة قد تبعث على السأم إن كانت أطول مما يجب ، أو لم يسبقها فترة من العمل ، فالعمل هو الذى يجعلك تشعر بلذة الراحة ، وكما أن العمل المتواصل يقتل ويقصر الأجل ،

فإن الراحة والخمول المتواصلين يبعثان على قتل النفس والتبرم بالحياة .

ومهما يكن نوع العمل الذى تؤديه ، فيجب أن تأخذه فى شىء من الهدوء والتؤدة والاتزان ، وأن تتجنب الهرع والقلق والإسراع ، وإنى أعرف أناسا يهرعون فى ارتداء ملابسهم فى الصباح ، ويهرعون فى تناول وجبة الإفطار ، ويهرعون فى الذهاب إلى أماكن عملهم وتأدية واجباتهم ، فمثل هؤلاء يقتلهم الإسراع ويفتك بهم القلق والهرع . ويقال إن عددا كبيرا من التجار وأصحاب بيوت المال والأعمال أصيبوا فى هذه الحرب الأخيرة بارتفاع ضغط الدم وتصلب الشرايين والديابيطس السكرى وتحطيم الأعصاب بسبب كثرة ما كان لديهم من الأشغال ، واضطرارهم إلى الهرع والإسراع فى إنجاز الأعمال .

والتطرف غير مرغوب فيه فى كلتا الحالتين ، لأن العمل المتواصل يفتك بالصحة ويقصر الأجل ، وكذلك القعود المتواصل والميل إلى الكسل . فجميع أعضاء الجسم مهيأة لمقدار من الحركة والعمل ، فإن لم تجد التمرين الكافى فإنها تضعف

وتضمحل قوتها ، كما أن إنهاكها بالعمل الشاق قد يؤدى إلى إصابة الجسم بنوع من المرض . فالرياضيون الذين يقومون بتمرينات جثمانية عنيفة بعد اجتياز مرحلة الصبا والشباب ، كثيراً مايصابون ببعض أمراض القلب ، ونادراً مايعمرون طويلا .

وعندى أنه متى تجاوز المرء سن الخامسة والأربعين ، وجب عليه أن يبطئ من خطواته فى أعمال الحياة ، وأن يزيد من ساعات راحته ، وأن يمارس الاسترخاء الفكرى والجثمانى كلما وجد إلى ذلك سبيلا . ومن الواجب أيضاً أن يهيئ لنفسه هواية سهلة أو تسلية ممتعة يشغل بها وقت فراغه ، وإنى أعرف صديقاً لى أحيل إلى المعاش من وظيفته الحكومية منذ عهد قريب ، وهو يمضى معظم وقته فى لعب النرد وتدخين النرجيلة وحكاية النوادر المسلية ، وهذه طبعاً وسيلة من وسائل قتل الوقت ، ولكنها ليست أفضل الوسائل ، وخير منها السفر والرحلات والقراءة والعناية بالبساتين والزهور ، وصيد الأسماك والتصوير ، والاشتراك فى النشاط الاجتماعى ، والمساهمة بنوع من العمل فى إحدى المؤسسات الخيرية ، فكل شخص له مزاجه الخاص فى اختيار الطريقة التى تلائم طباعه للاستمتاع بوقت راحته .

ومتى تجاوز المرء سن الستين ، وجب عليه أن يترك إدارة أعماله لابنه الأكبر إن كان من أرباب الأعمال ؛ فخير له أن يترك العمل وهو قادر عليه من أن يستمر فيه إلى أرذل العمر ، فيفسده بآرائه العتيقة وعدم قدرته على التمشى مع الاتجاهات الحديثة . ولا يجوز أن يذهب الغرور بالشخص المسن إلى أنه الفرد الوحيد الذى يقدر على إدارة الأعمال وإنجاز المهمات ، فالشبان قد تنقصهم الحنكة والتجارب ، ولكنهم يمتازون بالإقدام وحب التوسع والنزول إلى ميدان المنافسة والتجديد والابتكار . وإذا كان الشخص موظفاً ووصل إلى سن التقاعد فعليه أن يترك تدبير أموره الهامة وإدارة شئون مايملكه من أرض وعقار إلى ابنه الأكبر أو أقرب المقربين إليه.

ويظهر أن الأثرة هى التى تحدو بالشخص المسن إلى الإصرار على إدارة شئونه بنفسه ، فيجب على المرء أن يقاوم تلك النزعة السيئة ، فالسنين لا تزيد دائماً حكمة الإنسان وخبرته ، وقد يحدث بعد تجاوز سن الستين أن يفقد المرء شيئاً من اتزانه الفكرى أو يصاب بشىء من الهوس والخبل وعدم التفكير السليم .

٩

اللعب والتسلية

ويقول علماء الغرائز : إن اللعب وسيلة يتدرب بها الحيوان الصغير على نوع العمل الذى سيؤديه فى مستقبل حياته ، كما أنه يساعد على تقوية عضلات الجسم وأعصابه ويحفظ مرونتها فتنمو نمواً سليما منتظما. فإذا ما كبر الحيوان واكتمل نموه، وحصل على التدريب الكافى لصيد فريسته أو نوع العمل الذى يقوم به، زهد فى اللعب ولجأ إلى الدعة والراحة والقعود .

فالهرة الصغيرة تلعب بالكرة ، وتقفز وراء بعض الأجسام الصغيرة المتحركة ، لأنها تكتسب بذلك مرونة ومهارة فى اللحاق بالأجسام السريعة الحركة ، فتعد نفسها لصيد الجرذان واقتناص الحشرات .

والأطفال الصغار مغرمون باللعب ، ولعبهم فى الغالب تقليد لما يقوم به البالغون . فالطفلة الصغيرة تحب أن تلعب بدمية أو عروس صغيرة، وتدأب على تقبيلها واحتضانها، فتتدرب بذلك

على الحضانة والأمومة والعناية بأطفالها فى مستقبل حياتها . أما الصبي الصغير فيفضل أن يلعب بالدمى التى تمثل الجنود والخيل والقذائف وأدوات الحرب ، والدمى التى تمثل القطارات والسفن والطائرات ، وفى ذلك إعداد له لكثير من الأعمال التى قد تسند إليه عند ما يبلغ أشده . واللعب يقوى جسم الطفل وينمى أعضاءه وعضلاته ، كما أنه يكشف عن ميوله ونزعاته ، فكثير من النابغين فى الفنون المتنوعة ، كان فنهم الذى نبغوا فيه هويتهم الأولى .

وقليلون هم الذين يدركون قيمة اللعب فى إكساب الحياة بهجة ومتعة ، وأثره فى إبعاد الملل والضجر عن الفرد ، وهذا العدد القليل من الناس يواظب على اللعب إلى ما بعد سن الخمسين ، وتجده عادة من النوع الباش للحياة الناجح فى عمله ، فمن لم يعرف كيف يلهو لم يعرف كيف يجد .

وإذا كان الشخص المتقدم فى السن شغوفاً بنوع من اللعب ، فليس له أن يقلق على أيام كهولته ، فلن يحس بالضجر والسآمة ما دامت لديه أسباب اللعب والتسلية ، وسيعرف كيف يمضى وقته فى كثير من المتعة والانشراح ، كما لو كان فى سن الشباب.

وهناك عدد كبير من الأشخاص تقابلهم فى المقاهى والمنتديات ، لا روح فيهم ولا خيال عندهم ، ولا قدرة لهم على ممارسة أى نوع من الألعاب ، وهؤلاء يبعثون الضجر والملل فى من حولهم ، ويقضون معظم وقتهم فى التثاؤب والحديث الرخيص ، وجل همهم فى تمضية الوقت هو الانتظار حتى يحل موعد إحدى وجبات الطعام .

وكثيراً ما تسمع من بعض الذين يشغلون مراكز هامة أو تلقى على عواتقهم مسئوليات كبيرة هذه العبارة « ليس عندى وقت للعب » ، ومثل هؤلاء مخطئ أيما خطأ ، لأن اللعب ليس مضيعة للوقت ، بل خير وسيلة لاقتصاد الوقت ، لأن المرء عند ما يلعب ، يسلح نفسه بمقدار وافر من الحيوية والقوة والنشاط ، فيصبح قادراً على إنجاز أعماله فى وقت قصير ، كما أن اللعب يحول بين الجسم والمرض ، والمرض كما تعلم يضيع من عمر الإنسان جزءاً لا يستهان به من الوقت .

ولا أعتبر لعب النرد أو الشطرنج أو ألعاب الورق لعباً صحيحاً ، لأنها فى الحقيقة نوع من التسلية ليس إلا ، وهى مفيدة لتمضية الوقت والاسترخاء وراحة الجسم والفكر ، أما اللعب المفيد

الذى أقصده فهو ما يقوم به الشخص فى الهواء الطلق والشمس ، ويتطلب حركة الجسم وحركة أعضائه وعضلاته .

فإذا دعاك صديق لقضاء بضعة أيام عنده فى الريف ، فلا تتردد فى قبول الدعوة ، مهما كان لديك من الأعمال ، لأن جمع المال لن يفيدك إذا كانت صحتك عليلة سقيمة ، واجتهد أن تمضى جزءاً من الوقت هنالك فى ركوب الخيل أو الدراجات أو صيد السمك أو الطيور أو قطع الأشجار أو قطف الفاكهة أو جمع القطن وما شابه ذلك ، وحبذا لو كان حولك بعض الصغار ، لأن لهم طريقتهم الخاصة فى إغراء من يصحبهم من البالغين على الاشتراك معهم فى اللعب .

وإنك إذا فعلت ذلك مرة فى كل حين ، أمكنك أن تحافظ على مرونة جسمك وانسجام حركاته ، فتتجنب بذلك ما يحدث لكثير من المسنين من تصلب العضلات أو الأعضاء نتيجة الابتعاد عن الحركة وتجنب الرياضة ، والميل إلى القعود والراحة والسكون .

١٠
ينبوع الحياة

قدمت لك أن أول عنصر من عناصر إطالة العمر ، أن تولد من أبوين معمرين ، والعنصر الذى يليه عنصر الأكل والتغذية ، وهو أن تأكل باعتدال فى ربيع حياتك ، بل يجب أن يكون أكلك أقرب إلى الخفة منه إلى الثقل والامتلاء ، والعنصر الثالث فى إطالة العمر والمحافظة على صحة الجسم هو بلا ريب المعيشة فى الهواء الطلق والتعرض لأشعة الشمس مدة كافية من حياة الإنسان .

ومن الأمور الملحوظة أن إدراك الأفراد لمزايا أشعة الشمس ، وفهمهم الارتباط الوثيق بين ضوء الشمس وظاهرة الحياة ، أصبحا أكثر رسوخاً ووضوحاً فى أذهانهم من أى وقت مضى ، فانتشار التعليم ، واتساع دائرة الثقافة الشعبية بين الناس ، والدعاية الصحية التى تقوم بها الهيئات المختصة فى كثير من الأمم ، جعلت الأفراد يقدرون فائدة الشمس العظيمة فى تحصين الجسم

وحفظه من الاضطرابات الصحية والأمراض .

وقد دأب الناس فى العصر الحاضر على الاستفادة من الشمس بقدر المستطاع ، فهم يهرعون إلى الريف وشواطئ البحار عند بدء الربيع لتمضية بضعة أسابيع فى الهواء الطلق وضوء الشمس .

وكانت نوافذ المساكن من عهد غير بعيد عبارة عن فتحات صغيرة (طاقات) فى أسقف الحجرات أو فى الجزء العلوى من أحد جدرانها . أما الآن فقد أصبحت المنازل تبنى وبها عدد غير قليل من النوافذ المتسعة ، والشرفات التى تسمح بدخول جزء كبير من أشعة الشمس إلى الغرف والردهات ، كما أن ربات المنازل أدركن ضرر الستائر الكثيفة التى تحجز ضوء الشمس ، واستعضن عنها بغلالات رقيقة لا تحجز الضوء ، وكثير منهن يضع الفراش والأغطية فى الشرفات وعلى حافة النوافذ مدة من النهار لكى تتخللها أشعة الشمس. أما البدو والقبائل غير المتحضرة ، فتعيش أفرادها فى أكواخ صغيرة أو مخيمات ، وهم يقضون معظم أيام حياتهم فى الشمس والهواء الطلق ، ولذا فإن أجسامهم قوية وصحتهم جيدة . وتميل الحيوانات أيضاً إلى الشمس ، فهى

تفضل دائماً بقعة تسطع فيها الشمس لكى ترقد فيها وتستريح .

ومن مساوىء المعيشة فى المدن الكبيرة ، اضطرار المرء إلى السكنى أو العمل فى الأبنية الشاهقة التى تحجز الشمس عن بعضها البعض وخاصة فى الأدوار السفلى ، كما أن مداخن المصانع والأفران ، والسيارات والقاطرات التى تجرى باستمرار فى شوارع المدن الكبيرة، تطلق فى الجو كمية كبيرة من الدخان الكثيف الذى يلوث الهواء ويحجز أشعة الشمس .

وكثير من الأفراد محرومون من الهواء النقى وأشعة الشمس ، لأنهم يؤدون أعمالهم فى الطبقات السفلى من الأبنية التى تشغلها المصالح الحكومية والبنوك والدوائر التجارية ، وهم يقومون بواجباتهم على ضوء المصابيح ، وقد امتلأ جو الحجرات بدخان السجائر ، وعند ما يبلغ الواحد منهم سن التقاعد ويعتزل الخدمة ، يقنع من الحياة بالمكث فى داره، وقليلا ما يستنشق الهواء المتحرك النقى ، أو يعرض جسمه لأشعة الشمس .

وتدل الإحصاءات التى قامت بها بعض شركات التأمين ، على أن متوسط عمر الفرد من سكان الريف يزيد على متوسط عمر سكان المدن الكبيرة بنحو عشر سنوات . ومع تقدم وسائل

النظافة وتطهير مياه الشرب والعناية الزائدة بالمرافق الصحية وزيادة الإشراف الطبي والمستشفيات وكل ما يتعلق بسلامة الأفراد من الأوبئة والأمراض ، فإن متوسط عمر الفرد فى المدن الكبيرة لم يزد على ما كان عليه منذ مائة عام ، مما يدل على أن المزايا التى يجنيها الناس من تقدم وسائل المعيشة الصحية يلاشيها التأثيرات الضارة التى تلحق بهم من جراء المعيشة فى العواصم المكتظة بالسكان ؛ بعيداً عن أشعة الشمس المفيدة والهواء المتحرك النقى.

فإن كان عملك يحتم عليك المعيشة فى العواصم أو المدن الكبيرة ، فلا أقل من أن تخصص ساعة من وقتك فى كل يوم ، تخرج فيها إلى الحدائق أو مكان خلوى ، لأن الهواء والشمس خير لك من أى دواء تتناوله للتقوية وحفظ صحة الجسم.

وقضاء بضعة أسابيع من كل عام فى الريف ، أو على شاطىء البحر ، خير ما يصلح لك الأضرار التى تلحق بصحة الجسم من جراء المعيشة المستمرة فى المدن ، ففى الريف يستقر البصر على الخضرة الجميلة التى تهدىء النفس وتريح الأعصاب وتحبب الحياة إلى المرء ، وفى شاطىء البحر تصيب جزءاً من أشعة الشمس البنفسجية التى تحصن الجسم من الأمراض، وتبعث فيه الحيوية والنشاط .

١١
متاعب الكهولة

ليس ثمت جدل فى أن الإنسان معرض للإصابة بالمرض والاضطرابات الصحية المتنوعة فى جميع سنين حياته ، غير أنه من الملاحظ فى الوقت نفسه أن مرحلة الصبا والشباب لا يلازمها شىء من الأمراض والمتاعب الصحية المزمنة ، فقد يصاب المرء الذى لم يبلغ سن الأربعين بالحمى أو بمرض شديد ، ولكنه يقوم بعد فترة قصيرة أو طويلة ، وهو معافى وفى صحة كاملة ، ولا يبدو عليه بعد انقضاء فترة المرض أنه أصيب بشىء .

أما إذا ولى الشباب ، ودخل المرء فى مرحلة الكهولة ، فإن المتاعب الصحية التى تلحق به فى تلك السن تكون غالباً من النوع المستديم أو المزمن . وقد يشعر المتقدم فى السن بشىء من التحسن ويظن أنه قد شفى مما ألم به ، ولكن سرعان ما تنقضى فترة الإحساس بالصحة الكاملة ، فيعاوده المرض ويقضى بقية سنين حياته بين اليأس والرجاء ، يتحسن قليلا ثم تسوء حالته ،

ثم يتحسن مرة أخرى ، ثم يعود فيمرض ، وفى النهاية يلازمه المرض إلى آخر أيام حياته .

ومن المتاعب الصحية التى تلحق بالمرء فى أعقاب الكهولة : الديابيطس أو البول السكرى وارتفاع ضغط الدم وأمراض القلب وتصلب الشرايين وتضخم الكبد والبروستاتا والربو وآلام المفاصل والنقرس والروماتزم . ومن الاضطرابات الأخرى التى تصيب المتقدم فى السن الهزال والضعف وضعف الشهية والهبوط العصبى وسرعة التعب واضمحلال الطاقة الجنسية . وهذه الاضطرابات الصحية تظهر أعراضها على المسن بصور شتى ، وقد تكون حادة أو خفيفة ، وغالباً ماتبقى مزمنة معه حتى الممات ،

البول السكرى : أما الديابيطس السكرى فينشأ عن عجز جزائر لانجرهام المتصلة بغدة البنكرياس عن إفراز المقدار الكافى من الهرمون اللازم لتمثيل السكر فى الجسم ، وهذا الهرمون يعرف بالأنسولين ، فيجبر المصاب على حقن جسمه بالأنسولين المستخرج من غدد البقر .

والإصابة بالبول السكرى سببها الأول إسراف المرء فى الاستمتاع بملاذ الحياة فى سنين شبابه الأولى ، فكثير من الناس

لا يراعون الاعتدال فى المأكل والمشرب وتناول المكيفات ، وهم يلهبون غدتهم البنكرياسية بالسوط لكى تهضم لهم أضعاف المقدار المقرر لها أن تهضمه ، ويترتب على ذلك أن تصاب أنسجتها بالتلف فى سن مبكرة ، فتعجز عن إفراز المقدار الكافى من الأنسولين .

ومن الميسور أن يتجنب المتقدم فى السن كثيراً من الأضرار المترتبة على إصابته بالديابيطس السكرى ، إذا هو وطن العزم على اتباع القواعد الصحيحة فى معيشته ، وقبل أن يضحى بشىء مما أعتاد أن يتناوله من المأكولات الدسمة المركزة ، وأن يضبط نفسه فى الأخذ بمتاع الحياة ، بدلا من الإسراف فى حقن جسمه بالأنسولين ، لكى لا يفوته لون من ألوان الطعام ، أو متعة من متاع الدنيا .

ضغط الدم : ومن الأضرار الصحية التى يطويها الشباب ، ولا تظهر بصورة واضحة إلا فى مرحلة الكهولة ، ارتفاع ضغط الدم ، فقد أصبح هذا المرض شائعاً بين الأفراد فى الأمم المتحضرة ، ويصاب به عدد غير قليل ممن تجاوز سن الأربعين ، وخاصة بين الطبقات الغنية والمتوسطة وذوى الرخاء واليسر ،

ويرجع هذا الاضطراب الصحى فى الغالب إلى الإسراف فى المعيشة والأكل، وكثرة المشاغل والإجهاد وتناول المكيفات، والاستمتاع بملاذ الحياة إلى أقصى حد فى سنين الشباب .

ومن المعلوم أن ارتفاع ضغط الدم كثيراً ما يصحبه تصلب الشرايين ، الأمر الذى يحدث عادة مع كبر السن ، والأصل فى تصلب الشرايين التهاب بسيط فى أنسجتها ، نتيجة لتولد حالة التسمم الذاتى فى الجسم ، لأن الدم إذا لم يستطع التخلص من جميع النفايات والسموم التى تتراكم فيه ، فإنها تتجمع على جدر الشرايين تدريجاً وتؤدى فى النهاية إلى تصلبها وارتفاع ضغط الدم.

وتراكم النفايات فى الجسم سببه الأول إهمال الإنسان لقوانين الطبيعة ، فالإنسان المتمدن فقد غريزته الفطرية فى طريقة اختيار المأكولات ووسائل المعيشة الصحية ، وقد انحرف عن الحياة الطبيعية السهلة ، وأصبحت العادات التى يسير عليها فى الحياة بعيدة عن الفطرة وضارة بصحته ، كما أن كفاحه المستمر وكثرة الهموم والمشاغل، وحياة القلق والتوتر التى أصبح الناس يعيشون عليها فى الأمم المتحضرة، لمن أقوى العوامل التى تؤدى إلى ارتفاع ضغط الدم .

ولما كانت المرحلة الأولى لارتفاع الضغط وتصلب الشرايين ليس لها أعراض حاسمة ، فقد يكون الشخص مصاباً بارتفاع الضغط ، وتكون حالته الصحية العامة عادية بل جيدة ، بدون أعراض تنذره بحالته الباطنة ، فيستمر على ما هو عليه من معيشة خاطئة وعادات غير صحية .

فعلى المرء أن يراقب نفسه وأحوال معيشته بدقة إذا ما تجاوز سن الأربعين ، وأن يتجنب الوجبات الثقيلة فى الأكل ، ويقتصر على الأطعمة البسيطة غير المركزة ، ويحاول بقدر المستطاع الإقلال فى التدخين وتناول المكيفات كالقهوة والشاى ، وتجنب الغضب والقلق والانفعال والإجهاد .

تضخم البروستاتا : وتعد البروستاتا من الأعضاء التى تسبب كثيراً من المتاعب لعدد من الذكور فى سن الكهولة . وهذه الغدة فى حجم الليمونة الصغيرة ، وموضعها عند قاعدة عضو التذكير ، وبتقدم السن تتضخم ويصيبها شىء من الالتهاب عند بعض الأفراد ، فتسبب شعور الفرد بالميل إلى التبول فى فترات متقاربة ، وقد ينزل البول أحياناً بدون إدراكه .

ومن الأسباب التى تؤدى إلى تضخم البروستاتا الإصابة

بالبرد والإسراف فى الاتصال الجنسى والإمساك ، وأخذ حقن من الهرمونات المستخلصة من الغدد الجنسية لبعض الحيوانات يفيد كثيراً فى معالجة هذا التضخم ، وعلى كل حال يجب استشارة الطبيب بمجرد ظهور أعراض التهاب هذه الغدة . فقد يحول ذلك دون إصابة المرء بمضاعفات سيئة فى خريف حياته .

الربو : والربو أيضاً من العلل التى تصيب عدداً من المتقدمين فى السن ، وخير وسيلة لتخفيف وطأته تجنب الوجبات الثقيلة ، وعدم المكث فى حجرات مقفلة النوافذ أو غير مستكملة لشروط التهوية الصحية ، والامتناع عن التدخين أو تقليله بقدر المستطاع . ولاتفيد الأدوية كثيراً فى تسكين الربو ، غير أن المعيشة الهادئة المنظمة فى هواء الريف النقى بعيداً عن المدن المكتظة بالسكان ، وعدم التدثر بملابس ثقيلة أو استخدام أغطية ثقيلة عند النوم ، لمن العوامل التى تساعد على تقليل نوبات الربو .

الروماتزم : ويشكو الذين يتخطون مرحلة الشباب عادة من الروماتزم ، وهذا الداء له صور شتى ، وأسباب الإصابة به غير متفق عليها على وجه التحديد ، غير أنه فيما عدا

الحمى الروماتزمية ، يتجه الرأى إلى إرجاعها إلى تولد بعض النفايات السامة التى تفرزها أغشية ملتهبة فى الجسم ، كما يحدث عند التهاب اللثة وإصابتها بالبيوريا ، ومثل هذه الحالة تعرف بالتسمم الذاتى (Auto-intoxication)

ومن الأمراض التى تمت بصلة وثيقة إلى الروماتزم ، اللمباجو وعرق النسا وداء المفاصل والنقرس وداء الملوك ، وفى وسع المرء أن يتخلص منها حتى لو كانت من النوع الذى يطلق عليه الأطباء مزمناً ، وذلك باتباع القواعد الصحية فى المعيشة ، والإقلال من الأغذية التى تولد الحموضة فى الجسم ، وهى المواد البروتينية المركزة كالأسماك واللحوم والمخ والكلى وزلال البيض .

ومن الوسائل الناجعة فى تحصين الجسم ضد الإصابة بالروماتزم ، تعريضه لأشعة الشمس والهواء الطلق أكبر مدة ممكنة ، وإذا أردت ألا يعود إليك الروماتزم بعد أن تشفى منه ، فعليك أن تأخذ بقسط كبير من الحركة والرياضة والتمرينات الجثمانية والتدليك ، بحيث تشمل هذه التمرينات تحريك الأجزاء التى أصيبت بالروماتزم ، وهذه الحركة غير مستحبة أثناء المرض ، ولكنها مفيدة جداً بعد الشفاء منه ، بشرط أن تكون بغير

عنف ، وهى خير وسيلة لحفظ الأعضاء التى أصيبت بالالتهاب فى حالة صحية جيدة . كما أن الحركة تساعد على إزالة النفايات السامة والمواد الحامضية التى تتراكم حول المفاصل والعضلات وتسبب التهابها .

والاعتقاد السائد بأن التعرض للرطوبة من أهم أسباب الإصابة بالروماتزم ليس له ما يؤيده ، ويتجه الرأى الطبى الحديث إلى القول بأن عوامل الإصابة بهذا الداء منشؤها داخل الجسم ، أى أنه يتسبب بما يتولد داخله من السموم وليس بسبب ما يتعرض له من تيارات أو رطوبة أو برد . ومما يدعم هذا القول أن صائدى الأسماك يمكثون فى الماء ساعات طويلة فى أشد أوقات الشتاء ولا يصابون بشيء ، كما أن حوادث الإصابة بالروماتزم بين الجنود فى الحرب العظمى الأخيرة كانت قليلة جداً ، مع أنهم كانوا ينامون فى الخنادق وفى أماكن رطبة ، وكانوا معرضين دائماً للبرد والتيارات الهوائية الشديدة ، غير أن المعيشة فى الهواء الطلق والتعرض لأشعة الشمس مدة كافية ، مع القيام بكثير من الحركات الجثمانية التى تتطلبها أعمالهم اليومية هى التى حصنت أجسامهم ضد الإصابة بهذا الداء .

الذبحة الصدرية : وعدد غير قليل من الناس يموت بالذبحة الصدرية ولما يتجاوز العقد السادس من العمر ، وهؤلاء الأفراد يقضون نحبهم بغتة فى الطريق أو أثناء ساعات العمل، ولأن الذبحة الصدرية تأتى فى أعقاب إجهاد فكرى أو جثمانى ، أو عقب انفعال نفسانى شديد ، أو بعد تناول وجبة ثقيلة ، يظن بعض الناس أن هذه العوامل هى التى أدت إلى الموت الفجائى ، والحقيقة أن طريقة المعيشة الخاطئة عدداً طويلاً من السنين هى التى تستنفد حيوية الجسم وتمهد للوقوع فى براثن هذا المرض .

وقد تسمع أن الاستعداد الوراثى من أهم العوامل التى تؤدى إلى الإصابة بالذبحة ، ولكن التعليل الصحيح لها هو أن من يرث الاستعداد لهذا النوع من الاختناق ، يرث حتما بعض العادات السيئة التى يؤدى الإدمان عليها إلى هذه الإصابة المفاجئة ، ومن هذه العادات الإفراط فى الأكل والإكثار من الأطعمة الدسمة المركزة والإسراف فى المعيشة ومطاوعة الشهوات ، فهى تؤدى تدريجاً إلى تصلب الشرايين وحدوث تلف فى بعض عضلات القلب.

ومن الأمور التى يجب أن يتنبه لها المرء لكى يتفادى الإصابة بهذه الموتة المباغتة ، العناية التامة بعلاج ما قد يصيبه من

الاضطرابات الصحية المزمنة: كالبول السكرى وارتفاع الضغط والربو وتضخم الكبد ، كما يجب تجنب الثورات النفسية والقلق المستمر والإجهاد فى العمل .

البدء بحياة جديدة :

حدثتك عن العلل والمتاعب الصحية التى تصيب عدداً كبيراً من المسنين وتلحق بهم فى أعقاب الكهولة ، ولكن هل يجوز أن ييأس المرء إذا ما ولى عنه الشباب، وأصيب بشىء من الاضطرابات الصحية المزمنة ؟

لا جدال فى أن المعيشة الخاطئة فى ربيع الحياة ، وعدم اتباع القواعد والعادات الصحية لها أثرها فى تقصير العمر ، غير أنه لا يجوز أن ييأس المرء إذا تقدم به السن وظهرت عليه بعض الأعراض التى قد تنذر بقرب انتهاء الأجل ، ولا يجوز أن يجنح إلى الفراش أو المنزل لتمضية ما تبقى له من العمر بأى طريقة كانت .

ويعتقد الكثيرون أن المرض أمر لا مفر منه ، وهو وهم باطل ، فالإنسان هو الذى يجلب لنفسه المرض بسبب الإهمال والجهل ، ومعظم ما يعانيه المرء فى شيخوخته نتيجة لحياة

الإسراف والاستهتار فى أيام الشباب ، فالأخطاء التى يرتكبها المرء فى سنين حياته الأولى هى التى تجلب له المرض والمتاعب عندما يتقدم به السن . ويغالى الإنسان فى اتهام الجراثيم والميكروبات وينسب إليها جميع ما يحل به من سقم ، ولكن الحقيقة أننا نتخذها ذريعة نستر بها أخطاءنا . ومن المعلوم أن الحيوانات غالباً ما تعيش فى بيئات ملوثة ، وليس فى استطاعتها وقاية نفسها مما قد يغير عليها من الميكروبات والجراثيم ، ولا تقدر على اختيار الغذاء الملائم لها فى معظم الأوقات ، ومع ذلك فإنها أقل تعرضاً للإصابة بالمرض من الإنسان ، وهى تعيش بكامل صحتها وقوتها إلى قبيل وفاتها .
والبدء بحياة جديدة ليس من المستحيلات ، وفى مقدور المرء أن يستعيد جزءاً كبيراً من صحته وقوته مهما تقدم به السن ، وسيئة ما كانت طريقة معيشته الأولى ، إذا هو وطن العزم على ترك العادات الضارة. ، واتباع القواعد الصحيحة فى حياته الجديدة . فالجسم به قوة كامنة خارقة ، وقدرة عظيمة على إصلاح أنسجته وعيوبه بنفسه ، وإن النتائج المُرضية السريعة التى يحصل عليها المرء بترك عاداته الضارة ، ستكون حافزاً قوياً على مواظبته فى اتباع نظام معيشته الجديدة .

١٢
الثقافة الجنسية

وصدقني يا بني ، إن الزواج لمن أفضل الأمور التي تساعد على إطالة العمر ، ويؤدي إلى حياة مستقرة منظمة .

وقد يشوب الحياة الزوجية شيء من المتاعب بسبب الأولاد وأعباء المنزل ، ولكن المتزوج يشعر مع ذلك بالرضا والطمأنينة وإشباع النفس ، في حين أن الأعزب غالباً ما يشعر بفراغ في حياته ونقص في معيشته . وصدق من قال : إن الأعزب قد يكون ملكاً في شبابه ولكنه يصبح عبداً مسكيناً في شيخوخته ، أما المتزوج فقد يكون عبداً مسخراً في السنين الأولى من حياته الزوجية، بيد أنه عند ما يهرم يجد نفسه ملكاً متوجاً في بيته ، ولا يحس بالوحشة والعزلة التي يشعر بها غير المتزوج من المسنين .

ويقول الدكتور هافلبرج، مدير مستشفى الأمراض العقلية بنيويورك،إن عدد الذين يدخلون المستشفيات العقلية نسبتهم

عادة أربعة من غير المتزوجين إلى واحد من المتزوجين .

وتدل الإحصاءات التى قام بها برتلون ، على أن حوادث الانتحار بين غير المتزوجين أكثر منها بين المتزوجين ، وأن المتزوجين يتصفون عادة بالاتزان العقلى والخلقى، وحياتهم هادئة ولا يشوبها الشذوذ والسويداء اللذان يتصف بهما عدد غير قليل من غير المتزوجين . كما أن النساء المتزوجات ، مع ما يعانونه من متاعب الولادة والأمومة ومشاكل الحياة الزوجية والمنزلية ، غالباً ما يعمرن أطول من زميلاتهن اللواتى يقضين حياتهن عانسات .

الغريزة الجنسية :

وما من ريب ، أن الغريزة الجنسية هى أقوى الغرائز التى أودعتها الطبيعة فى الإنسان ، والغرض منها المحافظة على الأصل والنوع ، والعمل على التكاثر وتحسين النوع فى جميع الظروف والحالات .

وقد لا يكون لهذه الغريزة أثر ملموس فى حياة بعض الأفراد، أو على الأقل فى حقبة من حقبات الزمن فى حياتهم ، ولكنها

تظل مع ذلك قوة شديدة كامنة فى قرارة نفوسهم ، فإذا أتيحت لها الظروف والعوامل المواتية ، ظهرت بصورة قوية واضحة ، وكان لها أكبر الأثر فى مجرى حياتهم .

وقانون التوالد أو التكاثر ، هو القانون الأول من قوانين الحياة الطبيعية ، ويمكن القول بأن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يحيد عن هذا القانون ويضرب بعض أفراده عن المعاشرة الجنسية ، وهؤلاء الأفراد تجدهم غالباً فى الأمم المتمدنة ، لأن الشعوب والقبائل المتحضرة يندر أن تجد بين أفرادها من يقضى عمره بدون رفيقة تشارك حياته .

وقد أثبتت الأبحاث الجديدة الخاصة بالهرمونات ، أن إفرازات الغدد التناسلية لها تأثير مباشر على عدد كبير من العمليات البيولوجية والفسيولوجية التى تحدث فى الجسم ، أى أن ثمة ارتباط حيوى هام بين الغريزة الجنسية وصحة الجسم .

ولا أدل على شدة الارتباط بين ظاهرتى الحياة والاتصال الجنسى ، من أن جميع الحيوانات تموت عندما تنعدم فيها القدرة على التوالد والإخصاب . وعدد كبير من أنواع الفراش والحشرات

والكائنات المائية الحيوانية يموت عندما تنتهى مهمته فى التلقيح، وبعضها لا يعيش أكثر من بضعة أسابيع قليلة يقضيها فى التلقيح ومباشرة عمليات الإخصاب والتوالد .

والاتصال الجنسى أمر سهل ميسور لدى جميع الحيوانات، فعندما يكتمل نمو الحيوان يجد دافعاً غريزياً قوياً يدعوه للبحث عن الأنثى ، وسرعان ما يجدها فيشبع رغباته الجنسية بطريقة مباشرة سهلة وبعيدة عن التعقيد ، أما الإنسان فقد جعل من موضوع الارتباط الجنسى مشكلة عويصة على أشد ما يكون من التعقيد .

فالصبى عندما يبلغ السابعة عشرة من العمر ، يحس بدافع جنسى قوى ، ولكن التقاليد تحول بينه وبين إظهار عواطفه ، بل تحرم عليه أن يبوح لأعز الناس اليه ما يختلج به فؤاده . وعليه أن يقضى سنين طويلة فى الدرس والتحصيل قبل أن تتاح له فرصة الزواج . وهو إما أن يكبت ميوله فى هذه الفترة الطويلة ، وإما أن يشبع رغباته بطريقة لا يوافق عليها العرف أو القانون ، فيسىء إلى نفسه من الوجهتين الصحية والخلقية ، أضف إلى ذلك أن السن التى تكون فيها

الرغبة الجنسية على أشدها ، يكون الفرد فيها عاجزاً عن تدبير المال اللازم لحياة الأسرة .

وقد عمل الإنسان المتحضر على تحديد نسله والإقلال من ذريته بوسائل شتى ، فمن ذلك أنه لا يتزوج إلا بعد أن يكون قد قطع من العمر مرحلة تبلغ ثلث عمره أو أكثر ، وهو يحيا حياة غير طبيعية مبنية على الطموح والكد والقلق والتوتر والانفعال ، فيترتب على ذلك أن تتهدم قواه الجثمانية ولما يبلغ الخمسين من عمره ، ويصبح غير قادر على الإتيان بنسل جديد .

وإذا قارنا الإنسان بغيره من أنواع الحيوان ، وجدناه أقلها ذرية ، فمعظم الحيوانات يصل عدد ذريتها إلى المائة بعد ثلاثة أجيال متعاقبة ، أما الإنسان فقلما تزيد ذريته على بضعة عشر فرداً فى ثلاثة أجيال متعاقبة . وقد أصبح الإنسان بسبب تمدنه العظيم فى مأزق لا يجد منه مخرجاً ، وذلك فيما يتعلق بالمسائل الجنسية ، فلا هو متروك لميوله الفطرية ، فيستطيع أن يسير حسبما تمليه عليه تلك الميول ، ولا هو بواجد مساعدة أو إرشاد من أبويه أو ممن تقدموا عنه فى السن . ولا ريب أن الآباء يصلون فى خلال حياتهم

الجنسية إلى حقائق هامة لو أنهم صارحوا بها أبنائهم لوفروا عليهم الوقوع فى كثير من الأخطاء التى وقعوا هم فيها من قبل ، ولكن الشجاعة تنقصهم ، ولا تزال التقاليد تحيط هذا الموضوع الحيوى الهام بسياج منيع من الكتمان الشديد .

ويجب أن تعلم يا بنى أن أعضاء التناسل فى الجنسين، وظيفتها ليست قاصرة على مباشرة عملية الاتصال الجنسى فحسب ، بل إن لها دخلا كبيراً فى توليد بعض الهرمونات التى تنصب فى مجرى الدم ، فتؤدى إلى النمو وإلى إبراز بعض الصفات الهامة لكل من الذكر والأنثى . ولفظة هرمون معناها « المنبه » . فالدوافع الجنسية وأسباب النشاط التناسلى تساعد على تنبيه أعضاء الجسم لكى تؤدى وظائفها على أتم وجه ، وتعمل على حفظ التوازن العقلى والجثمانى للجسم ، فيحيا المرء حياة طبيعية هانئة .

ولا تنحصر أهمية المحافظة على النشاط التناسلى بعد سن الخمسين على مجرد القدرة على الاتصال الجنسى ، فقد ذكرت لك أن قوة الذاكرة والنشاط العقلى وميل الإنسان للطموح والقيام بالأعمال الجليلة ، جميعها لها ارتباط وثيق بالنشاط الجنسى .

فالنشاط الجنسى يلازمه النشاط الجثمانى والفكرى ، والشخص المصاب بضعف فى قوته الجنسية تجده ضعيف الذاكرة سريع النسيان لا يقدر على حصر فكره فى الهام من الأمور ، ولا يقوى على مجابهة المسائل الطارئة ، وهو غالباً ما يتلعثم إذا حادثته فى موضوع جدى . كما أنه يتردد كثيراً عند الإتيان بأى عمل جديد ، مهما كان هذا العمل تافهاً أو بسيطاً .

بيد أن القاعدة المذكورة لها شواذ أحياناً ، فبعض المصابين بالضعف التناسلى يشعرون بمركب النقص فى حياتهم ، فيعمل بإرادة قوية على تغطية هذا النقص بالقيام ببعض الأعمال الجليلة ، إلا أن مثل هؤلاء عددهم قليل ، والغالب أن الناجحين فى أعمال الحياة أشخاص طاقتهم التناسلية قوية ، لم يعتريها الضعف والانحلال .

وتختلف قوة النشاط الجنسى بين الأفراد إلى حد ما ، باختلاف بعض العوامل التى تحيط بالفرد ، فمن ذلك الوراثة والسن وطريقة معيشة الفرد وعاداته ، بيد أنه يمكن العمل على تقوية هذا النشاط والمحافظة عليه بمراعاة القواعد الصحية

السليمة فيما يتعلق بالمعيشة والأكل والعمل والرياضة . وعدد غير قليل من الأفراد يسيئون إلى أنفسهم بالإفراط فى مباشرة النشاط الجنسى ، والإسراف فى الاستمتاع بملاذ الحياة كالأكل والشرب والسهر والتدخين ، كما أن كثرة الهموم وانشغال الفكر والقلق والحزن قد تؤدى أحياناً إلى إضعاف النشاط الجنسى عند الإنسان ، والواقع أن مشاكل المدنية الحديثة ، وظروف الإنسان المتحضر ، ووسائل معيشته ، لما يؤدى إلى انحطاط قوته الجنسية قبل أن يصل إلى الشيخوخة ، مع أن المفروض فى جميع الحيوانات أن تظل قوة الذكر على التوالد والتكاثر على أشدها إلى قبيل وفاته .

ويستطيع الفرد العادى أن يبقى على قوة نشاطه الجنسى بعد بلوغه سن الخمسين ، وذلك باتباعه القواعد والأسس الصحية السليمة فى شئون معيشته ، وأؤكد لك أن شقاء الأفراد وعدم هنائهم بالمعيشة الجنسية ، يعود إلى تعقد الحياة فى الشعوب المتحضرة ، ففريق من الناس محروم من نعمة الزواج لأسباب اقتصادية أو اجتماعية ، وفريق بسبب عنت الآباء والأمهات بشأن اختيار الزوج أو الزوجة لأحد أبنائهم ،

وأحياناً ما تؤدى أنانية الآباء والأمهات وتشبثهم ببعض المسائل التافهة إلى تعطيل زواج كان سيؤدى إلى حياة سعيدة هانئة . أضف إلى ذلك أن عدداً كبيراً من المتزوجين والمتزوجات لا يفهمون فن الزواج وفن المعاشرة الجنسية ، فيعيشون فى نكد وشقاء ، وهذا هو السبب فى انتشار الأمراض العصبية والهستيريا والسويداء فى الشعوب المتمدنة .

والشخص الذى يقضى سنين شبابه فى شركة زوجية هنيئة ، يشعر بلذة الحياة وبالطمأنينة والرضا عندما يبلغ سن الكهولة ، وتجده باسماً للدنيا وغالباً ما يعمر أطول من الشخص الذى لم يتزوج، أو كانت حياته الزوجية فاشلة فلم يستطع إشباع ميوله الجنسية . وإنك لتلاحظ أحياناً بعض المتقدمين فى السن متبرمين بحياتهم حانقين على من حولهم ، يشعرون بضيق الخلق والكدر لأتفه الأسباب ، فاعلم أن ذلك يعود فى الغالب إلى الكبت والحرمان الجنسى أيام الشباب ، ويرى الدكتور هيج أن المعاشرة الجنسية فى حدود الاعتدال، تؤدى إلى خفض ضغط الدم وإلى اتزان الفكر وتهدئة الأعصاب .

ولا يحدث انحطاط النشاط الجنسى دفعة واحدة عند ما يدخل المرء فى مرحلة الكهولة ، بل تضعف القوة الجنسية تدريجاً على ممر الأيام فى فترة قد تطول إلى عشرين عاماً . ولا يمكن وضع قواعد حاسمة بشأن السن التى يبدأ عندها حدوث هذا الانحطاط، فبعض الأفراد تبقى قوتهم الجنسية على أشد ما يكون من النشاط إلى سن الخامسة والخمسين ، والبعض يطرأ عليهم الضعف ولما يتجاوزوا سن الأربعين. على أن ثمت عوامل تؤدى إلى إطالة فترة النشاط الجنسى عند الرجل، ووسائل تقوى فيه هذا النشاط عندما يصبح كهلا .

وقد تسألنى متى يجب أن يفكر المرء من تلقاء ذاته فى الانقطاع عن ممارسة النشاط الجنسى ، والجواب على ذلك أنه ما دام المرء يحس بدافع إلى هذه الممارسة ، وما دام يشعر بالانشراح والرضا عقب الممارسة ، فمعنى ذلك أنه أفاد منها . وعندما تعجز أعضاؤه عن أداء وظيفتها على وجه صحيح ، فذلك إيذان بانتهاء فترة النشاط الجنسى . ويقال إن السن الطبيعية التى يحدث عندها هذا العجز هى سن الستين ، بيد أنه من المعروف أن عدداً كبيراً من الذكور فى كثير

من الأمم أمكنهم أن يخلفوا ذرية بعد أن تجاوزوا سن السبعين ، ومن المعلوم أيضاً أن عدداً غير قليل من الأفراد — وخاصة فى الأمم المتحضرة — تنعدم فيهم قوة النشاط الجنسى قبل بلوغ الخامسة والأربعين . ولكن هؤلاء هم فى الغالب الذين أسرفوا فى الاستمتاع بالمعاشرة الجنسية فى سنين شبابهم ، أو عاشوا معيشة خاطئة فاسدة أو عندهم ضعف تناسلى وراثى ، أما الشخص العادى فيجب أن تبقى قوته الجنسية حافظة لقوتها إلى ما بعد سن الخمسين .

وبالإضافة إلى الانشراح والرضا اللذين يشعر بهما المرء بممارسة النشاط الجنسى ، فثمت مزايا أخرى يجنيها الفرد من هذه الممارسة ، فهناك اتصال وثيق مثلا بين عمليات الهضم والمعاشرة الجنسية ، وهناك تجانس طبيعى بين هذه المعاشرة والنواحى العاطفية للإنسان ، فلا ريب أنها تؤدى إلى اتساع صدره وبعد فهمه لمعنى الحياة ، ما دام يؤدى عمليات الاتصال فى حدود الاعتدال مع مراعاة الصحة العامة للجسم .

وعندما يتقدم الإنسان فى السن ويضعف نشاطه التناسلى ، يصحب ذلك ضعف فى قواه الجسدية والفكرية ، وفى أغلب

الأحيان يفقد المرء قدرته على تركيز ذهنه فى الموضوعات الهامة ، ويحل به الإعياء والتعب عند أداء مجهود بسيط . والإنسان حيوان اجتماعى بطبيعته ، غير أنه لا يجد غضاضة فى تمضية سنين الحياة على انفراد عندما يكون فى مقتبل العمر ، لأن قوته وحيويته فى تلك السنين تدفعانه إلى كثير من الحركة والانتقال ومقابلة الناس والانشغال بشتى الأمور ، فلا يحس بالوحشة والعزلة التى يشعر بهما المتقدم فى السن إن لم تكن له زوجة تشاطره آخر سنين حياته ، وأولاد يعاونونه فى شئون معيشته .

وظائف الأعضاء : وعندما يبلغ الصبى سن المراهقة ، يجد نفسه قادراً على ممارسة الاتصال الجنسى بدون إعداد أو تدريب أو مران ، وذلك بسبب تولد هرمون أى إفراز داخلى فى الجسم ، تبدأ الخصيتان فى إفرازه حول سن الرابعة عشرة ، وهذا الهرمون مسئول عن جميع التغيرات التى تطرأ على الصبى عند بلوغه هذه السن ، ويظل بعدها نحو نصف قرن وله القدرة على إخصاب الأنثى بواسطة الحيوانات المنوية التى تفرزها الخصيتان .

والحيوانات المنوية صغيرة جداً جداً، ولا يمكن رؤيتها إلا بمجهر قوى ، وفى استطاعتها أن تسبح فى السائل المنوى بحركة ذاتية، وهى تستغرق نحو ساعة من بدء دخولها فم الرحم حتى تصل إلى تجويفه الداخلى ، وبضع ساعات لكى تصل إلى قناة البيض حيث تقابل بويضة المرأة .

ويتراوح العدد الذى يقذفه الرجل من هذه الحيوانات فى عملية واحدة من عمليات الاتصال بين ٢٠٠ مليون و ٥٠٠ مليون حيوان ، فإذا صادفت بويضة فى قناة البيض فإن واحداً منها فقط ينفذ من الجدار الخلوى للبويضة ، تاركاً ذيله خلفه ، ويتحد مع مادتها ، وهذا ما نسميه بعملية الإخصاب . أما بقية الحيوانات التى لم تنجح فى الوصول إلى البويضة فتطرد من المهبل مع بعض السائل الذى كانت تسبح فيه.

الطبيعة على استعداد : وهناك غدتان بيضاويتان موضعهما بين المثانة وفتحة الشرج ، يعرفان بالحويصلتين المنويتين ، وظيفتهما إفراز سائل زلالى ، والأملاح المذابة فى هذا السائل تنبه الحيوانات المنوية للحركة ، أما المادة الزلالية فهى غذاء لهذه الحيوانات .

ولكي لا تضيع الفرصة على الذكر عندما تحضر الأنثى على غير ميعاد ، فإن الحويصلتين المنويتين تعملان على إفراز السائل المذكور طول الوقت ، بيد أنه يزيد إفرازهما زيادة كبيرة عند حدوث التنبيه الجنسي .

وتقع غدة البروستاتا عند عنق المثانة ، وهي تفرز بعض الإفرازات التي تكون جزءاً من السائل المنوي. والإفراز الذي تفرزه هذه الغدة سائل رفيع القوام قلوي التأثير ، ووظائفه تشبه إلى حد كبير وظائف السائل الذي تفرزه الحويصلات المنوية . وقلوية هذا الإفراز تحفظ الحيوانات المنوية من تأثير حموضة البول ، لأنها تموت إذا انخفضت قلوية السائل الذي تسبح فيه عند حد معين .

وقد يحدث أن تصبح البروستاتا ، وكذلك الحويصلات المنوية والجزء الخلفي من المثانة ، عشاً لميكروب السيلان إذا كان المرء قد أصيب في وقت ما بهذا الداء ، ويبقى الميكروب كامناً في أنسجة الأعضاء المذكورة عدداً من السنين .

وثمت غدتين ، يعرفان بغدتي كوبر ، يفرزان سائلاً خفيفاً قلوي التأثير ، ينصب في القنوات المنوية ويساعد

على تشحيم عضو التذكير عند الإيلاج . ومما تقدم يتضح أن السائل الذى يقذفه الذكر هو فى الواقع مزيج من إفرازات عدة تفرزها الخصيتان والحويصلتان المنويتان والبروستاتا وغدتا كوپر والغدد البولية ، وعندما يبلغ التنبيه الجنسى أشده تختلط هذه الإفرازات مع بعضها البعض ، ويقذفها عضو التذكير .

وبينما نجد الرغبة الجنسية حاضرة عند الرجل فى جميع الأيام على السواء ، نجد أن رغبة المرأة فى مد وجزر تبعاً تبعاً لقرب اليوم أو بعده من فترة الحيض ، وعند معظم النساء تكون الظروف أكثر ملاءمة لإثارة هذه الرغبة فى الأيام القليلة التى تسبق والأيام القليلة التى تلى مدة الحيض ، وفى هاتين الفترتين تكون المرأة أكثر استعداداً لاستجابة عوامل التنبيه الجنسى منها فى أى وقت آخر .

وقد حاول البعض إماطة اللثام عن العوامل التى لها ارتباط بأوقات المد والجزر للرغبة الجنسية عند الرجال ، فوجد أن الرجال على استعداد دائم لإجابة عوامل التنبيه الجنسى قبل بلوغهم سن الأربعين ، أما بعد هاته السن فإن حرارتهم الجنسية

تبرد تدريجاً وتتأثر بعدة عوامل منها الغذاء وفصول السنة والصحة العامة للمرء ونوع العمل الذى يمارسه فى النهار ونوع الإغراء الجنسي الذى يسيطر عليه .

وثمة زعم بين الناس ، أن المرأة لا يعنيها من موضوع الارتباط الجنسى إلا القليل ، فطبيعتها باردة ورغبتها التناسلية مبهمة فاترة ؛ وهى لا تسعى للزواج إلا للمركز والجاه والمال ، وما دام زوجها يجزل لها العطاء ، ويشترى لها الحلى والملابس ، لكى تظهر بها بين صديقاتها وقريباتها ، فهى سعيدة راضية .

ولكن الحقيقة أن المرأة إن سعت إلى المركز والمال ، فلكى تشغل بهما فكرها ، وتعزى نفسها عن أكبر فشل أصابته وأعز شيء حرمت منه فى حياتها ، فصفة الجنس عندها قويه واضحة ، وأبعد عن أن تكون مبهمة فاترة ، أليست المرأة هى التى تحمل الجنين ، وهى التى تلد وترضع ، فكيف تزعم بعد ذلك أن طبيعتها الجنسية باردة. إن المرأة إذا ما أشبعت رغباتها الجنسية بطريقة لا يشوبها عيب أو ضعف ، نزلت السكينة على قلبها ، فتراها راضية قريرة العين ، ولا تسعى إلى السفائف سعى غيرها ممن فشلن فى حياتهن الزوجية .

الصراحة الجنسية : وكلما ارتقت أسباب الحضارة فى المجتمع ، بعد الناس عن الخوض فى مسائل الجنس وأسدلوا الستار عنها كما لو كانت من المحرمات ؛ ويظن الإنسان المتحضر أنه قد انتصر على ميوله الحيوانية وأصبح مسيطراً على غريزته الجنسية ، والحقيقة أن الغريزة الجنسية لم تزل أشد الغرائز التى تسيطر على حياة الإنسان كما كانت منذ مئات الآلاف من السنين ، وهى إن كانت مستترة فى حياته العادية ، إلا أنها تؤثر إلى حد بعيد جداً فى شعوره وسلوكه وجميع أعماله ، وقد تناولها الإنسان المتمدين بشىء من الإعلاء والتهذيب ، وخلع عليها بعض الألفاظ ليسمو بها عن الغريزة الحيوانية ، كالحب والعشق والغرام ورباط الأسرة والزواج ، كما وجدت منفذاً فى صور شتى من الفنون ، كالشعر والتمثيل والغناء والنحت والتصوير ، وإنك إذا حاولت أن تنزع من الحياة جميع القوى التى منبعها الأول الارتباط الجنسى ، لانطمست من هذه الدنيا جميع أسباب البهجة والسعادة والهناء .

والعماد الأول لنجاح الارتباط الجنسى بين الزوجين هو الصراحة الكاملة وتبادل الرأى فى كل ما يتعلق بهذا الموضوع ،

والتعاون المشترك لإزالة أسباب النقص أو العجز فى أى من الطرفين . فإذا درس كل منهما زميله وصارحه بما يجد فيه من النقص، فإنهما يصلان حتما إلى حل موفق يستطيعان به الاستمتاع بالارتباط الجنسى على أكمل وجه . وليس الرجل بمفرده هو المسئول عن نجاح الارتباط بينه وبين زوجه ، لأن المرأة الحصيفة تستطيع أن تكيف الأمور بحيث تكون من الزوج الخجول أو الغشيم — الذى قد يفشل فى دعم الارتباط الجنسى فى الأشهر الأولى من الزواج — زوجاً قوياً وقادراً على إشباع رغباتها.

هذا بالنسبة للبالغين، أما فيما يتعلق بالصغار فالحاجة ماسة إلى تربية جنسية عامة ، يكون لها أثرها فى الأطفال والناشئين، ويجب أن تقوم هذه التربية على أساس متين ، وأن تناقش المسائل الجنسية بنفس الصراحة التى تعالج بها الفروع الأخرى من التربية . وقد دلت التجارب على أن مصارحة الناشئ فى هذا الموضوع وتزويده بمقدار كاف من الثقافة الجنسية، يؤدى إلى اتزانه وعدم وقوعه فريسة لبعض العادات الضارة عندما يمر بدور المراهقة . ومن واجبنا أن نعتبر النشاط الجنسى الفطرى أمراً طبيعياً فى سن الصبا ، مادام هذا النشاط يبدو فى صورة بريئة مهذبة.

١٣
الهرع يقتلنا

جيل السرعة : تقدمت بنا الحضارة ، وارتقت وسائل الوقاية من الأمراض وطرق العلاج، بما فى ذلك علاج النفس وعلاج الأعصاب ، بيد أنه من الملاحظ أن الناس فى جيلنا الحاضر يشكون من الأمراض العقلية والعصبية وانحطاط الطاقة الذهنية والنفسية أكثر من ذى قبل ، وتدل الإحصاءات التى عملت أخيراً فى إنجلترا وأمريكا على أن إصابات الهوس والخبل والجنون والاضطرابات العصبية الأخرى التى تعطل الفرد عن أداء أعمال الحياة المعتادة، قد زادت زيادة لا يستهان بها فى غضون الخمسين سنة الأخيرة .

فبعد أن كانت نسبة عدد الأفراد الذين تستقبلهم مستشفيات المجاذيب وعيادات الأمراض العقلية ٣,٦ فى الألف من مجموع السكان فى القطرين المذكورين خلال القرن التاسع عشر ، ارتفعت هذه النسبة إلى ٥,٢ فى الألف فى العقدين

الثالث والرابع من هذا القرن الذى نعيش فيه ، وزادت معها أيضاً نسبة البلهاء والمعتوهين الذين لم يتعطلوا كلية عن الاشتباك بعجلة الحياة ، ولكنهم يعدون فى الوقت نفسه عالة على المجتمع الذى يعيشون فيه ومعطلين لارتقائه وتقدمه . ويعزو علماء النفس وأطباء الأمراض العصبية والعقلية هذه الزيادة إلى السرعة القاتلة التى يتميز بها جيلنا الحاضر . فالتقدم الجنونى فى سرعة المواصلات واتساع نطاق الاتصال بين الأفراد بعضها ببعض ، وزيادة وسائل الاشتباك والارتباط بين الأمم والشعوب المختلفة ، جعلت الناس يتزاحمون على أعمال الحياة بلهف وشدة أكثر من ذى قبل . كما أن زيادة الطموح ومحاولة كسب الوقت والفوز بقصب السبق فى كل ما يتعلق بشئون الحياة ، جعلنا نعيش فى حالة من التوتر العصبى والنفسانى لم يعهدها أجدادنا منذ خمسين عام .

فعجلة الحياة فى القرن العشرين أصبحت تدور بسرعة فائقة ، وكل ما يحيط بنا يوحى بالسرعة والهرع والاندفاع ، وتنوعت طرق الاتصال حتى أصبح الناس يضنون على أنفسهم ببضع دقائق يستريحون فيها ، فالتليفون والتلغراف والقاطرات التى تنهب الأرض نهباً والسيارات والطائرات وأنواع شتى من طرق

المواصلات تغرى الناس على الاشتباك الدائم المستمر فى شئون الحياة .

ودعنا الآن نتأمل فى النظام اليومى لحياة غالبية الأفراد فى الشعوب المتحضرة ، وإنى لأسوق لك على سبيل المثال تاريخ يوم فى حياة رجل من رجال الأعمال ، لنقف منه على مدى انحراف الإنسان عن الفطرة وعن الحياة الطبيعية التى كان يحياها أجدادنا منذ قرن من الزمان ، وندرك السر فى تفشى الهستيريا والصرع والنيروستانيا والهوس والانهيار العصبى والجنون بين الأفراد فى مجتمعاتنا العصرية المتمدنة .

يستيقظ الإنسان المتحضر فى الصباح ، وهو لم يستكمل حاجته من النوم والراحة ، فينظر فى الساعة التى ثبتها فى معصم يده ، فيجد نفسه قد تأخر عشرين دقيقة عن الموعد الذى فرضه لنفسه ، فيقفز من الفراش ، ويهرع إلى دورة المياه ، فلا يعطى أمعاءه وقتاً كافياً لتفريغ محتوياتها . وبعد أن يحلق ذقنه ويرتدى ملابسه ، يجلس إلى المائدة فيزدرد طعام الإفطار بلهفة وسرعة ، وهو لا يدرى ماذا يأكل ، لأنه قد وضع نظارته على عينيه وأمسك بجرائد الصباح يتصفح ما بها . ثم يهرول إلى مقر عمله ، فيجرى فى الطريق للحاق بالترام ، ويهرع للحاق

بالمصعد فى المبنى الذى يعمل فيه ، ولا يكاد يستقر فى مكتبه حتى تتكدس أمامه الأوراق والخطابات آتية من كل صوب ، وما أن يمسك بإحداها ليتصفح ما جاء بها حتى يدق التليفون ، فإذا بمشكلة جديدة تواجهه وعليه أن يجد حلا سريعاً لها ، وما أن يضع السماعة حتى يناديه رئيس المصلحة أو مدير العمل ويكلفه بمهام جديدة .

وقد يضطر فى خلال ساعات الصباح أن يهرول إلى مكان بعيد أو قريب ، لكى يشيع جنازة ، أو ليقضى حاجة فى البنك أو المحكمة ، ثم يعود إلى مكتبه فيجد عدداً غير قليل من طالبى الحاجات فى انتظاره ، فيتزاحمون عليه ، كل منهم يريد إنهاء مسألته قبل الآخرين ، وهو بين هذا وذاك يجيب التلفون الذى يدق بدون انقطاع ، ويرد على الأوراق التى ترد إليه باستمرار ، حتى يبلغ به الإعياء أشده ، فيطلب قدحاً من القهوة أو الشاى ، ويأخذ السيجارة تلو الأخرى لكى يهدأ بها أعصابه ويساعدها على أداء ما ليس فى طاقتها من الأعمال .

وعندما يحين موعد الغداء ، يهرع إلى المنزل فيزدرد طعام الغداء وهو شارد الفكر مشتت البال مجهد الأعصاب ، وقد لا يجد شهية للأكل ، فيلجأ إلى المشهيات والتوابل الحارة

واللحوم ليستعين بها على ملء معدته ، معتقداً أنه كلما حشا جوفه بالطعام أحسن صنعاً لجسمه وساعده على أداء الأعمال ، ولكنه لا يكاد ينتهى من الأكل حتى يشعر بالثقل والامتلاء والميل إلى التثاؤب والنوم ، ولكن كيف ينام ويستريح وهو مرتبط بالأعمال الكثيرة وأمامه من المهام ما يجب عليه إنجازه على وجه السرعة ، فيجمع ما تبقى له من قوة ويغادر المنزل عائداً إلى عمله إن كان يعمل فى المساء ، وهناك يستعين بالقهوة والشاى لتنشيط ذهنه ومغالبة النوم الذى هو فى أشد الحاجة إليه ، ويدخن السجائر فى أعقاب بعضها البعض ليهدأ بها أعصابه الثائرة ، حتى يصبح مكتبه وقد أحاطت به طبقات الدخان من كل جانب ، كل هذا وهو لا يعبأ بتجديد هواء غرفته ، لأنه منهمك فى العمل يريد أن ينهيه فى سرعة خاطفة ، فيواصل استنشاق الهواء الفاسد الضار برئتيه والمضعف لصحته . وقد يضطر بعد انتهاء عمله للتوجه إلى المحامى للاطلاع على ما آلت إليه قضاياه ، وقد يضطر أيضاً لزيارة طبيب الأسنان ، أو اصطحاب زوجه أو أحد أولاده لاستشارة طبيب ما ، ثم يهرول بعد ذلك إلى الصيدلية لشراء ما نصح به الطبيب من الحقن والأدوية ، أو

إلى بعض المخازن التجارية لإحضار ما يحتاج إليه المنزل من حاجات.

وقد يقضى بعض الوقت فى انتظار دوره فى مكتب المحامى أو عيادة الطبيب ، ولكنه لا يفيد من هذا الوقت فى الراحة والاسترخاء ، لأنه فى حالة غير سارة من التوتر العصبى ، ولأن فكره لا يزال مشغولا ببعض المسائل والمشكلات . وعند ما يعود إلى المنزل يجد بعض الأقارب والأصدقاء فى انتظاره ، فيجد نفسه ملزماً بمجاملتهم والتحدث معهم وقد أخذ الإعياء منه كل مأخذ ؛ فيستعين بالقهوة والشاى والسجائر مرة أخرى . وعند ما يأوى إلى فراشه تتوارد الأفكار والقضايا التى شغلته أثناء اليوم على ذهنه فتنغص عليه مضجعه ولا ينعم بما يحتاج إليه من نوم عميق يريح به أعصابه المنهكة ، ويعيد إلى فكره المشتت الهدوء والاتزان .

هذا بالإضافة إلى ما يستجد من حوادث ومشكلات خارجة عن نظام الروتين اليومى ، مما يستدعى السرعة والهرع وزيادة حالة التوتر والقلق عند المرء ، كحدوث وفاة فى الأسرة ، أو إصابة أحد أولاده بسوء ، ونحو ذلك مما يتعرض له الإنسان فى حياته العامة . فما أشبهنا برجل الأعمال هذا نعيش فى سرعة وهرع دائمين ، ولا نترك فرصة لأعصابنا لكى تهدأ وتستريح .

ولقد حاول الإنسان المتمدن أن يقلل من ساعات العمل ، إراحة لجسده وفكره وأعصابه ، ولكن الذى يرهقنا ليس طول مدة العمل ، وإنما كثرة المشكلات وتنوعها وسرعة تغير الأمور ، مما يستدعى يقظة وانتباهاً دائمين . ولو أن العمل كان على وتيرة واحدة طول ساعات اليوم وطول أيام لأسبوع لهان الأمر . فالذى ينهك قوى الجسم ويحطم أعصابه هو السرعة والهرع والقلق والارتباك الناجم عن الانهماك فى العمل والانشغال الدائم للفكر ، مثلك فى ذلك مثل عسكرى المرور الذى وقف فى ملتقى شارعين شديدى الازدحام بالناس والترام والعربات والسيارات ، فقد لا يقدر على الصمود فى موقفه أكثر من ساعة واحدة ، بعكس من يقف فى ملتقى شارعين هادئين قلت فيهما الحركة فإنه يستطيع أن ينظم المرور بضعة ساعات من غير أن يحل به الإجهاد والتعب .

وإنك إذا استطلعت رأى أحد من يشيدون بمزايا المدنية الحاضرة ، لحدثك بأننا نحيا فى عصر السرعة ، وأن من يتخلف عن اللحاق بعجلة الحياة العصرية لا محالة مغلوب على أمره ، والحقيقة أن السبق لا يلازم دائماً جانب السريع ، فقد يحوز قصب السبق من يمشى متئداً ، وإن كثيراً من الاضطرابات

أمراض القلب وارتفاع ضغط الدم وفقد الشهية والشيخوخة المبكرة والانحطاط الذهنى والأمراض العصبية المنوعة، سببها الأول حياة السرعة والهرع وما يصحبهما من ارتباك فى شئون المعيشة ، ومن الملاحظ أن إجهاد الأعصاب يؤدى إلى استمرار حالة التوتر ، وأن الأعصاب المرهقة تصبح بالتدريج غير قادرة على الراحة واسترداد نشاطها ، وهذا يؤثر على الحالة الصحية العامة للجسم.

ويا ليت الأمر قد وقف عند حد الانهماك فى العمل والهرع لإنجازه ، بل مما يزيد فى توتر أعصابنا وينهك قوانا تلك الجلبة المستمرة ، وتلك الضوضاء التى أصبحت تغمرنا من كل جانب فى جميع ساعات النهار وجزء غير قليل من الليل ، فنحن نستيقظ فى الصباح على أصوات أبواق السيارات المزعجة وضجيج العربات والترام وغوغاء الباعة المتجولين فى الشوارع وصوت المذياع الذى لا ينقطع فى الليل والنهار . وإنا فى انتظار ذلك اليوم الذى يهتدى فيه العلماء إلى اختراع مرشح يوضع على الأذن لكى يمتص الأصوات المزعجة، ولا يسمح إلا بمرور ما يرغب المرء الاستماع فيه ، أو يستن تشريع يجبر أصحاب مصانع السيارات على تركيب أبواق ترسل نغمات موسيقية ، بدلا من الأبواق الحالية التى تقع أصواتها المزعجة على طبلة الأذن وقع الصاروخ فترهق الأعصاب ، وتسبب للمرء الكدر والانفعال .

١٤
الاحتياطى المدخر

ومن أهم الصفات التى يمتاز بها المعمرون ، قدرتهم العظيمة على الصبر وتحمل المشاق وقيامهم بالعسير من الأعمال عند ما يتنحى عنها غيرهم من الناس . ويعزى ذلك لأن لديهم من الطاقة الكامنة أو القوة الاحتياطية والحيوية المدخرة فى أنسجتهم وفى كل خلية من أجسامهم ، ما يمكنهم من احتمال الشدائد والصبر على المكاره وبذل المجهود فى جميع الظروف التى تفرضها عليهم مشكلات الحياة .

وتلك القوة العظيمة الكامنة ، هى نتيجة لما ادخره المعمر فى سنين شبابه وصباه ، ونتيجة لحياة قوامها الاعتدال وأخذ كل ما يتعلق بشئونها بالحكمة والروية وحسن تصريف الأمور .

فالمعمر — فى سنين حياته الأولى — تغلب على معيشته البساطة فى الأكل واللبس وأداء الأعمال وجميع ما يتعلق بنظامه اليومى . وكل شىء عنده بقسط معين وحساب معلوم ،

فهو لا يبعثر نشاطه ولا يشتت قواه فى تحقيق آمال بعيدة المنال ، والجرى وراء أطماع لا تقف عند حد . وهو لا يسمح لنفسه — على حد تعبير الإفرنج — أن يشعل الشمعة من طرفيها ، مهما كانت خطورة الأمر الذى يوكل إليه إنجازه ، لأنه يعلم علم اليقين أن ما يناله من الربح والشهرة إنما يكون على حساب صحته وراحة باله وأعصابه ، وأنه مهما كسب من مادة فهو الخاسر فى نهاية الأمر ، إذا ما تدهورت صحته نتيجة لما بذله من مجهود فوق طاقته ، ولا يفتأ يردد لك القول المأثور إن الفوز فى الحياة لا يلازم دائماً كل طموح متحمس للعلا والرقى ، فقد يحوز قصب السبق فيها من يمشى بخطى متئدة فى حدود الحكمة والاعتدال .

ويرد عليه البعض بأنه لا خير فى حياة راكدة ، ولا بهجة فى معيشة هادئة فاترة ونظام يسير على وتيرة واحدة ، وأنه أفضل للمرء أن يموت فى سن مبكرة من أن يبلغ من العمر أرذله ، وتنغص حياته متاعب الشيخوخة والعلل التى تصيب الإنسان فى أعقابها . ولكن الحقيقة أن الشيخوخة التى تصاحبها العلل والأمراض هى التى أسرف أهلها فى الأخذ بمباهج الدنيا ومتعها فى سنين حياتهم الأولى ، وساروا فى ركب الحياة

بسرعة وقوة واندفاع ، وهؤلاء هم أول من يندم عند ما تذبل فيهم طاقة الحركة، وهم أول من يتشبث بالحياة ويتمسك بأهداب البقاء عند ما تطل عليهم عوامل الفناء ، أما من كانت حياته الأولى قوامها البساطة والروية والاعتدال ، فستكون شيخوخته خالية من العلل والاضطرابات .

فمن يريد أن يعمر ،لا يتناول الوجبات الثقيلة فى مستهل حياته ، بل يقتصر على المأكولات الخفيفة غير المركزة، وبذلك لاتتراكم التوكسينات والنفايات السامة فى جسمه ، وتظل خلاياه الداخلية فتية حية ، فتستطيع مقاومة الدهر وأداء أعمال الحياة عدداً طويلا من السنين، بدون أن يصيبها قرحة أو تقيح أو تتكون البؤرات الصديدية والحصوات فى أنسجته .

ومن يريد أن يعمر لا ينهك نفسه بالعمل ، ولا يجرى وراء المتعة البهيمية ، بل يمارسها بلطف ورقة واعتدال ، وبذلك يبقى على حيوية جسمه، وطاقته التناسلية الكامنة .

وهو لا يسرف فى تناول المنبهات والمكيفات لكى يستعين بها على تنشيط أعصابه وقواه تنشيطاً صناعياً مؤقتاً ، فيحرم نفسه من النوم والراحة والاسترخاء، وما يتبع ذلك من هدم لحيوية الأنسجة ، وانهيار لطاقة الجسم ، واستنفاداً لسائر قواه الاحتياطية المدخرة :

ويعتقد بعض أساطين العلم الحديث، أن أجدادنا حافظوا على صحة أجسامهم وقوة عضلاتهم وسلامة حواسهم وكيانهم العصبي إلى سن متأخرة من العمر، بسبب معيشتهم المبسطة التي كان يغلب عليها الهدوء والطمأنينة ، والبعد عن كل ما يؤدى إلى التوتر والقلق والانفعالات النفسية العنيفة ، فكانوا يخزنون فى أجسامهم من الطاقة وهم فى مقتبل العمر ما يمكنهم من إنجاز جميع أعمال الحياة على وجه كامل صحيح ، عند ما يبلغون سن الكهولة أو الشيخوخة .

وقد ذهب فريق من هؤلاء العلماء إلى أن إسراف الإنسان المتحضر فى شئون حياته وطرق معيشته الخاطئة ، يحدث خللا فى الغدد الصماء وما تصبه من هرمونات فى أنحاء الجسم . ومن هذه الغدد الخصيتان عند الذكر والمبيضان عند الأنثى ، ومفرزاتهما لها تأثير خاص على عدد كبير من العمليات الحيوية التي تحدث فى الأنسجة ، وثمة ارتباط وثيق بين هذه المفرزات والحالة الصحية العامة للجسم .

وعند ما يقل إفراز الغدد المذكورة يقل نشاط المرء التناسلى ، غير أن ذلك لا يمنع من استمرار بقية الغدد الصماء فى تأدية وظائفها على وجه كامل ، فيظل المرء حافظاً لقواه الجسدية والعقلية عدداً طويلا من السنين ، بعد أن تخمد جذوة طاقته الجنسية .

١٥
الجديد فى إطالة العمر

إن أول ما يتبادر إلى الذهن إزاء موضوع إطالة العمر هو : « هل تهوى الحياة ؟ وإن كنت ممن يهوونها فهل تعتقد أن ما سيطول من عمرك سيفيدك وتحظى فيه بأيام سعيدة كالتى نعمت بها فى أيام شبابك ، وهل ستؤدى من الأعمال فى تلك الفترة الزائدة من العمر ما يعود على المجتمع الذى تعيش فيه بالخير والفائدة ؟ »

يحيا الكثير من الناس فى أخريات أيامهم عبئاً على ذويهم وحملا غير مرغوب فيه على من يعاشرون ، بل وعالة على المجتمع ، ومع ذلك نراهم كلما أطلت عليهم عوامل الفناء وأصيبوا بالمرض والسقم والآلام لا يريدون مفارقة الدنيا للتخلص من هذه الآلام وإراحة ذويهم من تحمل أرزائهم ، نراهم وقد تشبثوا بالحياة وتمسكوا بأهداب البقاء كأنهم يبغون الخلود ، وأريد الآن أن أسوق إليك الجديد فى موضوع إطالة العمر وامتداد الحياة .

يُقر بعض أساطين العلم الحديث ما ذهب إليه من سبقهم

من العلماء بأن الكائن الحى يبدأ صغيراً ثم ينمو ويكبر ويتزاوج ويعيد تاريخ حياة أسلافه ، وحجتهم فى ذلك المشاهدات والأبحاث والتجارب التى أجريت على بعض الحشرات وتطور حياتها ، كدودة القز وما شابهها — خصوصاً الذكر منها — فهى توحى بأن رسالة الكائن الحى بعد مرحلة البلوغ هى حفظ نوعه بالتزاوج ، فإذا ما أدى هذه الرسالة وأصبح غير كفء للاستمرار على إنجاب النسل وغير قادر على أداء عملية الإخصاب ، انتهت أيامه ومات . فهذا البعض يرى أنه بمجرد انتهاء القدرة على التناسل يموت الكائن الحى . ويرى فريق آخر من الباحثين أن الارتباط غير لازم بين القدرة على التناسل وقابلية التعمير ، وأن الفرد قد يعمر طويلا بعد أن تذبل فيه القدرة على الإخصاب والتناسل ، ودليلهم على ذلك أن أجدادنا كانوا يعمرون إلى سن المائة وما فوقها ، أى بعد فقد المقدرة على التناسل بعشرات السنين ، وأن من الناس من يولد ويشب وعنده نقص طبيعى فى الطاقة الجنسية وعجز عن أداء عمليات الاتصال الجنسى — وكذلك الأغوات الذين تقطع خصياتهم فى سن الطفولة — ومع ذلك فهم يحيون حياة مديدة مملوءة بالصحة والعافية.

ونحن لو حاولنا أن نوفق بين هذين الرأيين، لوجدنا أن الطب الحديث قد أثبت أن الخصيتين عند الرجل والمبيضين عند المرأة تفرزان بعض المواد الكيميائية التى توزع على جميع أنحاء الجسم ، وأن لهذه المفرزات تأثيرا مباشرا على جميع العمليات البيولوجية التى تحدث فى أنسجة الجسم وخلاياه ، وبالتالى لها تأثير هام على إطالة العمر وامتداد الحياة .

وبتقدم الكشف العلمى ، وجد أن ثمة إفرازات لغدد أخرى فى الجسم ، أطلقوا عليها الغدد الصماء (لأن ليس لها قنوات تحمل ما تولده من المفرزات بل تعهد به مباشرة إلى ما يغمرها من تيار الدم ليوزعه على الجسم) ، هذه الغدد (ومن بينها الخصيتان والمبيضان) تفرز هى الأخرى سوائل تؤثر فى كثير من العمليات التى تجرى فى الجسم ، وبالتالى لها ارتباط بإطالة العمر . وتدل الأبحاث التى أجريت حديثاً على أنه لو توقف المبيضان أو الخصيتان عن أداء وظيفتيهما وأصبح المرء غير قادر على التزاوج وإنجاب النسل ، فإن باقى الغدد الصماء يستمر فى نشاطه فترة غير قصيرة من الزمن، وهذا هو السبب فى استمرار عدد كبير منا على قيد الحياة مدة تتفاوت بين الطول والقصر بالرغم من توقف قدرتنا على التناسل .

وبتقدم البحث وتوالى الكشوف وجد رجال العلم أنه لا يكفى إفراز الغدد الصماء فحسب، بل لا بد من وجود حالة اتزان كيميائى وبيولوجى بين جميع المفرزات والهرمونات التى تولدها الغدد فى جميع أنحاء الجسم، لكى تدوم حيوية الأنسجة وتمتد الحياة.

وتطرق البحث بعد ذلك إلى طريقة الوصول إلى حفظ هذا الاتزان الغددى والهرمونى، فقالوا إن الاتزان مرده عوامل وراثية بحتة، ولكن الوراثة ما هى إلا مجموع صفات وعادات يرثها الفرد عن آبائه وأجداده، فلو أننا أحطنا الطفل عند نشأته والصبى عند ما يشب بالبيئة وجميع الظروف المؤاتية لكى يتطبع بهذه الصفات والعادات فإننا نحصل على حالة الاتزان المذكورة. فنوع الغذاء الذى يتناوله الفرد فى جميع مراحل حياته وكميته وطريقة المعيشة وكيفية أداء العمل والاشتباك فى مشاكل الحياة والأخذ بمسراتها كل ذلك له تأثير واضح على تحديد عمر الفرد.

وما حدثتك به فى فصل سابق عن الاحتياطى المدخر، إن هو إلا نتيجة الاعتدال فى المعيشة وأخذ جميع شئون الحياة برفق وهوادة، فذلك مما يحافظ على الاتزان الكيميائى والبيولوجى بين مفرزات الغدد وجميع السوائل وعمليات الحياة المنوعة بالجسم، فيطول عمر الفرد وتظل أنسجته حافظة لحيويتها عدداً طويلا من السنين.

١٦

لماذا يعمر البخيل ؟

لا جدال فى أن البخلاء هم أطول الناس عمراً ، فنادراً ما يموت البخيل فى سن مبكرة من حياته ، وقليلا ما تصيبه الاضطرابات الصحية والأمراض .

وقد تظهر على البخيل بعض علامات الشيخوخة ، ولما يبلغ سن الخمسين ، ولكنها فى المعتاد أعراض سطحية لا تؤثر فى صحته العامة ، وهو يعبر مرحلة الكهولة بسلام ، دون أن تنغص حياته العلل والأمراض .

ومن الأقوال السائدة أن لكل قاعدة شاذة أو شواذ ، وهو قول يطابق الواقع فى معظم الحالات ، بيد أن القاعدة التى نتحدث عنها بشأن البخلاء ليس لها من شواذ ، فهم يعمرون جميعاً لأجل مديد ، وينعمون فى حياتهم الطويلة بصحة جيدة ، يحسدهم عليها الشبان وكثير ممن دونهم فى السن .

ومما هو شائع فى العرف أن البخل أمر مرذول فى الهيئات الإنسانية المتمدنة ،وأنه معطل لكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية

الراقية ، ولكنا لسنا فى مقام ذم أو مدح ، وإنما نريد أن نستعرض حياة البخيل وعاداته وطرق معيشته، لنستخلص منها بأسلوب علمى الأسباب والعوامل التى تساعد على إطالة العمر ، ونقف على الأسرار التى تحصن البخيل من الأمراض وتقيه من الموت فى السن التى يموت عندها غالبية الأفراد.

ما هو البخل؟ البخل هو الادخار المتصل المستمر ، والحرص الزائد على عدم إنفاق ما يملكه المرء إلا فى وجوه معينة. وهذه الصفة لها أثرها فى الحياة الاقتصادية للشعوب ، فكما أن الإنفاق يؤدى إلى اتساع نطاق التجارة وتقدم المواصلات ، فإن الادخار يساعد على تدبير رءوس الأموال اللازمة للمشروعات العمرانية الكبيرة فى البلاد، يدلك على ذلك أن قوم إسرائيل ، وهم مشهورون بحب الادخار وجمع المال وعدم الميل إلى إنفاقه فى الوجوه التى ينفق فيها غيرهم من الناس ، هم أنجح الناس فى إنشاء الشركات والبيوت المالية والتجارية الكبيرة ، والقيام بالمشروعات العمرانية والحيوية المفيدة للشعوب.

وإذا تأملنا فى عادات البخيل وطريقة معيشته وجدناه أكثر الناس دقة فى معاملاته اليومية ،وأشدهم حرصاً على عدم ضياع

شيء أو فقده أو تلفه مهما كان مقداره ضئيلا ، وهو لا يميل إلى إنفاق شيء إلا في وجه كامل صحيح .

ومن طبع الإنسان حب الغلبة ، والاستفادة من كل من يعاشره ، وأن يكون هو الرابح في كل صفقة يتعامل بها. ولأنه من الصعب جداً أن تغلب البخيل وتفوز عليه في المعاملات العادية . فإن من يعاشر البخيل يتأفف من معاملته وينسب إليه الشح والتقتير .

وربما كان أهم طابع يتميز به خلق البخيل طابع الحرمان ، فالبخيل له قدرة عظيمة على ضبط النفس وحرمانها من متع الحياة وملذاتها ، ومن كثير مما يشتهيه غيره من الناس ، وهذا الحرمان ليس المراد به مجرد الادخار والتوفير لغير هدف ، بل يقوم على فلسفة خاصة أساسها كره البذخ ومقت شديد لأى نوع من أنواع الإسراف والتبذير. كما أن البخيل يكتشف لنفسه أثناء اختباراته الشخصية العديدة في الحياة ، أن الحرمان يؤدى إلى تقوية الجسم والمحافظة على صحته ، وإلى راحة البال وهدوء النفس ، فيشجعه ذلك على المضى في تجنب كثير من ملاذ الحياة .

فالبخيل يحرم نفسه من بعض ألوان الطعام ، ولا يقرب الخمور ، ونادراً ما يدخن أو يتناول المكيفات ، ويميل إلى الإقلال

من المتاع الجنسى ومن شتى وسائل اللهو والاستمتاع ، وهو إذ يمارس الحرمان ، يفعل ذلك عن طيب خاطر وفى جو من الرضا والانشراح .

فإذا تأملنا فى غذاء البخيل مثلا ، وجدناه على جانب كبير من البساطة ، فهو يتجنب الأطعمة الدسمة المركزة ، ولا يأكل الوجبات الثقيلة ، ويصوم فترات طويلة متعددة ، فيحافظ بذلك على حيوية أنسجة الجسم وخلاياه .

والبخيل لا يلجأ إلى الطبيب إلا نادراً ، ولا يتناول العقاقير والأدوية إلا عند الضرورة القصوى ، فيتعود جسمه على العلاج الذاتى ، وتتولد فيه حصانة وقدرة على مقاومة الأمراض . والبخيل متقشف فى حياته العادية ، فهو يمشى المسافات الطويلة — اقتصاداً للمال — وفى ذلك رياضة مفيدة له ، ويستحم بالماء البارد — اقتصاداً للوقود — وفى ذلك تنشيط لأعضاء جسمه ، ويتجنب الإجهاد والمجازفة والمغامرة فى عمله ، ويأوى إلى فراشه فى ساعة مبكرة من الليل — اقتصاداً للضوء الصناعى — وفى ذلك أكبر راحة لأعصابه .

فإن شئت أن تعمر طويلا كما يعمر البخيل ، فعليك أن تأخذ بشىء من عاداته وتواظب عليها ، وذلك بشرط أن يكون هدفك من توفير ما يزيد عن حاجتك من المال نبيلا ومقصدك سامياً ، كأن تنفقه فى وجه من أوجه البر والخير والإصلاح .

١٧
الصحة فى عالم الغد

لقد بعث رجال العلم والطب صيحات مدوية منذ نيف ومائة سنة يحذروننا عاقبة الإهمال والتراخى وعدم العناية بالموضوعات الصحية . وقد استنت الدول الكثير من القوانين لرفع المستوى الصحى ، فأدخلت مشروعات تنقية مياه الشرب ، وزودت المدن بالمجارى الصحية ، بيد أن هذا لن يغنى شروى نقير ، فما زال أصحاب رؤوس الأموال لا يبالون بصحة الجمهور ، ويبنون المساكن متلاصقة متلاحمة ، استغلالا للأرض وطمعاً فى زيادة الربح ، غير مراعين تجديد الهواء والسماح لأشعة الشمس بدخول الحجرات .

ومما يزيد الطين بلة أننا ما برحنا نرى بجوار المدن الكبيرة أكواماً مكدسة من القمامة والفضلات ، وهى تعد فى رأى رجال الطب مباءة للحشرات الضارة التى تجلب الأمراض وتنقل الجراثيم ، كالذباب والناموس ، بالإضافة إلى ما ينبعث منها من

الروائح العفنة الكريهة التى تلوث الجو ، كما أن مداخن الأفران والمصانع تلفظ فى الجو طيلة ساعات النهار والليل كميات كبيرة من الدخان التى تزيد الهواء فساداً على فساد .

وبالرغم من كل هذه النواحى من الإهمال فى الناحية الصحية ، فإننا نعتقد أن زيادة العناية بالتعليم ونشر الثقافة بين أفراد الشعب ستؤدى حتما إلى إخضاع الرأى العام لنصائح الأطباء وإرشادات المسئولين من رجال الصحة ، وستؤدى أيضاً إلى زيادة عناية الآباء والأمهات بأطفالهم فتنخفض نسبة الوفيات بينهم . وسيدرك رجال المال أن الربح الحقيقى إنما بتوفير أسباب الهناء والصحة الكاملة للعمال ، فيزيد إنتاجهم وتتلاشى الاضطرابات والمتاعب التى كثيراً ما تشل حركة العمل فى المصانع .

ونأمل فى المستقبل القريب أن تسارع الحكومات إلى إصلاح العيوب الصحية فى المدن الصناعية الكبيرة ، فتقام الحدائق فى نواح متعددة من العواصم والمدن المكتظة بالسكان ، وذلك للمساعدة على تنقية الهواء ونفاذ أشعة الشمس لداخل المنازل . وسيوضع حد لإطلاق سحب الدخان الكثيف فى الجو ، وذلك باستبدال الفحم والمازوت ونحوهما من أنواع الوقود بالكهرباء ،

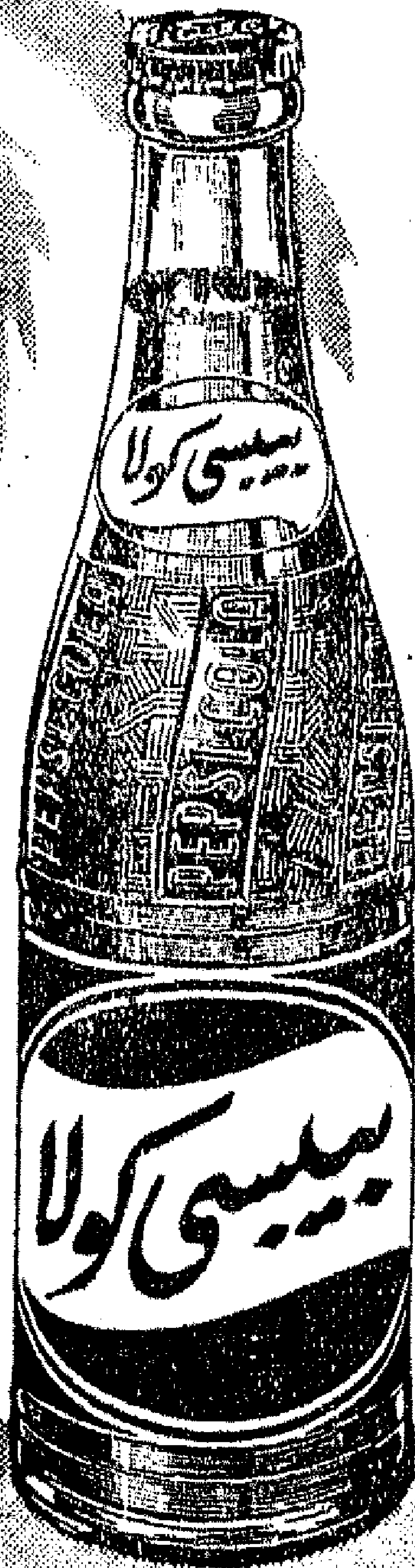
ومن يدرى فقد تتقدم بنا الأيام ونديز الآلات والمصانع بالطاقة الذرية .

هذا من الوجهة الطبية الصحية – أما من الناحية النفسية فسوف تقل حدة الهرع والقلق والتوتر بين الأفراد، وتزداد العناية بأوقات الفراغ والانتفاع منها والاستفادة من تطبيق علم النفس فى تثقيف الجمهور وتعليم الصبية الناشئين بالمدارس ، فتقل نسبة الذين يتمسكون بالخرافات والعقائد البالية بين الشعوب فيتقدم موكب العلم ، يؤازره موكب التقدم الصحى .



سندباد
تصدر كل يوم خميس
مغامرات
قصص
ثقافة
تسلية
رئيس التحرير
محمد سعيد العريان
تصدرها دار المعارف بمصر
تطلب من باعة الصحف والمكتبات

مشروب الضيافة



١ ½